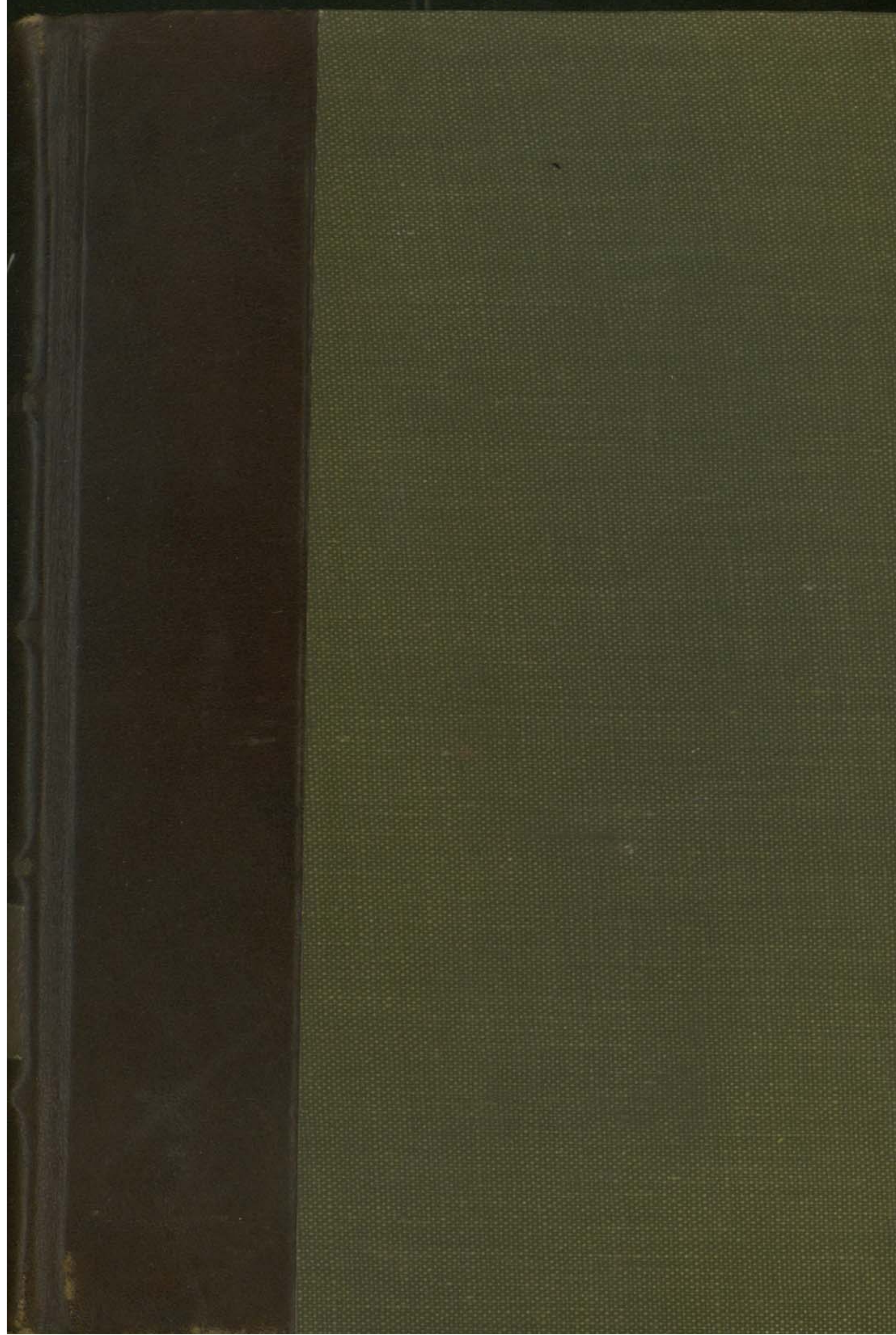





كتاب

فاكهة الخلفآء ومفاكهة الظرفآء

للعلّامة الاديب والفهّامة الاريب

الشيخ احمد

بن محمّد بن عرب شاه

الحنفيّ





طبع في الموصل

في دير الآبآ الدومنكيين

سنة ١٨٦٩



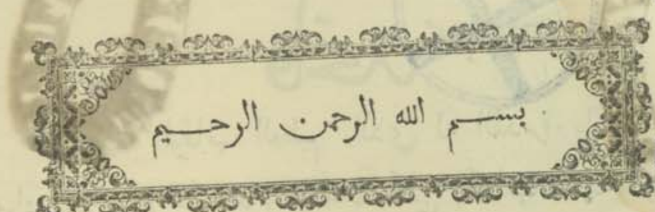


فاتحة

الحمد لله الوهّاب العظيم الذي لهُ القدرة والحمد وهو الجواد الكريم (امّا بعد) فانّهُ لمّا كان (كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفآء) من احسن ما جآء في اللغة العربيّة والطف ما ورد من المصنّفات الكليّة والجزئيّة لما فيهِ من الفنون الآدابيّة والحكم السياسيّة وما حواهُ من القصص والحكايات الانسيّة والنتائج التقويميّة والتهذيبيّة رأينا أن نقتصر على ما لذّ منهُ وطاب ونترك ما كان مملًّا ومخالفًا لسنّة الادآب ليكون صحيحةً سهلةً لاقتباس اللغة العربيّة المشوق اليها من كلّ طارف وجانب ولاسيما في هذه الامصار الشرقيّة عدا الغربيّة من الاعاجم والاعارب وليكون لصبيان المدارس اقبل كتابًا وافضل دستورًا للتدريس والتعليم واقوى حجّةً وارشد عبارةً للتهذيب والتقويم واسهل ماخذًا وارغب مطالعةً واكثر نفعًا واعمّ فائدةً للكبير والصغير وللكريم واللئيم * فدونكهُ يا ايّها الاخ الحبيب والقارئ اللبيب منعكفًا على قرآءتهِ ومداومًا على مطالعتهِ فانّك بهِ تطيب نفسًا وتقرّ عينًا وتلذّ وتطرب سمعًا وتانس وتسرّ قلبًا فتتهذّب افكارك وتتقوّم اميالك هذا فضلًا عن انّهُ يجديك ادبًا وعلمًا وسياسةً وحكمةً *







(الحمد لله) الذي شهدتْ الكاينات بوجوده وشمل الموجودات عميمُ كرمه وجوده ونطقتْ الجمادات بقدرته واعربتْ العجماوات عن حكمته وتخاطبتْ الحيوانات بلطيف صنعته وتناغتْ الاطيار بتوحيده وتلاغتْ وحوشُ القفار بتغريده كلٌّ باذلُ جهده وأنّ ليس من شيءٍ الّا ويسبّح بحمده بل المكانُ ومَن فيه والزمانُ وما يحويه مِن نام وجامد ومشهودٍ وشاهد تشهدُ بانّه آلهٌ واحد منزّهٌ عنْ الشريك والمعاند (احمدهُ) حمدًا تنطق به الشعورُ والجوارح واشكرهُ شكرًا يصيدُ نعمهُ صيدَ المصيدِ بالجوارح (واشهدُ) أنّ لا آلهَ الّا الله وحدهُ لا شريكَ له ربٌّ أودع أسرارَ ربوبيّته في بريّته وأظهر أنوارَ صمديّته في جراني بحره وبريّته فبعضٌ يعرب بلسان قاله وبعضٌ يعرب بلسان حاله وتسبّحهُ السموات باطيطها والارض بغطيطها والابحر بخريرها والأسد بزئيرها والحمامُ بهديرها والطيرُ بتغريدها والرياحُ بهبوبها والبهائم بهبيبها والهوامُّ بكشيشها والقدورُ بنشيشها والخيلُ بضبحها والكلابُ بنبحها والاقلامُ بصريرها والنيرانُ بزفيرها والرعودُ

بعجيجها والبغالُ بشحيجها والانعامُ برغائها والذئابُ بطنينها والقسيُّ برنينها والنياقُ بحنينها كلٌّ قد علم صلاتهُ وتسبيحهُ ولازم في ذلك غبوقهُ وصبوحهُ فعمّروا بذلك اجسادهم وارواحهم ولكن لا تفقهون تسبيحهم * (امّا بعدُ) فإنّ الله المقدّس في ذاته المنزّه عن سماتِ النقص في صفاته قد اودع في كلّ ذرّةٍ من مخلوقاته من بديع صنعه ولطيف آياته ومن الحكم والعبر ما لا يدركهُ البصر ولا تكاد تهتدي اليه الفكر ولا يصل اليه فهمُ ذوي النظر ولكن بعض ذلك للبصر بالرصد ظاهر يدركهُ كلُّ احد كما قيل :

* شعـــر *

ففي كلّ شيءٍ لهُ آية تدلُّ على أنّهُ واحد

لكن لمّا كثرتْ هذه الآياتُ والحكم وانتشرتْ أزهارُ رياضها في وهادِ العقول والأكم وترادف ما فيها من العجائب والعبر وتكرّر ورود مراسيمها على رعايا السمع والبصر وعادتهـــا النفوس ولم يكترث لوقوعها القلب الشموس ولم يستهجن من وجودها ولم يلتفت الى جدودها فكثر في ذلك اقوالُ الحكماء وتكرّرت مقالاتُ العلماء فلم تصغ الأسماعُ اليها ولا عوّلتْ الأفكار عليها فقصد طائفةٌ من الاذكياء وجماعةٌ من حكماء العلماء ممّن يعلم طُرقَ المسالك ابرازَ شيءٍ من ذلك على ألسنة الوحوش وسكّان الجبال والعروش وما

هو غير مألوفِ الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيار وحيتان البحار وسائر الهوامّ فيسندون اليها الكلام لتميل لسماعه الأسماع وترغب في مطالعته الطباع لانّ الوحوشَ والبهائمَ والهوامّ والسوائم غيرُ معتادةٍ لشيء من الحكمة ولا يُسند اليها أدبٌ ولا فطنة بل ولا معرفةٌ ولا تعريف ولا قولٌ ولا فعلٌ ولا تكليف لأنّ طبعها الشماس والأذى والافتراس والإفساد والنفور والعدوان والشرور والكسر والتفريق والنهش والتمزيق * فاذا أُسند اليها مكارمُ الاخلاق وأُخبر بأنّها تعاملت فيما بينها بموجب العقل والوفاق وسلكتْ وهي مجبولةٌ على الخيانة سبلَ الوفآء ولازمتْ وهي مطبوعةٌ على الكدورة طرقَ الصفآء اصغتْ الآذانُ الى استماع أخبارها ومالتِ الطباعُ الى استكشاف آثارها وتلقّتْها القلوبُ بالقبول والصدورُ بالانشراح والبصائرُ بالاستبصار والارواحُ بالارتياح لكونها اخبارًا منسوجةً على منوالٍ عجيب وآثارًا أُسديتْ لحمتها في صنع بديع غريب ولاسيّما الملوكُ والامرآء وارباب العدل والروسآء والسادةُ والكبرآء وابنآء الترفّه والنعم وذوو المكارم والكرم اذا قرع سمعَهم قولُ القائل : صار الفيلُ قاضيًا والنمرُ طائعًا لا عاصيًا والقردُ رئيسَ الممالك والثعلب وزيرًا لذلك ارتاحتْ لذلك نفوسهم وزال عبوسهم وانشرحت خواطرهم وسُرّتْ

سرائرهم وأُصغتْ اليه أسماعهم ومالتْ اليه طباعُهم وأدّى طيشُهم الي أنْ طابَ عيشُهم * ولكن أهلَ السعادة وأربابَ السيادة ومَنْ هو متصدٍّ لفصل الحكومات والذي رفعهُ الله الدرجات فانتصب لإغاثة الملهوفين وخلاص المظلومين من الظالمين والمتنبّهون بتوفيق الله تعالى لدقائق الأمور وحقائق ما تجري به الدهور اذا تأمّلوا في لطائف الحكم والفرائد التي أُودعتْ في هذه الكِلم ثمّ تفكّروا في نُكَت العِبَر وصفات العدل والسِيَر والاخلاق الحسنة والقضايا المستحسنة المسندة الى ما لا يعقل ولا يفهم وهم من اهل القول الذي يشرّف به الانسان ويُكرَم يزدادون مع ذلك بصيرة ويسلكون بها الطرق المنوّرة فتتوفّر مسرّاتُهم وتتضاعف لذّاتُهم وربّما أدّى بهم فكرهم وانتهى بهم في انفسهم أمرُهم أنّ مثلَ هذه الحيوانات مع كونها عجماوات اذا اتّصفت بهذه الصفة وهي غيرُ مكلّفة وصدر منها مثلُ هذه الامور الغريبة والقضايا الحسنة العجيبة فنحن أَوْلى بذلك فيسلكون تلك المسالك * وممّا يؤيّد قول السالك في شان ذلك ما جآء في امثال العرب من تعلّم الحكمة وتنزّه السريرة ودفع الكرب . قولهم : إنّ الارنب التقطتْ تمرةً فاختلسها الثعلب فاكلها فانطلقا الى الضبّ . فقالت الارنب : يا أبا الحصين . قال : سميعًا دعوتِ .

قالت : أتيناك لنختصم اليك . قال : عادلاً حكيمًا . قالت :
اخرج الينا . قال : في بيته يؤتى الحكم . قالت : انّي وجدتُ تمرةً .
قال : حلوة فكليها . قالت : فاختلسها منّي الثعلب . قال :
لنفسه بغى الخير . قالت : فلطمته . قال : بحقّك اخذتِ .
قالت : فلطمني . قال : حرٌّ انتصر لنفسه . قالت : فاقضِ
بيننا . قال : قد قضيتُ . فذهبت هذه الاقوالُ كلُّها امثالاً *
وقالوا : تحككت العقرب بالافعى * وقال الشاعر

قام الحمام الى البازي يهدّدهُ واستصرخت بأسُودِ البرّ أضبُعهُ

وهذا أمرٌ مستفيض مشهور معروف بين الأنام غير منكور
والحصر في هذا المعنى يتعسّر والاستقصاء يتعذّر وانّما
الاوفق التمثيل والتنظير والاستدلال بالقليل على الكثير
فيتفكّه السامع تارةً ويتفكّر أُخرى ويتنقّل في ذلك من
الأخفى الى الأجلى ويتوصّل بالتأمّل في معانيه من الأدنى
الى الاعلى * ومن جملة ما صُنّف في ذلك واشتهر فيما
هنالك وفاق على نظائره بمخبره ومنظره وحاز فنون الفطنة
كليله ودمنه والمتمثّل بحكمة الطباع كتاب سلوان المطاع
والمفحِمُ بنظمه العجيب كلَّ شاعرٍ واديب معجز الضراغم
الصادح والباغم . وفي غير لسان العرب ممّن يتعاطى فنّ
الادب جماعةٌ رضعوا أفاويقهُ وسلكوا في هذا النمط
طريقه . لكن تقادم عصرهم واشتهر امرهم وتكرّر ذكرهم

وصارت مصنّفاتهم مطروقة وعِتاق نجائبها في ميدان
التأمّل عتيقة * ففلذتُ من دهري فلذة وعملتُ بموجبِ
لكلّ جديدٍ لذّة وسيّرتُ فارسَ الأفكار في ميدان هذا
المِضمار وقصدتُ من الفائدة ما قصدوهُ ومن العائدة في
الدارين ما رصدوهُ وجمعتُ ما بلغني عن نَقَلة الأخبار
وحَمَلة الآثار ورُواة الأسفار على لسان شيخ النطائف
ومنبع المعارف وإمام الطوائف ومجمع العوارف ذي
الفضل والاحسان ابي المحاسن حسّان . ووضعتُ هذا
الكتاب نزهةً لبني الآداب وعمدةً لأُولي الألباب من
الملوك والنوّاب والامرآء والحجّاب . وجعلته عشرة ابواب
ومن الله استمدّ الصواب واستغفرهُ من الخطأ في الجواب
إنّهُ رحيم توّاب كريم وهّاب (وسمّيتُه) فاكهة الخلفاء
ومفاكهة الظرفاء *

* شعر *

فإنْ يَغِضْ بحرُ علمي تُهْدَ منه على
درٍّ ينير عيونَ العقل في الصَدَفِ

ألبستهُ من خلاعات النُهى خلعًا
وربّما آزدان عقدُ الدرّ بالخزفِ

والفضل يحتاج في ترويج سلعته
الى الخرافة والمعقول للخَرَفِ

فآعبر الى البحر تجنِ الدرَّ منهُ ولا
يلهيك عن درِّه أضحوكة الصَدفِ

الباب الاول

في ذكر ملك العرب الذي كان لوضع
هذا الكتاب السبب

قال الشيخ ابو المحاسن بلغني عن ذي فضلٍ غير آسن أنّهُ كان فيما غبر من الزمان قيلٌ من الأقيال غزيرُ الافضال عزيزُ الامثال وارثُ المعارف حائز الفضائل واللطائف وافر السيادة كامل السعادة ذو حكمٍ مطاع وجندٍ وأتباع وممالك واسعة ذات أطرافٍ شاسعة تحت اوامره ملوكٌ عدّة ذوي سطواتٍ ونجدة ولهُ من الاولاد الذكور خمسة انفارٍ كلٌّ بالسيادة مذكور وبالعلم والحِلم والحُكم مشهور ومشكور متوشّحٌ للسلطنة متولٍّ من والدهِ مكانًا من الأمكنة * وكان أسعدهُم عند ابيهِ وهو متميّزٌ على اخوتهِ وذويهِ شمسيُّ المنظر اياسيُّ المخبر ذا فهمٍ مصيب واسمهُ في فضلهِ حسيب قد حصّل انواعًا من العلوم وأدركها من طريقي

المنطوق والمفهوم * وكان لهذا الفضل الجسيم يدعى بين الصغير والكبير الحكيم * فلمّا دعا أباهم داعي الرحيل وعكم الى دار البقآء اجمال التحميل استولى على السرير اكبرُ اولادهِ وأطاعهُ اخوتهُ وروؤس أمرآئهِ وأجنادهِ وصار السعد يراقبهُ والمُلكُ بلسان الحال يخاطبهُ *

* شعر *

نجومُ سمآء كلّما انقضّ كوكبٌ بدا كوكبٌ تاوي اليهِ كواكبُ

واستمرّ اخوتهُ في خدمتهِ مغتنمين ايادي طاعتهِ رافلين في خلع محبّتهِ ومودّتهِ ومضى على ذلك برهة وهم في أرغد عيشٍ ونزهة * ثم إنّهُ حصل في خواطر الاخوة ما خطر في خواطر الالدّآء من الجفوة وقلوب الحسّاد من الصدّ والنبوة فداخلتهم النفاسة وطلبوا كاخيهم الرياسة فقلبوا لاخيهم ظهرَ المِجنّ واظهر كلَّ ما أكمن وقال فيه ما أجنّ واراد شقّ العصا وأنْ يُشهر عنهُ أنّهُ عصى * غير أنّ أخاهم الحكيم تفكّر في هذا الامر الوخيم وأمعن فيهِ النظر وساورتهُ الوساوسُ والفِكَر فانّهُ وإنْ كان أغزرهم ذكاءً وأوفرهم وفآء فهو اصغرهم عمرًا واحقرهم قدرًا لا طاقة لهُ على الاستبداد ولا ان ينحاز الى احدٍ من ذوي العناد اذ الانحياز الى احدهم ترجيحٌ بلا مرجّح وتصحيح لاحد التاويلَين بلا مصحّح . فأدّاه اجتهادهُ الى الانخذال

وتقليد مذهب الاعتزال والقول بوجوب رعاية الاصلح ومَن أمكنهُ العُزلة خصوصًا في زمن الفتنة قد أفلح . فأخذ يُفكّر في تعاطي اسباب الخلاص وكيفيّة التفصّي من عهدة هذا الاقتصاص واستنهض الفكرة الحائرة لتظفر بهِ من سور هذه الدائرة وتاخذ بهِ على جهةٍ واحدة الى أنْ ينجلي غُبار هذه المناكدة . ثم أتبع الكتاب في مشاورة الاصحاب فاستشار الثقة من اهل المقة وعرض عليهِ العُزلة وكيف يتمكّن من هذه النعمة الجزلة * فقال لهُ بعد أنْ استصوب رايه طريق التوصّل الى الانفراد يا ذا الدراية أنْ تستاذن في تاليف تصنيفٍ وترصيف تاليفٍ يشتمل على فنونٍ من الحكمة وانواعٍ من دقائق الأدب والفطنة ولطائف التهذيب وأخلاق العباد ويكون عونًا على اكتساب مصالح المعاش والمعاد وتتوفّر بهِ مكارم الاخلاق والشيم وعوالي تهذيب النفس وظرائف الفضل والحكم فيظهر بذلك غزارةُ علمك ويشتهر بين الخاصّ والعامّ نباهة فضلك وحلمك ولا يقف احد في طريقك ولا يقدر احد ان يتصدّى لتعويقك . ويحصل بذلك فوائد جُمّة ادناها الخلاص من ورطة هذه الغمّة الى ان ينجلي دُجاها وتنجلي شمسُ الاستقامة وضحاها * فاستقرّ راي الحكيم حسيب على العمل بهذا الراي المصيب . ثمّ توكّل على

الله واعتمد وتوجّه الى ما قصده ودخل غيرَ مرتبك على الملك وقبّل الارض ووقف في مقام العرض وذكر ما عزم عليه وتوجّه قصدهُ اليهِ بعبارة رقيقة والفاظ رشيقة فتأمّل الملك في خطابهِ وتوقّف في جوابهِ *
وكان للملك وزير ذو فضلٍ غزير في غاية الحصافة والمعرفة والظرافة . إن لطف كان رأفة وإن كثف كان آفة بعيد الغور إنْ رفع أبلغ الى الثريّا وإنْ وضع انزل الى الثور . بينهُ وبين الحكيم من سالف العهد القديم عداوة مؤكّدة وشدّة مؤبّدة وتحاسدُ الاكفاء غِلٌّ قمِل وعدواةُ النظراء جرحٌ لا يندمل . فبلغهُ ما أنهى الحكيم الى مسامع الملك الكريم فتصدّى للمعارضة وتهيّأ للمعاكسة والمناقضة وأقبل يرفل في ثوب المكر وقد شدّ دُهاء الختل والختر حتى وقف في مقامهِ واستطرد الى قضيّة الحكيم في كلامهِ * فاجرى الملك كلام اخيهِ واستشار الوزير فيهِ . فاغتنم الفرصة وأراد القاءهُ في غُصّة بايراد مَثَل قصد بهِ ايذاءهُ وقصّه ثمّ قال : أمّا ما قصدهُ الحكيم من العزلة فهو رأيٌ قويم وفكرٌ مستقيم لانّ الاعداء اذا تفرّقوا تشققوا ومتى قلّوا ذلّوا وقد قيل : * شعر *

وما بكثيرٍ ألفُ خلٍّ وصاحبٍ وأنّ عَدُوًّا واحدًا لَكثيرُ

واذا نقص من اعداء الملك واحد سيّما مثل اللئيم حسيب

الحكيم فهي نعمةٌ طائلة وسعادةٌ واصلة ودولةٌ مُستصحبة
وكما قيل نعمةٌ غير مترقّبة . ويتوصّل من ذلك الى تشتيت
أمرهم الحالك وتصارم أقوالهم وتخالف أحوالهم واضطراب
رأيهم وافعالهم وقد قيل : * شعر *

وتشتُّتِ آلاعداءِ في آرائهم سببٌ لجمع خواطر الأحباب

وأمّا قصدهُ وضعَ كتاب فانّهُ خطأٌ لا صواب . وتعبيرهُ بأنّ
فيه فوائد وحكمًا واقوال العلماء والحكما وان يرفع به
للعلم علمًا فانّهُ مكرٌ وخديعة من سوء السريرة وخبثِ
الطبيعة ويريد أن يستر جهلهُ وأنْ يُظهر على فضل
الملك فضلهُ ويشتمل بذلك الوسواسُ على قلوب الناس
فتنصرف الوجوه اليهِ وتُقبل الرعايا عليهِ * ولكن يا مولانا
الملك لا تمنع ذلك المنهمك وأجبْهُ الى ما سأل وطالبه
بما بذل والزمهُ بالانفراد ودعهُ وما اراد فإنّ عدم اجتماعهِ
بالناس لنا فيه أمنٌ من البأس فيشتغل حينئذٍ بنفسه
وينقلب في طردهِ وعكسه . وأسأل مولانا السلطان ذا
الأيادي والإحسان قبل الإذن لهُ وشروعه في المسئلة أن
يجمع بيني وبينهُ لابيّن شينهُ وزينهُ وأظهر لمولانا السلطان
زورهُ ومينهُ فيتحقق دسائسهُ وما بنى عليهِ وساوسهُ . وأدّى
اليه فكرهُ ووصل اليه خداعهُ ومكرهُ فعند ذلك يصدر
امرهُ الشريف بما يقتضيه رأيهُ المنيف * فأجابهُ الى

سؤالهِ وامر طائفةً من رجالهِ فسيّرهم الى الآفاق بمراسيم
جمعها الاتفاق الى روساء مملكته وكبراء دولته . فاستدعى
العلماء وذوي الفضل والحكماء واولي الآراء والصلحاء ومن
يشار اليهِ بالفضائل ويتّسم بسمةٍ من الفواضل وكلّ أديب
أريب من بعيدٍ او قريب وقاطنٍ وغريب . وبيّن لهم مكانًا
يجتمعون اليه وزمانًا لا يتأخرون عنهُ ولا يتقدّمون عليه *
فاجتمع القوم في ذلك اليوم حسب ما برز المرسوم في
المكان المعلوم . وجلس الملك في مجلس عامّ وحضرهُ
الخاصّ والعامّ . واستدعى أخاهُ الحكيم وقابلهُ بالاحترام
والتكريم وانواع الإحسان والتعظيم * ثمّ قال ايها الأخ الكريم
والفاضل الحكيم : كان قد تقدّم منك الالتماس بالاذن في
تصنيف كتابٍ ينفع الناس مشتملاً على الفوائد وفنون
الحكم والفرائد يكتسب الثواب الجزيل ويخلّد الذكر الجميل
فأجبتُ ان يكون ذلك بحضرة العلماء ومجمع الاكابر والفضلاء
واتّفاق آراء الحكماء وارباب الدولة والمناصب وذوي الوظائف
والمراتب واهل الحلّ والعقد المتصرّفين في الحكم والأمثال
والنقد لياخذ كلٌّ منهم حظّهُ ويشنّف سمعهُ ويزيّن لفظهُ
لحظّه . فتعمّ الفائدة وتشمل العائدة ويتحقق كلُّ سامعٍ
وقائلٍ ما لكَ من الفضائل والفواضل وتتميّز على أقرانك
ورؤساء زمانك وتبلغ الأطراف وسائر الاكناف ما لديك

للناس من إسعاف وما قصدتَ لهم من إحسانٍ وألطاف ، فيتوفّر لك الدعآء ويكثر لك الشكر والثنآء لعظم فضلك وحُسن آدابك في نقلك وقد أذنّا لك في الكلام وسلّمنا الى يد تصريفك فيهِ الزمام لعلمنا انّك فارس ميدانهِ وفي بيان معانيك بديع بيانهِ ولسان فصاحتك يدحرج كرة البلاغة كيف شآء بصولجانهِ فقل ما بدا لك أحسن الله حالك *

فنهض الحكيم من مكانهِ وحسر طرَف لثامهِ وبادر الى الارض بالتثامهِ وقال : حيث أذن مولانا السلطان وتصدّق بالاذن في حسن البيان فلا بدّ من إتمام الاحسان وذلك بالاصغآء وحسن الرعاية والارعآء فإنّ حسنَ الاستماع هو طريق الانتفاع وهو الدرجة الثانية وهي مرتبة سامية فإنّ حسن الآدآء هي المرتبة الاولى وتليها ايها الملك المطاع مرتبة حسن الاستماع ثمّ تليها في الزيادة مرتبة الاستفادة والمرتبة الرابعة وهي الجامعة النافعة درجة العمل وبها الفضل اكتمل * وأمّا الغاية القصوى والدرجة العليا والمرتبة الفاخرة فهي الإخلاص في العمل وطلب الآخرة واتّباع رضا المولى بترك السمعة والريا . ثمّ لنحط العلوم الوضيحة انّ النصيحة من حيث هي نصيحة تميّز القلوب غيظًا منها وتنفر النفس عنها لانّ النفس مائلةً الى الفساد والنصيحة داعيةً الى الرشاد والنصيحة محضُ خيرٍ وبرّ والنفس مطبوعةٌ

على الأذى والشرّ فبينهما تنافرٌ من أصل الخلقة وتباينٌ من نفس الفطرة والنفس تميل الى ما جُبلَت عليهِ والنصيحة تجذب الى ما تدعو اليهِ . فالسعيد من تأمّل في معاني الحِكم وسلك السبيل الأقوم وتدبّر في عواقب الامور بالافتكار وتلقّى الاشيآء من طرف الاعتبار وقد قيل :

* شعر *

اذا لم يَعِن قولُ النصيح بقول فانّ معاريض الكلام فضول

ثمّ عِش وأسلَمْ وتيقّن وأعلَمْ يا ملك الزمان أنّ افضلَ شيءٍ حلّ في وجودِ الانسان واحسن جوهرةٍ تزيّن بها عقدُ تركيبهِ العقلُ الداعي الى كيفيّة تهذيبهِ في اساليبهِ . وافضل درّةٍ ترصّع بها تاجُ العقل في تزيينهِ وترتيبهِ الخلقُ الحسن الذي يُكسب الشرف لمن يتّصف بهِ وهو للملك خير مزيّة بها يقوم بامر الرعيّة . ومن جملة حسن الخلق العدل والشفقة على الرعيّة والفضل . واذا حَسُن خلقُ الملوك العليّة صلحت بالضرورة الرعيّة طائعةً او كارهة وسعت في ميدان الطاعة فارهة فانّ الناس على دين ملوكهم وسالكون طرائق سلوكهم . وارذل عادة الملوك الطيش والخفّة وأن يكون ميزانُ عقلهِ خاليَ الكفّة وأنّ عدم الثبات والوقار من عادة الاطفال والصغار والرجل الخفيف القليل الحيلة لا يقدر على تدبير الامور الجليلة

ولا باب يوجد لهُ ولا طاقة للدخول في الاشغال الشاقّة ولا يستطيع ان يتحمّل ثقل الرياسة ويتعاطى الايالة والسياسة ولا قدرة لهُ على فَصل الحكومات المشكَلة والقضايا العريضة المعضلة ولا الوصول الى اثبات السيادة ولا الدخول في ابواب السعادة . فإنّ تدبير الممالك وسلوك هذه المسالك يحتاج الى رجل كالجبل في السكون والوقار اوان الثبات وكالبحر الهائج والسيل الهامر اوان الحركات * واعلم يا ذا العلآء والمالك المال والدمآء أنّهُ يجب على الملك الكبير اجتناب الإسراف والتبذير فانّهُ حافظ دمآء الناس واموالهم مراقب مصالحهم في حالتي حالهم ومآلهم . والمال الذي في خزائنه قد اجتمع في وجوه مكامنه ومن خراج مملكته من اعدائه ومعادنه انّما هو للرعيّة ليُذهب عنهم البليّة ويصرفهُ في مصالحهم وما يحدث من حوائجهم وجوائحهم فهو في يده أمانة وصرفهُ في غير وجهه خيانة فكما لا ينبغي أنْ يتصرّف في مال نفسه بالتبذير كذلك لا يتصرّف في اموالهم بالاسراف والتقتير * فينبغي للملك بل يجب أنْ يستتر على الرعيّة ولا يحتجب وأنْ لا يبادر بمرسوم الّا بعد تحقيق المعلوم ولا يبرز مراسيمهُ ما لم يتحقّق فيه معلومهُ وذلك بعد التأمّل والتدبّر وستر عورة القضيّة والتفكّر وهذا الآن مرسوم السلطان على فم أبنآء الزمان وهو بمنزلة القضآء النازل من السمآء . فاذا لم

يتدبّر قبل إبرازه في عواقب مآله واعجازه ربّما أدّى الى الندم والتأسّف حيث زلّت القدم ولا يفيد التلاف بعد التلاف ولا يُردّ السهم الى القوس وقد خرق الشغاف وكما أنّ الملك سلطان الانام كذلك كلامهُ سلطان الكلام وكلّ ما يُنسَب اليه فهو سلطان جنسه فيجب عليه حفظ كلامه كحفظ نفسه * (وحسبك يا ملك الزمان لطيفة الملك انوشروان) * فبرزت المراسيم الشريفة ببيان تلك اللطيفة * فقال الحكيم : ذكر أهل السير ونَقَلَةُ الأثر أنّ الملك انوشروان كان راكبًا في السيران فجمح به فرسهُ وقوّى عليهِ نفسهُ فاستخفّ شانهُ وجبذ عنانهُ فهمزهُ ولكزهُ وضربهُ ووخزهُ فزاد جموحًا وماد جموحًا فتجاذبا العنان فانقطع وكاد انوشروان ان يقع فلاطف الفرس فاستكان ونجا بعد ان كاد يدخل في خبر كان * فلمّا وصل الى محلّ ولايته واستقرّ راجفُ قلبه من مخافته دعا بسائس المركوب فلبّى دعوتهُ وهو مرعوب فلعنهُ وشتمهُ وأراد أن يقطع يدهُ وقدمهُ وقال : تلجم هذه الداهية بلجام سيورهُ واهية فانقطعت في يميني وكاد الفحلُ يرميني ثمّ دعا بالمقارع وبالجلّاد ليقطع منهُ الأكارع * فقال السائسُ المسكين ايّها الملك المكين وصاحب العدل والتمكين أسالك بالله الذي رفعك الى هذا المقام ان تسمع لي هذا الكلام . فقال : قُلْ

ولا تطل . قال : كأنّ هذا العنان يقول وكلامه فصلٌ لا فضول ومقوله قريبٌ من العقول : الملك انوشروان سلطان الانس وفرسهُ سلطان هذا الجنس وقد تجاذبني قوّة سلطانين فأين لي طاقة هذا الثبات لهما ومن أين لا جرمَ ذهب منّي الحيل فتمزّقتُ بين سلطان الانس وملك الخيل * فأعجب انوشروان من السائس هذا البيان فأنعم عليه واطلقهُ ومن رقّ عقابه وعذابه أعتقهُ *

وانّما اوردتُ هذا البيان ليتحقّق مولانا السلطان أنّ حركاته ملكة الحركات وصفاته سلطانة الصفات وكلامه ملكُ الكلام فلا يصرفهُ في كلّ مقام وليُصُنْه بالتأمّل قبل القول وليحتطّ لبروزه ويحفظه بالصدق والطول . واذا أمر بأمر فلا يرجع فيه بل يستمرّ على ما أمر به لئلّا يُقال سفيه * ثمّ اعلَمْ يا ملك الرّقاب أنّ كلًّا من الثواب والعقاب لهُ حدٌّ معلوم ومقدارٌ مفهوم ينبغي للملك أنْ لا يتعدّى لذلك حدًّا وعلى الملك أنْ يصغى للنصيحة ممّن مودّته صحيحة وقد جرّب منه الصدق وعلم منه الإخلاص في النطق ولاسيّما اذا كان ذا عقلٍ صحيح وودٍّ صريح ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها فبرودةُ الخاطر وسلامة القلب حرقةُ حرارتها فانّ الناصح المشفق كالطبيب الحاذق فانّ المريض الكئيب اذا شكا الى الطبيب شدّة ألمه من مرارة فمه

يَصف لهُ دواءً مرًّا فيزيد حرارتهُ حرًّا فلا يجد بُدًّا من شربه وان كان في الحال ينهض بكربه لعلمه بصدق الطبيب وأنّه في الرأي مصيب وما قصد بالدواء المرّ زيادة الضرّ وانّما قصد بالمرِّ عودَ الحلاوةِ الى فمه ولا يستحقر النصيحة إنْ كانت صادقة صحيحة ولا الناصح خصوصًا الرجل الصالح * ثمّ قال الحكيم حسيب أيّها الملك الحسيب : وأنا لمّا رأيتُ أُمور المملكة قد اختلّت ومباشري مصالح الرعيّة قلوبهم اعتلّت ولعبوا بالثقيل والخفيف واستطال القويّ منهم على الضعيف ومدّوا أيديهم الى الأموال بالباطل واظهروا الحالي في حلية العاطل وخرجوا عن دائرة العدل وأطرحوا أهل العلم والدين والفضل وتولّى المناصب غيرُ أهلها ونزلت المراتب الى غير محلّها وحُرم المستحقّون وأُبطل المحقّون الى أنْ وقع الاختلال وعمّ الفساد والضلال وقويت أعضاء الظلمة على العباد وسائر القرى والبلاد * وهذا لا يليق بشرف مولانا الملك ولا باصله ولا يجوز في شرع المروءة أنْ يكون الظلم طراز عدله اذ قدرهُ العليّ وأصلهُ الزكيّ أعظم مقامًا من ذلك ولا يحسُن أنْ ينتشر الّا صيتُ رافته في الممالك وعلى الخير مضى سلفه الكرام وانطوى على مآثرهم صحائف الأيّام وقد قيل :

فانّ الظلم من كلّ قبيح وأقبح ما يكون من النبيه

وقيل : ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

ما وسعني الّا الانحياز الى العزلة والتعلّق بذيل الانفراد والوحدة وما أمكنني أنْ اعمل شيئًا ولا اقطع دون العرض على الآرآء الشريفة وامتثال ما تبرزهُ مراسيمها المنيفة فقد قال الناصح في بعض النصائح : لا تخاطب الملوك فيما لم يسألوك ولا تقدم على ما لم يامروك . فلمّا أذِن في الكلام قمتُ هذا المقام فقلتُ قطرةً من بحور وذرّةً من طيور ورايتُ ذلك واجبًا عليّ ونفعهُ عائدًا اليّ وذكرتُ بعض ما وجب على سائر الناصحين ولزم ذكرهُ جميع المهتدين من طريق واحدة ولزمني انا من طرق متعدّدة أدناها طريق المروّة وأعلاها بل أغلاها وثيق الأخوّة التي هي أقوى الأسباب وأعظم الوصلات في هذا الباب فإنّ لحمة القرابة هي السبب الذي لا يقطعهُ سيفُ الحدثان والبنيان الذي لا يهدمهُ معول الزمان وأساس الاخوّة عنوان الفتوّة كما قيل :

أخاك أخاك إنّ مَنْ لا أخا لهُ كساعٍ الى الهيجآء بغير سلاح

(وناهيك يا زين الملّاك بقصّة الوهي مع الضحّاك) ❋ قال : أخبرنا أيّها الحكيم بذلك الحديث القديم ❋

قال الحكيم : بلغنا عن الناريخ الباذخ الشماريخ انّ الضحّاك كان من احسن الناس سيرةً واصفاهم سريرةً قد فاق الناس فضلاً وبلغ ذكرهُ الآفاق عدلًا فترايا لهُ إبليس في صورة الدهآء والتلبيس فزعم ذلك الطيّاخ أنّهُ طبّاخ وصار كلّ

يوم يهيّئ لهُ من أطيب الأطعمة ولذيذ الأغذية ما يعجز به غيرهُ ولا يقدر أحد أن يسير سيرهُ ولم ياخذ على ذلك جراية فبلغت مرتبتهُ عندهُ النهاية واستمرّ على ذلك مدّةً مديدة وأيّامًا عديدة والناس تكره ان تخدم بغير أجره خصوصًا في هذا الزمان رؤساء الاعيان فقال لهُ الإمام في بعض الايّام : لقد اوجبتَ علينا يدًا وشكرًا وما سألتنا على ذلك اجرًا فاقترح ما تختار اكافيك يا مهار . فقال : تمنّيتُ عليك أن أُقبّل بين كتفيك فإنّي بذاك أنْ يُقال قبّل بدن الضحّاك ❋ فأعجبهُ ذلك وأجابهُ وحسر عن بدنهِ ثيابهُ وادار ظهرهُ اليهِ فقبّل لِحَيْ كتفيهِ ثمّ غاب عن عينهِ ولم يقف على أثرهِ ولا عينهِ . فبمجرّد ما لثمهُ ومسّ فمهُ جسمهُ اخذتهُ حكّةٌ وشكّة وموضع لثمهِ شكّة ثمّ خرج من موضع فيهِ سلعة تلذعهُ شرّ لذعة وتلسعهُ أحرّ لسعة ثمّ صارا حيّتين أشبهتا كيّتين فصار يستغيث ولا مغيث . فطلب الاطبّآء فاعياهم هذا الدآء ثمّ لم يقرّ لهُ قرار ولم ياخذهُ سكون ولا اصطبار الّا بدماغ الانسان دون سائر الحيوان . فمدّ يد الفتك ولاجل الأدمغة استعمل السفك فضجر الناس لهذا الباس وصاحوا وناحوا وغدوا مستغيثين وراحوا . فوقع الاتّفاق بعد الشقاق على الاقتراع لدفع النزاع فمن خرجت قرعتهُ كُسرت قرعتهُ وأُخذ دماغهُ وحصل لغيرهِ فراغهُ فعالجوا بهِ الكيّتين وغذوا

بهِ الحيّتين فيبرد الألم ويخفّ السقم * ففي بعض الأدوار خرجت القرعة على ثلاثة انفار فرُبطوا بالأغلال ودُفعوا الى النكال ليجري عليهم ما جرى على الأمثال . فبينما هم في الحبس بين طالعٍ ونحس وطردٍ وعكس وقف للضحّاك امرأة وضيّة واستغاثت بهِ في هذه القضيّة فأدناها وسأل ما دهاها . فقالت : ثلاثةُ أنفارٍ من دار لا صبرَ لي عنهم ولا قرار وحاشى عدل السلطان أن يرضى بهذا العدوان ولدي كبدي وأخي عضدي وزوجي مُعتمَدي وكلٌّ مسجون يُسقى كاس المنون * فرقّ لها الضحّاك وقال لا يعمّهم الهلاك فاذهبي يا مغاثة واختاري واحدًا من الثلاثة وجهّزها الى الحبس ليقع اختيارها على من يرفع اللبس . فتصدّى لها الزوج وتمنّى الخلاص من ذلك البرج فتذكّرت ما مضى من عيشها معهُ وانقضى فهمّت بطلبه وتعلّقت بسببه فوقع بصرُها على ولدها فلذة كبدها فرأت صباحة خدّه ورشاقة قدّه فتذكّرت طفوليّتهُ وصباهُ وتربيتها ايّاهُ وحملهُ وارضاعهُ وتناغيه وأوضاعهُ فعطفت عليه جوارحها ومالت اليه جوانحها فقصدت ان تختارهُ وتريح افكارهُ فلمحت أخاها باكيًا مطرقًا عانيًا قد أيس من نفسه وتيقّن الاقامة بحبسه لانّهُ يعلم انّها لا تترك زوجها وابنها ولا تختارهُ عليهما ولا تميل الّا اليهما فافكرت طويلاً واستعملت الرأيَ

الصائب دليلًا ثمّ أدّاها الفكر الدقيق وأرشدها التوفيق وقالت أختار أخي الشقيق * فبلغ الضحّاك ما كان من أمرها واختيارها لأخيها بفكرها فدعاها وسألها عن سبب اختيارها أخاها وقال إن أتيت بجوابٍ صواب وهبتُها ايّاهم مع زيادة الثواب وان لم تأتِ بفائدة قاطعة وعائدة في الجواب نافعة كانت في قتلهم الرابعة * فقالت : اعلمْ وأسلمْ إنّي ذكرتُ زوجي وما مضى من حسن العيش معهُ وانقضى فملتُ اليهِ وعوّلتُ في الطلب عليهِ ثمّ أبصرتُ ابني فتذكّرتُ مقامهُ في بطني وما مضى لي عليهِ من عاطفة وشفقةٍ عامّة في الأيّام السالفة فهيّجني حبّهُ القديم وشكلهُ القويم فملتُ الى اختيارهِ وخلاصهِ من بوارهِ ثمّ لمحتُ أخي المتقدّم عليهما فقستُ مقامهُ بالنظر اليهما فقلتُ إنّي امرأةٌ مرغوبة قينةٌ عاقلة مطلوبة ان راح زوجي فعنهُ بدل وانْ حصل الزوج وجد الولد وحصل فتهيّأ الغرض ووجد عنهما العوض وأمّا الأخ الشقيق فما عنهُ عوضٌ في التحقيق لانّ أبوينا ماتا وفاتا وصارا تحت الارض رفاتا فهذا الذي أدّى اليهِ افتكاري ووقع عليهِ اختياري وأنشدَ لسان الحال فيما قال *

* شعــر *

وكم أبصرتُ من حُسنٍ ولكن   عليكِ من الورى وقع اختياري

قال: فاستحسن الضحّاك هذا الكلام ووهبها جماعتها مع

زيادة الانعام * قال الحكيم : وانما أوردتُ هذا المثل لمولانا الملك الأجلّ وعرضته على الحضّار ومسامع النظّار ليعلم أنّ لي عن كلّ شيء بدلا وأمّا عن مولانا السلطان فلا كما قال مَن أجاد في المقال

* شعر *

وقد تعوّضتُ عن كلٍّ بمُشبههِ فما وجدتُ لأيّام الصبا عوضا

وليس لي عوضٌ إلّا في بقاء ذاتك المحروسة ودوام حياتك العزيزة المأنوسة * ثمّ إنّي أخاف والعياذ بالله تعالى أنّ هذه الفتن التي قد أقبلت والحركات الداهية التي وجوهُ الخلاص منها قد أشكلت تستأصل شأفةَ أسلافنا الكرام وتقرض شرف أجدادنا الملوك العظام فاخترتُ العزلة لذلك فإنّها أسلم الطرق والمسالك *

(قال الملك) لقد صدقتَ اذ نطقتَ وتحرّيتَ الصواب في الخطاب وانا اتحقق حسنَ نيّتك وخلوص طويّتك وحسنَ وفائك ويُمنَ آرائك فانّك أخٌ شقيق وصدوقٌ صِدّيق ولكن تعلم أنّ هذا الوزير رجلٌ خطير ورأيهُ مستنير وفضلهُ غزير وهو من أصلٍ كبير ولهُ علينا حقٌّ كثير وأُريد أن يقع ما عزمتَ عليهِ وفوّضتَ فكرك المصيب اليهِ مع محاورتهِ ومناظرتهِ ومشاورتهِ فإنّ كلًّا منكما ناصحٌ مشفق وحكيمٌ مدقّق وعالمٌ محقّق وفي مثل هذه الأشياء اذا اتّفقتِ الآراء وطال النفَس تكاشف نورُ القبس وسعُد البخت

وتمكّن التخت وصحّ الحقّ ووضح الصدقُ ولاسيّما اذا كان الكلام بين عالمَين والسؤال والجواب من فاضلَين كاملَين *

قال الحكيم أيّها الملك العظيم : اذا قام الانسان في صدر المعارضة وتصدّى في البحث الى المعاكسة والمناقضة لاسيّما إن كان من أهل الفصاحة واللَّسَن وساعدهُ في ذلك الإدراكُ الحَسَن لا يعجز أنْ يقابل الإيجابَ بالسلب والاستقامةَ بالقلب والعكسَ بالطرد والقبولَ بالردّ ويكفي في جواب المتكلّم إذا أُورد مسئلةً لا نُسلّم وقد قيل في الأقاويل : لا تنفع الشفاعة باللجاج ولا النصيحة بالاحتجاج * امّا انا فقد بذلتُ جهدي وأدّيتُ في النصيحة ما عندي وكشفتُ عن مخدّرات التحقيق أستار السبك وكرّرتُ على محكّ التصديق آثار الحكّ فإنْ وعيتم كلامًا بسمع حيّ فقد تبيّن الرُشد من الغيّ وإنْ أعرضتم عن عين اليقين فلا إكراه في الدين * فتصدّى الوزير للكلام وحسر عن ثغر بيانهِ اللثام وبرز في ملابس الملاينة والخداع وسلك بخبث الطباع طُرُق الملاطفة والاصطناع ودسّ السمّ في الشهد ونزل من اليفاع الى الوهد وقال : الحمدُ لله الكريم الذي مَنّ على مولانا الملك بهذا الأخ الحكيم الفاضل الحليم الكامل العليم الناظر في العواقب ذي الرأي المصيب والفكر الثاقب . فلقد بالغ في النصيحة بعباراتهِ الصحيحة واشاراتهِ المليحة وكلّ

شيءٍ أبداهُ الى المسامع وأنهاهُ هو الذي يرتضيهِ العقل ويرضهُ العدل ويقبلهُ الطبع القويم اذ هو المنهج المستقيم يترتّب عليهِ الذكر الجميل ويحصل بهِ الثواب الجزيل لكن الذي تعرفهُ في حفظ الرياسة واقامة ناموس السياسة هو الذي عليهِ القوم في هذا اليوم وجرت عليهِ عاداتُ الأكابر وانخرط في سلكهِ الأصاغر فانّ الزمان فسد والفضل فيهِ كسد وزاد فيهِ الحقد والحسد وتشرّب المكر والأذى الروحُ والجسد وكلٌّ في الروغان ثعلب وفي العدوان أسد وصار هذا مقتضى الحال والمحمود من الخصال والمطلوب من الرجال والناس يدورون بزمانهم بقدر مكانهم وإمكانهم وقد قيل : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم وبعض السياسات عند اهل الرياسات يقتضي العقوبة بالتغريم وأخذ المال بالترسيم ولولا عفو الملك عن المجرم ما طمع كلّ مؤذٍ ومجرم ومن الحماقة والبله معاقبة مَنْ لا ذنبَ له فانّ وضع الأشياء في محلّها وزمام الامور والمناصب في يد أهلها هو أحد قوانين الشرع والسياسة ومقتضى العقل والكياسة والعدل والرياسة والعقل والفراسة والفضل والنفاسة (وناهيك يا ذا القدر الخطير قصّة قابوس بن بشكمير) *

قال الحكيم للوزير : أخبرني أيّها الدستور الكبير بكيفيّة ما أنتَ اليهِ مشير *

قال الوزير : ذُكر أنّ قابوس بن بشكمير ذاك الاسد المبير قبض عليهِ جماعة كانوا جبذوا أيديهم من الطاعة من من أركان دولتهِ وبنيان صولتهِ ثمّ قيّدوهُ وحبسوهُ وأقاموا ولدهُ مقامهُ وأجلسوهُ . ثم إنّهم لم يامنوا غوائله وافكارهُ الصائله فتوامروا أنْ يسبكوهُ ويعمدوا الى دمهِ فيسفكوهُ فأرسلوا اليهِ قاتلًا ـ فوثب اليهِ سائلًا وقال لهُ : ما سبب قتلي وما نابهم من أجْلي مع كثرة إحساني اليهم وانسبال ذيل إكرامي وإنعامي عليهم وتربيتي إيّاهم كالاولاد وفلذ الأكباد وصوني إيّاهم عمّن آذاهم . فقال : كثرة اراقة الدمآء هاجت عليك الغرمآء وأكثرت لك الخصمآء لمّا تغيّرت خواطرهم عليك خافوا وقبلَ أنْ تحيف عليهم حافوا * فقال قابوس : واللهِ ما سبب هذا النكد والبوس واثارة هولاء الخصمآء إلّا قلّة إراقتي للدمآء يعني لو أراق دمآء القائمين عليهِ لما وصل هذا المكروه اليهِ فلمّا أبقى عليهم أفنوهُ وحين ترك أذاهم آذوهُ * وإنّما أوردتُ هذا التنظير ليقف خاطرك الخطير على أنّ أمور الرياسة وقواعد السياسة كانت تقتضي السبك وأحرى بالعفو والترك * وأمّا الآن فذلك الحكم قد انتسخ والفساد في قلوب العباد رسخ وقد قيل :

* شعر *

تلجي الضرورات في الامور الى   سلوك ما لا يليق بالادب

ومزاج الزمان قد تغيّر والمعروف منهُ قد تنكّر وقد أعرضوا

عن طاعة السلطان واتّبعوا مخادعة الشيطان وكلٌّ منهم قد شرخ وباض الشيطان في دماغه وفرخ وتصوّر لخيالاته الفاسدة ومحالاته الكاسدة أنّه بما يكيد يبلغ ما يريد وما شعروا أنّ الملوك والسلاطين ممّن آختارهُ اللهُ تعالى وألبسهُ من خلع جبروته كمالاً وجلالا وجعلهم بأموره قائمين وبعين عنايته ملحوظين وكما أنّ الرسل والانبياء والسادة الأعلام الاصفياء هم صفوة الله من خليقته ومختاروهُ من خير بريّته من غير كدٍّ ولا جهد ولا سعيٍ منهم ولا جدّ ما برطلوا على النبوّة والرسالة ولا رشوا على نيل هذه الكرامة والنبالة انّما هو محض فضلٍ من الله تعالى وعناياته والله أعلم حيثُ يجعل رسالاته كذلك الملوك والسلاطين والقائمون بإقامة شعائر الدين هم ممّن اختارهُ الله على خلقه وأجرى على يديه لهم بحارَ كرمه ورزقه. والسلطان ظِلُّ الله في أرضه يُجري بين عباده شريعة نفله وفرضه. وقد أغفل أهل هذه الممالك عن السلوك في هذه المسالك وعن درك هذه الحقائق وأعرضوا عن الدخول في أحسَن الطرائق وهي طريق المحاشمة والصفح والمكارمة وعدُّوا المكر من أحسن الرياسة والعقل والكياسة والتحيُّل لأكل أموال الناس من الذكاء ومظالم العباد من خلال الصدق والصفاء وتملُّقهم للملوك والسلاطين من أسباب الوصول الى الأغراض مع

تحسين الظواهر وفي البواطن أمراض . فظواهرهم ظواهر الإنس تشتمل على المودّة والإنس وما فيهم تحت الثياب إلّا كلاب وذئاب ولاجل هذا سلّطنا اللهُ عليهم ومدّ يد بطشنا اليهم نعاملهم بالفراسة ونعمل بما تقتضيه الكياسة وتصوّبهُ الآراء السلطانيّة من قواعد السياسة *

قال الحكيم حسيب بعد ما أدرك ما في هذا الكلام من فكرٍ غير مصيب : إعلَمْ أيُّها الوزير النافع الناصح والدستور الشفيق المصالح أنّ الرعيّة بمنزلة السرج والملك بمنزلة الشمس في البرج واذا تلألأ على صفحات الأكوان وأنار في وجه الزمان والمكان أشعّة نور الشمس الوهّاج فأيُّ شعاعٍ ووجود يبقى للسراج وأنّ أنوار قلوب الرعايا وما يحصل لها من اشراق ومزايا انّما هي من فيض أشعّة ملوكهم وأنّ الرعيّة تتبع الملوك في سلوكهم فاذا صفت مرآةُ قلب السلطان اشرقت بالطاعة قلوب الرعايا والأعوان بل الزمان والمكان تابعان لما يضمرهُ وينويهُ السلطان وقد قيل : اذا تغيّر السلطان تغيّر الزمان * (وهل اتاك ايُّها الدستور واقعة الرئيس مع بهرام جور) * قال الوزير : أخبرنا يا باقعة كيف كانت تلك الواقعـــــــــة *

قال الحكيم اخبرني شيخ عليم بالفضل مشهور أنّ بهرام جور وكان ذا أيَد عزم على الصيد فخرج في عسكرٍ جرّار

واستوى في الصحارى والقفار وبينما هم قد تفرّقوا فما شعر الّا
وقد حرّكت يد الشمال غربال المطر ثمّ تراكم من السحاب
على وجهِ عروس السمآء النقاب وانهلّ الغمام المدرار وصارت
الدنيا جنّات تجري من تحتها الأنهار وأقبلتْ سوابق السيول
تجري في مضمارها الخيول فتشتّت العساكر وتشوّشت الخواطر
فقصد بهرام جور كَفرًا من الكفور وطلب القرى من تلك
القُرى منفردًا عن عسكرِهِ مخفيًا من خبرهِ فنزل بيت الرئيس
وهو رجل خسيس فلم يقُم من حقّهِ بالواجب لانّهُ لم يعلم
ذلك الراكب فتشوّش خاطرهُ وتكدّرت ضمائرهُ وتغيّرت عليهم
نيّتهُ وان لم تتغيّر بشريّتهُ * فلمّا أقبل الليل جآء الراعي
وهو يدعو بالويل ويشكو كثرة المحن من قلّة اللبن وذكر
أنّ المواشي لم تدرّ ضرعًا مع أنّ رعيتها كانت أحسن مرعًى
ولا وقف لذلك على سبب ولا درى كيف حال حالها
وآنقلب. وكان للرئيس بنت منصوبة العقل على التمييز نبيهة
في فكرها بديهة في قولها تخجل الاقمار بخدّها وتقصف
الاغصان على قدّها فلمّا سمعت كلام الراعي قالت واللهِ انا
اعرف السبب والداعي وهو أنّ السلطان الذي نيّتهُ حفظ
اوطاننا تغيّرت نيّتهُ علينا وتقدّم ضميرهُ بالسوء الينا فظهر
النقص في ماشيتنا وسيتعدّى ذلك الى أنفسنا وحاشيتنا
وقد قيل : اذا همّ الحاكم بالجور على الرعايا أدخل الله النقص

في اموالهم حتّى الزروع والضروع * قال أبوها : فاذا كان الأمر
كذلك فلا مقام لنا في هذه الممالك فالاولى أن نتحوّل عن
هذا المكان الى مقامٍ لا يضمر فيهِ سوءًا لرعيّتهِ السلطان
ونستريح في ظلّ حاكمِهِ ونرعى في مسارح مكارمهِ كلّ هذا
وبهرام يصغى الى هذا الكلام * فقالت البنت : إنْ كان
ولا بدّ من الانتقال واقتعاد مطيّة الارتحال فما نصنع بهذه
الأثقال والأزواد الثقال نقدّم لهذا الضيف منها يحصل
التخفيف عنها ويقع بذلك فائدتان إحداهما حسن المضيف
وثانيتهما التخفيف * فامتثل أبوها أمر بنتهِ ونقل الى
الضيف ما حواهُ بيتهِ من طعامٍ وشراب ونقلٍ وكباب
وبسط بساط النشاط وأخذ في دواعي الانبساط وانتقلا من
المحاشمة الى المكالمة والمنادمة وعمل بموجب ما قيل :

وما بقيت من اللذّات الّا أحاديث الكرام على المدام

ثمّ قرّر في ضميرهِ أنّهُ اذا وصل الى سريرهِ يطلب هذا الرئيس
ويصاهرهُ ويقطعهُ هذه القرية ويعاشرهُ ويجعل بنتهُ خوندهُ
ويسلّم الى أبيها جندهُ فما استتمّ هذا الخاطر الخاطر حتى
جآءهم الراعي المستجير وقال : انّ الغنم التي ما بضّت بقطرة
ولا درّت درّة قد امتلأت ضروعها القاحلة فها هي دارّة حافلة
قد صارت كالسيول على السابلة فلم يبقَ وعآء الّا امتلأ
وقد روى من الجيران الملأ وها هي تشخب وتسيل وفاضت

فأروت الحقير والجليل واغنت الجيران وكأنّها غدران * فقالت بنت الرئيس : لله الحمد والتقديس الذي اصلح نيّة سلطاننا حتى استقررنا في اوطاننا وأعاد علينا ما سلبناهُ ورجّع الينا ما طلبناهُ * فعجب بهرام جور من هذه الامور ولمّا أصبح الصباح وركب فرسهُ وراح استقرّ في ولايته الزاهرة وأمضى ما كان نواهُ من المصاهرة واسبل عليهِ ذيل الانعام وزاد لهُ من الاكرام ما انتظم بهِ امرهُ واستقام * وانّما اوردتُ هذا الخبر لتعلموا انّ الزمان في المجيء والممرّ مطيع لِمَا أضمر السلطان وما اظهر وما احلاهُ في أمر رعيتهِ وما امرّ وقد قيل : عدل السلطان خيرٌ من خصب الزمان . واذا لم يكُن الملك برعيّتهِ شفيقًا ولا بارًّا ولا رفيقًا ولم يتجاوز عن مسيئهم متلهّفًا لدعآئهم مشغوفًا بمحبّتهم محسنًا لمحسنهم قائمًا بحفظ مأمنهم فالأَولى بهم أن يهاجروا عن مملكتهِ ويخرجوا عن اقليم ولايتهِ * فينبغي للحاكم أن لا يواخذ احدًا بجريرة احدٍ ابدًا ولو طلب احدٌ بجريرة احد ولحق البريء بسبب الذنب عقوبة ونكد لفسدتْ المملكة وانتشرتْ المهلكة وآضطربت الرعيّة وانخرمتْ القواعد العليّة ولو فعل ذلك المتقدّم من الملوك لهلك الصعلوك وانسدّ الطريق المسلوك وانخرمتْ القاعدة على المالك والمملوك ولم يبقَ للتاجر شيٌّ ولا على وجه الارض حيٌّ * ويجب على مَن باشر عند الملوك امرًا

من الامور او حكمًا على الجمهور أن يكون في دينهِ متينًا وعلى الناس امينًا سديد الفكر قويم النظر صدوقَ النطق ظاهر الصدق دائرًا مع الحقّ يقظان مراقب في خواتيم أمرهِ والعواقب عادلًا بين الأخصام شفيقًا على الخاصّ والعامّ ثابتًا في النوازل معدودًا في البوازل مشغولًا بتهذيب نفسهِ متذكرًا يومهُ في غدهِ وأمسهِ متميّزًا بالشمائل المرضيّة على ابنآء جنسهِ واضعًا الاشيآء في محلّها متفحصًا بنفسهِ عن جلّها وقلّها مقيمًا كلّ احدٍ في مقامٍ لا يتعدّاهُ ومنصب معلوم لا يتخطّاهُ حتّى تستقيم بذلك امور المملكة وتصان من الوقوع في مهاوي التهلكة ويطمئن خاطر مخدومهِ ويركن اليهِ في منطوق قولهِ ومفهومهِ فيقبل قولهُ وفعلهُ ويعرف فضلهُ وفضلهُ * وكذلك يجب أَنْ يكون الملك كريم الأعراق لطيف الأخلاق شريف الأعلاق وان يكون في جميع احوالهِ متمسّكًا بذيل افضالهِ مراعيًا سيرة اجدادهِ من الملوك سالكًا طريقة الملوك من حسن السلوك لأن من لا يشيّد أركان اسلافهِ ولا يقوّي بنيان أشرافهِ يصيبهُ مثل ما اصاب الذئب مع الجدي المغنّي المصيب * فسأل الملك من اخيهِ أَنْ يذكر ذلك المثل ويبيّنهُ *

فقال : بلغني يا مليك الاراض أنّهُ كان في بعض الغياض لذئبٍ وِجار وأهلٍ وَجار فخرج يومًا لطلب الصيد

ونصب لذلك شباك الكيد وصار يجول ويصول ولا يقع على محصول فأثّر فيه الجوع واللغوب وآذنت الشمس بالغروب . فصادف بعض الرعيان يسوق قطيعين من الضان وفيهما بعض جديان فهمّ عليهما لشدّة الجوع بالهجوم ثمّ ادركه من خوف الراعي الوجوم لانّه كان متيقّظًا وعلى ماشيته متحفّظًا فجعل يراقبه من بعيد والحرص والشره يزيد والراعي سائق والذئب عائق فتخلّف جديٌ غبيّ غفل عنه الراعي الذكيّ فادركه الذئب النشيط واقتطعه بأملٍ بسيط وبشّر نفسه بالظفر وطار بالفرح واستبشر * فلمّا رأى الجدي الذئب علم أنّه أُصيب بيومٍ عصيب وظفر منه باوفر نصيب فتدارك نفسه بنفسه واستحضر حيلة جاشه وحدسه ومكّره بما أضمره في نفسه وعلم أنّه لا ينجّيه من هذه الورطة الوبيلة الّا مغيث الخداع والحيلة واذكر الخاطر ما قال الشاعر :

* شعر *

ولكن اخو الحزم الذي ليس نازلا   به الخطب الّا وهو للقصد مبصر

فتقدّم بجاش صليب وقبّل الارض بين يدي الذئب وقال محبّك الراعي لجنابك داعٍ يسلّم عليك وقد ارسلني اليك يشكر صداقتك وشفقتك وحشمتك ومرافقتك ويقول : قد تركتَ بحسن آدابك عادة اجدادك وآبائك فلم تتعرّض لمواشيه وحفظتَ بنظرك حواشيه وقد حصل لضعافها الشبع

وامستْ بجوارك آمنة من الجوع والنزع وحصل لها الأمن من الجزع فالله يجعل جوارك وغياضك احسن مجتمع لانّ عجاف ماشيته شبعت وربت واستنعشت وقويت فاراد مكافاتك وتطلّب مصافاتك ومصادقتك فارسلني اليك لتاكلني واوصاني أن أطربك بما اغنّي فانّي حسن الصوت في الغناء وصوتي يزيد في شهوة الغذاء فإن اقتضى رايك الاسعد غنّيتك غناءً ينسّي ابا اسحق ومعبد وهو شيء لم يظفر به آباؤك ولا اجدادك ولا يناله أعقابك واولادك يقوّي كرمك وشهوتك وقرمك ويطيّب مأكلك ويسنّي مأملك وإنّ صوتي لَلذيذ الذّ للجائع من جدي حنيذ بخبز سميذ وللعطشان من قدح نبيذ ورأيك أعلى وامتثالك أولى * فقال الذئب : لا باسٌ قد اجبتُ سؤالك فغنّ ما بدالك فرفع الجدي عقيرته ورأى في الصياح خيرته وملأ الدنيا عياطًا وأعقبه ضراطًا وانشد :

وعصفور الهوى يهوى جرّادة   كما عشق الخروف ابا جعادة

فاهتزّ الذئب طربًا وتمايل عُجْبًا وعَجَبًا وقال : أحسنتَ يا زين الغنم ولكن هذا الصوت من البمّ فارفع صوتك في الزئير فقد أخجلتَ البلابل والزرازير وزِدْني يا مغنّي قولي :

أقرّ هذا الزمان عيني   بالجمع بين المنى وبيني

ولكن يا سيّدي المغنّي هذا من أوج الحسيني * فاغتنم الجدي

الفرصة وازاح بعياطه الغصّة وصرخ صرخةً اخرى اذكرهُ الطامّة الكبرى ورفع الصوت كمَن عاين الموت وخرج من دائرة الحجاز الى العراق وكاد يحصل لهُ من ذلك الانفتاق وقال :

* شعر *

قفوا ثمّ انظروا حالي ابو مذقة اكّالي

فسمعهُ الراعي يشدو فاقبل بالمطراق يعدو فلم يشعر الذئب الذاهل وهو لحسن السماع غافل الاّ والراعي بالعصا على قفاهُ نازل فراى الغنيمة في النجاة واخذ في طريق النجاة وترك الجدي وافلت ونجا من سيف الموت المصلت وصعد الى تلّ يتلفّت بعد أن تفلّت فاقعى ياكل يديهِ ندامة ويخاطب نفسهُ بالملامة وقال : ايّها الغافل الذاهل والاحمق الجاهل متى كان على سماط السرحان الغناء والاوزان وايّ جدّ لك فاني وأبٍ مفسد جاني كان لا ياكل الاّ بالاغاني وعلى صوت المثالث والمثاني فلولا اتاك عدلتَ عن طريقة آبائك ما فاتك لذيذ غذائك ولا أمسيتَ جائعًا تتلوّى وبجمر فوات الفرصة تتكوّى وبات يحرّك ضرسهُ ونابهُ ويخاطب نفسهُ لِمَا نابهُ ويقول :

* شعر *

وعاجز الرأي مِضياعٌ لفرصتهِ حتى اذا فات أمرٌ عاتبَ القدرا

وانّما اوردتُ هذا النظير لمولانا الملك والوزير ليعلم أنّ العدول

عن طرائق الأُصول ليس الاّ داعية الفضول ولا يساعدهُ معقولٌ ولا منقول وأمورهُ ذميمة وعاقبتهُ وخيمة وناهيك ما هو كالعلم ومَن يشابه أَبهُ فما ظلم ويؤخذ من مفهوم هذه الحكم أنّ مَن لم يُشابه أبهُ فقد ظلم خصوصًا الملوك والسلاطين الذين اختار رفعتهم ربُّ العالمين وذلك لئلاّ يدخل على قواعد المملكة من حركات الاختلال والاختلاف حركة ولله يا ذا الإحسان ما قيل في شان الملك انوشروان :

* شعر *

لله درّ انوشروان من رجلٍ ما كان أعرفهُ بالوغد والسَفَل
نهاهم أن يمسّوا عنهُ قلمًا وأن يذلّ بنو الاحرار بالعمل

وكلّ هذا من عدم التدبّر والتامّل في العواقب والتذكّر ومَن ترك التأمّل والافتكار اصابهُ ما اصاب ابن آوى مع الحمار *
فقال الملك : أفدنا ايّها المختار كيفيّة هذه الاخبار *
قال الحكيم : كان في جوار بستان ماوى لابن آوى . وكان ذلك البستان كانّهُ قطعة من الجنان غفل عنها رضوان كثير الفواكه والرطب خصوصًا التين والعنب . وكان ابن آوى يدخل البستان من مجرى الماء وياكل الثمار كيفما أحبّ واختار وينصرف ذلك الخبيث وياخذ في الفساد ويعيث كانّهُ ذميم ترك الذمام او لئيم من بني اللئام . فتضرّر البستاني من اضرار ذلك الجاني وعجز عن صيدهِ

ودفع كيدهِ . فراقب دخولهُ ليختلهُ ويغولهُ الى أن رآهُ يومًا دخل وفي البستان حصل وبأكل العنب اشتغل فبادر الى نقرة المآء فسدَّها وسدَّ الطرق التي أعدَّها ودخل الى الباغي وحصّل ذلك الطاغي وحصرهُ وأوهنهُ وضربهُ الى أن أثخنهُ فذهبت قواهُ وشُلَّت يداهُ ورجلاهُ فتصوّر أنَّهُ مات لمّا سكنت عنهُ الحركات فاشحطهُ بذنبهِ ورماهُ وعلى العظام الرفات القاهُ فاستمرّ لا يفيق ملقى على الطريق الى أن تراجعت اليهِ نفسهُ وقوي جاشهُ وحسُّهُ . فتحرّك وهو هشيم وتنفّس وهو سقيم ثمّ تدحرج الى منزلهِ وقد احاط بهِ سوءُ عملهِ الى أنْ صحّ فهمهُ وقوي جسمهُ فافتكر فيما جرى من الجار القديم عليهِ من العذاب الأليم فقال : اذا كان جار العمر وقرين الدهر قصد دماري ولم يرعَ لي حقّ جواري لاجل قوت فضل عن أقواتهِ وأثبت اجرهُ في ديوان حسناتهِ فلا خير لي في جوارهِ ولا قرب دارهِ فان سلمتُ هذه المرَّة فما كلّ مرّة تسلم الجرّة والأليق بالحال الترحال وطلب الرزق بالتوكُّل والرفق والذي شقَّ الأشداق تكفَّل لها بالأرزاق وأنّ الٓه الخلق لم يعذّب بقطع الرزق * ثمّ انّهُ افتكر في جهة السفر وأين يكون المستقرّ. وكان لأبيهِ الذميم ذئبٌ وهو صاحبٌ قديم ساكنٌ في بعض الغياض المجاورة للدوح والرياض فتوجّه اليهِ وترامى عليهِ وتوسّل

بصحابة ابيهِ لديهِ وقال : صداقة في الآباء قرابة في الأبناء . وذكر لهُ حالهُ وما جرى لهُ وأنّ جارهُ خانهُ ولم يرعَ حقّهُ ومكانهُ فقصد أنْ يكون تحت ظلّهِ نازلاً في محلّهِ ليفوز بمجالستهِ ويحظى بمؤانستهِ ويقضي باقي عمرهِ في خدمتهِ ولا يفارق وفاءهُ حتّى يحصل في حفرتهِ * فتلقّاهُ بالقبول والإقبال والفضل والأفضال والبشر والبشاشة واليُسر والهشاشة وبسط لهُ فراشهُ وازال قبضهُ وانكماشهُ ودهشتهُ واستيحاشهُ وألبسهُ رياشهُ وتذكّر والدهُ وجدّد معادهُ وأسدى اليهِ من احسانهِ ما أنساهُ ذكر اوطانهِ خصوصًا جوار جارهِ وبستانهِ وأنشد بديهًا

* شعر *

فأهلاً بمحبوبٍ قديمٍ ودادهُ وسهلاً بمَن قد كان والدُهُ ابي

تحكّم على مالي وروحي ومسكني وأهلي واولادي وجاهي ومنصبي

ولم يكُن عند الذئب ما يُطعم ضيفهُ ويشبع جوفهُ فاستعدَّ للكياد وعزم على الاصطياد * فقال ابن آوى : اين تريد وتتركني وانا وحيد . فقال : آمنتُ خوفك فاريد أن اشبع جوفك ومن المعلوم أنَّ عدم الضيافة لوم . فقال : لا تتعب فانا اذهب فلي صاحب حمار كأنَّهُ تيس مستعار يصغى الى قولي ويعتمد على قوّتي وحولي فانّي اخدعهُ والى دارك اشيّعهُ فاوثقهُ حبالك وافعل معهُ ما بدا لك

فصيّرهُ لنا طعامًا فانّهُ يكفينا ايّامًا . فاستصوب الذئب راي ذلك المريب وتوجّه ذلك الغدّار لياتيهُ بالحمار وصعد تلًّا ينظرهُ ويرتقب ما يكون خبرهُ * ولمّا توجّه ابن آوى لطلب الزبون انتهى في سيرهِ الى طاحون واذا بحمار قد اوثقوهُ حبلًا واوسعوهُ ذلًّا وعلى ظهرهِ حمل قد قصم ظهرهُ وأدمى دبرهُ فطرحوا حملهُ واصلحوا جلّهُ وتركوهُ يسعى وفي المرج يرعى . فتقدّم ابن آوى اليهِ وسلّم سلام معرفة عليهِ واظهر لهُ المحبّة والوداد وسألهُ عن اهلهِ والاولاد . فقال لهُ ايّ اهل وولد وانا في هذا البوس والنكد ما بين حملٍ ثقيل وجوعٍ طويل وركوبٍ وسخَر ومصائب أُخر . فتفجّع ابن آوى وتوجّع وحولق واسترجع والتهب واضطرم وأظهر من التحرّق لِما رآه من الألم وأخذ يلومهُ على صحابة بني آدم والمصابرة على ما يلجئهُ الى الندم من ايذائهم وجفائهم وتحمّل بلائهم وعدم وفائهم وقال لهُ : حتّامَ هذا الذلّ والتطوّق بهذا الغِلّ وتحمّل انواع الهوان من البعض والكلّ : وإلامَ هذا العطش والجوع وعدم القرار والهجوع وأرضُ الله واسعة الفضاء شاسعة الأرجاء : وحتّامَ تذوب من اللغوب تحت هذا الحمل الثقيل والجور العريض الطويل . فقال : لو وجدتُ ملجأً او مسرح او مدخلًا او مطرح او مغاراتٍ او منجح لولّيتُ اليهِ وانا اجمح وتخلّصتُ من هذا البلآء

العظيم والشقآء الجسيم ولو رأيتُ احدًا شفيقًا او مصافيًا صديقًا يهدي الى الخلاص طريقًا لاستغنيتُ بآرآئهِ ولاستشفيتُ لدآءي بدوآئهِ . قال ابن آوى : يا أخي إنّي اعرف بالقرب أجمة ازهارها فائحة وانوارها لائحة وانهارها بالصفآء غادية ورائحة غياضها نضرة ورياضها خضرة ورباها حصينة وذراها امينة وانا ساكن فيها آمِن في ضواحيها ونواحيها فإن اقتضى رايك ذهبتُ بك اليها لتقف عليها فإن أعجبَتك سكنتها ووقيت النوائب وأمنتها فإنّها بمعزل عن السباع الجواسر والضباع الكواسر والجوارح النواسر لا يطرقها انسان ولا يدخلها حيوان وسترى منّي خير جار وحسن الجوار وستحمد عاقبة مقالي وما تراهُ من افعالي وتخلص من جفاء بني آدم وتبقى في نعيم منعم وتعيش معنا في عيش رغيد وعمر هنيّ سعيد وتحصّل المؤانسة ويُمن المعاشرة والمجالسة واما انا فلا اجد رفيقًا مثلك وليس لي الى صديقٍ غيرك مسلك * فلمّا سمع الحمار هذا الحوار رغب في الخلاص من الاقتناص والبلآء الذي هو فيهِ والشقآء الذي يؤلمهُ ويؤذيهِ فسلّم قيادهُ الى ابن آوى وقال أَسرِع بنا الى ما ذكرتَ من ماوى لئلّا يرانا رصد ويشعر بنا احد . ثمّ أعجلا في السير وأشبها في مسيرهما الطير فتقدّم الحمار سابقًا وأعيا ابن آوى لاحقًا فخدع وغالط وخلط

وبالط ونادى الحمار انّي إن كنتَ تعبت فاركب عليّ
فقال الحمار بل انت اركب ولا تتعب فطفر ابن آوى على
الحمار وسار لا يقرّ لهُ قرار وابن آوى يهديهِ الطريق
وهو في نهيقٍ وشهيق فلمّا قربا من الأجمة فتح عينهُ
ذلك الأكمه ورفع آذانهُ وبصرهُ فرأى الذئب قاعدًا منتظرهُ
فعرف أنّ تلك مكيدة نصبها ابن آوى ليصيده . فقال :
(تاتي الخطوب وانت عنها نائم *) ثمّ استحضر عقلهُ
المفقود واستعمل عقله الموجود وعرف أنّهُ غفل عن نفسهِ
وقد سعى برجليهِ الى رمسهِ وانتقل من المرض الذي هرب
منهُ الى نكسهِ ومن خمولهِ وذلّهِ الى تعسهِ وتكسهِ فتردّد
متفكّرًا واقام متحرّبًا متحيّرا . فقال لهُ ابن آوى : ما لك
أسرع فقد أحسن الله حالك وأمّن فكرك وانعش بالك وجعل
الى عاقبة الخير مآلك لئلّا يدركنا احد ويلحقنا ضرر ونكد
فقال الحمار : يا اخي شاهدتُ قدود أغصانٍ رشقة ونشقتُ
روائح ريحان عبقة وسمعتُ خرير الانهار واصوات البلابل
والهزار فندمتُ حيثُ لم اقطع علائقي واودّع جاري ومرافقي
وأبتّ مالي من التعلّقات وأجيء وما ورآءي التفات وانا
إن ولجتُ هذه الغيضة ورعيتُ مروج هذه الروضة ورأيتُ
ما فيها من المتنزهات الهتني عمّا لي من تعلّقات فتضيع اذ
ذاك مصلحتي وتذهب عند جيراني ودائعي وذخيرتي ولا

اقدر على مفارقة هذا المقام النزه ومجاورة مثلك أيّها الجار
النكه وقد عزمتُ على الرجوع لأصحب ما لي من مالٍ وأثاثٍ
مجموع وأجيء وقلبي مطمئنّ وخاطري عن الالتفات
مستكنّ . قال ابن آوى : اترك ما لك ولا تؤخّر أوقات السرور
وساعات الفراغ والحبور وما خلّفتهُ فهو لك وتلافيهِ أمرٌ
مستدرك . ولا بأس ان تدخل هذا المكان وتدور في هذا
البستان وتتعاهدهُ ولو مرّة وتشاهدهُ ولو نظرة ثمّ تعود وتفعل
ما تريد وبالجملة فتأخير أوقات السرور غير محمود ولا مشكور
فقال الحمار : الأمر كذلك وقاك الله شرّ المهالك ولكن
اقوى الدواعي في هذه القضيّة والحامل على الرجوع وإن كان
بليّة وصيّةٌ من أبي كانت عندي خفيّة كنتُ أعمل بها
وامشي في دربها ولا أفارقها في نومي ولا يقظتي وكنتُ
جعلتها خرزًا اعلّقهُ في رقبتي واذا لم تكن معي في مسيري
ومضجعي لا يقرّ لي قرار ولا يأخذني اصطبار ويعتريني شبه
الأوام وأرى خيالاتٍ فاسدة في المنام وتغلب على دماغي
فنون السودآء ولا أجد منها دوآء لذلك الدآء وفيها وصايا
نفيسة لروح العقل بمنزلة الاعضآء الرئيسة فاذا حصلت
على تلك الوصيّة المعينة فقضيّةُ ما سواها هيّنة ثمّ ألوى راجعًا
لا سامعًا لابن آوى ولا طائعًا * فافتكر ابن آوى أنّهُ اذا ترك
الحمار وحده فوّتهُ قصده وخيّب الله كدّهُ وأبطل حيلتهُ

وجهه فرأى لنفسه المنفعه أن يرجع معه فربّما ينجع سعيه ويسلب من الحمار وعيه فقال يا اخي شوّقتني بهذه القضيّة الى الاطّلاع على تلك الوصيّة لاستفيد منها وآخذ حظّي من الفضل عنها فلابُدّ من مصاحبتك والذهاب معك ومرافقتك . فقال الحمار : لا دافع ولا مشاقق ولا مانع أن يكون لي مرافق . فقال ابن آوى : فهل في حفظك منها شيّ فان كان فالقهِ اليّ لنتذاكر في الطريق ولا يؤثّر فينا التعب والضيق . فقال : نصيحة واحدة هي بصدقي شاهدة وهي كلمة مجملة فوائدها فيها مُجمَلة وهي إنّ أبي قال لي إيّاك أن تفارق هذه الوصيّة فإنْ فارقتها وقعتَ في بليّة وسأُخبرك بسائرها في المسير اذا تذكّرتُ أيّها البصير . ثمّ سار قليلاً وافكر طويلاً وقال : وهذه أُخرى سنحها ذكري وارتضاها فكري وهي اذا وقعتَ في شدّة ورمتَ للخلاص منها عدّة فتصوّر أصعب منها يحصل لك التفصّي عنها وتهون عليك وتعدّها نعمة أُسديَتْ اليك فتشتغل بشكرها وتستأنس بذكرها . فقال ابن آوى : احسنتَ يا حمار وهذا مقام الأخيار والصالحين والأبرار . ثمّ سار سيرةً رائقة .وقال : والله هذه نصيحةٌ ثالثة فقال : قُلْ واسلم وطُلْ . فقال : لا تحسب أنّ الصديق الجاهل خيرٌ من العدوّ العاقل فانّ علم العدوّ العاقل خيرٌ لك من جهل الصديق الجاهل . فقال ابن آوى : ما

أحلى كلامك واعلى في اللطف مقامك وأنزه منادمتك وأفكه مكالمتُك بالله شنّف المسامع فانّي لك بقلبي وجوارحي سامع . فقال : مهلاً حتى أتذكّرها واتصوّرها كما ينبغي وأتفكّرها وانتهى امر ابن آوى على تعسهِ وساقه القضآء الى رمسهِ فوصل الى الضيعة وقد وقع ابن آوى في ضيعة فالحّ على الحمار فقال اخبرني فما بقي لي اصطبار * فقال : قال لي أبي بكلام فصيح عربي لا تجعل مقامك ومقيلك بمكانٍ يكون فيهِ ابن آوى دليلك والذئب فيهِ جارك وخليلك وان جعلتَ لك في مثل هذا المكان ساحة فما ترى يكون لك فيهِ من الراحة . وان أردتَ أن تخلص من هذا المكان فانصب الآذان وارفع ذكر الله بالآذان فانّهُ ينجّيك من الضيق ثمّ رفع عقيرته بالنهيق فسمعه معارفهُ من الكلاب فسارت اليهِ مستبشرة بحسن الإياب وسارعت اليهِ واجتمعت حواليهِ فما شعر ابن آوى الّا وهو متورّط في البلوى فطفر للهرب فأدركه من الكلاب الطلب فاحتوشتهُ وانترشتهُ واختطفتهُ واقتطفتهُ ووزّعتهُ ومزّعتهُ ومرشته وقرشته فلم تُبقِ منهُ عيناً ولا أثراً وذهب دمهُ في تدبيرهِ هدرًا * وانّما أوردتُ هذا المثال وعرضتهُ على الرأي العال ليعلم أنّ الاغترار بالكلام محال والإصغآء الى الحكايات والقول البطّال من غير تنقّل من الفاظها الى معانيها وتأمُّلٍ في مآل مقاصدها وفحاويها

والاعتماد على القضايا المزخرفة والركون الى الأُمور المسفسفة لا يفيد سوى الندم وزلّة القدم والأصل في الولايات والمناصب التفكّر في الخواتيم والتأمّل في العواقب والّا فليس في ذاك سوى إضاعة العمر والمصير الى المهالك وقلتُ:

* شعر *

وأسعد مَن يكسي الولاية مَن اذا   نضا ثوبها يكسي الثناء المطرّزا

فلمّا انتهى الكلام الى هذا المقام ورأى الوزير برايهِ المنير ما في هذه الفصول من الفضل دون الفضول اعترف للملك حسيب بالفضل الحسيب والراي المصيب وحسن النصيحة والبيان وصحّة الدليل والبرهان . فاذعن للحقّ واناب الى الصدق وقال : لقد اتيتَ النصيحة من بابها واوصلتها الى طلّابها وكلّ كلامٍ قرّرته وبيانٍ حرّرته انّما هو شكرٌ احرزتهُ وطريق سداد بيّنتها وسبيل رشاد اوضحتها وباب صواب فتحتهُ وميزان احسان ارجحتهُ وعلى كلّ عاقل ومستمع وناقل أن يقتدي بهذه النصائح ويوصلها الى السائح والسابح ويغنم فوايدها وعوائدها وموائدها ويعمل بموجبها ولا يخرج عن مذهبها * ثمّ انّ الملك لمّا اصغى الى هذا الفصل وفهم ما تضمّنهُ من حكمةٍ وفضل أفرغ على اخيه واهله وذويهِ لباس الانعام ووفاهُ بمزيد الاكرام وقال : لقد قمتَ أيّها الاخ الشقيق في تدقيق النصح بالتحقيق وحللت المشكل

وجلوتَ الطريق وأدّيتَ حقّ الفتوّة وواجب المروّة وشرائط الاخوّة . والآن قد حكّمناك في ولايتنا ووليّناك على حكّامنا وقضاتنا وبسطنا يدك في الاقاليم واطلقنا لسانك في التعليم فتحكّم في الرؤوس والاطراف واحكم في الآفاق والاكناف واشرع فيما انتَ بصددهِ ولا تتقيّد بالمخالف ولددهِ . وكُن منشرح الصدر قويّ الظهر قرير العين مبسوط اليدين مبارك الطلعة حسن السيرة صبيح الوجه طيّب القلب والسريرة طويل العضد والساعد ممدوحًا عند الغائب والشاهد خليّ البال هنيّ الحال فانّك من بطنٍ كريم وفخذٍ على الطاعة مستقيم وفي الفضائل ذو قِدَم وصدق وفي الصناعة ذو صنعٍ وحذق . فلا تتوانَ فيما عزمتَ عليهِ وقصدتَ اليهِ من النصائح الملوكيّة والفصول العلميّة والعمليّة واتحفنا بتلك الحِكَم السنيّة والخصائل البهيّة والشمائل المرضيّة فانّها لذّة الأشباح وغذاء الأرواح والطراز المضيء على خلع المساء والصباح * فنهض الحكيم من مجثمهِ وقبّل ثغر الارض بثغر جبينه وفمهِ وامتثل المراسيم الشريفة واشتغل بتأليف هذه الحِكَم الظريفة وترتيبها بالعبارات اللطيفة واستطرد في تأليف هذه الحكم من حكايات ملك العرب الى وصايا ملك العجم . والله سبحانهُ وتعالى أعلم والحمد لله على كرمهِ الأتمّ واحسانهِ الأعمّ *

الباب الثاني

في وصايا ملك العجم المتميز على أقرانه بالفضل والحكم

قال الراوي حسّان معدن الظرافة والإحسان : فتوجّه الحكيم حسيب الأديب الأريب الى إيراد الأخبار عن الهداة الأخيار * فحكى أنّ ملكًا من ملوك الأمصار وسلاطين العجم يدعى شهربار كان من العجم وكان في الحكم والجود واللطف والكرم أمّةً من الأمم ملكهُ عظيم وفضلهُ جسيم وولايتهُ في أحسن إقليم حسن السياسة وافر الكياسة ثناؤه عاطر وعطاؤهُ ماطر ووابل الحشمة من سحائب هيبته قاطر . ولهُ من الأولاد وفلذ الاكباد ستّة رجال الى المجد والكرم عجال وكلٌّ لهُ في الفضل والأفضال أوسع مجال مشهور بالزعامة مخبور بالشهامة كفّهُ سخيّ وكنفهُ أريَحيّ ذو شجاعةٍ باسلة وبراعةٍ كاملة وحشمةٍ وافرة وهيبةٍ زاجرة وهمّةٍ أبحرها بالمكارم زاخرة مع رفقٍ ولين للصعلوك المسكين وصلابة في الدين . وكان الاكبر سنًّا منهم متميّزًا في هذه الشيم عنهم وأعطر طيبًا واوفر نصيبًا فكأنّهُ في شانهِ قيل :

* شعر *

هذا الذي دانت الدنيا لطلعتهِ * والدين والملك والأيّام والامم

فلمّا دنت شمس عمر ابيهم للافول وقارب غصن عيشهِ الذبول وعزم فراش الأجل على طيّ بساط حياتهِ واورد بريد الفناء منشور تسليمهِ الى متولّي وفاتهِ احضر بنيهِ واكابر ذويهِ وقال : اعلموا يا بنيّ انّي استوفيتُ نصيبي من الدنيا وارتقيتُ من لذّاتها الى الدرجة العليا وذقتُ حلوها ومرّها وعاينتُ حرّها وقرّها وعرفتُ خيرها وشرّها . ومع ارتقآئي فيها الى المنازل الفاخرة عملتُ بمقتضى (وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة . فتزوّدتُ بما وصلت اليهِ اليد وما أخّرتُ عمل اليوم الى الغد ولم تُلهِني الغفلة ولا ارخآء المهلة عن الاستحضار لساعة الرحلة بل لم ازل للرحيل مستوفزًا وللتحوّل والانتقال متجهّزًا . وانا اليوم عنكم راحل وسفينة عمري ارست بالساحل وهذا لا رجعة فيهِ ولا عودة لمسافركم اليكم تُثنيهِ . وهذا امرٌ محتوم وقدرٌ معلوم وقضآء قدّرهُ في الازل ربٌّ لا يزال ولم يزل . سلطان ملكهِ لا يبيد وكلّ الملوك تحت امرهِ عبيد لا رادّ لما قضاهُ ولا مانع لما امضاهُ ولا هادّ لما بناهُ ولا صادّ لما سوّاهُ . حكم بالموت على مخلوقاتهِ وساقه لا باب قوّة في ردّهِ ولا طاقه وقد خفّف من وجدي أنّ لي مثلكم يجدي وانّكم خلَفي ومحيوا سلَفي وفيكم مَن يقوم مقامي ولا يمحو

ايّامي ولا يدرس آثاري ولا يطفئ نار انواري . وها انا
اعهد اليكم واستخلف الله عليكم وإن كنتم الى الوصيّة غير
محتاجين ولكن (الذكرى تنفع المومنين * واعلموا أنّ ازكى
زهر تتنوّر بهِ بصائر النقل في رياض العبوديّة وَرْدُ الشكر وازكى
عطر تتعطّر بهِ مجامر العقل في غياض الحريّة وردُ
الفكر وأنّ الشكر قيد النعَم وسببٌ لازدياد الفضل
والكرم وقد قيل : (لئن شكرتم لازيدنّكم . فمَن
شكر القليل استحقّ الجزيل وأنّ الفكر يعلّي المقامات
ويعطي الكرامات . واحتملوا الاذى تامنوا ولا تهِنوا لنائبةٍ ولا
تحزنوا . ولا تظنّوا الجود والكرم في التبذير والبخل والتقتير
من جملة التدبير . وأتبعوا الاقوال الافعال فلا خير في قوّالٍ ليس
بفعّال . ولا تشوّهوا محاسن شيبكم بزخارف الكذب فإنّ
الصدق اوّل ما ينبغي واعظم ما يجب ووسخ كلمة واحدة
بالكذب ناطقة لا ينقيهِ ألف كلمة صادقة ومَن تعوّد
الكذب في نطقهِ لا يُعتمَد على صدقهِ . وداروا الاعداء
مداراة الاوِدّاء يزد صديقكم ويكثر فريقكم ويجلّ ودودكم
ويقلّ عدوّكم وحسودكم . وعليكم بملازمة الأخيار وأيّاكم
وصحبة الأشرار ولا تطلبوا للرغبة في صحبة الأشرار سبيلا
ولا تقيموا على ذلك ابدًا دليلا فمن غالط نفسهُ في مجالسة
الأشرار وطلب وفآءً ممّن جُبل على طبيعة الفجّار فقد

أوجع نفسهُ باقوى كيّة واصابهُ ما اصاب الفلّاح مع
الحيّة * فسأل الاولاد والدهم المالك عن كيفيّة ذلك *
فقال : ذُكر أنّ واحدًا من الأكياس طلب العزلة عن
الناس ولازم انقطاعه وانقطع عن الجمعة والجماعة
واشتغل لإقامة أودهِ بالزراعة وانعزل في ذيل جبل .
وصاحب حيّة كانت تانس اليهِ بكلامهِ وتاكل من فضلات
طعامهِ فترقّت بينهما المعاهدة الى أن بلغت الى المعاقدة
بأن تكون صادقة خالية عن المماذقة ولا تكون كصحبة
ابنآء الزمان تكرع من الغدر في غدران ولا مشوبة بنفاق
ولا مدخولة بريآء وشقاق وأن تنعقد بينهما المودّة والاخآء في
حالتي الشدّة والرخآء . فمرّا على هذا مدّة وكلّ حافظ عهد
مراعٍ صحبتهُ وودّه . وكان الرجل اذا عنت لهُ قضيّة عرضها
على الحيّة واستشارها وأخذ اخبارها وتخرج هي اليهِ وتترامى
على رجليهِ * ففي بعض الايّام وعامٍ من الاعوام وقع بردٌ
شديد وثلجٌ وجليد . فرأى الحيّة وقد سقطت قواها وخمدت
أعضاها ووقعت في شرّ حال وبردٍ ووبال . فحملتهُ الشفقة
والصداقه والعهد الذي أحكما وثاقه على أن آواها وحملها
في مخلات حمارهِ وأدناها ووضع المخلات في راس البهيم
وتوجّه لضرورة ذلك الفهيم . فحسّت الحيّة بنفس أبي زياد
وتحرّك عرق العدوان القديم وعاد وفعل خبثها خاصيّتهُ

المالوفة ولعب سمّها سيمته المعروفه متبعًا حديثه حرامٌ على النفس الخبيثه أنْ تخرج من الدنيا حتّى تسيء لِمن أحسن اليها . فعضّت الحيّة شفة الحمار الرقيقه عضّة محبّ لاقى في خلوةٍ عشيقه وبرد مكانهُ من حرّها وهربت الحيّةُ الى جحرها . وانّما أوردتُ هذا المثال لتعلموا يا ذوي الأفضال أنّ مَن صحب الأشرار ورغب في مودّة الفجّار لا يامن العثار ولا يسلم من الأنكاد والبوار . وقد قيل : إنّ صحبة الأخيار كجرّة النضار بطيئة الانكسار سريعة الانجبار وصحبة الاشرار كجرّة الفخّار سريعة الانكسار بطيئة الانجبار . وبالجملة فما في صحبة الناس فائدة ولا في مخالطة الناس كبير عائدة وقد قيل :

* شعر *

ولم ترَ من بني الدنيا سلامًا * فإن ترهُ فأبلغهُ سلامي

وينبغي أن تكون غيبتكم وحضوركم واحوالكم واموركم واجتماعكم وفراقكم وصلحكم وشقاقكم في حالتي السرّآء والضرّآء والبوس والرخآء على وتيرة واحدة وهي الخالية عن الأغراض الفاسدة . اعني اذا رضيتم فبالحق واذا غضبتم فللحق واذا توجّهتم فللحق ولا تبطروا في حالة النِعَم ولا تضجروا في حالة النِقَم وعلى كلّ حال فلا يقع بينكم اختلال وذلك بتفرّق الكلمة واختلافها وتصادمها وعدم ائتلافها فإنّه قيل :

* شعر *

إنّ الذليل الذي ليست لهُ عضد * مثل الوحيد بلا مال ولا عِدَد

* وقيل ايضًا *

كونوا جميعًا يا بنيّ اذا اعترى * خطبٌ ولا تتفرّقوا أجنادا
تأبى القداح اذا جُمعن تكسّرا * واذا افترقن تكسّرت أفرادا

ولا تثقوا بأحد من الكبار والصغار الّا بعدَ الاختبار في الشكّ والضعف والرفق والعنف والبؤس والرخاء والخوف والرجآء . ولا تقدّموا على قديم الأصحاب احدًا ولا على الموثوق بهم مَن لا جرّبتموهُ ابدًا وقد قيل في المثل المشهور النحس المعروف خيرٌ من الجيّد المنكور وقيل ايضًا : خير الأشيآء جديدها وخير الأصحاب قديمها . واسّسوا قواعد أُخراكم في دنياكم واغتنموا السعادة الباقية من الدار الفانية وعاملوا تجدوا وازرعوا تحصدوا وتفكّروا من أوّل يومكم أحوال عزّكم ومن أوائل عمركم اواخر دهركم ومن ليلة الهلال سرار شهوركم فكلّ مَن لهُ صدق قَدم يتفكّر وهو موجود حالة العدم ومن زمان شبابه حالة الهرم كما فعل التاجر المراقب وما آل اليهِ في العواقب * فقبّل الارض الأولاد وقالوا مولانا السلطان أعظم مَن أفاد لو تصدّق على عبيده الطائعة ببيان تلك الواقعة *

قال الملك : ذكر الحكمآء وذوو الفضل من العلمآء أنّهُ كان

في بعض الأمصار تاجرٌ من أعيان التجّار ذو مالٍ جزيل وجاهٍ عريض طويل ونعمةٍ وافرة وحشمٍ وخدمٍ متكاثرة من جملتهم غلامٌ مخايل السعادة من جبينه لائحة وروائح النجابة من اذيال شمائله فائحة قد أفنى عمرهُ في خدمة مولاهُ ولم يقصّر لحظةً في طلب رضاهُ . فقال لهُ سيّدهُ في بعض الايام لك عليّ حقّ يا غلام وانا أريد مكافاتك واطلب موافاتك . فتوجّه هذه المرّة في هذه السفرة فمهما ربحتَ فهو لك بعد أن أُعتقك من قيد رقّ اشغالك . ثمّ اوسق مركبًا وفتّح لهُ في السير شرقًا ومغربًا ووصّاهُ باشياء امتثل مرسومها والتزم منطوقها ومفهومها . فقال لهُ مولاهُ : سأرفعك على أضرابك وأُغنيك عن أمثالك وأصحابك وأجعلك كأكبر مَن في الدنيا ولجميع رفقتك بمنزلة المولى * ثمّ اخذ في تعبية البضائع وأوسق مركبهُ المتاجر والمنافع وسلّمهُ الى الهوآء والمآء بعد أنْ توكّل على ربّ السمآء . فسار بعض ايامٍ وهو في أهنى مرام وأطيب عيش ومقام المآء رائق والهوآء موافق والنكد مفارق والسرور مرافق حتّى كانّهُ نوح وخضرة الملاح وموسى وفتاهُ حافظًا الالواح وبينهما السفينة من نسف العواصف أمينة تجاري السهم والطير وتباري الدهم في السير . فاذا بالرياح هاجت والأمواج ماجت . وأشباح البحر تصادمت وأطواد الامواج على العرفآء تلاطمت فعجز ذلك الملّاح والحافظ ونشر مذهب ابنه أبو الجاحظ وترك شيمة

الوقار والسكينة ورقم نقش الحروف في الواح السفينة فشاهدوا من ذلك الهوآء الأهوال وغدا قاع البحر كالجبال وصار ذلك الغراب بمَن فيهِ من الأصحاب كاحوال الدنيا بين صعودٍ وهبوط وقيام وسقوط طورًا يستامنون الأفلاك ويناجون الأملاكَ وينهون اخبار ظلمات صاحب الحوت الى السمّاك وطورًا يهبطون الغور وينظرون قرن الثور وربّما مرقوا منهُ من تحت الزور فلم يزالوا عاجزين حيارى سكارى وما هم بسكارى يتناشدون

* شعـــر *

وفلكٍ ركبناهُ والبحر ذو * هوآءٍ فثار وحار ومارا
فطورًا علونا السمآء وطورًا * رمتنا اراضيهِ منها انحدارا

وآخر الامر نسفت السفينة الرياح والقى كاتب الحاصب الى كلّ حرفٍ من حروف الجبال لوحًا من الالواح واوعر الله سهلها وخرقها فاغرقها واهلها وذهب البحر باموالها وارواحها وتعلّق الغلام بلوح من الواحها واستمرّ تقذفهُ الامواج وتصدم به أثباج البحر الهيّاج الى أن وصل الى ساحل فخرج وهو كئيبٌ ناحل وصعد الى جزيرة فواكهها غزيرة ووصفها عجيب ليس بها داعٍ ولا مجيب * فجعل يمشي في جنّاتها الى أن أدّاهُ التوفيق الى فم طريق فسار في تلك الجادّة وهداية الله لهُ مادّة . فانتهى بهِ المسير الى أن ترآءى لهُ سواد كبير وبلغ مملكة عظيمة وولاية جسيمة ورأى على بُعدٍ مدينة مسوّرةً

حصينة . فعمد الى ذلك البلد وتوجّه نحوها وقصد فاستقبلهُ
طائفة من الرعال نسآء ورجال يتبعهم جنود مجنّدة وطوائف
محشّدة مع طبول تُضرب وفوارس تلعب وزمور تزعق وألسنة
بالثنآء تنطق حتّى اذا وصلوا اليهِ تراموا عليهِ وأكبّوا بين
يديهِ يقبّلون يديهِ ورجليهِ مستبشرين برؤيته متبرّكين
بطلعتهِ ثمّ ألبسوهُ الخلع السنيّة وقدّموا لهُ فرسًا عليهِ
بكنبوش ذهب وسرج مغرق ووضعوا لهُ التاج على المفرق
ومشوا في الخدمة بين يديهِ والجنائب في المواكب تجرّ لديهِ
ينادون حاشاك واليك سلطان الناس قادم عليك حتّى
وصلوا الى المدينة ودخلوا قلعتها الحصينة ففرشوا شقق الحرير
ونثروا النثار الكثير واجلسوهُ على السرير وأطلقوا مجامر
الندّ والعبير ووقف في خدمتهِ الصغير والكبير والمامور والأمير
والدستور والوزير وانشدوهُ

* شعر *

قدمتَ قدوم البدر بيت سعودهِ * وأمرك فينا صاعدٌ كصعودهِ

(وقالوا) اعلم يا مولانا أنّك صرت لنا سلطانا ونحن كلّنا عبيدك
وتابعوا مرادك ومريدك فافعل ما تختار . وتحكّم في الكبار منّا
والصغار وأمر مالك من مرسوم فامتثالهُ علينا محتوم . وما
منّا الّا لهُ مقام معلوم * فجعل يتفكّر في أمرهِ ومبداهُ ويتأمّل
ما صار اليهِ ويتدبّر في منتهاهُ فقال : إنّ هذا الأمر لابدّ

لهُ من سبب ولابدّ لهُ من آخر ومنقلب فإنّهُ لم يصدر
في عالم الكون سدى وأنّ لهذا اليوم من غير شك غدا
وأنّ الصانع القديم القادر الحكيم السميع العليم البصير الحيّ
المريد الكريم لم يقدّر هذه الأفعال على سبيل الإهمال ولم
يُحدث حدثًا لعبًا ولا عبثًا . وجعل يلازم هذه الأفكار آنآء
الليل وأطراف النهار وهو مع ذلك قائمٌ بشكر النعمة ملازم
باب مولاهُ بالطاعة والخدمة واضع الاشيآء في محلّها
والمناصب في يد اهلها ملتفت الى احوال الرعيّة عامل
بينهم بالعدل والسويّة متعهّد امور الكبار والصغار بانواع
الاحسان واصناف المسارّ مؤسّس قواعد المملكة والسلطنة على
اركان العقل والعدل مهما امكنه متفحّص عن مصالح المملكة
سالك مع كلّ من أرباب الوظائف ما يقتضي مسلكه *
ثمّ وقع اختيارهُ من بين اولئك الجماعة على شابّ جليل
البراعة لهُ في سوق الفضل والوفآء اوفر بضاعة متّصف
بانواع الكمال متحلّ بزينة الأدب والجمال . فاتخذهُ وزيرًا وفي
أمورهِ ناصحًا ومشيرًا فجعل يلاطفهُ ويرضيهِ ويكرمهُ ويدنيهِ
ويفيض عليهِ من ملابس الانعام وخلع الأفضال والإكرام ما
ملك به حبّهُ قلبهُ واستصفى خالص ودّهِ لبّهُ وسكن في
سويدآئهِ وتمكّن بهِ من ضمير احشآئهِ الى أنْ اختلى بهِ
وتلطّف في خطابهِ واستنصحهُ في جوابهِ وسألهُ عن أمر إمرتهِ

وموجب رفعته وسلطنته من غير معرفة الرفاق ولا أهليّة ولا استحقاق ولا هو من بيت الملك ولا في بحر السلطنة له فلك ولا معه مال ولا خيل يهديها ولا رجال ولا معرفة يدلّى بها ولا شجاعة وفضيلة يهتدى بتهذيبها * فقال ذلك الشابّ في الجواب : اعلم ايها الملك الاعظم أنّ هذه البلدة وعساكر اقليمها وجنده قد اخترعوا امرا واصطلحوا على عادة أُخرى سالوا الرحمن أن يقيض لهم في كلّ اوان شخصًا من جنس الانسان يكون عليهم ذا سلطان فاجابهم الى ذلك فسلكوا في امره هذه المسالك . وذلك أنّهم في اليوم الذي قدمتَ عليهم يرسل الله تعالى رجلًا من عالم الغيب اليهم فيستقبلونه كما استقبلوك ويسلكون معهُ طريقة الملوك من غير نقص ولا زيادة وقد صارت هذه لهم عادة فيستمرّ عليهم سنة في هذه المرتبة الحسنة . فاذا انقضى الاجل المعدود وجآء ذلك اليوم الموعود عمدوا الى ذلك السلطان وقد صار فيهم ذا امكان ومكان وعلقة ونشب واخآء ونسب وثبتت لهُ اوتاد وصار لهُ اهلٌ واولاد وجرّوه برجله من التخت وسلبوهُ ثوب العزّة والرخت والبسوهُ ثوب الذلّ والنكال واوثقوهُ بالسلاسل والأغلال وحملهُ الاهل والاقارب واتوا بهِ الى بحرٍ قريب فوضعوهُ في قارب وسلّموه الى موكّلين ليوصّلوهُ الى ذلك الجانب فيوصّلونهُ الى ذلك البرّ وهو قفرٌ أغبر ليس بهِ أنيس ولا

رفيق ولا جليس ولا صديق ولا زاد ولا مآء ولا نشوء ولا نمآء ولا مغيثٌ ولا معين ولا قريبٌ ولا قرين ولا قدرة ولا إمكان على الوصول الى العمران ولا ظلٌّ ولا ظليل ولا الى الخلاص سبيل ولا الى طريق النجاة دليل . فيستمرّ هناك عريانًا وحيدًا فريدًا طريدًا الى أنْ يهلك عطشًا وجوعًا لا يملك إقامةً ولا يستطيع رجوعًا . ثمّ يستانف اهل هذه البلاد مالهم من فعل معتاد فيخرجون بالأُهبة الكاملة الى تلك الطريق السابلة فيقيض اللهُ تعالى لهم رجلا فيفعلون معه مثل ما فعلوا مع غيره قولًا وعملا وهذا دابهم وديدنهم وقد ظهر لك ظاهرهم وباطنهم * فقال ذلك الغلام الأملح لذلك الوزير المصلح : فهل اطّلع احد ممّن تقدّم على عاقبة هذا المآتم . قال : قد عرف ذلك وتحقّق انّه عن قريب هالك ولكن غرور السلطنة يُلهيهِ وسرور التحكّم والتسلّط يطغيهِ وحضور اللذة الحاصلة لسوء العاقبة يُنسيه ولا يفيق من غفلته ويستيقظ من رقدته الّا وعامه قد مضى والأجل المضروب قد انقضى وقد أحاطت بهِ نوازل البلآء وهجم عليه بوازل القضآء فيستغيث ولا مغيث وينادى الخلاص ولات حين مناص * فلمّا سمع الغلام هذا الكلام أطرق مفكّرا وبقى متحيّرا وعلم انّه لابدّ للايّام أنْ تمضي وهذا الأجل المضروب ينقضي وأنّه إنْ لم يتدارك أمرهُ ويتلافَ خيرهُ وشرّهُ

ويتدبّر حالهُ ومصيرهُ ومآلهُ هلك هلاك الأبد ولم يشعر
بهِ أحد فأخذ يفكر في هذا الخلاص والتفصّي من شرك
الاقتناص * ثمّ قال للوزير الناصح الخبير: أيّها الرفيق الشفيق
والنصوح الصديق جزاك اللهُ خيرا وكفاك ضيمًا وضيرا.
إنّي قد فكرتُ في شيء ينفع نفسي ويحيها ويدفع شرّ هذه
البليّة التي وقعتُ فيها وأُريد معاونتك واطلب مساعدتك
فانّي رأيتك في الفضل متميّزًا بين أقرانك فائقًا في محاسن
الشيم على أصحابك وإخوانك. فقال: افعل ياذا الزعامة
وحبًّا لك وكرامة * قال: اعلم أيّها الصاحب الأعظم أنّ
الرجوع الى هذا المكان الذي كنتُ فيهِ خارج عن الإمكان
والإقامة في هذا الملك المعهود إنّما هي الى أجلٍ معدود
ووقتٍ محدود وانقضاؤهُ على البتات وما كلّ هو آتٍ آت.
وكيفيّة الخروج قد عرفتُ وطريقها تقدّرتُ ووصفتُ ولهذا
قيل ياذا الفضل الجزيل دخلنا مضطرّين وأقمنا متحيّرين
وخرجنا مكرهين ولم يتّجه مخلص من هذا المقتنص الّا
طريقٌ واحد وسبيلٌ غير متعاهد. وهو أنْ تاخذ طائفةً من
البنّائين وجماعةً من المهندسين والنجّارين وتذهب بهم أيّها
الوزير الى مكانٍ اليهِ تصير فتأمرهم أنْ يبنوا لنا هناك
مدينة ويشيّدوا لنا فيها أماكن مكينة ومخازن وحواصل
وتملأها من الزاد المتواصل من المآكل الطيّبة والأطعمة

والأشربة اللذيذة المستعذبة. ولا تغفل عن الإرسال ولا تختر
للإمهال والإهمال في الظهيرة والأسحار والغدوّ والآصال اذ أوقاتنا
محدودة وأنفاسنا معدودة وساعةٌ تمضي منها غير مردودة
واذا فات شيء من ذلك الوقت فلا نعوّض عنهُ الّا الخيبة
والمقت فننقل هناك ما يكفينا على حسب طاقتنا ومقدار
قدرتنا واستطاعتنا فاذا تزوّدنا منها لم نرحل عنها بحيث
اذا نُقلنا من هذه الديار وطُرحنا في تلك المهامة والقفار
وجفانا الأصحاب وتخلّى الأخلّاء عنّا والاحباب وانكرنا المعارف
والاودّاء واحتوشتنا في تلك البيداء فنون الداء نجد ما نستعين
بهِ على اقامة الأود مدّة اقامتنا في ذلك البلد * فأجاب
بالسمع والطاعة واختار من المعماريّة جماعة واحضر المراكب
وقطع البحر الى ذلك الجانب. وجعل الملك يُمدّهم بالآلات
والادوات على عدد الأنفاس ومدى الساعات الى أنْ أنهى
المعماريّة العمارة وأكملوا حواصل الملك وداره واجروا فيها
الأنهار وغرسوا فيها الأشجار فصارت تأوي اليها الطيور
بالليل والنهار ويترنّم فيها البلبل والهزار بأنواع التسبيح
والأذكار وغدت من أحسن الأمصار وبنوا حواليها الضياع
والقرى وزرعوا منها الوهاد والثرى. ثمّ أرسل اليها ما كان
عندهُ من الخزائن ونفائس الجواهر والمعادن وأرسل من
ظريف التحف اليها ومن حاجاته المعوّل عليها بحيث لو

أقام بها سنين قامت بكفايته وفضّلت خزائنها عن حاجته ، وأكثر من ارسال ما يلزم من الأدوات والأشربة والمطعومات وجهّز الخدم والحشم وصنوف الاستعدادات من النعم فما انقضت مدّة ملكه ودنت أوقات هلكه الّا ونفسهُ الى مدينته تاقت وروحه الى مشاهدتها اشتاقت وهو مستوفزٌ للرحيل ورابضٌ للنهوض والتحويل * فلمّا تكامل له في الملك العامّ لم يشعر الّا وقد أحاط به الخاصّ والعامّ ممّن كان يفديه بروحه من خادمه ونصوحه ومَن كان سامعًا لكلمته من أعيان خدمه وحشمته ، وقد تجرّدوا لجذبه من السرير ونزع ما عليه من لباس الحرير ومشوا على عادتهم القديمة وسلبوهُ الحشمة الجسيمة ومملكته العظيمة وزالت الحشمة والكلمة والحرمة وشدّوا وثاقه وذهبوا به الى الحراقه ووضعوهُ وقد ربطوهُ في المركب الذي هيّأوهُ وأوصلوه الى ذلك البرّ من البحر ، فما وصل اليه الّا وقد أقبلت خدمه عليه وتمثّلت طوائف الحشم والناس لديه ودقّت البشائر لمقدمه وحلّ في سروره المقيم ونعمه ، واستمرّ في أتمّ سرور واستقرّ في أوفر حبور * ثمّ قال الملك للاولاد وفلذ الاكباد : وانّما اوردتُ هذا المقال على سبيل المثال فاصغوا الى حسن التنظير حتى أُبيّن لكم النظير وعُوا ما أقول بآذان القبول وتأمّلوا رموز المعاني من هذه الالفاظ التي اخجلت المثاني ، ثمّ تفكّروا وتبصّروا وبعد

التذكّر والتبصّر تدبّروا * أمّا ذلك العامّ المعهود فانّهُ الولد في أوّل الوجود ، وأمّا المركب الذي أُودعهُ فهو بطن امّه الذي استودعهُ ، وانكسار السفينة هو انشقاق المشيمة ، والجزيرة التي خرج اليها فهي الدنيا التي دخل عليها ، والناس الذين استقبلوهُ فأقاربه وذووهُ واهلوهُ يربّونه بالملاطفة والدلال ويعاملونه بالاكرام والأفضال ، وذلك الشابُّ الذي هو وزيرهُ فهو عقلهُ ومن إيمانه نورهُ ، والسنة المضروبة أجلهُ المحتوم وعمرهُ المعدود المعلوم ، ونزولهُ عن سريره عبارةٌ عن آخرته ومصيره وخروجه من الدنيا بالإكراه وشروعه في دخوله الى أُخراه ، والبحر الثاني الذي طُرح فيه هو أحوال ما يعاينهُ عند الموت ويعانيه ، والبرُّ القفر اللحد والقبر * فالسعيد يتفكّر في كيفيّة اموره وأحواله ومبدأ أمره ومآله ، ثمّ يتدبّر في قلّ هذا وجلّه ويستعد لما خُلق من أجله ، ويتحقّق أنّ الاقامة في الدنيا يسيرة وهي بالنسبة الى الاقامة بدار البقاء قصيرة ، وأنّهُ اذا جاء وقتهُ المحتم لا يتأخّر عنه ساعة ولا يتقدّم ، فيأخذ في الازدياد ويتهيّأ ما امكن ليوم المعاد ويعدّ نفسه كالمسافر الذي أتى بعض الحاضر فلا يقيم أكثر من يوم وقد رحل عن القوم كما قيل *

* شعر *

الا انّما الدنيا كمنزل راكب * اناخ عشيًّا وهو بالصبح راحل

الى سفر طويل زادهُ قليل قفارهُ يابسة وطرقهُ دامسة لا انيس فيهِ ولا رفيق ولا مصاحب ولا صديق ولا دليل ولا خليل ولا مغيث ولا مقيل ولا مآء ولا مَعين ولا صاحب ولا معين . فيهيّئ لهذا السفر بقدر الامكان ما قدر من الزاد والمآء والمركب والكلأ ونور الطريق والمسافر والرفيق والخادم والانيس والمنادم والجليس . ويمهّد المضجع للمبيت والمقيل ويهيّئ الموضع في النزول والرحيل وبالجملة لا يترك من افعال الخير شيئًا الّا فعلهُ ولا مجملًا الّا فصلهُ ولا متأخرًا الّا قدّمهُ ولا تعاملاً في مبايعةٍ الّا اسلفهُ واسلمهُ . وليعلم أنّ كلّ ذلك محتاج اليهِ ومصروف لديهِ اذا نُقل الى دار البقآء واقبل عليهِ فاذا جآء وقت الرحيل ونادى منادي الانتقال والتحويل وجد ما كان عملهُ حاضرًا وكلّ ما قدّمهُ الى رياض الخير نزهًا ناضرًا *

وامّا الشقيّ الغافل الغبيّ الذي اهمل امرهُ ونسي الله وذكرهُ واهمل ما خُلق لاجلهِ وتاه في بيدآء الضلال وسبلهِ فقد اغترّ بهذه اللذّة اليسيرة في تلك المدّة القصيرة واستمرّ سكران في ميدان العصيان من خمرة الطغيان وتردّى لباس الردى (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فانهدمت عمارتهم وما ربحت تجارتهم حتّى اذا جآءهُ الوقت المعلوم ونزل بهِ الأجل المحتوم ونظر أمامهُ وترآءت لهُ الاعلام فأمّا إن كان من المكذّبين الضالين فنزل من حميم وتصليهِ جحيم نزل من دار

الغرور الى دار الشرور فندم ولا ينفعهُ الندم وقد زلّت بهِ القدم فخاب مآبا وقال : (يا ليتني كنت ترابا * فانظروا يا اولادي وعدّتي وعتادي حال الفريقين وتامّلوا ما للطائفتين فقد بذلت في النصيحة جهدي واستخلف الله عليكم من بعدي * فقال اكبر ولدهِ وهو لسلك محاسنهم واسطة عقدهم : جزى الله مولانا عن شفقتهِ خيرًا واولاهُ على حسن النصيحة اجرًا وذخرًا فلقد أُحييت قلوبًا بزواهر حكمك وشنّفت اسماعًا بجواهر كلمك . ولكن إخوتي وإن كانوا من أُولي العلم وارباب النباهة والحلم والعقل الغزير والفضل الجمّ الكثير والراي المصيب المنير غير أنّ حدّة الشباب عليهم غالبة ودواعي النفس بشهواتها مطالبة لاسيّما إن حصلوا على ملك عريض وكرعوا من البانه المحض والمخيض فإن اتّفق مع ذلك موافق منافق او صاحب ممارق او صديق خدوع او مباطن مكّار هلوع أضلّهم عن سواء السبيل وصار الى طريق المخالفة أوضح دليل . فتتحوّل صداقتنا عداوة وتتبدّل فيها بالمرارة الحلاوة فينتزع الرخآء ويتمزّع الإخآء ويبغي بعضنا على بعض وتعود الأُخوّة على موضوعها بالنقض ويتولّد من ذلك الفتن ويظهر من العداوة ما بطن . فالرأي عندي انّهُ ما دام زمام التصرّف في يد الإمكان يتصرّف مولانا السلطان على مقدار جهدهِ في مصلحة عبدهِ بحيث لا اكون مضغة للماضغ ومشغلة لكلّ

قلب فارغ ولا يسلّمني لاسباب الحوادث ومخاليب الدهر الكوارث . فانّهُ بذلك يكفيني من نوائب الزمان ما يدهيني والعياذ بالله المنّان من مفارقة مولانا السلطان جعلني الله تعالى فدآءهُ ولا أراني فيهِ يومًا اساءهُ فليأخذ بيدي من هذه الورطة وليرحني من شرّ هذه الخطّة فانّهُ قد قيل : مَن لا يقيل المستقيل ولا يغيث المستغيث ولا يتقيّد بمعنى هذا الحديث ولا يدفع غصّة هذه القصّة ويفوّت عند الامكان الفرصة يصيبهُ من حوادث الزمان ما أَصاب بعض الجرذان الذي لم يخلّص الغزالة الواقعة في شرك الحبالة * (قال السلطان) : قُل لي كيف كانت قصّتهُ وما كانت قضيّتهُ *

فقال : ذُكر أنّ بعض الصيادين المحتالين الكيّادين نصب حبالة ليصيد غزالة فعلق بها مهاةً من المها وطلبت مجالا واضربت يمينًا وشمالا فوقعت عينها على جرذ من الجرذان عتيد يتفرّج عليها من بعيد . فنادتهُ بلسانٍ ذلق وأثنت عليهِ بلسانٍ طلق وقالت : يا فارس ميدان المروّة والنجدة والفتوّة والموصوف بالشطارة والقوّة هذا وقت الكرم وأوان استعمال مكارم الشيم وفعل المعروف واغاثة الملهوف وصرف الهمّة الى كشف الغمّة نعم وإن كانت طرائق الصداقة بيننا معدومة ونقوش التنافر على صحف خواطرنا مرقومة ونقود المعرفة والإخاء في جنب التباين غير مبذولة

ومرآة التوافق فيما بيننا غير مصقولة لكن في الشدائد يعرف الإخاء والإخوان كثيرون في الرخاء كما قيل :

* شعــر *

دعوى الإخاء على الرخاء كثيرة * بل في الشدائد تعرف الاخوان

وقد قصدتك في الخلاص وقرض شرك الاقتناص ونجاتي من سكّين القناص فاقرض هذه الشبكة بأسنانك الحِداد وافتح بيني وبينك باب الوداد فانّي اصلح لك صديقا وانا اكون لك عتيقا واعرف لك الجميلة فاصير عبدًا لك الى الممات وأدركني قبل الوفاة والفوات ومع هذا يا ذا الجاه لا يكن عملك الّا لله فقد قيل :

* شعر *

من يفعل الخير لا يعدم جوائزهُ * لا يذهب العرف بين اللهِ والناس

فقهقه الجرذ وقهقر ولعب بإبطهِ وتمسخر وتمرّغ يمينًا وشمالا وتقصّف طربًا ودلالا وسخر بالغزالة وكلامها وبادر الى عذلها وملامها وتبرّد بحرارتها وتحلّى بمرارتها وقال : شهوتكِ الرديّة وحرص نفسكِ الشقيّة رمياكِ في هذه البليّة . وتحرّكت سجيّتهُ الذميمة وطبيعتهُ اللئيمة وأضرط بها ورقرق وطفر وصفّق وقال : عصب الرأس الصحيح من الحبل الصريح والتعرّض لموارد الفناء من دلائل البلاهة والعناء . ولو تعرّضتُ لشبكة الصيّاد حكمتُ على عقلي بالفساد وحاشى فكري المصيب ورأيي النجيح النجيب أَنْ أجلب

لنفسي مرضا وأصيّرها سهمًا للصيّاد وغرضا . ولو فعلتُ ذلك لتصدّيتُ للهالك وتصدّى لي الصيّاد فعاداني وترصّد لي وآذاني وحفر بالمعول وكري وأوقد النيران في جحري فسلبني قراري وبغيتي ومساري وأقلّ الأقسام أنْ يجليني عن دياري إن خلصتُ من الموت بسلام ولا أستطيع بعدها المقام وقد قيل : لا تسلك غير طريقك ولا تصاحب سوى رفيقك . وأمّا أنا فما لي بصداقتك حاجة فدعي عنك الطمع والحاجة . ثمّ هزّ عطفيه ونظر الى كتفيه وتبختر في مشيته وتمايل في غشيته وولّى في تيهه وكبره يريد الدخول في جحره . وقد ترك الظبي آيسًا في حبائل فكره وضرّه وحبائك شدائده وشرّه . فقيّض الله له حدأة خطفته ونبأت به في الهوآء نبأة * وأمّا الظبي فلمّا أيس من الجرذ واعانته توجّه الى الرحمن بكلّيته وقطع آماله عن كلّ أحد ورفع ضرورته الى الواحد الصمد وأخلص نيّته الصادقة وقطع من الخلائق علائقه . ثمّ جآء الصيّاد فأوثقه وقصد به البلد فصادفه شخصٌ فاشتراه منه وأعتقه * ولم أورد هذه اللطيفة الى المسامع الشريفة الّا ليعلم أنّ التواني عن فكّ المعاني واغاثة الملهوف أمرٌ مخوف لا يرغب فيه ذو عقل وباغاثة الملهوف وأخذ يد الجار ورد النقل . ولا بُدّ من تامّل أعقاب القضايا قبل نزولها وطلب طريقة رفعها قبل حلولها

والخلاص من ورطتها قبل بغتتها . واسأل من صدقات مولانا الذي بالاحسان أولانا الارشاد الى عمل طريقة لطيفة نظيفة نقيّة خفيفة تكون عدّتي في شدّتي مبقية للودّ بيني وبين إخوتي * قال الملك نعم ما قلتَ وحيثُ في ميدان الصواب جلتَ فاعلم : أنّ في مملكتي ملوكًا كبرآء وأساطين أمرآء ورجالاً وجنودا وأبطالاً وأسودا انا أنشأتُهم ولنصرة مثلك أعددتُهم كلٌّ منهم ذو وفآء ومودّة وصفآء وباطنه خالٍ من المكر والجفآء يقومون معك بأدنى اشارة ويحفظون جانبك من النهب والغارة وخصوصًا فلان أمير ممالك خراسان فانّه أفصحهم خطابا وأمنعهم جنابا وأوسعهم في العقل رحابا وأشدّهم محبّة وأقربهم مودّة وقربة وأوفاهم عهدا وأصفاهم ودًّا سينجدك في حال اضطرارك اليه فلا يكون اعتمادك بعد الله الّا عليه مع أنّي ساعلمهم بجمعهم وآمرهم بايصال نفعهم وأوكّد عليهم في ذلك فلا يخطر شيء من النكد ببالك * فقبّل ولثم الأرض ووقف في مقام العرض وقال : أيّها الملك المجاب إنّ محبّة غالب الأصحاب وصداقة أكثر الأحباب ومَن يدّعي خلوص المودّة ويبذل ظاهرًا في ذلك جهده إنّما هي لأغراض وناشئة عن أعراض وأمراض فاذا حصل ذلك الغرض وزال العرض والمرض بردت عن المحبّة قلوبهم وفرغت من نقد المودّة جيوبهم

وظهر بالجفآء وعدم الوفآء عيوبهم . ومن جملة ذلك الحسد الذي لم يخلُ منه جسد على نيل مرتبة او البلوغ الى منقبة وتمنّي زوال نعمة المحسود وعدم الرضا بقضآء المعبود فاذا لم يحصل المراد تبدّل القرب بالبعاد والمحبّة بالبغضة والصحّة بالمرضة (كما جرى لنديم) الملك الظاهر مع صديقه المسافر * قال الملك لولده : أَخبرني كيفيّة نكده وما تولّد من قضيّة حسده *

قال الولد : أَخبرني المملوك أنّهُ كان عند بعض الملوك جماعة من العلمآء وطائفة كثيرة من الندمآء كلٌّ منهم لطيف المحاورة نظيف المعاشرة خفيف المكاثرة ظريف الحركة كثير البركة وبينهم شخصٌ قد ساواهم بهذه الصفات وفاتهم في علو الدرجات اظرفهم لهجة والطفهم بهجة واشرفهم نهجة عذب المكالمة حلو المنادمة تقبّل الفصاحة ثغر الفاظهِ في خطابهِ ويتهلّل محيّا البلاغة لاشراق جواهر جوابهِ اسمهُ رشيق وهو لكلٍّ عشيق وللملك أَكرم نديم واقدر خديم وصديق قديم يُقبل عليهِ ويميل دون الكلّ اليهِ . ففي بعض الايام قدم على الرشيق بعض الاعجام وكان من بغداد من ذوي الفسق منهم والفساد رجل من الشطّار عيّار مكّار خوّان غدّار مستحق الرجم ليس في السمآء لهُ نجم . غير متظاهر بجميل الخصال وانّهُ خدم اهل الفضل والافضال

فعلّق بطبعهِ من شمائلهم وتلبّس ظاهرًا بفضائلهم فتلقّاه الرشيق بما يقتضيهِ كرمهُ ويليق وبالغ في إكرامهِ وتقدّم في احترامهِ واكرم نزله وافاض عليهِ نعمًا جزله ومال اليهِ بكلّيّتهِ وجعلهُ من خواصّ جماعتهِ فصار كلّ يوم يبدي فضلا ويفتح بابًا من الكلام وفصلا الى أَنْ غلب على ذلك الزنديق حسد النديم المسمّى برشيق لكونهِ من خواصّ الحضرة السلطانيّة وقصاص الخدمة الملكيّة وكبير الندمآء وخطير القدمآء فالتمس من النديم ذلك الوغد الذميم أَنْ يوصلهُ الى الحضرة الشريفة ويسبل عليهِ ظلال نعمهِ الوريفة . فأفكر الرشيق الفكر الدقيق في عقبى هذه القضيّة وما يحدث عنها من البليّة فانّهُ قد كان أَدرك من ذلك الشيطان سوء أَفعالهِ من أَقوالهِ ووخيم عزماتهِ من شمائل حركاتهِ وشؤم سكناتهِ وتحقّق ذلك من عذبات لسانهِ وفلتاتهِ وكلّ شيء تزرعهُ ينفعك الّا ابن آدم اذا زرعتهُ يقلعك ومَن أَكرم ذا حسد ورأى من امرهِ عكسهُ فلا يلومنّ الّا نفسهُ فصار يسوّف بهِ ويدافعهُ ويمانعهُ ويصانعهُ ويداري الوقت خوفًا من المقت الى أَنْ أَيس منهُ وقطع الرجآء عنهُ . فالتهب قيظ غضبهِ واشتعل شواظّ لهبهِ فما رأى لبرود هذه الغصّة الّا كتابة قصّة يعرضها ذلك المنهمك على آرآء الملك يضع فيها لشدّة حسدهِ من الرشيق وينفثّ من عقدهِ

ويفتري ذلك المجترئ عليهِ ما هو عنهُ بريءٌ فراقب الفرصة وكتب القصّة يذكر لهُ مساوي فيها ومن جملة مساويها أنّ بجسد الرشيق من الدآء العتيق ما أعجز الأطبآء واعيا الحكمآء الالبآء وانّ ذلك الدآء يُعدي وفعل الالزام يتعدّى فيردّي وأنّ كثيرًا من الناس الأخيار ممّن اطّلع على دآئهِ ومعضل بلآئهِ يتحامون صحبتهُ ويجتنبون قربهُ ومواكلتهُ وأنّ هذه نصيحة عرضها وعلى نفسهِ فرضها اذ القيام بأدآئها واجب عليهِ وانهآؤُها الى المسامع الشريفة مندوبٌ اليهِ . فلمّا وقف الملك على مضمونِ ما أنهاهُ ذلك الخبيث فيما ادّعاهُ تذكّر ما قالهُ لبيد للنعمان عن وزيرهِ العبسي فيما مضى من الزمان وهو :

* شعـــر *

نحن بنو أمّ البنين الاربعه * ونحن خير عامرٍ من صعصعه
اليك جاوزنا بلادًا مسبعه * نخبر عن هذا خبيرًا فاسمعه
مهلًا أبيتَ اللعن لا تاكل معه * انّ استهُ من برصٍ ملمّعه
وأنّهُ يدخل فيها إصبعه * يدخلها حتى يواري أشجعه
كأنّما يطلب شيئًا ضيّعه

فاشمأزّت من الرشيق نفسهُ وزوى في رياض مصاحبتهِ غرسهُ فأمر الحجّاب والبوّابين أن يكونوا لدخولهِ على الملك آبين * فلمّا أن جآء الرشيق وقصد الدخول بجاشٍ وثيق منعوهُ من

الدخول فرجع خائبًا خاسرا وبقي حائرًا بائرا ولم يشكّ أنّ هذا الضرب سهم غرب لأنّهُ لم يعلم السبب فقضى من الزمان العجب . فشرع يتفحّص عن سبب البعاد ويتردّد بين اغوارٍ وانجاد ويذهب رائد فكره كلّ مذهب ويعزم على توابعه ليقفوا على موانع المطلب الى أن وقف على السبب المضرم وعلم أنّهُ الاحسان الى ذلك المجرم وظهر لذلك البحر البرّ من قولهِ الاحسان الى اللئيم سلفٌ في الشرّ . فاجتمع بجماعةٍ من اصحابهِ وطائفةٍ من خُلّص احبابهِ وعرض عليهم قصّتهُ واستدفع بآرآئهم غصّتهُ . ثمّ تعرّى من لباسهِ عند الخواصّ من أناسهِ لينظروا الى جسمهِ وباسهِ فرأوا بدنًا كسبائك الفضّة واطرافًا ناعمة غضّة واعضآء تحسبها من الحور غوانيها مسلّمة لاشيةَ فيها . فاجمعوا على سلامتها وذكروا للملك محاسنها بعلامتها وشهدوا بحسن صفآئها ورونق بهآئها وأنّها سليمةٌ عن الادوآء بريئةٌ من كلّ دآء وكأنّهُ في شانهِ قيل :

* شعر *

وأعجب ما شاهدتُ في وصلهِ وقد * نزعنا غلالاتٍ وثوب حيآء
تلألؤ نورٍ في ترقرق مآئــــهِ * وصورة روحٍ في مثال حوآء

وانّما لشدّة الحسد عاب ذلك الجسد * فقال الملك : صدقتم وبالحقّ نطقتم ولكن كيف وقد قيل : * شعـــر *

قد قيل ذلك إن صدقًا وإنْ كذبا * فما احتيالك في شيءٍ وقد قيلا

ثمّ قال الملك لجماعته المنتظمين في سلك طاعته الذي يدور في معلومي ويبرز به مرسومي أنْ لا يدخل الرشيق عليّ ولا يصوّب نظرهُ اليّ فانّي اذا نظرتهُ تذكّرتُ ما قيل واستحضرتهُ فتشمئزّ النفس والخاطر ويتكدّر الباطن والظاهر ويتشوّه وجهُ العيش الناضر . ثمّ أمر لهُ بمالٍ جزيل واقطاعٍ عظيم جليل ومنعهُ من المثول بين يديه والدخول عليهِ * (وانّما أوردتُ هذه الحكاية) المتضمّنة لهذه النكاية لتحيط العلوم الشريفة والآرآء المنيفة أنّ بعض المدّعين للصداقة واحكامها باحكام الوثاقة لا يُعتمد على دعواهم ولا يُركن الى مضمون فحواهم فربّما تكون صداقتهم من هذا القبيل فتؤدّي الى دآء ثقيل وغمٍّ عريضٍ طويل فلا يمكن علاجهُ ولا يُسلَك منهاجهُ . وأعظم ما في ذلك ما يؤدّى الى المهالك وهو عداوة الأقربآء من الأبنآء والآبآء وذوي نصائح الاخآء فانّ ذلك غلٌّ قمل وجرحٌ لا يندمل ومرضٌ لا يبرا ويُفضي بصاحبهِ الى توسّد الثرى وأنّ عداوة الأجانب أسهل من محاسنة القرائب وأنّ القرائب انّما يرجون لدفع الدآء فاذا كانوا هم الأعدآء فقد أعضل الدآء * (ومن شواهدها أيّها الملك الفاضل ما جرى لابن سلطان بابل) مع عمّه الظالم الخاتل الخائن القاتل * فقال الملك الكبير : أظهرنا على صورة ذلك ايّها الخبير *

(قال) : ذكر أهل التاريخ ايّها العالي الشماريخ أنّه كان في ممالك بابل ملكٌ عظيمٌ فاضل كريمُ الشمائل عدلهُ مذكور وفضلهُ مشهور همّتهُ عالية ونحور ممالكهِ بعقود فواضله حالية وأفواهُ مسالكهِ كثغور الغواني بشنب العدل والامان زاهية ولهُ ولدٌ صاحب حسنٍ وجمال وفضلٍ وأفضال وملاحةٍ ودلال وصباحةٍ وكمال غير أنّهُ صغير السنّ لم تمرّ به التجارب ولم يبلُ أحوال الأباعد والأقارب لا مارس الانام ولا ساس الأيّام ولا سبر العدوّ والصديق ولا خبر الحريق والرحيق ولا فرق بين الموافق والمنافق والمصادم والمصادق والمصارم والملاصق * فلمّا دنت وفاة أبيه جمع أخصّآءهُ وذويه واراد أنْ يعهد الى ولده ويرقيه الى سنده ومستنده ثمّ دبّر في أُمورهِ وأحوالهِ وتفكّر في مصيرهِ ومآله وخشي أنّهُ ربّما أخلّ بشيءٍ من القواعد فأبعد الأدنى وأدنى الأباعد او وضع شيئًا في غير محلّه او ولّى منصبًا غير أهله وذلك لعدم تدبّر أو فسادِ تصوّر أو نشوز رفيق او فقد مرشد وشفيق أو لغرضٍ فاسد من كاشحٍ أو حاسد فيختلّ نظامهُ ويعوجّ قوامهُ ويفسد أمرهُ فيخونهُ زيدهُ وعمرهُ . وكان للملك أخ بل إنّهُ فخّ يدّعي المقة ويظهر أنّهُ ثقة ولهُ حنوٌّ وشفقة فعهد اليه واعتمد عليهِ وسلّمهُ ولدهُ وجعلهُ وصيّهُ ومستندهُ وأجلسهُ مكانهُ وأشهد عليه من رؤسآء

المملكة اركانه أنّه اذا توشّح ولدهُ بالولاية وأنس منهُ رشدهُ بالرعيّة والرعاية يجلسهُ على السرير ويسلّمهُ الكبير من جنده والصغير ويكون هو له أحسن وزير وأيمن مشير . فقبل أخوهُ ذلك منه بقبول حسن وتكفّل له انّه يأسو جراح الملك على وجه مستحسن وأظهر الودّ والترفّق والتملّق والترقرق والتلهّف والتأرّق والتأسّف والتحرّق وبكى وتأوّه وشكا وتذلّل وتمسكن حتّى تمكّن * فلمّا قضى الملك نحبه وأجاب ربّه صعد على السرير وتمكّن من الجليل والحقير وتشرّبت أضلاعهُ وعمرت بحبّ الحكومة والتسلّط في دور طمعه رباعه وابن أخيه في كفالته والممالك في ايالته واستمرّ الصغير تحت نظره لا يفارقه في سفره ولا حضره يكتسب كلّ يوم مخايل السعادة ويطرح من حركاته شمائل السيادة ويظهر على أعطافه الملوكيّة يومًا فيومًا آثار الحسنى وزيادة الى أن ارتفع قدرا وصار في الكمال هلالًا وبدرا . فشمّ عمّهُ من رياض همّته عرف الطلب وقوّى في ذلك ما كان تقدّم من سبب وعرف أنّه لابدّ له في ذلك من تسريحه فلو منعهُ لقام كلّ الخلق باستهجانه وتقبيحه فتحلّ عقودهُ وتقلّ جنودهُ ويختلّ من عسكره بنودهُ وتفنى صورتهُ وسيرته وينقضّ من حبل عمره مريرته فلا يحصل من الملك الّا على الهلك . فأعمل الكيد وخرج الى الصيد فتفرّقت

العساكر وانفرد الملك الماكر ومعهُ ابن اخيه فاختلى به في تيه فوثب عليه وفجعه بكريمتيه وألقاهُ في البريّة الى مخاليب المنيّة وتركهُ وحيدًا أعمى لا يجد دليلًا ولا يهتدي سبيلًا ولا يعرف مقرًّا ولا مقيلًا * ثمّ اجتمع بعسكره ظانًّا أنّهُ فاز بظفره مخبرًا بوفاته وتعمية خبره ففرّغ بالهُ وأصلح رجالهُ واطمأنّ خاطرهُ واستقرّت أمورهُ واستقامت حبورهُ * فلمّا هجم جيش الليل أقبلت السباع من الوادي كأنّها السيل وقصدت الوحوش والهوامّ ما لها من ماوى ومقام وعوت الذئاب وزأرت الأسود وهمرت النمور والنسور والفهود فساورت ابن الملك الهموم وأورثتهُ اصناف الغموم واحتوشتهُ المخاوف والوجوم . فلجأ الى جناب الحيّ القيوم جنابٌ لا يخيب قاصدهُ ولا يصدر الّا بنيل الامل واردهُ وصار يحسس بيديه ويصغي الى الحيوان بأذنيه ويتمشّى الى كلّ جانب ويهوى بيديه الى الأطراف والجوانب ويتعلّق بحبال الهوآء كالغريق الغاطس في الماء . فوقعت يدهُ على شجرة فعلّق فيها يديه وظفره وصعد عليها وأوى اليها وتوجّه بقلبه الى خالقه وموجده ورازقه وقطع عمّا سواهُ أسباب علائقه واشتغل بالذكر والتسبيح وفوّض أمرهُ الى الله تعالى بأمل فسيح واستمرّ في هذا الويل برهةً من الليل . وكان طائفةٌ من الجانّ المهرة كلّ ليلة تاوي الى هذه الشجرة فيتذاكرون ما جرى في العالم وما صدر في عالم الكون

والفساد من أعمال بني آدم ويقيمون افراحهم ويتعاطون انشراحهم * فلمّا اجتمعوا تلك الليله ذكر كلٌّ قوله وما جرى من الحوادث ومن المفرحات والكربات وما وقع من العجائب واتّفق من واقعات الغرائب . فقال واحدٌ من القوم ومن أعجب ما وقع اليوم من الأمر الكريه ما فعلهُ ملك بابل بابن اخيه وذكر لهم القضيّة وما تضمّنتهُ من بليّة وجعل يتأرّق ويتحرّق ويتبرّم ويتضرّم ويحرق الأرّم ويتعجّب من عدم وفآء بني آدم . فقال رئيس الجان وهذا غير بديع من طبع الانسان فانّهُ مجبولٌ على الغدر مطبوعٌ على الدهآء والمكر الم تسمع قول قائلهم في وصف فضائلهم وقبيح شمائلهم ممّا انخرط في سلك الفضل بدون منع ولا حجز اذا كان الغدر طباعًا فالثقة بكلّ أحدٍ عجز * ثمّ قال الرئيس اعلم يا نفيس انّي اعلم ما يزيل هذا الألم ويطفئ هذا الضرم ويشفي هذا السقم وهو انّ هذه الشجرة النجيبة لها خاصيّةٌ عجيبة اسمها شجرة النور وفضلها في ذلك مشهور اذا أُخذ من عصارة ورقها ووضعهُ الأعمى على حدقها انجلى عماها بقدرة ربٍّ براها وخلقها فسوّاها وردّ اليها بصرها وزاد نظرها . ثمّ الخرابة الفلانيّة فيها جحر حيّة بذيّة وهي تابعة ملك بابل الفاعل هذا الفعل السافل وحياتهُ متعلّقة بحياتها وموتهُ موقوف على مماتها لأنّ طالعهُ على طالعها وطبعهُ اللئيم مطبوعٌ على

طابعها فبمجرّد ما تموت الحيّة يموت وينقل من درج الملك الى درج الملكوت . كلُّ ذلك وابن الملك يسمع هذا القول فلجأ الى ذي القوّة والحول حتّى منّ عليهِ بعد شديد العقاب بهذا الطول وجعل ينادي ويبتهل ويقول متى جبين الصبح يهلّ وينشـــد

* شعــر *

ألا ايّها الليل الطويل ألا انجلي * بصبحٍ وما الإصباح منك بأمثلِ

فلمّا اصبح الصباح ونادى مؤذّن السعد حيّ على الفلاح تيمّم ابن الملك وصلّى وحمد الله على النهار اذ تجلّى ورضّ بين حجرين من ورق الشجرة واكتحل بمآئهِ فردّ الله عليهِ بصره . ثمّ وجّهَ ذهابه الى تلك الخرابه ورصد خروج تلك الحيّة اللاطئة وضربها ضربةً غير خاطئة فاحاط بها نازل الهلك وفي الحال خرّ الملك ميتًا على سرير الملك . وبينما العزآء عليهِ قائم واذا بصاحب السرير عليهم قادم وقد قصد ملك ابيهِ وتمكّن من ملكهِ وذويهِ وتصرّف فيهِ كما شآء والبسهُ خلعة الملك مَن يوتي الملك مَن يشآء وينزع الملك ممّن يشآء * (وانّما اوردتُ هذا التمثيل) خوفًا ان يكون صاحب مولانا الملك الجليل الذي بخراسان من هذا القبيل فتُبدل المحبّة بالبغض وترجع على موضوعها بالنقض * ثمّ انّ بعض الاصحاب والاخوان يفعل ما يفعلهُ من الخير والاحسان على سبيل المكافاة لا على طريق

المروءة والمصافاة فاذا كافأ بالاحسان عاد الى ما كان عليه من العدوان . فأسأل الحضرة الشريفة والمراحم المنيفة ذات الفضل المشهور والاحسان المأثور التأمّل في عواقب هذه الامور لئلّا يصيبنا ما اصاب ذلك المسافر (ضيف الحدّاد المنافر) من العفريت الملقى في المحافر * قال اخبرني ايُّها الولد النجيب عن ذلك الامر العجيب وقاك الله شرّ الوجيب *

قال : بلغني من رواة الاخبار أنّ شخصًا من الاخيار لازم الأسفار وقطع القفار فجاب مشارق الارض ومغاربها وبلغ اكنافها وجوانبها وشاهد عجائبها وغرائبها وقاسى حرّ الزمان وقرّهُ وذاق حلوهُ ومرّهُ وعانى خيرهُ وشرّهُ فأدّاه بعض المسير الى بلدٍ كبير فرأى في بعض نواحيه وطرفٍ من بعض ضواحيه طائفة من الصبيان قد اجتمعوا في مكان . فوصل اليهم ذلك الفقير فوجدهم واقفين على حفير يرمون فيه بالاحجار وهم يستغيثون بالستّار من العدوّ المكّار والخبيث الغدّار والحسود القديم والكافر الذميم والشيطان الرجيم . فسألهم ما هذه المضله فقالوا عفريتٌ وقع في هذه البير المعطله وهو عدوٌّ قديم نريد ان نقتله . فقال افسحوا حتى انظر اليه واساعدكم عليه ففسحوا عن ذلك الطويّ فنظر في قعر الركيّ . فرأى في جانبٍ منها عفريتًا منزوي وقد هشّموهُ وكسّروهُ وحطّموهُ وكاد يهلك ممّا رجموهُ . فعند ما نظر اليه رقّ له وعطف

عليه وقال أفضل المعروف اغاثة الملهوف وإنْ لم يكن بيننا سابقة صداقة ولا وشيجة محبّةٍ ولا علاقة بل عداوتنا جبليّة وما بيننا أزليّة لكن فعل الخير لا يبور ولله عاقبة الأمور واذا قصد الانسان فعل الخير فلا عليه انْ فعله مع أهله او الغير وقد قيل للتمثيل ايّها الانسان قد عداك الذمّ افعل الخير وألقه في اليمّ . ثمّ منع عنهُ الكبير والصغير وساعده على الخروج من البير واستنقذهُ من أيديهم وأطلقهُ فكان كمَن اشتراهُ وأعتقهُ * فلمّا رأى العفريت هذا الاحسان من ذلك الانسان من غير سابقة ولا عرفان قبّل يدهُ ورجله وشكر له هذه الفعله وقال : انّي عاجزٌ عن مكافاتك يا انسان في هذا الأوان وانا اسمي فلان فانْ وقعتَ في ضيق او ضللتَ في طريق فنادني باسمي احضر اليك بجسمي وانفعك في ضيقك وارشدك الى طريقك وأكافئك ايّها اللوذعيّ بما فعلته معي . ثمّ ودّع كلٌّ صاحبه وخالف في السير جانبه فوصل السيّاح الى بلدٍ من البلاد لهُ فيها صديقٌ حدّاد فنزل عنده فأكرمهُ ورحب به وخدمهُ . وكان لتلك البلدة عادةٌ حسنة انّهم في يوم معيّن في كلّ سنة يقرّبون مَن يقدم عليهم فيه ولا يسألون أخاملٌ هو أم نبيه فإنْ لم يقدم عليهم غريبٌ في ذلك اليوم اقترع فيما بينهم القوم فمَن خرجت قرعتهُ سحبوهُ وكسروا قرعتهُ وقرّبوهُ . فوافق ذلك اليوم قدوم

السائح ولم يُرد سواهُ من غادٍ ورائحٍ ولا شعر بهِ أحد من اهل تلك البلد فأخذوا في القرعة بالاجتهاد فطرقت القرعة قرعة الحدّاد فقبضوا عليهِ وعزموا على تقريبه فقال عندي غريبٌ لم يكن أحدٌ يدري بهِ فلم يدرِ السائح إلّا وقد أحاطت بهِ الشوائح فهجموا عليهِ وربطوا عنقهُ ويديهِ ثمّ سحبوهُ وحبسوهُ وفي أضيق مكانٍ أجلسوهُ وأشهروا النداء أنّهُ حصل للحدّاد الفداء * فعلم السائح القضيّة وتحقّق أنّهُ تورّط في بليّة فذكر اسم العفريت وقد علقهُ الهمُّ علوق النار بالكبريت فحضر لساعتهِ ووقتهِ فرأى السائح في هولهِ ومقتهِ واطّلع على جملة الشان فقال لا تخشَ يا ذا الاحسان. اعلم أنّ امير هذه البلد لهُ ولد هو واحدُ أبويهِ وانّي الآن أصرعهُ بين يديهِ ثمّ أُنادي في النادي انْ رمتم شفاءَ هذا العليل فهو بدعاءِ ذلك الرجل الجليل السيّد الصالح الزاهد السائح ضيف الحدّاد الذي بسببهِ حصلت هذه الأنكاد فأطلقوهُ والتمسوا دعاءَهُ فانّ فيهِ لعليلكم شفاءَهُ ولا تطلبوا من غيرهِ دواءَهُ فاذا طلبوك وأعزّوك وأرغبوك وأكرموك واحترموك فادعُ بما يرفع نكدهم فإنّي اذ ذاك اترك ولدهم فاذا رأوا منك هذه الكرامة بالغوا وسلّموك الزعامة وخيّروك بين الرحيل والإقامة وأقلّ ما يُفعل معك السلامة * ثمّ ذهب الى ابن الملك وخبطهُ وحلّ في أعضائهِ وربطهُ فتخبّط

الصبيّ وتخيّل وتكسّل وتخبّل وكادت روحهُ تخرج ويدرج مَن يدرج فاشتغلوا بشانهم عن أمر قربانهم فطلبوا الأطبّاء فأعياهم علاج هذا الداء ولم يقدروا على علاجهِ وتعديل مزاجهِ وتقويم اعوجاجهِ واشتغلت الخواطر وتنكّد البادي والحاضر. فعند ذلك نادى العفريت من ذلك البيت يسمعون كلامهُ ولا ينظرون مقامهُ إنّ زوال هذا العارض ومنع هذا الداء المعارض عند رجلٍ قدوة مستجاب الدعوة رجلٍ صالح زاهدٍ سائح عالمٍ عامل كاملٍ فاضل هو بركة البلاد والعباد مادّة الصلاح وقاطع الفساد وهو ضيف الحدّاد الذي فرط منكم في حقهِ سوء الادب فأدركوه بالطلب وأسرعوا نحوه والتمسوا منهُ دعوه والّا فولدكم هالك عنوه وبادروا باللحوق لئلّا يخرج السهم من الفوق فانّ سهم هذا المصاب بسبب ذلك اصاب * فركب الملك بنفسهِ وسارع الى باب حبسهِ ودخل عليهِ وأكبّ على رجليهِ وطلب دعاءَهُ ورام لولدهِ شفاءَهُ فتوضّأ وصلّى وأعرض عنهم وتولّى وتوجّه ودعا فحصل للولد الشفا ونهض في الحال كانّما نشط من عقال * ثمّ انّ العفريت الجائع أتى الرجل السائح وقال لا تحسب أنّي اذا كافأتك صادقتك او صافيتك كيف وعداوتنا قديمة مغروزة وغروس التباغض في حدائق ذواتنا مركوزة انا من نار وانتَ من تراب شيمتك الترابيّة وشيمتي الإحراق والخراب ومتى

استقام أعوج مع قوام او وُجد بين المتباينين التئام وانّما كان هذا الوفآء لئلّا ينسب الى الجفآء ونحن على الكدر دون الصفآء وعلى ما نحن عليهِ من العدوان وإنْ لم يصر بيننا معرفة ولا كان ثمّ صار شعلة لهب وترك السائح وذهـــب *

(ثمّ قال ابن الملك) ومن أنواع المحبّة والصداقة وما يتأكد فيها من العلاقة نوع محبّة تتوفر فيهِ الرغبة ينشأ من فرط الشهوة ويركب من صاحبهِ على الصهوة وتميل اليهِ النفس والطبيعة ولكن تكون آستحالته سريعة فيزول بأدنى سبب ويشبه شواظ اللهب يتلهّب ساعةً وقد ذهب وربّما أدّى الى الهلاك والعطب كما فعل بالبطّة الثعلب حيث كانت محبّتها غير صادقة ومودّتها بالشهوة مماذقه وشتّان ما بين المحبّة الخالصة والمحبّة المنافقة لا جرم أدّت الى عكسها وإزهاق نفسها * قال الملك : أخبرني ايّها الخبير كيف هو هذا النظير *

قال آبن الملك : ذكر أنّ زوجًا من البطّ كان له ماوًى على شطّ جارٍ بين رياض ومروجٍ وغياض أزاهيرها عطرة ورياحينها نضرة وقريبٌ من وكر البطّتين ماوًى لأبي الحصين . فحصل لذلك الثعلب المرض المسمّى بداء الثعلب فسقط وبرهُ وتمرّط صوفهُ وشعرهُ وذاب جسمهُ وتهرّى

لحمهُ وقارب التلف والتحاق بمن سلف وصار كما قيل :

* شعر *

أصبح في أمراضهِ يُعذَّب * كخرقةٍ بال عليها ثعلب

فلمّا أنحلهُ السقم وأضناه قالت لهُ سلحفاه لمّا زاد بهِ المرض وآشتطّ دوآء دآئك كبد البطّ فإنْ أكلتَ كبد بطّة نصلتَ من هذا البلآء البتّة . فقال ومَن لي بهذا الدوآء اذ ليس لي حراك والبطُّ في الهوآء فشفآء هذا الدآء العضال من باب التعلّق بالمحال وكأنّ الشاعر يُعنيني اذ سمع أنيني ورأى سكوني تحت أحمال شجوني بقولهِ :

* شعر *

فقال قم قلتُ رجلي لا تطاوعني * فقال خُذ قلتُ كفّي لا تواتيني

ثمّ آستنهض همّتهُ وآستنخى نهمتهُ وصمّم عزيمتهُ وآستعمل فكرهُ وآستورى مكرهُ وقال لنفسهِ لا ينجيكِ من هذا الانكال الّا التشبّث بذيل المحال لعلّ اللّهَ واهب العطيّة يظفّرني بهذه الأمنيّة * ثمّ توجّه وهو يتشحّط الى صوب البطّ وصار يتلظّى في جنبات الشطّ الى أنْ لاح لهُ بعد الأين أنثى هاتين البطّتين فتخفّى الى أنْ قاربها ثمّ واثبها فما ساعدته القوّة فهوى في هوّة فما وسعهُ الّا أنْ غالط وأظهر المودّة وخالط وعبرت عيناهُ وبالط وأرى من نفسهِ أنّ تلك الوثبة انّما هي داعية المحبّة ونهضة الاشتياق الى الأحبّة * ثمّ بادر

وقال : مرحبًا بالجارة الصالحة ومَن نعوتها بمسك العفّة فائحة وأخلاقها غادية ببشر الخير رائحة المخدّرة المجيبة الحبيبة النجيبة حيّاكِ الله من قرينةٍ رضيّة جميلة الأوصاف بهيّة فما أكثر احسانكِ وفضائلكِ وأوفر آمتنانكِ وفواضلكِ لقد عممتِ باحسانكِ جميع معارفكِ وجيرانكِ وأطعتِ زوجكِ وحلالكِ وتحقّق كلُّ أحدٍ لحسن الشيم جلالكِ وما زال ينفق عليها من حواصل هذه الخزعبلات ويُفعم أردان عقلها من معادن هذه التمويهات حتّى سكنت بعض السكون وركنت اليهِ أدنى ركون . ثمّ أخذ في الايناس وتمهيد قواعد الأساس حتّى آطمأنّت وآستكانت واستكنّت * ثمّ قال : إنّا لله ولا حول ولا قوّة الّا بالله ترى ما رأى فيكِ زوجكِ من الخلل ولاح لهُ من عيبٍ حتّى فعل ما فعل . قالت : وما فعل ذلك الجعل قال : لولا أنّ الغيبة ريبة والنميمة مشئومة ونقل المجالس القبيحة وإنْ كانت وقائعها صحيحة أمرٌ مذموم وهذا معلوم لكنتُ أفصحتُ وأشبعتُ القول ونصحتُ ولكنّ الصبر على الضرائر فعل الحرائر والورد لا يخلو عن شوك ولا الشباب عن نوع بوك * فلمّا سمعت هذه النجوة حملتها المحبّة الممزوجة بالشهوة أن ألحّت عليهِ . وسألتهُ ايضاح ما لديهِ وأقسمت عليهِ بحقّ الجوار الا ما أطلعها على هذه الاسرار * فقال : لولا أنّ الجوار ذمّة لما فُهتُ

بكلمة خصوصًا وقد ألححتِ بالقسم وتشفّعتِ بالجوار والذمم وأيضًا لولا وفور الشفقة وعظم المحبة والمقة وآعتمادي عليكِ أنكِ ثقة وأنّ صدركِ مخزن الأسرار وأنّكِ ستّ الأحرار ما أطلعتُكِ على شيء ممّا كان وصار . اعلمي أنّ زوجكِ المشتطّ قد خطب بنت ملك البطّ ولهُ في هذه المكيدة مدّة مديدة آخرها اليوم -كان قد أرسل الى القوم الماشية والخطابه أنْ يهيّئوا أسبابه * فلمّا سمعت هذا الكلام ساورها من الغيرة الضرام ولم تشكّ في أنّهُ صادق وذهلت عن التبيّن في خبر الفاسق وجميع الاخبار عن الازواج يتوقّف فيها النسآء الّا خبر الزواج . ثمّ أنّها تماسكت وأرت تجلّدًا وتمالكت وقالت : أحلّ اللهُ لهُ من الأزواج ما طاب لهُ لاحيلة الّا الانقياد وترك المراد وموافقة السنّة والجماعة والدخول تحت الأمر بالسمع والطاعة وماذا يفيد التدلُّه والحيرة إنّ الحلال جدع أنف الغيرة * قال : والامر كما ذكرتِ وما احسن ما افتكرتِ وصبرتِ وما يمكن الطعن في الحلال ولكن هذا دليل الملال وكلُّ مَن ادّعى هواكِ وتخلّل في طريق سواكِ ولو بخلالٍ من سواكِ فلا شكّ أنّه قلاكِ وبنار الهجر والجفآء سلاكِ وليس هذا ساعةً وتمضي ولا حادثة تقع ثمّ تنقضي انّما هو امرٌ دائم ونزاع ابد الدهر قائم وانا ما اخشى الّا عليكِ بما يصل من النكد اليكِ فانّ حقّكِ ثابت عليّ وضرركِ

عائد اليَّ فانَّكِ جارة قديمة معروفة بحسن الشيمة لم أرَ منكِ الَّا الاحسان وعدم التعرُّض الى ايذآء الجيران وكلٌّ منَّا قد اعتاد بالآخر وباهى بصحبتهِ وجوارهِ وفاخر واخاف أن يتجدَّد لي في الجوار من يتصدَّى لي بالاضرار ويوذي ولا يعرف حقَّ الجار لا يعرفني ولا اعرفهُ ولا ينصفني ولا انصفهُ فيتكدَّر لي الوقت ولا اخلو من نكدٍ ومقت لاسيَّما وانا ضعيف مبتلي نحيف فلا يستقيم الحالُ ولا اقدر على الارتحال . ولا زال يسدّد المضارب ويفتل منها في الذروة والغارب حتَّى أثَّر فيها سمَّهُ ونفذ في سويدآئها من مكرهِ سهمهُ فاسترشدتهُ الى وجهِ الحيلة في هذه النازلة الوبيلة ❊ فقال : الراي السديد والفكر الرشيد أنَّهُ اذا اوصل قولهُ بفعلهِ وأتبع في اذاهُ فرضهُ بنفلهِ واختار غيرك عليكِ طلّقيهِ والف زوج لديكِ وارض الله واسعة وهو المعتدي في المقاطعة وانا اكون السفير في زوج يخجل البدر المنير يعمّر داركِ ويعرف مقداركِ ويخدم كلبكِ وحماركِ ويملأ وكركِ خيرًا وبطنكِ طيرًا ودارك شعيرًا وبرًّا مع كونهِ وافر الحشمة سموع الكلمة قد جمع بين طرفي الاصالة والحرمة ❊ فقالت : هذا الذي تقول امرٌ معقول والى الآن ما وقع وعلى تقدير أن يقع إن حصل الشقاق والنفاق وترجيح الانذال المستحقّة على الكرام العتاق فيكون بيننا هذا الاتفاق وإن وقعت بيننا

المعادلة ولم يحصل في حقّي منهُ مساهلة ولا للضرَّة عليَّ مفاصلة كيف اشاققهُ وعلى فعلٍ مباح اضايقهُ فضلًا عن أنّي افارقهُ وكيف اخرّب داري واضرُّ بحبّي وجاري واشمت بي الاعدآء ويحتاط بي من كلّ جهةٍ البلآء ولكن الراي المحمود عندي يا ودود الصبر في كلّ حال على الدهر الكدود وتجرُّع الغصص لئلَّا يشمت الحسود كما قيل في التمثيل ما بي دخول جهنَّم ولكن بي شماتة اليهود ❊ فلمَّا رأى الخبيث أنَّهُ لم يفدهُ هذا الحديث ولم تتمّ لهُ الحيلة وافكارهُ الوبيلة قال : اقول الحقّ الذي حصحص ولا عنهُ محيد ولا مخلص إنَّ زوجكِ قد نُقل اليهِ أنَّكِ اخترتِ غيرهُ عليهِ وأنَّكِ عاشقة وصحبتكِ لهُ مخادعة ومماذقة وثبت ذلك لديهِ وعقد اعتقادهُ عليهِ وعزمهُ على الزواج انَّما هو تعلُّل واحتياج لفتح باب الشرّ وتعاطي اسباب النكد والضرّ وقد ثبت عندي أنَّ ذاك الأفَّاك الأثيم السفّاك يريد أنّ يجرّعكِ كاس الهلاك فتيقظي لنفسكِ وتداركي غدكِ في امسكِ قبل حلولكِ في رمسكِ وآستقيمي قبل عكسكِ وأنا منذُ سمعتُ هذه الأخبار لم يقرّ لي قرار وذلك لوفور الشفقة وحسن الجوار وقد زدتُ ضعفًا على ضعفي وكدتُ لهذا الغمّ أُسقى كاس حتفي وأنتِ يا غرض الحاسد تعلمين أنّ ليس لي غرضٌ فاسد وهذا بديهيُّ التصوُّر لا يحتاج الي تدبُّر ولا تفكُّر ولقد غرتُ

عليكِ والامر في هذا كلّهِ منكِ واليكِ * فتكدّر خاطرها وتشوّشت ضمائرها وضاقت بها الحيل وتاهَ منها العلم والعمل وَمن يسمع يخل وصالت افكارها وجالت وبدر منها أَنْ قالت واللهِ لو أَمكنني لقتلتهُ ولو وجدتُ فرصةً لاغتلتهُ واسترحتُ من نكد الدهر المغبر وهذا العيش الوحش المكدّر * فالتقط الثعلب هذه الكلمة من فيها وعلم أَنّ سهم ختالهِ نفذ فيها لأَنّ عقود المحبّة انحلّت وصورة المودّة القديمة زالت واضمحلّت وتلاشت الصداقة بالكلّيّة وانمحت شهوتها بادنى جزئيّة فقال : لا تهتمّي لذلك يا ضرّة هند فعندي عقارٌ من عقاقير الهند أَحلى في المذاق من ساعة التلاق وأَمضى من السيف في حكم الفراق اسمهُ اكسير الموت وتدبير الفوت وسمّ ساعة وتفريق الجماعة لو أَكل منهُ ذرّة أَو شمّ منهُ نشرة لقُتل في الحال وفرّق الأَوصال من غير إمهال فإن اقتضى رأيكِ الأَسدّ أَنْ تخلصي من هذا النكد ناولتُكِ منهُ شذره تكفيكِ ذرّةً منهُ امره فإن شئتِ أَطعمتهُ وإن شئتِ أَشممتهُ ولولا انّكِ عزيزةٌ عليّ لم أَفه لكِ من هذه الامور بشيّ ولقد فضّلتكِ على روحي فاكتمي هذا السرّ ولا تبوحي * فتحمّلت منهُ جميلتهُ وعرفت قدرتهُ وفضيلتهُ وطلبت منهُ الدوا لتذهب بهِ عن قلبها الجوى وتقتل زوجها المسكين وتسلم من نكدهِ وتستكين وزالت تلك المحبّة القديمة

ونسيت الصحبة والصداقة القويمة ووعدها الثعلب أَنْ يأتيها بالعقار وفارقها على هذا القرار * ثمّ انّها انتظرتهُ ليفي بوعدها واحترق صبرها من نار سمّها ووقدها وتقاعد الثعلب عنها ينتظر ما يتأتّى منها فحملها مشير الوُجد اليهِ وساقها الأَجل المحتوم الى أَنْ قدمت عليهِ فدخلت وكرهُ وقبّلت يدهُ وصدرهُ فتمكّن منها ذلك الغادر ومزّقها كما يريد فصارت كالأَمس الغابر * (وانّما اوردتُ هذا التمثيل) لئلّا يكون أَصحاب مولانا السلطان من هذا القبيل فيكون المعتمد عليهم والمستند اليهم كالنائم على تيار الأَنهار والمؤسّس بنيانهُ على شفا جرف هار * قال الملك : معاذ الله يا ولدي وقرّة عيني وكبدي أَن يكون صاحبي ومعتمدي من هذا النمط وشبيهًا بالعفريت والثعلب والبطّ . بل كلّ من أَصحابي وسائر اوليآئي وأَحبابي ما منهم الّا الصديق المهذّب والرفيق المؤدّب والشفيق المدرّب والعتيق المجرّب وقد جرّبتهُ في المودّة والإخاء والشدّة والرخاء والمروءة والسخاء (كما جرى ذلك للتاجر) المجرّب صديقهُ في الشدّة والارتخاء * قال الولد : ينعم مولانا الامام بتقرير هذا الكلام *

قال الملك : بلغني انّ بعض التجّار الأَكرمين الأَخيار والكرمآء الأَبرار كان لهُ مالٌ جزيل وولدٌ صالح جليل سعيد الطالع سديد المطالع عالي الهمّة متوالي الحشمة ميمون

الحركات جميل الصفات حسن الصورة مشكور السيرة طاهر السريرة وكان أَبوهُ قد تخيّل في مخايل السعادة وتفرّس فيهِ آثار النجابة والاجادة فكان لا يصبر عن تأديبهِ وارشادهِ الى سبيل الخير وتهذيبهِ وتربيتهِ بمكارم الأَخلاق وترتيبهِ . فقال لهُ : يا بنيّ انّ الانسان يحتاج الى كلّ شيّ واعظم ما يحتاج اليهِ ويعوّل في التحصيل عليهِ الصاحب الصافي والصديق المصافي والرفيق المساعد في وقت الشدائد فإنّ المال ميّال والذهب ذاهب والفضة منفضّة والملبوس بؤس والماكل متاكل والخيل خيال والفواضل شواغل والدهر قاصي والعصر عاصي والاقارب عقارب والوالد معاند والولد كمد والاخ فخّ والعمّ غمّ والخال خبال والدنيا وما عليها لا يُركن اليها. وما ثمّ الّا رفيقٌ ذو وفا مجبولٌ على الصدق والصفا إنْ غبتَ ذكرك وإنْ حضرتَ شكرك مأمونٌ على نفسك ومالك وأَهلك وعيالك في حالك ومآلك إنْ غاب صانك وان حضر زانك فهو افضل موجودٍ يُقتنى وأَحسن مودود يُصطفى فانْ ظفرتَ بهِ فتشبّث بسببهِ . ثمّ قال لهُ : يا بنيّ قد أَقمتَ في الحضر وانقضى لك فيهِ ما ذقتَ ممّا حلا ومرّ فلا بأس أنْ تحيط علمًا بأحوال السفر فانّ السفر محكّ الرجال ومجلبة الأَموال ومكسبة التجارب ومرآة العجائب والغرائب فآعزم على بركة الله تعالى وتوكّل عليهِ وآصحب معك فيهِ

ما تحتاج اليهِ ثمّ أَفاض عليهِ المال وأَضاف اليهِ صالحي الرجال . وحين ودّعهُ ووصّاهُ وآستودعهُ قال يا بنيّ : لا تجعل دأبك وطلبك واكتسابك الّا استجلاب الصاحب النافع دون سائر المنافع فانّهُ أوفر بضاعة واربح تجارة وليس على الصديق الصدوق أبدًا خسارة وآجعلهُ في سفرك نصب عينك وآشترهِ بنفسك ومالك ونقدك ودينك وقد قيل :

* شعر *

أَخاك اخاك إنّ مَن لا اخا له * كساعٍ الى الهيجآء بغير سلاح

والمراد بهِ الصديق . وآعلم أَنّ الأَخ الصلبيّ ربّما يضرّك وأَمّا الصديق الصالح فانّهُ ابدًا يسرّك والصاحب الشفيق خيرٌ من الأَخ الشقيق وقد قيل ربّ أَخٍ لم تلدهُ امّك * فقبل الشابّ وصيّة أَبيهِ ثمّ توجّه في حشمهِ وذويهِ بقصدٍ جميل ومالٍ جزيل فمكث غير بعيد ثمّ عاد وهو سعيد * فقال لهُ ابوهُ : حييتَ وحييتَ ما أَسرع ما جئتَ قُل لي أَين ذهبتَ وماذا اكتسبتَ * فقال يا أبتِ : امتثلتُ مرسومك الكريم واكتسبتُ بالمال كلّ وليٍّ حميم وقد جئتُ بهم زمرا وعدّتهم خمسون نفرا كلٌّ منهم صديقٌ صادق ورفيقٌ موافق في الفضل بارع والى الخير مسارع وفي الرخآء صادق الإخاء وفي الشدّة اوفى عدّة * قال ابوهُ يا بنيّ : كيف تصفهم بهذه الصفة وتعرّفهم بهذه المعرفة ولم

تجرّبهم في قضيّة ولا واقعة صعبةٍ او رخيّة وقد قيل :

* شعر *

لا تمدحنّ امرًا حتى تجرّبهُ * ولا تذمّنّهُ من غير تجريب

* وقيل ايضًا *

الناس أكيس مَن أن يمدحوا رجلا * ما لم يروا عنكَ آثار إحسان

وآعلم يا ذا اللطائفِ أنّي خائف أنْ يكون أصحابُك واصدقاؤك وأحبابك مثل أصحاب الرئيس المدبّر الخامل النفيس الذين رعوهُ في روض وَفرهِ وتركوهُ في قَفر فَقرهِ * قال ابنهُ : يا أبت كيف ورد ذلك وثبت *

قال التاجر : ذكر رواة الاخبار أنّهُ كان في بعض الامصار رجلٌ رئيس كبير نفيس لهُ اموال وافرة وجهات متكاثرة · واماكن عامرة وضياع ومزروعات وبساتين واقطاعات وعقارٌ لهُ ارتفاعات . فكان ولدُهُ يمدُّ يده الى كلّ معصيةٍ ومفسدة ويجتري ذلك السفيه على كلّ ما يلوح لهُ من جهات ابيه والتفّ عليهِ جماعة من عبيد البطن والمجاعة كأنّهم طير قرلى إن رأى خيرًا تدلّى وإن رأى شرًّا تعلّى ومدّ يد الاسراف في التبذير والاتلاف * وصار ابوهُ ينصحهُ ويردعهُ عن جموحهِ ويكبحهُ وقال لهُ يا بنيّ : استعمل الانفاق في الاتّفاق واستخلص من الرفاق ذوي الاشفاق واعلم أنّ هذا المال هو لك مذّخر ولتصرّفك فيهِ منتظر وانّما انا لك

خازن والله تعالى مجازٍ على فعالي من مساوٍ ومحاسن وتيقّن أنّ المال هو عزُّك في الدنيا وزادك الى الأخرى وأنّ لهُ وجوهًا ومصارف وعوارف ومعارف فاذا صُرف في غير محلّهِ ودُفع الى غير اهلهِ كان اثمًا ووبالا وفي الآخرة عذابًا ونكالا واحمق الناس المستحق لنزول الباس مَن اكتسب المال حلالا وبذرهُ في الفساد يمينًا وشمالا واذّخر بهِ اثمًا وخبالا فصرفهُ الى مَن لا يحمدهُ وعليهِ حسابهُ ونكدهُ وانت اذا صرفت مالك ووزّعتهُ وفي غير مواضعهِ زرعتهُ وانفقتهُ على مَن لا يعرف فضيلتك ولا يحمل جميلتك ولا يشكر صنعك ولا يقصد نفعك ولا يجلب لك خيرا ولا يكشف عنك ضيرا خرجتَ من عزّ الدنيا وفوّتّ زاد الاخرى وهولاء الذين قِبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين ثمرة صحبتهم الندامة وعاقبة امرهم الخيبة والملامة والبعد عنهم غنيمة وسلامة * واذا كان الامر كذاك فإيّاك يا ولدي ثمّ إيّاك من صحبة هولاء الاحداث والتلوّث بقربهم فانّهم أخباث وآحتفظ بصون مالك ولا تنفقهُ الّا على نفسك وعيالك وفيما يبقي ماء وجهك في حالك ومآلك ولا زال ابوهُ قابض عنانهِ بقدر طاقتهِ وامكانهِ يذكّرهُ هذه الوصيّة بكرةً وعشيّة حتّى ادركتهُ المنيّة وخلّف ذلك المال العريض لذلك الولد المريض * فمدّ يدهُ كما كان الى كلّ مفسدة ونسي يومهُ وغده وشرح في مناهُ متن اللهو وقرّر بحديث من

كتاب فقه الزهو باب الأنجاس وسجود السهو وآجتمع عليه قرناء السوء وحضروا وخلا له ولهم الجوّ فباضوا في الفساد وصفروا وغابوا عن الرشاد وما حضروا وصاروا يعظّمونه ويكرمونهُ ويحترمونه فاذا كذب صدّقوهُ واذا ضرط سمتوهُ وشمتوهُ واذا نهق طربوا واذا أخطأ صوّبوا واذا قعد قاموا واذا قام ناموا يفدونهُ بالمهج والأرواح ويلازمون خدمته في المسآء والصباح * وكان لهُ أمٌّ مدبّرة عاقلة مفكّرة فقالت لهُ : يا بنيّ لا تكن صُبيّ وتذكّر وصايا أبيك وإيّاك ومَن يليك وتأمّل ما لديك واحفظ مالك وما عليك ودبّر معاشك وصُن مآء وجهك ورياشك واعلم أنّ أصحابك واحبابك وندمآءك ورفقآءك واخصّآءك واصدقآءك كلّهم عبيد البطن ولو رقأتَ بذي شيق أو حضن فايّاك ايّاك وصحبة مَن لا يتولّاك لا تركن الى صداقتهم ولا تعتمد على موافقتهم فانّهم في الرخآء يأكلونك وفي البلآء يتركونك والى مخالب القضآء يسلّمونك رأس مال محبّتهم ما في يديك وأساس بنيان مودّتهم ما يرونهُ من النعمآء عليك فانْ قلّ والعياذ بالله فلّوا وخلّوك في عقد النوائب مربوطًا وانحلّوا وأقلُّ الأقسام ياذا الاصل السام أن تجرّب أصحابك وتختبر مَن يلازم بابك ويقبّل بشفاه المودّة أعتابك في شيء نابك اعجز عن حلّه نابك من حوادث الزمان او في حالةٍ من احوال الغضب والرضوان او السعة

والضيق او التكذيب والتصديق فمَن وجدتهُ ناصحًا صادقًا او مطاوعًا مصادقًا وفي كلّ الأحوال موافقًا وفي الرخآء والشدّة مرافقًا يوثق بهِ في الغيبة والحضور وحالتي السرور والشرور يؤدّي الأمانة ويجتنب الخيانة ويغار على دينك وعرضك ويساعدك على ادآء سنّتك وفرضك فآركن اليهِ واعتمد في امورك عليهِ ومَن وجدته منافقا وفي إخلاصهِ مماذقا ينسج شقة الوداد بوجهين ويتكلّم كخائض المداد بلسانين فلا تقربهُ ولا تصحبهُ فانّ بُعدُهُ غنيمة والخلاص منه نعمةٌ جسيمة وانظر بعين الثبات ما في هذه الابيات من حسن الصفات فمَن كان بها متّصفا فتمسّك باذيالهِ فانهُ من أهل الصفا وهي هذه :

* شعـــر *

وقد قيل قول المرء يكشف عقلهُ * ويُبدي سجاياهُ وما كان يكتمُ
فهذا كلامي مظهرٌ ما أكنّه * واكثر هذا الخلق عن عيبهم عموا
فمن شيمتي أنّي مطيعٌ لصاحبي * واصلح عن خصمي وإنْ كنتُ أخصمُ
وأرضى لنفسي دون ما هو حقّها * وألزمها للخلّ ما ليس يلـــزمُ
اذا قال أُصغي للمقال وانّني * لأعلـــم منه بالمقال وأفهـــمُ
ولم اشكُ مِن خلٍّ لئلّا يملّني * ومَن لي بخلٍّ لا يمـلّ ويسأمُ
وأقطع في بحثي وانْ كنتُ غالبًا * وأسكتُ حتى قيل ذا ليس يعلمُ
لأبقي وداد الناس لي لا أضيعهُ * ومَن لا يداري الناس يُرمى ويُرغم
وفي كلّ ذا تقوى الآله شعائري * ولا بُدّ مَن لا يتّقي الله يندمُ

ولا نقصَ في عقلي وأسباب نعمتي * وأنّي وافٍ بالكمال مكرَّمُ
ولي همّةٌ يسمو الى الأوج قدرها * ولكن خمول المرء للدين أسلمُ
ووجهُ آعتقادي مثل عرضي أبيض * وديني متينٌ وآعتمادي مقوَّمُ
وحسبي من دنياي قوتٌ وخرقة * يبلّغني آثار مَن قد تقدّموا
فهذي غريزاتٌ لديّ وأنّني * لادعو الى هذي الخصال وأعزمُ

فأثّر هذا الكلام فيهِ وتأمّل ما تضمّنتهُ فحاويهِ * ثمّ أراد أنْ يجرّب ملازميهِ ومَن بروحهِ وجسدهِ يفديهِ فقال يومًا من الأيّام وقد آجتمعوا على منادمة المدام اتّفق أمرٌ عجيب وشأنٌ غريب وهو أنّهُ كان عندنا هاونٌ في زاوية مخزونٌ زنتهُ ربع قنطار أتى البارحة عليهِ الفار فقرضهُ وأكلهُ وعمّهُ بالاكل وشملهُ فلم يترك من ذلك النحاس في مكانهِ الّا ما فضل من برادة أضراسهِ وأسنانهِ فترشّفت ثغور آذانهم منطقهُ وآستحلى كؤسها كلٌّ منهم وصدّقهُ وقالوا هذا وقع بغير شك لأنّ الهاون كان فيهِ ودك والفار أسنانهُ باضعة وأضراسهُ لجنّ حرافيش بغداد قاطعة * (فلمّا رأى) أنّهم وافقوهُ وصوّبوا كلامهُ وصدّقوهُ ازدادت فيهم محبّتهُ وقويت اليهم رغبتهُ حيثُ رفعوا رتبهُ وستروا في جيب مكنونهم عيبهُ وحقّقوا محالهُ وصدّقوا مقالهُ فأسرع الى أمّهِ مسرورًا فرحا محبورًا منشرحا وقال يا أمّاهُ : انظري كلام أصحابي وآخبري مقام أحبابي ذكرتُ لهم كلامًا باطلا ومن حلية الصدق

والامكان عاطلا فحقّقوهُ بلا مرية وأثبتوا حقيقتهُ من غير فرية وصاغوا لهُ من جواهر التوجيه أبهى حلية وذكر ما جرى لهم وله من الجنون والخبال والوله * فقالت لهُ أمّهُ: يا ولدي ومهجة كبدي هذا أمرٌ يضحك منهُ الجاهل ويبكي على حالك الحالك منهُ العاقل كما قيل :

* شعر *

أمورٌ تضحك السفهآء منها * ويخشى من عواقبها اللبيب

اعلم أيّها الذاهل الغافل أنّك لستَ من أصحابك على طائل وهولآء أعدآء في صورة اودّآء وهم في التمثيل كما قيل :

* شعر *

اذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفت * لهُ من عدوٍّ في ثياب صديق

وتيقّن أنّ هولآء في النعمة خدّاعون وفي النقمة لذّاعون وانتَ شابٌّ غرير وبأعقاب الأمور لستَ ببصير لا مارستَ الخلق ولا فرقتَ بين الصادق من ذوي الملق لا خبرتهم ولا سبرتهم ولا دخلتَ مداخلهم ولا ميّزتَ خارجهم وداخلهم إنّ الصديق الصادق والرفيق الفائق مَن بصّرك عيوبك وغفر لك بعد نصيحتك ذنوبك وأطلعك على حقائق الأشيآء ونبّهك على ما خفي من أمور الدنيا وأرشدك الى ما يزينك ويُصلح بهِ دنياك ودينك وأبكاك اذا نصحك لا مَن أضحكك وفضحك وأمّا الذي يدلس ويلبس ويوسوس ويهوس ويروّج

الباطل ويحلّي العاطل فذاك ليس بصديق على التحقيق
وانّما هو عدوّ فلا يكن لك معهُ قرار ولا هدوّ * فلم يلتفت
الشابّ الى هذا الخطاب حيث كان مصادمًا لغرضه غير
شافٍ لعلّته ومرضه وقال صدق مَن نطق وفاه بالكلام
الحق مَن قال إفشآء السرّ الى النسآء فعل الأحمق . ثمّ تركها
ترغو وآستمرّ هو مع أقرانه يلهو وداوم على تلك الحال حتّى
اذا دنت لنفادها الأموال وبيع الرخيص والغال فما آستفاق
من سكرته وآستيقظ من رقدته الّا والأموال قد ذهبت
والديون قد ركبت وهو ينشد والى مذهبه يرشد

* شعر *

ليذهبوا في ملامي اينما ذهبوا * في الخمر لا فضّةٌ تبقى ولا ذهب

الى أنْ ذهبت السكرة وجآءت الفكرة ونُفقت البيضآء والصفرآء
في الحمرآء والخضرآء وأصبح ملقًى على الأرض السودآء وأتعس
من فوق الغبرآء وأفلس من تحت الزرقآء وتراجع عنهُ
الأصحاب وعاداهُ الأصدقآء والأحباب ورجعوا عنهُ بعد ما
سئموا منهُ وصار ناديه يناديه

* شعر *

كأنْ لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيسٌ ولم يسمرْ بمكّة سامرُ

وصارت محبّتهم لهُ تكلّفا ورؤيتهم ايّاهُ تعسّفا * فاتّفق لهُ في
بعض الايّام أن قال في اثنآء الكلام لذلك الجمع بعينه

الذين كانوا أجمعوا على صدق مينه : الفار الغدّار اكل لنا في
الدار البارحة رغيفًا كاملا فأتى على اكله شاملا فما أبقى
منهُ لبابة ولا غادر من غدير وجوده صبابة . فتنادوا للمحال
بالمحال والكذب في الاقوال الفار الضعيف كيف ياكل
كلّ الرغيف وهو عاجز نحيف وتناولوهُ بالطعن وتناوشوهُ
بألسنة السبّ واللعن وزيّفوا اقوالهُ وسفّهوا افعالهُ *
(وانّما ذكرتُ) هذا الكلام يا أيمن غلام وأحسن من البدر التمام
لتعلم أنّ اكثر مَن يدّعي صدق الصحابة من ذوي المعارف
والقرابة انّما دعواهُ كذّابة كسحاب صيفٍ لا يديم انسكابه
وأنّ الشخص مع الناس الاوغاد والاكياس بمنزلة كوز الفقاع إنْ
رأوا فيه حلاوة الانتفاع استلهوهُ وبالايدي رفعوهُ وقبّلوهُ ورشفوهُ
واذا مصّوا محصولهُ وفرّغوهُ رموهُ وتركوهُ وتحت الاقدام طرحوهُ *
(ثم قال التاجر) لولده راحة روحه وجسده وإن كان مَن
صحبتهم وفي سفرك اكتسبتهم مثل هولآء الاصحاب فايّاك أنْ
تفتح لهم الباب وترفع بينك وبينهم الحجاب * (فقال الولد)
معاذ الله الواحد الاحد يا ابت عندي ثبت أنّهم بدورٌ كرام
وصدورٌ عظام يقومون لقيامي وينصتون لكلامي ويجيبون
ندآءي ويومنون على دعآءي وهم اخلّآء في السرّآء والضرّآء *
(فقال ابوهُ) اعلم يا ابني وقرّة عيني أنّي عمّرتُ سبعين سنة
وعاينتُ من الامور الخشنة والحسنة وبلوتُ الاصحاب وتلوتُ

الاعدآء والاحباب ورايتُ الدنيا واهلها وقلبتُ وعرها وسهلها ولم اترك من جنس بني آدم في أكناف الآفاق واطراف العالم من أمم العرب والعجم نوعًا لم أخبرهُ وصنفًا لم أسبرهُ فلم يصفُ لي على التحقيق غير صديق ونصف صديق فانتَ يا بنيّ العزيز الغالي كيف قدرتَ بالتوالي في هذه المدّة اليسيرة على جمع هذه الطائفة الكثيرة (وها انا) يا امام أُريك مصداق هذا الكلام وأُطلعك من بين الاصحاب على ما لهم من مقام * (ثم عمد) الى شاةٍ فذبحها وبدمها في ثياب طرحها ثمّ دمجها وفي كفنٍ أُدرجها وقال لابنه قُم ياذا الارتقآء أَرني هولآء الأَصدقآء واحدًا بعد واحد لتحقق غيب عيبهم بالشاهد وتعرف طرائقهم وتتبيّن حقائقهم . ثمّ وضع الشاة في عدل وأَخفى كلّ هذا الفعل وحمل العدل على ظهر الغلام وخرج ليلاً والناس نيّام وقصد أَحد الأَصحاب وطرق عليهِ الباب فخرج مسرعًا اليهِ وترامى متواضعًا بين يديهِ وأَظهر البِشر والسرور والابتهاج والحبور وبالغ في الاحتشام والاكرام والاحترام وشكر مساعي الأَقدام ثمّ بادر الى دعوتهِ للدخول وتعاطى إنجاح ما لهُ من سؤلٍ ومأمول * فقال لهُ الشابّ يا زين الأَصحاب وعين الأَحبابِّ دع الكلام لضيق المقام فقد دهتني دهيّة وعرتني بليّة وأَعظم بها من قضيّة ويا لها من رزيّة * فقال : ما هي وُقيتَ الدواهي * فقال : كان بيني

وبين واحدٍ من اهل الشقاوة خصومةٌ قديمة وأَسباب عداوة اسمهُ معروف وذكرهُ موصوف لشخصٍ مفقود لم يكُن لهُ حقيقةٌ في الوجود وهو من أَكابر الزمان وأَحد الروسآء والأَعيان فتلاقينا في خلوة وتداعينا ما بيننا من جفوة وتنابشنا الأَسباب وتناوشنا باللعن والسباب وتناولنا في الشقاق شقّ الأَعراق وتآذت القلوب من الأَغراض بالأَمراض وتنقّلنا من المكالمة الى المشاتمة ومن المواصمة للملاكمة وترقّينا من الكفاح الى الجراح فثارت النفس المشؤومة الى ايقاع حركةٍ ذميمة فضربتهُ فجرحتهُ وقتيلًا طرحتهُ ولم يشعر بنا أَحد من أَهل البادية والبلد وندمتُ غاية الندم وأَنّى يفيد وقد زلّت القدم وعمل شؤم الأَلم ما عليهِ عزم . ثمّ أَفكرتُ بمن أَستعين على هذا الأَمر اللّعين وأَدرتُ في خاطري كلّ مساعدٍ ومعين فلم يمل القلب الّا اليك ولا استقرّ الخاطر في ركونهِ الّا عليك وقد قصدتُ جنابك ويمّمتُ بابك اذ انتَ أَعزّ مخدوم والسرّ عندك مكتوم وها هو مقتولًا اتيتك بهِ محمولًا فآحفر لهذهِ الجثّة حفيرة وأَخفني عندك أَيّامًا يسيرة الى أَنْ تُطفأ هذه النائرة وتسكن الفتنة الثائرة وهذا وقت المروّة وزمان الفتوّة والقيام بحقّ الصداقة والأَخوّة * فلمّا سمع الصاحب اللبق هذا الكلام القلق تضجّر وتضرّر وتنكّد وتضوّر وقال يا أَخي : بيتي عتيق مع أَنّهُ حجر مضيق

لا يسع اولادي ولا زادي وعتادي واذا ضاق عن الأحيآء فكيف بالأموات وهذه بليّة من اوحش البليّات وأظنّها لا تخفى على الناس ويدركها أُولو الفراسة لاغبيآء فضلاً عن الأكياس لانّ قضاياكم قبل اليوم مشهورة وبلغني أنّ عدواتكم قديمة مذكورة وفي التواريخ وصدور الكتب مسطورة ولكم واقعات ونوازل ولهُ أيتام كأنّهم الزغب الجوازل . وأمّا انا فلا يمكنني الدخول فيها ولا تعاطيها بوجهٍ من الوجوه ولا تلافيها فاكفني شرّ ضيرها واندبني الى غيرها وأنّي أكتم سرّها فلا تخف من جهتي شرّها فألحّ عليهِ فما افاد وردّهُ غير ظافرٍ بما أراد * فلما أيس منهُ تركهُ وآنتقل عنهُ ودار على سائر أصحابهِ وذكر لهم مثل الاوّل وخطابهِ فكان جواب الجميع مثل جوابهِ الى أنْ أتى على الجميع واستوفى شريفهم والوضيع ورأى ما هم عليهِ من طبعٍ بديع كأنّهم كانوا متواردين على شرب هذا الصنيع فعاد الى دار أبيه ورجع الي صحّة بيان التنبيه * فقال لهُ : بمُدير الفلك أحقّقتُ صدق ما قلتُ لك وتبيّنتَ ماهية أصدقآئك وحقيقة أوليآئك وأنّهم نقش حيطان ورقش غيطان وغمام بلا مطرٍ وأكمامٌ بلا زهرٍ وآجامٌ بلا ثمر (ثمّ قال) قُم يا زين الأحباب أُريك ما قلتُ لك من حقيقة الأصحاب * ثمّ دخلا الطريق وقصدا نصف الصديق وطرقا الباب فخرج وتلقّاهما بالترحاب فقالا لهُ ذلك المقال

وقصدا بمعونتهِ الخلاص من ذلك العقال * فقال حبًّا وكرامة حللتما بمنزل السلامة انا بكم نشيط وأجلكم بي بسيط غير أنّي أُعلمكم أنّ منزلي غير فسيح حتى أدفن فيهِ هذا الذبيح وليس لي مخباةٌ ولا مخدع ولا سكنٌ في مطاويهِ ولا مصنع وأخاف أنّ أمركم لا يختفي وبهذا المقدار في امركم لا اكتفي ويدي لا تملك غيره وقد وقعتُ بهذا السبب في حيرة وبالجملة والتفصيل انا اكفيكما شرّ هذا القتيل * فقالا لا نقنع بذلك ولكن سدّ عنّا المسالك * فقال : توجّها حيثُ شئتما فلا انا سمعتُ ولا أنتما قلتما * فتوجّها الى الصديق الكامل وذكر لهُ الامر الحامل وقصدا بتلاقيهِ كرمهُ الشامل (فقال لهما) او شيءٍ غير ذلك وقاكما الله شرّ المهالك * فقالا : لا الّا دفن هذا المقتول واخفآء هذا الامر المهول وأنْ نكون تحت أذيالك الساترة حتى تسكن هذه الفتنة الثائرة فإنّ اهلهُ يطلبونا فإن وجدونا يسلبونا ولا يرضون الّا بالدمار وخراب الديار ولا يقنعون بالمال والعقار وهذه قضيّة عظيمة وداهية جسيمة فإن كنتَ تنهض باطفائها وحمل اعبائها وتسعى في اخفآئها فقد قصدناك ودون الاصحاب اردناك فإن عجزتَ عن سدّها فلا عتب عليك في ردّها ولا تتكلّف فوق طاقتك ولا تتجشّم لاجلنا فوق استطاعتك * (فقال) سبحان الله واسوأتاه هذا يوم المروءة

والوفآء وتذكّر وسائل اخوان الصفآء فلكم الفضل اذ قصدتموني والجميلة التامّة حيث اردتموني اما والله لو كان الف قتيل لواريته وكلّ ما كان من امر غيره جاريته وداريته لا يُسمع ابداً خبره ولا تُرى عينه ولا اثره (واما انتما) فافديكما بروحي واولادي وطريفي وتلادي وعندي ديار انزه من جنان الابرار وافيح من كلّ دار فادخلوها بسلام آمنين فانّها تشرح كلّ قلب حزين ولو اقمتم بها سنين ما شعر بكم احد من العالمين فيها أرغب نديم وأقرب خديم وأحسن جليس وايمن انيس فلن تملّوا مقامها ولا تعدموا اكرامها فانتم عند مَن لا يملّ ابدًا نزيله ولكم في ذلك الفضل والجميله *

(قال التاجر) شكر الله سعيك وحفظ على اصحابك مودّتك ورعيك (ثمّ) ودّعه وانصرف وقد عرف الولد من حقيقة الامر ما عرف (ثمّ) قال لولده : يا بنيّ وأعزّ عندي من كلّ شيّ ان اتخذت الصديق فليكن صديقك على هذا الطريق والّا فالانفراد أحسن والعزلة أوفق إن أمكن كما قيل :

* شعر *

فاق حتي كلّ الملاح كمالا * هكذا هكذا والّا فلا لا

ولقد أرشد مَن أنشد حيث قال هذا المقال :

ما في زمانك مَن ترجو مودّته * ولا صديق اذا جار الزمان وفى
فعش فريدًا ولا تركن الى أحد * إنّي نصحتك فيما قد جرى وكفى

ثمّ إنّ الملك قال لأولاده يا ذوي الافضال إن غالب اصحابي من الأمرآء والروسآء والكبرآء خصوصًا فلان أمير ممالك خراسان هم من هذا القبيل وأنا عوّدتهم هذا الجميل فكونوا في الحقيقة متمسكين بأسباب هذه الطريقة (فلما) أكمل وصيّته أولاده هيأ لسفره عتاده وذكر الله وزاده * ثمّ ودّعهم من دار الشرور وانتقل الى دار الحبور والسرور وقد عهد الى اكبر أولاده واستودعهم الله وهو القاهر فوق عباده مَن لا تخيب الودائع لديه ولا يضيع مَن توكّل عليه . فسمعوا الوصيّة وأطاعوا وتعلّقوا بأذيال أهدابها فما ضاعوا واستمرّوا تحت أمر أخيهم كما كانوا في حياة ابيهم كأنّ اباهم ما مات ولم يقع بينهم شتات . فدام لهم السرور وانحسمت عنهم موادّ الشرور وأشرقت بهم ممالكهم وأملاكهم ودارت بالسعود أفلاكهم * ثمّ إنّ الحكيم حسيب انتقل من كلامه العجيب بعد فراغه من حكم ملك الأعجام الى فوائد ملك الأتراك الهمام فشنّف المسامع وشرّف كلّ رآء وسامع وشرع في القال والقيل وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة الّا بالله العليّ العظيم *

الباب الثالث

في حكم ملك الاتراك مع ختنهِ الزاهد شيخ النسّاك

قال الشيخ أبو المحاسن حسّان صاحب الحسن والمحاسن والاحسان : ثمّ نهض الحكيم حسيب الاديب الأريب ووقف في مقام حدّهِ وقبّل موطئ أخيهِ بشفاه خدّهِ وقال : لقد بلغني ايّها السلطان انّ في قديم الزمان كان في الترك ملكٌ يسمّى خاقان من الملوك العادلين والسلاطين الفاضلين برسم العدل معروف وبقصم الجور موصوف كسر الأكاسره وقصر الأقاصره ونحر الجبابره وثغر فم الذعار النبالة الفاغره ملك بلاد الختن والخطا وآستولى على ممالك المغل والحنا وأطاع أوامرهُ الترك والتتار وآستسلم لرأيهِ سكّان الدست والقفار وكان يأجوج من جملة خدمهِ ومأجوج من بعض عبيدهِ وحشمهِ كأنّهُ وارث لذريّة يافث قويٌّ في أخذ الملك من ممالك الصين وأخذ الى أطراف الشمال باليمين ولم يكن لهُ من البنين والبنات مع كثرة السراري والزوجات سوى بنتٍ واحدة لطلعتها الأقمار شاهدة

* شعر *

شمسٌ ولا كالشمس عند زوالها * بدرٌ ولا كالبدر في نقصانهِ

بل بهرت الشمس جمالا والبدر كمالا وفاقت مِلاح الدنيا شمائل وخصالا وهي عزيزةٌ في قلب أبيها كريمةٌ على خواصّها وذويها فصارت ملوك الأطراف يخطبونها ومن أبيها يطلبونها فكان أبوها يفوّض الأمر اليها ويعتمد في تزويجها عليها وهي لا ترغب في طالب ولا تصغي لخطبة خاطب الى أن عنست وخطّابها أيست * وكان أبوها كما ذُكر ذا فطنةٍ بالغة وهيبةٍ دامغة فخشي حوادث الزمان وآختلى بها في مكان وقال : اعلمي يا معدن اللّطائف أنّ البنت في منزل ابيها كالمآء الواقف إنْ مكث يأسن وإن لم يُستعمل أنتن ولا أقول ذلك ملالا ولا عجزًا ولا آستقلالا بل لابدّ للمرأة من زوج يلمّها فيسترها ويضمّها ونعم الختن القبر وأحلى من البنت الصبر فإنْ رأيتِ الرغبة في الزواج طلبتُ لك كفؤًا من الأزواج وكان ذلك أستر لعرضكِ وأدنى لاقامة سنّتكِ وفرضكِ وأفرغ لخاطر ابيكِ وأشرح لخدمكِ وذويكِ * فقالت : أحسن الله الرحمن الى مولانا الخاقان وكفاهُ كلّ جان من الأنس والجان إنّ البنين من جملة النعم والبنات من اعداد النقم ونِعم الدنيا عليها الحساب ونقمها سبب الاجر والثواب فمولانا الملك يعدّ وجودي نقمةً عليهِ من معبودي واسال الصدقات الملوكيّة والمراحم الوالديّة أن لا يعجّل في امر تزويجي وأن لا يبادر كيفما اتّفق الى ترويجي فإنّ التأمّل

في ذلك اولى وثنآء في الدنيا وثوابٌ في الأُخرى وذلك لأنَّ
الكفآءة في الزواج معتبرة وقد قرّر ذلك الفقهآء البَرَرة وإن
لم يكُن الزوج للمرأة كفوًا فزواجها بهِ يقع سخريَّةً وهزوًا ولا
يفيد سوى الغرامة والفضيحة والندامة * فقال الملك : لا
أُزوّجكِ الّا بكفوٍ كريم يكون لكِ أدنى خديم وفي الناس أعلى
مقامٍ عظيم * قالت : يا مولانا الملك وقاك الله شرّ المنهمك
لا تحمل اعتراضي على الإسآءة وانّما اسأل عن كيفيّة الكفآءة
فإنْ كانت بالملك والمال فإنّ ذلك في معرض الزوال وان
كانت بأنساب الأنساب فإنّ ذلك خطأٌ لا صواب وانّما
الفقهآء حكموا بالظاهر واللهُ يتولّى السرائر ونحن في قيد الانقياد
ولا يسعنا الّا ما أمر بهِ الشرع واراد وأمّا انا فكفوئي الكريم
انّما هو الكامل الحليم الفاضل الرحيم * قال الملك : بارك الله
في رأيكِ وعقلكِ انا لا أُزوّجكِ الّا بملكٍ مثلكِ او ابن ملكٍ
مثل أبيكِ يرعاكِ ويُكرم خدمكِ وذويكِ يعدل بالسويّة
ويحكم على سائر الرعيّة * قالت : ايها الملك الكبير صاحب
التاج والسرير أنا ما أعرف الملك الّا مَن يُعرف بملك الحكم
على نفسهِ في سيرهِ ويكون متحكّما متمكّنا من الحكم على غيرهِ
فيحقّ أنْ يُقال في ملكهِ ذي الجلال خلّد الله سلطانهُ
وشيّد أركان ملكهِ وبنيانهُ * قال الملك : ومَن هو ذاك بارك
الله فيكِ وهداك * قالت : أمّا الحاكم على نفسهِ فهو المالك

لزمام جوارحهِ وحسّهِ قد جعل خزائن القلب والسمع معدنًا
لجواهر العقل والشرع فمهما اقتضاهُ العقل أمضاهُ وعمل بمقتضاهُ
وما ارتضاهُ الشرع وقضاهُ كان فيهِ انقيادهُ ورضاهُ قد تحلّى
بعقود مكارم الأخلاق ولو كان في أسمال أخلاق وشغل
نفسهُ بتهذيبها واجتهد في خلاصها من شرك عيوبها واهتمّ
بعيوبهِ عن بعيدهِ وقريبهِ وبغيضهِ وحبيبهِ فذلك الحاكم على
نفسهِ المميّز على ابنآء جنسهِ ، وأمّا حكمهُ على غيرهِ فهو
أنْ يكون في سلوكهِ وسيرهِ منعزلاً عن الناس في زوايا
الياس لا يسأل عن أحوالهم وعيوبهم ولا ينظر الى ما تحت
أيديهم وجيوبهم مالكًا لزمام العزلة متنعّمًا بهذه النعمة الجزلة
قد اتّخذ التقوى والقناعة أحسن حرفةٍ وأربح بضاعة قد
سلم الناس من يدهِ ولسانهِ لا يدري بشانهم ولا يدرون بشانهِ
فذلك الحاكم على غيرهِ الفائز من ملك الدارين بخيرهِ فهو
الذي خُلّد ملكهُ وسلطانهُ واتّضح للعالمين برهانهُ فإنْ وُجد
بهذه الصفات موافي فانّهُ لي كفوٌ مكافي وأنّهُ كالبدر جليّ
نقيّ الصدر لله ولي فاذا أنعم الزمان بمثل هذا مَنالا فنعم نعم
والّا فلا لا * فجعل ملك الختن يتطلّب مثل هذا الختن
وأرسل القصّاد الى أطراف البلاد يسألون سكّان الأكناف
وقطّان الأطراف عن موصوفٍ بهذه الأوصاف واستمرّوا
على ذلك مدّة كلّ باذل جهده حتى أرشدوا بعد زمان أنّ

المكان الفلانيّ فيهِ فلان رجلُ أعرض عن العرض فلم يكُن لهُ في الدنيا غرض وهو بحسن الصفات موصوف وفي كوخ العبادة والاجتهاد معروف جامع لهذه الصفات ليس لهُ الى الدنيا وأهلها التفات مشغولُ باكتساب الآخرة وطلب نعمتها الفاخرة وهو من نسل الملوك وقد ترك وراءهم السلوك وسلك في العلم والعمل السبيل الأقوم ولشدّة ما هو لنفسهِ مجاهد سمّاه الناس الملك الزاهد * فأجمع الخاقان على مصاهرتهِ وجعل التقرُّب اليهِ قربةً لآخرتهِ فأخبر ابنتهُ بهِ وكان جلّ مطلوبها ومطلوبهِ وعقد بينهما النكاح وحصل الفلاح والصلاح فوافق شنٌّ طَبقة وصار لعين مرامها كالحدقة ومضى على ذلك برهة وهما في طيب عيشٍ ونزهة * فآشتاق الخاقان في بعض الأزمان الى رؤية ابنتهِ وسرور بهجتهِ فقام لدارها بقصد مزارها لينظر حالها وما عليها وما لها فوجدها في عيشٍ هنيّ وامرٍ سنيّ . فسألها عن أحوال زوجها الزاهد وكيف صبرها على حالها الجاهد * فأثنت خيرا وكفت ضررًا وضيرا وقالت جميع ما يبرزهُ ويأتيهِ على حسب ما أُريدهُ وأرتضيهِ وارتفاعات أحوالنا بسعادة مولانا في دفاتر الأمن منضبطة وعقود حياتنا بيمين صدقاتهِ في نحور الرفاهية غير منفرطة غير أنّ بيتنا واحد وبسبب ذلك يتضرّر هذا العابد فيهِ نبيت وفيهِ نقيل وبجوانبهِ ما لنا من خفيفٍ وثقيل وقوت ونقود

وخادم ومولود فلا يتفرّغ من الغوغاء للعباده لانّها تستدعي عزلة العابد وانفرادَه وتخليهِ لمناجاة معبودهِ ليظفر من حلاوة الطاعة بمقصودهِ فأسال مولانا الخاقان ذا الفضل والاحسان بيتًا يتخلّى فيهِ للعباده ومكانًا يضع فيهِ خرثيّ البيت وعتادَه * فقال : حبًّا وكرامة وقربَى وسلامة (ثمّ اجتمع) الملك بصهرهِ الذي بهِ فاخر وذكر لهُ أنّهُ أعطاهُ بيتًا آخر احدهما يكون لخلوتهِ ومبيتهِ والآخر يضع فيهِ ما يحتاجهُ من عتادهِ وقوتهِ * (فقال) الزاهد أيّها الملك الماجد : فعلتَ ذلك لتقسم خاطري وتوزّع فكري وسرائري ولا طاقة لي أنْ أتعلّق بمكانين وما جعل الله لرجل قلبين وانّما الزاهد مَن همُّهُ في الدنيا واحد فانّهُ على عدد التعلّقات يتوزّع القلب الشتات واذا تعدّدت الأماكن يحتاج كلٌّ منها الى ساكن او حافظٍ او ضابط او حارسٍ او رابط وأنا لا اعتماد لي بحفظ نفسي أيُّها الولي فكيف يكون لي اقتدار على حفظ الأغيار واذا انقسمت افكاري وفسد بالي فكيف أقدر على صلاح حالي وأنّى يصلح مع فسادي امور معاشي ومعادي ثمّ انّي اذا وزّعت نفسي فقد نبّهتُ راقد حرصي والحرص أفعى قاتل وأسدٌ صائل يقتلني بسمهِ بل بمجرّد شمّهِ * فقال الملك الكبير لا تهتمّ لذلك أيُّها الزاهد الخطير فانّ لي أماكن عديدة وقصورًا مشيّدة وحواصل مصونة وخزائن مكنونة الكلّ

تحت تصرّفك واختيارك لا منازعَ لك فيهِ ولا مشارك فآجعل لكلّ جنسٍ من قماشك وأثاثك ورياشك وما يقوم بأودك ومعاشك مكانًا على حدة وناحيةَ حفظٍ منفردة واتّخذ لنفسك مقاما خاصًّا بك لا عامًّا وأنا أُقيم على كلّ مكان حارسا إنْ شئتَ راجلًا وانْ شئتَ فارسا فعند احتياجك الى شيّ اتاك هنا ميسرًا من غير كدٍّ ولا عيّ وتفرّغ انتَ لعبادتك واشتغالك بامور آخرتك * قال الزاهد أيّها الملك المجاهد : الاغترار بالقصور من جملة القصور والاعتماد على الحصون من دواعي الجنون واذا ورد من الملك الغفور طلبٌ على يد القبور فماذا تجدي الدور والقصور وماذا تنفع الحصون او يدفع كلُّ مكانٍ مصون واذا آذن بالحلول ذلك الخطب المهول تودّ النفس لو كانت القصور الممهّدة والبروج المشيّدة أذلّ من أفحوص قطاةٍ وأقلّ من عشّ بزاةٍ وقد قيل :

* شعــر *

قيصٌ من القطن أو حلّة * وشربةُ ماءٍ قَراحٍ وقوت
ينال بها المرء ما يرتجي * وهذا كثيرٌ على مَن يموت

واعلم أيّها الخاقان أنّ النفس لها خادمان مطيعان مجيبان ولِما تأمر بهِ سميعان وهما الشهوة والحرص الشديد الدعوة أمّا الشهوة فرائد الأكل الكثير والشرب وأمّا الحرص فعابد الرعونة والعجب وقد قيل :

* شعر *

فهذا يقود الى طبعهِ * وهذا يسوق الى ربعهِ

فهما ليلًا ونهارا وسرًّا وجهارا يزينان لها ما طُبعا عليهِ ويجذبانها الى ما جُبلا اليهِ ويتقاضيانها حقّهما ويطالبانها مستحقّهما ولا بدَّ للمخدوم من اقامة أود خادمهِ واسترضاء انيسهِ ومنادمهِ وقد قال مَن اتقن المقال :

* شعر *

إنّ اللبيب اخا اللبيب هو الذي * مع تيههِ يحنو الى عشّاقهِ
وكذا الرئيس وانت اكبر جنسهِ * مَن فاض في الخدّام من ارزاقهِ
يهتمّ إن حضروا لهُ بنوالهِ * يغتمّ إن غابوا على اشواقهِ
مع أنّ حشمتهُ وفائض علمهِ * ترقى بكلّ منتهى استحقاقهِ

ولكن رضا هذين الخادمين غايةٌ لا تدرك وفقد مقصوديهما نهايةٌ عميقة المسلك والحرص مهلك والشهوة قاتلة وكلٌّ منهما في الدمار والبوار علّة كاملة * وناهيك يا ذخر الحقّ وغياثه أخبار اللصوص الثلاثة * فطلب الملك من الزاهد ايضاح هذا الشاهد *

فقال : ذكر أهل الرواية أنّ لصوصًا ثلاثة كانوا على سبيل الاشتراك متعاطين أسباب التحرّم والهلاك وآستمرّوا على ذلك مدّة حتّى استولوا من الأموال على عدّة * ففي بعض الليال ظفروا بجملةٍ من الأموال ودخلوا الى مكانٍ

دائرٍ خالٍ بنيّة الاقتسام وكانوا محتاجين الى الطعام فوجدوا
في ذلك المكان الدائر صندوقًا مملوًّا من الجواهر ففرحوا
وآنشرحوا وتصوّر لاولئك الخاسرين أنّهم ربحوا فقالوا انْ
اشتغلنا بقسمة هذا المجموع كُلبنا وأهلكنا كلب الجوع فالأَولى
طلب الطعام قبل الاقتسام ولو بأدنى التهام ويسير التقام .
ثمّ أرسلوا مع أحدهم الى المدينة ورقهم ليأتيهم بما يسدّ رمقهم *
فلمّا انفصل عن مكانهما وغاب عن أعينهما تحرّكت نفسهُ
الخبيثة بشهوةٍ أجّجت تأريثة وقوّاها الحرص المشئوم لشدّة
الشَرَه الملوم ودعاهُ داعي الفساد الى الاستيلآء على المال
بالانفراد فعزم على ختلهما فوضع في الطعام سمًّا لقتلهما *
وأمّا هما فعلى قتله عزما وآستعدّا لذلك بعدما جزما ليصير
المال بينهما نصفين ويصيرا في ذلك كالأخوين الالفين ويكون
ذلك كأنّهُ وراثة لأنّ شرّ الرفقآء ثلاثة ولم يدعهما الى ذلك
غيرِ داعي الشهوة وأكدّ ذلك داعي الحرص وأنجس بهما من
دعوة . فلمّا فصل ذلك بالاكل بادرا اليهِ بالقتل . ثمّ بعدما
قتلاهُ عمدا الى الطعام فأكلاهُ فبردا في الحال وتركا ذلك المال
ولحقا بصاحبهما التالف وسيّبا تليد المال والطارف * وانّما
أوردتُ هذه الموعظة لانّها على أحوال الدهر موقظة * واعلم
يا مولانا الخاقان كفاك اللّه مكايد الشيطان وأنجح مقاصدك
على ممرّ الزمان أنّ الدرجة العليّة والرتبة السنيّة لا تُنال

بقوّةٍ ولا عزمة ولا شجاعةٍ ولا همّة وانّما هي عنايةٌ ربّانيّة
وأسرارٌ رحمانيّة لأقوامٍ سبقت لهم من اللّهِ الحسنى وزيادة
وآنتظموا في سلك أهلِ السعادة فهم أهل الفضل والسيادة
أسبغ اللّه عليهم سواطع الأنوار وقطعهم عن قواطع الأشرار فهم
السادة الأخيار والقادة الأبرار قاموا باداء ما وجب عليهم
وتركوا ما خلفهم وآستبشروا بما لديهم فأنوارهم ساطعة وأسرارهم
لجميع الأوهام قاطعة تركوا من زخارف هذه الدار وأرادوا دار
القرار وجوار الملك الغفّار فهم الهُداة الى اللّه الدالون على
رضاه لا يعتريهم كدر الأوهام ولا يشتغلون عن خدمة خالقهم
مدى الأيّام هم العِباد المكرّمون العبّاد المقرّبون * وآعلم أنّ
أعدى عدوّك بين جنبيك وهي نفسك التي قطُّ ما ركنت
اليك فآعصَ هواها ولا تعطِها مناها فإنّ في اتّباعها الندم
عاجلا والحسرة آجلا لا بقليلٍ تقنع ولا بكثيرٍ تشبع ولا
تظنّ أنّها اذا أعطيتْ مناها شكرتْ أو اذا ذكّرتها مَن براها
ذكرتْ بل متى أمِنتها كفرتْ او آنستَها نفرت أو أرخيتَ
عنانها بطرت وأثرت وإن نالت مطلبا او تناولت ماربا
انتقلتْ عنهُ وطلبت أعلى منهُ فليس لها دوا الّا القمع
عن دواعي الهوى كما قيل : * شعر *

النفس راغبةٌ اذا رغّبتها * واذا تردُّ الى قليلٍ تقنع * وقيل ايضا :

وما النفس الّا حيث يجعلها الفتى * فان أُهلتْ تاقت والّا تسلّت

وقيل ايضًا

قنع النفس بالقليل والّا * طلبت منك فوق ما يرضيها

وإيّاك وطول الأمل فانّهُ مفسدةٌ للعلم والعمل . قال الحكمآء وعقلآء العلمآء : الأمل شبكة الشيطان وموجب الحرمان فآجهد ما دام لك على النفس ملكة أنْ تخلّص نفسك من هذه الشبكة ولا تهتمّ للأقوات فكلّ ما قُسِمَ ما فيهِ فوات وكلُّ ما هو آتٍ آت فآقطع دواعي الطمع عمّن لا يضرّ ولا ينفع لا عمّن إنْ شآء ضرّ وإنْ شآء نفع ولا تجتمع الّا بمثلك في الجماعات والجُمع ولا تتعب لجوعٍ وعرًى وآكتسآء وشِبَع فقد قيل : اذا شبعتَ فلا تهتمّ للجوع فكم من شبعان مات قبل أنْ يجوع واذا اكتسيتَ فلا تهتمّ للعريّة فكم من مكتسٍ مات وثيابهُ جديدة مطوبّة * واعلم أنّ طبع الدنيا بالمخالفة كأنّها على المخالفة مخالِفة فاذا ضممتَ عنها يدك اليك أقبلت عليك وجآءت تهوي تحت قدميك واذا تطلّبتها هربتْ منك وكما آرتبطتَ اليها انحلّت عنك وقد قيل ايُّها الملك الجليل :

مثل الرزق الذي تطلبهُ * مثل الظلّ الذي يمشي معك

انت لا تدركهُ مستعجلا * واذا ولّيت عنهُ تبعك .

ثمّ اعلم ايُّها الخاقان انّك وإنْ كنتَ ذا التصرُّف والسلطان وانّ هذه الخلائق رعيّتك نافذة فيها بمراسيمها منيتك الّا انّك

في الحقيقة واحدٌ منهم لا تزيد بشيءٍ في الذات والصفات عنهم ولكن الله القديم العالم الحكيم سلطان السلاطين بل خالق الاوّلين والآخرين رفعك عليهم وتقدّم بامرهِ أن يطيعوك اليهم فهم قد اذعنوا لك واطاعوك فراعِهم كما هم مراعوك واطلب لهم اسنى المراعي وابهاها واوردهم اعذب المشارب واصفاها فانّ الملك الذي سلّمهم اليك سوف يتقدّم بالسؤال عنهم اليك فكن لهم كما تريد أن يكونوا لك ودِن لهم كما تحبّ أن يدينوا لك * وآعلم ايُّها الملك الودود أنّ هذه النقود إن لم تُصرف في مصارفها وترفل في وجوه الطاعة في مطارفها فانّها جمرٌ يُضرم في نار جهنّم فاسمع ايُّها الملك الصالح نصيحة مشفق ناصح ولا تغترّ بالدنيا وزهرتها ولا تنظر الى حلاوتها وخضرتها وايّاك والميل الى نزهتها ونضرتها فإنّك إن ملتَ اليها اسرتك اوجبرتها على الركون اليها كسرتك وحسبك من كلام الربّ الغفور ومَن بيده مقاليد الامور (انّ وعد الله حقّ فلا تغرنّكم الحياة الدنيا ولا يغرنّكم بالله الغرور * قال الراوي لهذه الحكم والفتاوي : فلمّا وعى ما قال الختن هذه النصائح الصادقة من الختن امر بها فسُطّرت ثمّ نُشرت وشُهرت وعلى المنابر قُرئت وعلى رؤوس الاشهاد ذُكرت وابلغها ابنتهُ وقرّر لها مقدار زوجها وحكمتهُ وميلهُ عن الدنيا ورغبتهُ * فقالت : هذا الذي كنتُ اردتهُ وعلى مسامع مولانا الخاقان سردتهُ ثمّ أنّها أقبلت على طاعة ربّها

وبعلها واصلاح احوالها في قولها وفعلها وقضيا عمرهما في انواع العبادة واكتسبا بطاعتهما في الدارين الحسنى وزيادة * ثمّ اقتدى بهما الملك وعسكرهُ حتى انتشر في افاق المملكة بالعدل والصلاح خبرهُ الى أن اندرج الى رحمة الله تعالى ذلك الرعيل وبقي ذكرهُ مخلَّدًا على صفحات الايّام جيلًا بعد جيل وقد قيل في ذلك احسن القيل : * شعر *

كانوا شموسًا تضيء الدهر طلعتهم * وفي طريق المعالي يُقتدى بهم
غابت فلولا سناهم كالبدور أضا * من بعدهم تاه أهلُ الفضل في ظلم

هكذا يكون طالب السعادة الأبديّة والكرامة السرمديّة اذا ملّكهُ الله زمام الرعيّة يحسن سيرهُ في الدنيا ويتيقّظ لتحصيل السعادة الكبرى ويشتغل بما يرضى عنهُ المولى وحسبُنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة الّا بالله العليّ العظيم * (تمّت بحمد الله تعالى) نوادر ملوك العرب والعجم والأتراك ويلي ذلك مباحث زاهد الانس العالم مع الشيطان الجنّ الآثم الإفاك. ونسأل الله المسئول أنْ يحقق لنا من كرمهِ واحسانهِ المأمول ويعصمنا بفضلهِ من عثرات الفضول ويمنّ بالكرم والفضل على قطوعنا بالوصول آمين والحمد لله ربّ العالمين *

الباب الرابع

في مباحث عالم الانسان مع العفريت جان الجان

قال الشيخ أبو المحاسن من ماء ينابيع علمهِ في مجاري بدن الفضل غير آسن : فلمّا أنهى الحكيم حسيب ذو الفضل النسيب حكاية ما طرّزهُ ممّا نسجهُ وحاك وفصّلهُ خيّاط تقديرهِ على اقامة المجد من خلع حكم العرب والعجم والأتراك شكرهُ أخوهُ القيل على هذا القيل وأفاض عليهِ من نيل نوالهِ جزيل النيل وأدرك من ذلك النموذج علوّ علمهِ وسموّ حلمهِ وجميل حكمهِ وجليل حكمهِ * ثمّ قال يا استاذ بلغني أنّ بغداد خرج منها خارج من نار من مارج وهبط الى مدارك الخزي عن المعارج وأصل ذلك المشؤم من عفريتٍ خُلق من نار السموم وانّ شخص ذلك الشيطان جبلٌ من سخام الدخان فلهذا ركب وجههُ السواد وتركّب سائر جسدهِ من الرماد فهو جنّيّ ذميم وشيطانٌ رجيم وقد شرع ذلك الخنّاس في الافساد والوسواس وتعاطى ايذاء أكابر الناس * وأنّهُ في هذه الايّام نُفي الى بلاد الشام فلم يوافقهُ ذلك المقام لانّهُ مهاجر الانبياء الكرام وهذا مجبولٌ على سجايا

اللئام وطباع أهل الفساد والأجرام فأقام فيها بالاضطرار
والاضطرام مدّة أشهر وعدّة أعوام وأخذ في الاضلال والتضليل
فأضلّ خلقًا كثيرًا من سوآء السبيل وتستّر ذلك الجان بحجاب
الانتساب الى جنس الانسان ولبس بشقّ العصا ثوب العصيان
فكمن يكون الشوك تحت ورق الورد والريحان واحتمى في حمى
الشقاق والنفاق بشقائق النعمان والحقّ انّه من نسل
العفاريت وكان عند الجنّ مقيله والمبيت ومن ألبانهم له
غذآء وتربيت * فقال له الملك هديت ووُقيت فإن يكن
عندك من ذلك شيّ فشنّف من جواهر حكمه أذنيّ فانك
حكيم الجنّ والانس وكريم النوع والجنس * قال الحكيم نعم
أيّها الملك العظيم : انا جهينة الأخبار ومزينة الأخيار وحكم
الحكم ولي في البيان أعلى عَلَم * أمّا هذا الشخص المذكور فانّهُ
بالفسق والفساد مشهور ورقّ شرّه في البلاد منشور وكتاب
عناده بين العباد مسطور وبيت حسده لنعم الله تعالى
على خُلّص أوليائه بالفجور معمور ولهُ صفاتٌ تعيسة وأخلاق
خسيسة تأنف مَرَدة الشياطين منها وتستنكف العفاريت عنها
وكم لهُ من دواهي شرّها غير متناهي لا يفي بذكرها هذا
الخطاب ولا يسع سردها هذا الكتاب بل ولا يقوم بذلك
دفترٌ ولا حساب ولكن البعرة تدلّ على البعير فقس من هذا
التقدير الكثير على اليسير وقد كان اراد نشر الفساد ببلاد

العراق وبغداد فعاكسهُ معاكس وأحاد فنُفي من تلك البلاد
فوصل آرم ذات العماد وتعاطى أسباب ما هو عليه من
الزندقة والإلحاد فأثار أصناف الفتن وأنواع العناد وابتدع
من الشرّ والبدع ما يخرج عن حصر التعداد وهو على ما هو
عليه من المناكدة والمجاحدة وقصده الأعوج من تعديل اقوال
الرافضة والملاحدة وسيوضع لذلك مصنّف متّسع على حدة *
ولقد بلغني أيّها الملك الهمام أنّهُ حصل لهُ في ذلك المقام
مع عالم من علمائها الأعلام قضايا كبتهُ على خيشومه
وأظهر بها ذلك العالم دسائس خبثه وشومه مثل ما اتّفق
لعالم الانسان مع شيطان العفاريت وجان الجان في غابر
الدهر وماضي الزمان * فقال الفيل العظيم أخبرنا بذلك أيها
الحسيب الكريم *

فقال : ذُكر أنّ في الازمان الغابرة كانت صنوف الجنّ
للانس ظاهرة تترآءى بأشكال مختلفة وتتزايا بأمثال غير
موتلفة وتظهر لهم الخيالات العجيبة والصور المموّهة الغريبة
فتضلّهم ضلالاً مبينا وتاتيهم من بين ايديهم ومن خلفهم وشمالاً
ويمينا وتخاطبهم مشافهة وتوافيهم مواجهة * ففي بعض الايّام
ظهر ببلاد الشام مهبط الوحي ومهاجر الانبيآء الكرام ومحطّ
رحال الرجال من اهل الفضل والافضال رجل من العبّاد
وافراد الزهّاد فاق الاقران بالصلاح وساد اهل الزمان بالورع

والفلاح وحاز طرفي العلم والعمل فكمّل كثيرًا منهم بعد ما كمل واستمرّ يدعو الخلق الى خالقهم ويحثّهم في الانابة والتوكّل على رازقهم ويرضونه ويرضيهم في الطاعة وآتّباع السنّة والجماعة ويقبّح الدنيا في اعينهم ويحذّرهم غدراتها في مكمنها عند مامنهم وكان لنفسه المبارك نقوش في النفوس يجذبها الى ما يريد جذب الحديد المغناطيس * ففي مدّةٍ يسيرة تبعه طوائف كثيرة وآنتشر صيته الى الآفاق وصفًا للعباد وقت الطاعة وراق وضربت اليه اكباد الابل وآمتلأت الدنيا من العلم والعمل وآضطرب امر المردة والشياطين العتاة وتعطّلت اسواق الفسوق وخرج عرق المعادي من العروق وتحمّلت العفاريت وتنكّست أعلام الجنّ المصاليت وضلّ سبيل الضلال كلّ مارد خرّيت وبطلت زخارفهم وتمويهاتهم وعطلت وساوسهم وتشويهاتهم وأهانهم الناس وكسد الوسواس وفسد فعل الخنّاس * فلمّا ضلّ سعيهم وكاد يقع نعيهم اجتمع العفاريت العتاة والشياطين الطغاة والمردة العصاة الى إبليسهم العنيد وهو شيطانٌ مريد صورته من أقبح الصور له أظلافٌ كأظلاف البقر ووجهه كالتمساح وشكلٌ كالزمّاح وخرطومٌ طويل ورأسٌ كالفيل وعيونٌ مشقّقةٌ بالطول وأنيابٌ كأنياب الغول وشعرٌ كالشيهم وجلدٌ كالأرقم وهو يلهث كالكلاب ومن ورآئه عدّةُ ذئاب فشكوا اليه حالهم وأطالوا في الشكوى

قالهم وقالوا : يا شيخ التلبيس وآبن عمّ إبليس لقد عمرت المدارس وبطُلت منها الوساوس وتعمّرت المساجد بكلّ راكعٍ وساجد وقائمٍ وقاعد وقارئٍ وجاهد فطُرد كلّ شيطانٍ مارد وتمشّى سنن الحلال فوقف منّا الاحتيال وأُمر بالمعروف فوقعنا على الأمر المخوف وكثرت الحجّاج فتقطّعت منّا الأوداج وأُدّيت الزكوات والحقوق فطرد منّا كلّ عقوق وقام الحقّ فنام الفسق وعُبِدَ الله في المغارات والكهوف وآستدّ علينا السبيل فعلى مَنْ نطوف ولم يبقَ لنا على بني آدم سلطة وصرنا في بحارهم أقلّ من نقطة وعند جهرهم بآذكارهم اذلّ من ضرطة لا وساوسنا تُؤثّر في أفكارهم ولا مجالسنا تعطل من آذكارهم ولا تخيّلاتنا تتراءى لأبصار أسرارهم فإنْ آستمرّ الحال على هذا المنوال لا يبقى لنا في الدنيا مقام ولا بين الجنّ والانس كلام * (فلمّا وعى) العفريت فحوى هذه الشكوى وتامل ما في مطاويها من نازلةٍ أحاطت بهم وبلوى اشتعلت نيران غضبه وتأجّجت شواظات لهبه. ثمّ قال : أمهلوني اتلوّى واتركوني أتلوّم وأتروّى وافتكر في هذه البليّة واكشفها عن جليّة فإنّ الأمور لا تنتج لمعانيها ما لم يتأمّل من فراغها في جوانبها ونواحيها وتحقيق المسائل إنّما يوجد من محكميها وحاكميها (وكان) هذا العفريت العاتي المارد الغير المواتي تحت يده وأمره من مقتبسي تلبيسه ومكره والشياطين المردة وأغوال العفاريت العنـدة

طوائف شتّى وأمم لا تحصى وممّن فاقهم في المكر والمرا أربعة اشخاص كبرآء وزرآء كلّ منهم في الشيطنة والموالسة ومعرفة طرق الوسوسة كأبي عليّ بن سينا في علم الهندسة غايةً لا تدرك ونهايةً لا تستدرك * فآجتمع هذا الغول بوزرآئهِ ورؤسآء أشياعهِ وكبرآئهِ . ثمّ قال لهم : أفتوني في أمري وساعدوني على فكري ومكري ووجّه الخطاب لكبيرهم الذي علّمهم السحر المشار اليهِ في الدهآء والمكر وقال لهُ ما رأيك في هذه القضيّة والمواقف الرديّة والداهية الدهيّة * فقال الوزير يا مولانا الأمير وصاحب المكر والتدبير انّ العقلآء وذوي التجارب من الحكمآء تفرّسوا بأمرٍ قاطع من الوقائع القواطع فقالوا شيئان لا بقآء لهما الروح في الجسد والسعد في الطالع وهذا هو الصواب ولكلّ أجلٍ كتاب وما دام الأجل باقيا والسعد راقيا ومنادم السلامة ساقياً وحافظ العوارض واقيا لا ينفع الجدّ ولا يدفع الجدّ ولا يرفع الجهد ما أثبت السعد فاذا تمّ الأجل وبطل من السعد العمل انتكس السعد وانقلب وفارقت الروح بلا سبب واذا كان كذلك فهذا الرجل الناسك سعدهُ عمّال وطالعهُ في إقبال فكلّ سهم مكرٍ فوّقناه الى نحوِ حياتهِ يعود علينا وكلّ رمح فكرٍ صوّبنا سنانهُ الى شاكلة بقآئهِ يرجع الينا. فالرأيُ عندي أن نتربّص حتى تدور بهِ الدوائر ولا نهتمّ باحتيال محتال ولا مكر ماكر الى أنْ تنقضي مدّتهُ ويسقط من سعد

طالعهِ قوّتهُ فعند ذلك يفيد سعينا ولا يضيع كدّنا * (فقال) العفريت للوزير الثاني يا أفضل جاني : أنتَ ماذا تقول وكيف تشير أنْ نصول في ميدان هذا الأمر ونجول * فقال : رأي مولانا الوزير سديد وكلّ ما أشار بهِ فهو أمرٌ مجيد ولكن كيف يُهمل أمر العدوّ ويركن مع وجودهِ الى قرارٍ وهدوّ واذا كان طالعهُ في قوّةٍ فاهمالهُ يزيد في قوّتهِ والتهاون في أمرهِ مساعدةٌ في معاونتهِ ومعاونةٌ في مساعدتهِ وهذا من علامات العجز والانكسار ومن أقوى الادلّة في الانحطاط والصغار وأنّ ربّ الارباب وضع عالم الكون والفساد على الأسباب فلابدّ من تعاطيها في هذا الباب وبذل المجهود في معاملات الأعدآء والاحباب ولم يقتصر الشارع على التقدير والطالع اذ فيهِ حسم مادّة الشرائع والتعرّض لابطال حكم الصانع فعندي أنْ نبذل الجهد في حسم مادّتهم وتعاطي كسر شوكتهم وبذل الجهد والجدّ بما تصل اليهِ اليد وثبات الأقدام في اثبات الاقدام كما قال الشاعر وهو سلّم الخاسر في ثبت الجاسر *

* شعــــر *

مَن راقب الناس مات غمّا * وفاز باللذّة الجسور

وهذا الشاعر المسمّى أخذهُ من اخينا بشار الاعمى مَن لنا بوجودهِ انس وهو شيطان الانس حيث يقول ذلك الغول

* شعر *

مُن راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيّبات الفاتك اللهج

فآعزموا على هدم ما يبنون وصدم ما يعنون والاخذ في تمزيق جلدتهم وتفريق كلمتهم اذ لا اطّلاع لنا على مساعدة الطالع ولا حدّ لبقاء الاجل فضلاً عن أن نقول هذا الحدّ جامع او مانع وهذا الراي عندي أولى ورايك يا رئيس التلبيس اعلى ودونك يا غول هذا القول : * شعر *

اذا كانت لاعدآء نملاً فانّهم * اذا لم تطأهم اصبحوا مثل ثعبان

ومن هذا المقال يا ابا الاغوال : * شعر *

واللصّ ليس لهُ دليلٌ ساتر * نحو الذي يبغي كنوم الحارس

(والاصل) في هذا كلّه حسم مادّتهم وردم جادّتهم وذلك باهلاك مرشدهم وافساد زاهدهم فإن قدرنا على اهلاكه وتمزيق حبائله وأشراكه تشتّت شملهم وتبتّت جلّهم وقلّهم * (فقال) العفريت للوزير الثالث وكان أنحس عابث قل لي أيّها الوزير ما سنح لك من التدبير في هذا الامر المبير والخطب الخطير وماذا ترى فيه وتُشير * فقال : لا شكّ أنّ الطباع تميل الى ما تسمعهُ وما يُلقى الى النفس لابدّ أنْ يؤثّر موقعهُ وما أشار به ودبّرهُ الوزيران وهما نعم المشيران فهو لا يخلو عن فوائد بل هو متحلٍّ بعقود الفرائد وإنّي لأعلم أنّهُ أثّر في الخواطر كما يؤثّر في الرياض السحب المواطر وبالجملة

فللكلام تأثيرٌ في النفس كما تظهر آثارهُ في الحسّ ولهذا ترى رقيق الشعر يفعل ما لا يفعلهُ دقيق السحر وجليل العبارة فيه من الاثارة ما يشجّع الجبان وينشّط الكسلان ويسخّي البخيل وينجّي الذليل ويسحر الأرواح ويسخر الأشباح ويعطف القلوب ويؤلف بين المحبّ والمحبوب ويصيّر العدو صديقا وغليظ الأحرار رقيقا وتأمّل يا نبيه ما قيل في البديه : * شعر *

حديثٌ اذا نادمتُ دهري به انتخى * وكفّ عن الأيذا وعاد الى الاخا

اذكرهُ أخلاق مالكه الذي * تعلّم منهُ العلم والحلم والسخا

أنال به ما لا يُنال بقوّة * وأرواح أشباحٍ أتت بعد شمخا

وهذه قضيّة تحتاج الى اعمال الرويّة وإمعان النظر وتدقيق الفكر وعندي الرأي السعيد السديد والفكر الحميد المجيد أنّ التعرّض الى هذا الرجل الديّن الداعي الى طريق الحقّ البيّن ليس بمحمود ولا طالع قاصده بسعود فانّهُ على الحقّ متشبّث بأذيال الصدق ومَن قصد مصادمة الحقّ اصطدم وفي مهاوي الهلاك ارتدم . وقد كان في بني اسرائيل رجلٌ من اهل التبجيل عاملاً بالتوراة والانجيل مشغولاً بالعباده باذلاً في إقامة الحقّ اجتهاده فتعرّض لهُ جماعه من اهل الفسق والخلاعه فتعاطوا إهلاكهُ وفجعوا به نسّاكهُ فقتلوهُ بغير حقّ فغار لهُ الدين ورقّ فأخبرني مَن لا يُتّهم

بكذبه أنّه قُتل سبعماية ألف نفس بسببه فذهب بسبب
ذلك الصالح من بني اسرائيل الصالح بالطالح ومَن كان مع
الحقّ هاديًا الى الصدق فإنّ الله تعالى معه ومَن كان الله
معهُ منعهُ وحرسهُ وما ضيّعهُ ومَن تصدّى لضياع ما
حفظ الله وعزم على ابتذال مَن أعزّهُ مولاهُ وكلاه فقد قصد
خراب عمره وعمارته وباع رأس مال تجارته وربحهُ بخسارته
وجنى بيده على نفسه وحفر بيد تدبيره مهواة رمسه . وايضًا
لو قتلنا هذا الرجل وكان على أيدينا لهُ حمام الأجل فلا شكّ
أنّه يقوم مقامهُ مَنْ يلمّ عظامهُ ويزمّ زمامهُ ويحيا بعد ايّامه
فيقيم شعارهُ ويكتب ما قدّم وآثارهُ فإنّ تلامذتهُ كثيرة
وطوائف جماعاته غزيرة فينتظم لهم بعدهُ الأمر ولا يضرم لنا
من كيدنا الجمر واذا علموا أنّ ذلك منّا وآشتهر ذلك الكيد
عنّا أخذوا منّا حذرهم وصوّبوا الينا عداوتهم ومكرهم ثُمّ عمدوا على
آستئصالنا وآستعدّوا لقتالنا لانّا أهلكنا معتقدهم وهدمنا عمادهم
ومعتمدهم ولا يمكنّا بعد ذلك طلب المسالمة والسلامة وتستمرّ
العداوة بيننا وبينهم الى يوم القيامة مع أنّ عداوتنا قديمة
وبالجملة فعاقبة مَنْ عادى أولياء الله وخيمة * اذا تقرّر هذا القول
وثبت بطريق المعقول فآعلم أيّها الغول والشيطان المهول : أنّ
الرأي الصواب في هذا المصاب أنْ نبادر الى هذا الرجل
وجماعته بافساد طاعتهم وطاعته وحيث لا يتيسّر لنا المواجهة

ولا الخطاب والمشافهة ولا الإضلال في الظاهر بصورة المتجاهر
فنزين لهم حبّ الدنيا وشهواتها والميل الى زينتها ولذّاتها
والركون اليها والاعتماد عليها ونُلقي اليهم طول الأمل
وبُعد الاجل فنثبطهم بذلك عن العمل وندعوهم الى التهاون
والكسل . ثمّ بعد ذلك نجلو خدود عرائس الحرص على أبصار
أفكارهم وقدود موانس الشحّ وحبّ المال على أعين خيالاتهم
وبصائر اسرارهم فاذا ذاقت السنة عقولهم حبّ الدنيا وتمكّنت
في أدمغة سويدآئهم الرغبة في الآبآء والأبنا سلبوا حلاوة الطاعة
وتفرّقت منهم الجماعة وزاغوا عن الطريق الأقوم وراغوا عن
السبيل الاقوم فنتوصّل اذ ذاك منهم الى مقاصدنا ونوقعهم
كيفما اخترنا في مصائد مراصدنا لانّهم هبطوا من سمآء المنازعة
الى الأرض وأهلكوا بأيديهم أنفسهم اذ بغى بعضهم على بعض
فتحاسدوا وتحاشدوا وتدابروا وتفاخروا وتكالبوا وتضاربوا
وتواثبوا وتجانبوا وتناهبوا وتسالبوا وتلاسبوا وتقابلوا وتقاتلوا
وتفرّقوا وتمزّقوا وتحرّقوا وتمرّقوا وآنحاز كلّ منهم الى ناحية
وأعجب كلّ برأيه فلا تُعرف الفرقة الناجية اذ تفرّقت أهوآؤهم
وتصادمت آرآؤهم وجذبتهم أغراضهم الى الانحناء وجلبتهم
أمراضهم مع الأهوآء . ومال كلّ منهم الى صوب وأيس منهم الى
الصواب الأوب وتعدّد الخلق الذمر ولبّس كلّ لصاحبه جلد
النمر. ثمّ بعد ذلك زلّوا وأزلّوا وضلّوا وأضلّوا فتمكّنّا فيهم كما

نريد وتصرّفنا فيهم تصرُّف السادات في العبيد وسلّطنا عليهم
دواعي الغضب والشره ولعبنا بشيوخهم لعب الصبيان بالكره فنصوّب
لهم اقوالهم ونزخرف لهم أفعالهم ولا نفتر عن مكايدتهم ولا نميل
عن مكايدتهم ونجري في عروقهم ونسكن في فروقهم ونحرّكهم
في رعودهم وبروقهم فإنْ تحرّكوا الى خير سكّنّاهم وإنْ سكنوا
عن شرّ حرّكناهم وانْ عزموا على الآخرة صددناهم وانْ جزموا
الى مواطن برٍّ رددناهم وانْ أمّوا مفسدةً قدناهم أَوْ همّوا الى
معصيةٍ سقناهم ولابدّ لهذا العمل الكثير من تأثير ولبيدق
جدٍّ في المسير أن يصير (وبالجملة) فنبذل في كلّ عامّةٍ جهدنا
وجدّنا ولا غضاضة في ذلك علينا لأنّه صنعة ابينا وجدّنا
(فاذا) رآهم الناس وقع بينهم الباس حصل منهم الياس
وتراجعوا عنهم وهربوا منهم وفسد آعتقادهم فيهم بل قتلوهم
بأيديهم فاذا ظهر فسوقهم وكسد سوقهم فإنْ شئنا أوقفنا
حالهم وإنْ رمنا الى الهلاك نسوقهم وأوثق ما يتوصّل به اليهم
من الأسباب هي حالة الانفراد والإعجاب وحالة الاجتماع
للكذّاب فانّ الاعجاب يهوي في النار والكذب يخرّب الديار *
وناهيك (قضية التاجر مع عبد الكذّاب الفاجر) * فسأل شيخ
الجنّ عن بليّة ذلك القنّ *

فقال : ورد في الخبر عن شخصٍ معتبر قال: كان بمكانٍ تاجرٌ
ذو مال وزوجةٍ ذات جمال كلٌّ يهوى صاحبهُ ويرعى جانبهُ

ويغديه بروحهِ ويترشّف رضابهُ في غبوقهِ وصبوحهِ كأنّهما
زوج حمام وفيّ بذمام . ففي بعض الأيّام قال احدهما لرفيقهِ
وهو يرشف من كاس عقيقهِ شهد رضابهِ بخمرة ريقهِ لو
كان لنا عُبَيد يتعاطى ما لنا من حاجة ويخلّصنا من جيلة
عمر وزيد . فذهب التاجر الى سوق الرقيق فوجد مع النخّاس
عبدًا ذا قدٍّ رشيق ينادي عليهِ أبيعهُ بكذا على ما فيهِ من
أذى . فقال : وما عيبهُ . قال : كذبهُ لا على الدوام وانّما
هو مرّةً في كلّ عام . فقال : عيبٌ هيّنٌ وشينٌ ليّنٌ فآشتراهُ
وأتى بهِ الى دارهِ وآرتضاهُ فآستمرّ في خدمةٍ حسنة حتّى أتى
عليهِ سنة ونسي سيّدهُ عيبهُ وأَمِن ريبهُ وجرّب بالأمانة
يدهُ وبالطهارة جيبهُ * فلمّا مضى عليهِ عام كان سيّدهُ في
الحمّام فأتى البيت في بعض الحوايج في صورة الجمل الهائج
شاهقًا ناشرا صائحًا ثائرا صارخًا واويلاهُ واسيّداهُ وامولاهُ
فسئل مالك لا أحسن الله حالك ولا أنعش بالك فقال :
رمح البغل بسيّدي فما تمالك أنْ تهالك وسلّم الروح لخالقها
وقال لوارثهِ تسلّم مالك فأقيم العزاء والسخام وتركهم وأتى
للحمّام وهو يبكي وينوح ويصرخ ويصيح فسألهُ مولاهُ ما
دهاهُ فقال : وقع البيت على كلّ مَن آويت ولم يبقَ في
الدار نافخ نار فهلك الكبير والصغير ونُهب ما فيها من
جليلٍ وحقير فخرج وهو يستغيث من حديث ذلك الخبيث

فوجد أهل البيت سالمين ورأوهُ من الناجين فعزم على خباطه فذكر لهُ ما سلف من آشتراطه * ثمّ انهُ استقام ونسي هذا الكلام ومضى عليهِ عام فاستأنف ذلك الخبيث امرهُ العبيث وقال لامرأة مولاهُ يا هنتاهُ إن كنتِ نائمة فاستيقظي وخذي حذركِ وتيقّظي وآعلمي أنّ نيّة صاحبكِ أن يُلقي حبلكِ على غاربكِ لأنّهُ قد عشق عليكِ ونبذ حبل حلّكِ اليكِ وتعلّق قلبهُ ببنت رجل كبير ولا ينبئكِ مثل خبير وقد حملني على نصيحتكِ الشفقة وما أسديتِ اليَّ من احسانٍ وصدقة فبادري قبل حلول الباس ونزول الفاس في الراس فاثّر فيها هذا الحديث فآستشارت ما تفعلهُ ذلك الخبيث . فقال : لو ظفرتِ بشيءٍ من شعرهِ لكفيتك مؤنة مكرهِ ونكرهِ فإنّ لي صاحبًا منجّما واستاذاً معلّما يرقى الشعور ويجعلها في البخور واذا وجد الى خيشومهِ مساغهُ ودخل البخور دماغهُ صار عبدًا لكِ على الدوام وحظيتِ عندهُ بالمراد والمرام وآرتقيتِ الى أعلى مقام ولكن ينبغي أن يكون من شعر لحيتهِ النابت على ترقوتهِ . قالت : وأنّى أصل الى ذاك وقاكَ اللّهُ شرّ أذاك . فقال : اذا نام وغرق في المنام فآحلقي منهُ بموسى لتكفّي الضرر والبوسى وانا آتيكِ بموسى يحلق الشعور فآفعلي ذلك من غير أن يكون لهُ شعور فاتّفقا على ذلك الاتّفاق وأتاها

بموسى حلّاق . ثمّ توجّه الى مولاهُ وقد أضمر لهُ ما دهاهُ وقال : أشعرتَ ياذا الفضائل أنّ زوجتك البديعة الشمائل تغيّر خاطرها عليك وتقدّمت بالاساءة اليك ولولا انّك شفيقٌ عليّ وعزيز ومكرّم لديّ ما أنبأتك من أخبارها بشيّ فانّى أُريد أن يكون ما أنهيتهُ اليك مكتومًا الى أن يصير عندك محقّقًا معلومًا وقد أرسل اليها مَن يخطبها وأمالها عنك بما يرغّبها واتفق معها انّها تقتلك وتستريح وتصبح في فراشك وأنتَ ذبيح وذلك يقوم بديّتك وقد أرسل اليها من الجواهر والأموال اضعاف قيمتك فإنْ أردتَ مصداق هذا الكلام فتثاقل عندها في المنام ليزول الشكّ باليقين ونتحقّق أنّي من الصادقين فأثّر هذا الكلام فيهِ وخاف من مكر النسآء ودواهيهِ * فلمّا أقبل العشاء وأحضروا العشآء تناول من ذلك الطعام ونهض الى الفراش لينام وأظهر بين القوم أنّهُ غرق في النوم وغمّض عينيهِ وانحطّ وسال لعابهُ وغطّ فنهضت الزوجة اليهِ وفتحت الموسى ودخلت عليهِ ومدّت يدها الى لحيتهِ ووضعتها على ترقوتهِ ففتح عينيهِ فرأى آلة الموت متوجّهة اليهِ فما تمالك أن وثب عليها وجثم اليها وخرج زمام تفكّرهِ عن يد تأمّلهِ وتدبّرهِ وخطف الموسى من كفّها وسقاها كاس حتفها * فلمّا رأى فوران الدم أدركهُ لاحق الندم وقد تبدّل الوجود بالعدم ووقع القال والقيل وآشتهر أمر القتيل

وعلق في شرك الاقتناص وعومل في صاحبه بالقصاص *
(وانّما أَوردتُ) هذا الكلام لتعلم انّما هلك الأَنام وأَوقعهم في شرك الآثام والكفر والفسوق والحرام مثل الكذب في الكلام وهو لنا أَوثق زمام ولجذبهم الى ما قصدناهُ من المرام أَحكم خطام وأَعظم خزام * (فآستحسن) العفريت هذا الرأي وآستصوبهُ وأَعجبهُ ما تضمّنهُ من معانٍ وآستغربهُ (ثمّ قال) : رأيتُ يا أَصحاب من الرأي الصواب أَنْ أَجتمع بهذا العالم الزاهد العامل العابد في محافل غاصّة وأَسأَلهُ عن مسائل عامّة وخاصّة وعن أَسرارٍ رقيقة أُطالبهُ بها بمجازها والحقيقة وانا أَعرف أَنّهُ يفحم عن جوابي ويلجم عند أَوّل خطابي فاذا عجز عن جواب المسائل في تلك الجموع والمحافل تحقّق الحاضرون جهله فنبذوهُ من أَوّل وهله واعترفوا لنا بالفضل الوافر والعلم الغزير المتكاثر فصاروا لنا أَودّآء والفضل ما شهدتْ بهِ الأَعدآء ورجعوا عن آعتقادهِ ونفضوا أَيديهم من محبّتهِ ووِدادهِ وربّما سعوا في دمارهِ وخراب ديارهِ فيكفوننا أَمرهُ ويريحون عنّا شرّهُ وأَقلُّ الأَقسام أَنّ جماعة ذلك الامام اذا رأوا ما لنا في الفضل من تجارة وعلموا أَنّ رأس مال امامهم الخسارة التهوا بالسهو وسهوا باللّهو وانفضوا عنهُ وتركوهُ وهذا إنْ لم يكونوا سفكوهُ وسبكوهُ كما فعل صاحب البستان بالمزرعة من الغدر والتفخيذ مع غرمآئه الأَربعة * فسأَل الوزرآء

عن غدير ذلك الغدر كيف جرى *
(قال) العفريت كان من تكريت رجل مسكين ينظر البساتين ففي بعض السنين قدم قرية منين وسكن في بستان كأَنّهُ قطعة من الجنان فاكهة ونخل ورمّان . ففي بعض الاعوام اقبلت الفواكهة بالأَنعام ونثرت للثمار ملابس الاشجار من الاذيال والأَكمام فأَلجأَت الضرورة ذلك الانسان أَن خرج من البستان ثمّ رجع في الحال فرأى فيهِ اربعة رجال احدهم جنديّ والآخر شريف والثالث فقيه والرابع تاجرٌ ظريف قد اكلوا وسقوا وناموا واتّفقوا وتصرّفوا في ذاك تصرُّف المُلّاك وأَفسدوا فسادًا فاحشا خادشًا ومارشا وناوشًا وناكشا فاضرّ ذلك بحالهِ ورأى العجز في افعالهِ اذ هو وحيد وهم اربعة وكلٌّ عتيد فسارع الى التاخيذ وعزم على التفخيذ فابتدأَ بالترحيب والبشاشة والاكرام والهشاشة وأَحضر لهم من أَطايب الفاكهة وطايبهم بالمفاكهة وسامح بالممازحة ومازح بالمسامحة الى أَنْ آطمأَنّوا وآستكانوا وآستكنّوا ودخلوا في اللعب ولاعبوهُ بما يجب . فقال في اثنآء الكلام أَيّها السادة الكرام : لقد حزتم أَطراف المعارف والطرف فأَيّ شيء تعانون من الحرف . فقال أَحدهم : أَنا جندي . وقال الآخر : أَنا رسول الله جدّي . وقال الثالث : أَنا فقيه . وقال الرابع : أَنا تاجرٌ نبيه . فقال واللهِ لستَ بنبيه ولكن تاجرٌ سفيه وقبيح

الشكل كريه أمّا الجندي فانّهُ مالك رقابنا وحارس حجابنا يحفظنا بصولته ويصون أنفسنا وأموالنا وأولادنا بسيف دولته ويجعل نفسهُ لنا وقاية وينكي في اعدآئنا أشدّ نكاية فلو مدّ يدهُ الى كلٍّ منّا ورزقه فهو بعض استحقاقه ودون حقّه. وأمّا الشريف فقد تشرّف به اليوم مكاني وحلّت به البركة عليّ وعلى بستاني. وأمّا سيّدنا العالم فهو مرشد العالم وهو سراج ديننا الهادي الى يقيننا. فاذا شرّفونا باقدامهم ورضوا أنْ نكون من خدّامهم فلهم الفضل علينا والمنّة الواصلة الينا. وأمّا أنتَ يا رابعهم وشرّجانٍ تابعهم بأيّ طريقٍ تدخل الى بستاني وتتناول سفرجلي ورمّاني هل بايعتني بمسامحة وتركتَ لي المرابحة أو لك عليّ دين أو عاملتني نسيئةً دون عين ألك عليّ جميلة وهل بيني وبينك وسيلة تقتضي تناول مالي والهجوم على ملكي ومنالي. ثمّ مدّ يدهُ اليه فلم يعترض من رفقآئه أحدٌ عليه لانّهُ أرضاهم بالكلام وآعتذر عمّا يتطرّق اليه من ملام فأوثقهُ وثاقًا محكمًا وتركهُ مغرما. (ثمّ مكث) ساعة وهو على الخلاعة مع الجماعة وغامز الجندي والشريف على الفقيه الظريف. فقال: ايُّها العالم الفقيه والفاضل النبيه انتَ مفتي المسلمين وعالم بمنهاج الدين على فتواك مدار الإسلام وكلمتك الفارقة بين الحلال والحرام بفتواك تُستباح الدمآء والفروج فمَن أفتاك بالدخول في هذا

والخروج أفتني يا عالم الزمان محمّد بن ادريس أفتاك بهذا أم النعمان أم احمد بن حنبل أم مالك فتبح لك بذلك والّا فما بالك تعوث وتعبث بما ليس لك. ولا عتب على الاجناد والاشراف ولا على الجهلآء والاجلاف اذا ارتكب مثلك هذا المحظور وتعاطى العلمآء والمفتون أقبح الأمور. ثمّ مدّ يدهُ الى جلابيبه وأوثقهُ بتلابيبه فاحكمهُ وثاقا وألمهُ رباقا فآستنجد بصاحبيه الى جانبيه فما أنجداهُ ولا رفداهُ. (ثمّ جلس) يلاهي الجندي الساهي وغامزهُ على الشريف ذي النسب الظريف. ثمّ قال: ايُّها السيّد الاصيل النجيب الجيّد الحسيب لا تعتب على كلامي ولا تستثقل ملامي أمّا الأمير فانّهُ رجلٌ كبير ذو قدرٍ خطير لهُ الجميلة التامّة والفضيلة اللامّة وأنتَ يا ذا النسب الطاهر والأصل الباهر والفضل الزاهر سلفك الطيّب أذن لك في الدخول الى ما لا يحلّ لك أم جدّك الرسول أفتاك بآستباحة الأموال أم زوج البتول أنباك أنّ أموالنا لآل البيت حلال واذا كنتَ يا طاهر الأسلاف لا تتبع سنّة آبائك الأشراف من الزهد والعفاف فلا عتب على الأوباش والأطراف. ثمّ وثب اليه وكتّف يديه ولم يعطف الجندي عليه ولم يبقَ إلّا الجندي وهو وحيد فآنتصف منهُ البستانيُّ كما يريد وأوثقهُ رباطا وزاد لنفسه احتياطا. ثمّ أوجعهم ضربا وأشبعهم لعنًا وسبّا وجمع عليهم الجيران وآستعان

بالجلاوذة وأصحاب الديوان وحملهم برباطهم وعملتهم تحت آباطهم الى باب الوالي وأخذ منهم ثمن ما أخذوهُ من رخيص وغالي * (وانّما أوردتُ) ما جرى لتعلموا ايّها الوزرآء أنّ التفخيذ بين الاعدآء بالتأخيذ أمرّ من السهام في تنفيذ الأحكام وأحكام التنفيذ * (وهذا) قبل تعاطي اسباب البيلسة وفتح أبواب الوسوسة فانّهُ يُقال في الأمثال عقدة تنحلّ باللسان لا يوخّر حلّها الى الأسنان ونعم ما أرشد مَن أنشد

* شعر *

فكم عقدةٍ اعيى اللسان بحلّها * تراخت وقد أعيت نواجذ اسنان

(ثم قال) العفريت للوزير الرابع ما ترى في هذا الامر الواقع * فقال : حيث تردّد الامر بين آرآء مختلفة واقوالٍ متفاوتة غير موتلفة وأُقيم على كلّ قيل برهانٌ ودليل فتعدّد النقل وتبلّد العقل وعميت وجوهُ الترجيح ودُرست طرق التصحيح فلا يمكن القول باحدها ولا الميل الى مفردها فانّ ذلك ترجيح بلا مرجّح وتصحيح بلا مصحّح فربّما يتصوّر الشيء خيرًا وتكون عقباهُ شرًّا ويتوهّم شرًّا فتظهر قصاراهُ خيرًا وكم من قضيّة يتصوّرها الفكر صوابا ويذهل عمّا تتضمّنه من خطأ مآبا وكذلك النفس تتصوّر شيئًا بصفة وهو بالعكس ولذلك شاهدٌ من وقائع الحسّ فليس على ذلك معوّل وشاهدهُ قضيّة المضيف مع ولد الأحول * (فقال) العفريت وكيف ذلك

أيّها الخرتيت *

قال الوزير : أخبرني شخصٌ فاضل أنّهُ كان رجلٌ كامل كريم الشمائل محبوب الخصائل مرغوب الفضائل غزير الثرآء يحبّ الفقرآء عذب الموارد مترصّد للصادر والوارد لا يسأل الضيف من أين ولا كيف وهو كما قيل للضيف والسيف ورحلة الرجال في الشتآء والصيف . فنزل في بعض الأيّام ضيفٌ من أصحابهِ الكرام فزاد في إكرامه وأحضر ما طاب من طعامه . فلمّا رفع السماط ووضع للبسط بساط قال لضيفهِ الصديق عندنا قارورة من الشراب العتيق كنتُ أذخرتهُ لنزلك وأعددتهُ لمثلك وما عندي سواها فإنْ رأيتَ أحضرناها وتعاطينا الراح لطلب الانشراح فانّها مادّة الأفراح كما قيل :

* شعر *

وما بقيت من اللذات إلّا * أحاديث الكرام على المدام

فسمع الضيف مقالهُ وتحمّل جميلتهُ ودعا لهُ وأجاب لسؤاله . فأشار المضيف المفضّل الى ولدِ الأحول فقال اذهب الى المقصورة فانّ هناك قارورة وإيّاك أنْ تنكسر فانّ صدع الزجاج لا ينجبر وما بنا ضيرها ولكن ما عندنا غيرها فتوجّه الى ذلك المكان فترآءى لهُ قارورتان فرجع من وقته ونادى لمقته أيّها الأب المفيد هناك قارورتان فأيّهما تريد فخجل من ضيفهِ وغضب لئلّا ينسب الى اللوم والكذب .

فقال لابنه يا ابن البظرا اكسر احداهما وهات الأخرى فأخذ العصا وضرب أحد ما كان تراءى للبصر فلم يكن غير وعاء واحد وقد انكسر فخرج الى ابيه وهو من الفكر في تيه وقال امتثلتُ ما أمرت واخذتُ العصا وضربت فانكسرت احدى القارورتين ولا أدري الأخرى ذهبت الى أين . فقال : يا بنيّ انّ الخطأ منك واليك والخطأ في ذلك كان من نظر عينيك * (وانّما اوردت) هذا المقول لتعلم ايها الغول المهول أنّ أقوى طرف العلم العين واذا حصل في إدراكها الخلل والشين تراءى الصدق بصورة المين والشيء الواحد بشكل اثنين وهذا أمرٌ محسوس لا تنكرهُ النفوس فكيف ترى تكون عين الفكر المصون وهي بأنواع الحجب محجوبة وبتخيّلات الوهم وقضاياهُ مشوبة ومرآتها انما هي المعاني دون المحسوسة المشاهدة المباني (فعلى هذا) ينبغي التأمّل في عقبى هذه الحوادث والتدبُّر في قصارى هذه الأمور الكوارث ثمّ الاخذ في تعاطيها والشروع في أسباب تلافيها انما يكون بعد إمعان الأنظار وإنعام التدبُّر والأفكار * (ثمّ اعلم) أيها الرئيس الداهي النفيس شيخ المكر والتلبيس والبيلسة والتدليس أنّ الله القديم القادر الحكيم لم يخلق في الموجودات ولم يوجد في المخلوقات أعزّ جوهرًا من الانسان فانّه فضّلهُ على جنسي الملك والجان واختصّهُ بتدقيق النظر وعميق الفكر وسرعة الإدراك فهو مع عدم

الحراك يحكم وهو ساكنٌ على ما تحت الثرى وفوق الأفلاك وشملهُ بعوائده وعوّدهُ بفوائده ولطف به في مصادره وموارده فهو أرحم به من والدته المشفقة ووالده ووكّل بحفظه الكرام الكاتبين وملائكته المقرّبين وربّاهُ في حجر نعمته على موائد لطفه وكرمه ورحمته كما تربّي الوالدة الشفيقة والظئر الرقيقة الرفيقة وألهمهم العلم الغزير والقدر الخطير والرأي والتدبير واطلعهم على غامض الأسرار ودقائق الأفكار وأنّ علمنا بالنسبة الى علمهم وجَلَدنا في القياس الى ثباتهم وحلمهم كنسبة علم الفلّاح المغترّ الى علم الطبيب المعبّر بحسن النظر * قال العفريت أخبرني بذلك يا شيخ المصاليت *

قال الوزير اخبرني شيخٌ كبير: أنّهُ رأى في نومه فلّاح كأنّهُ خرج من بطنه مفتاح فلمّا اصبح الصباح جآء الى رجلٍ من اهل الصلاح يعبّر المنامات وكان ذا كرامات فقصّ عليه روياه وطلب منهُ تعبير ما رآه . فقال لهُ يا رئيس هذا منامٌ نفيس لا اذكر ما فيه من تعبير الّا بدينار كبير فحصل لهُ بشارة فناولهُ ديناره . فقال يولد لك ولدٌ ذكر يكون سببًا للفتوح والظفر وكان لهُ زوجة حامل بقي لها أيّامٌ قلائل فولدت أيمن غلام بعد ثلاثة ايّام فاستبشر الفلّاح بالظفر والنجاح . ثمّ بعد مدّة حصل للفلّاح شدّة من مرضٍ آلمهُ وأصاب قدمهُ فجآء الى معبّر المنام وشكا اليه

الآلام وقال أَلمي في قدمي ضاعف همّي وأَضعف هِمّي . فقال لهُ الطبيب لا بأس يا حبيب هذا دوآء هيّن وعلاجهُ بيّن . أعطني دينارًا ثانيا أَصف لك دوآءً شافيا فأَعطاهُ ما آشتهى وآستوصفهُ الدواء . فقال ضمّدهُ بعُجَّة بيضٍ كثيرة الابزار وضع عليه عسلاً مسخّنًا على النار ففعل ذلك فبُرئت قدمهُ وزال بالكليّة أَلمهُ . ففكر الفلّاح في أَمر المعبّر الطبيب وقولهِ المصيب وامرهِ العجيب فانّهُ بأدنى عبارة عبّر المنام وبأَوهى إشارة أَزال الآلام . فرأَى الراحة في ترك الفلاحة والاشتغال بعلم الطبّ والتعبير فإنّهُ أَمرٌ هيّنٌ يسير وبأَدنى أَمرٍ حقير يحصل المال الكثير فباع آلات الزراعة وعزم على تعاطي ما في الطبّ والتعبير من صناعة وجمع كتبًا ودفاتر وكراريس مخرّمةً مناثر ووسّع أَكمامه ووضع على راسهِ عمامةً كعمامة وجمع عقاقير وأَوراق وبسط بسطهُ في بعض الأسواق وأَشار على لسان مخبّر أَنّ المكان الفلاني فيهِ طبيبٌ معبّر وهو استاذ الزمان وعلامة الأَوان وتلامذتهُ في الطبّ حكمآء اليونان وفي التعبير ابن سيرين وكرمان وتصدّر كأَبي زيد وساسان عاملًا بما قالهُ شيخ البيان وهو * شعر *

الطبّ اهون علمٍ يُستفاد فطِرْ * بين الانام بهِ طير الزنابير
وآجمع لذلك كراريسًا منشّرةً * وجملةً من حشيشٍ من عقاقير
وضع على الراس بقيارًا تدوّرهُ * كقبّة النسر في وزن القناطير

وآجمع معاجين من ربٍّ تخلّطها * وآسحق سفوفًا واكحال العواوير
وسمِّ ما شئتَ من اسمآء مغربةٍ * كالسند والهند والسرحا وخنفسور
وقُل من الهند جا هذا اومن عدنٍ * هذا وهذا اتى من ملك فغفور
وذا من البحر بحر الصين معدنهُ * وذا من البربر المدعو ببربور
فإنْ رايتَ بالاستسقآء ذا ورمٍ * فقل تورّم من لسع الزنابير
إنْ آقشعرّ فقُل بردٌ عراهُ وان * يحمّ قُل حرّةٌ وهج التنانير
وإنْ اتاك مريضٌ لا تخف وابشر * بما ترى من دوآئي دونهُ البوري
فان يعش قُل دوآءي كان منعشهُ * وإن يمُت قُل اتاهُ حكمٌ مقدور
كذاك الرمل والتنجيم خلْهُ على * هذا المثال وخُض في علم تعبير
فان اصبتَ فقُل علمي ومعرفتي * وفي التخالف قُل ضدّ المقادير
وان رأَيت فقيهًا فرّ منهُ ولا * تنطق يخطّئك في فسقٍ وتكفير
وانتَ تحتاج في هذا وذاك الى * ذوقٍ ومعرفةٍ مع حسن تدبير

فاتّفق أَنّ زمام خليفة الأَنام رأَى في المنام شيئًا هالهُ وغيّر حالهُ فحصل لهُ في رأسهِ صداع وفي فؤادهِ أَوجاع فسمع بهذا الربع الجديد وانّهُ استاذٌ مفيد فأَرسل اليهِ وعرض ما رآهُ عليهِ . فقال هذا منام يدلّ على خيرٍ وانعام وبقآء ذكر الزمام على الدهر والأَعوام ولكن لا أُعبّر هذه الأَحلام الّا بدينارٍ تمام فناولهُ دينارا وأظهر لذلك آستبشارا فقال لهُ يولد لك غلام بعد ثلاثة أَيّام . فضحك الزمام من هذا الكلام وقال يا امام انا رئيس الخدّام طوّاشي بلا شيّ لا

زوجة ولا سرية ولا آلة ولا شهية فمن أين لي هذه السعادة ولا فرحت بحسن الحسنى فأنّى تحصل هذه الزيادة فلا تسخر منّي وكفّ كلامك عنّي وأخبرني بتعبير هذا المنام ودع عنك الملام . فقال حقًّا أقول وأنا جرّبت هذا المقول وقد عبّرتُ هذا التعبير ولا ينبئك مثلهُ خبير . فقال الزمام يا أخي دع هذا المقال فانّ وجود الولد منّي محال وأنا رجلٌ بي وجع وما بقي فيّ منتجع . فقال ماذا تشكو وألمك في ايّ مكان هو . فقال في فؤادي أوجاع وفي رأسي صداع . فقال يا زينَ مَن فاخر أعطني دينارًا آخر أصف لك أيسر دوآء يحصل لك منهُ العافية والشفآء فدفع اليهِ الدينار وطلب منهُ دوآء الدوّار وما بفؤادهِ من ألم أورثهُ الوهج والضرم . فقال يا أبا الفيض ضمّد رجلك بعجّة بيض مضافًا اليها عسلٌ مشتار وليكن ذلك مسخّنًا بالنار فآستشاط الطوّاشي غضبا وفار كالنار شواظًا ولهبا وعرف أنّهُ جاهل وعن طرق العلم غافل فأدّبهُ التأديب البالغ وردّهُ الى ما كان عليهِ من منادمة السالغ وآستمرّ على كلاحتهِ بعد رجوعهِ الى فلاحتهِ ❊ وانّما أوردتُ هذا المثال يا غول الأغوال لتعلم أنّنا اذا آشتغلنا بمناظرتهم اشتغلنا في محاورتهم لانّهُ في دقيق الأسرار وعميق الأفكار وتحقيق الأنظار لا يقاوم أحدٌ جنس الانسان فكيف يستطيع الجان معارضة مَن أيّدهُ الله تعالى برفيع المعاني وبديع البيان

فاذا قابلناهم في المباحث بالمعارضة تعود مسئلتنا علينا بالمناقضة ❊ فلمّا رأى العفريت خور ذلك الصفريت وأنّهُ نكل عن المقاومة ونكص عن المصادمة خاف أن تكون آرآء الوزرآء تبعًا لرأيهِ في عدم لقآئهِ وظنّهم مستحسنين لدهآئهِ مستصوبين لآرآئهِ فأرخى عنان الكلام ليقف على ما عندهم من مرام وكان عزمهُ المباحثة والمعايثة والمباعثة والتصدّي للأقدام والقآء المسائل بحضرة الخاصّ والعامّ لكن مشى معهُ امام الوزرآء ليرى ما هم عليهِ من الآرآء (فقال للوزير) نعم ما قلتَ أيها الوزير والرأي ما أشرتَ من الرأي والتدبير فانّ الله تعالى خلقنا من النار وطبعها الإهلاك والدمار واحراق كلّ رطبٍ ويابس وباردٍ وحارّ والظلم والخسار والافنآء والجهل والبوار وطلب الرفعة وعدم القرار وإفساد ما تجدهُ من غير فرقٍ بين نفّاعٍ وضرّار وخلقهم من تراب واليهِ الإياب وطبعهُ الحلم والسكون والترابيّة والركون والعلم والعدل والاحسان والفضل . ومع هذا فلو خرجوا عن مادّة ما جُبلوا عليهِ وتلبسوا بغير ما نُدبوا اليهِ ولو أدنى الخروج وراعوا ما للمارج من مروج لتحكّمنا فيهم كما نختار وللعبنا بهم كما يلعب بالكرة الصغار ونحن اذا خرجنا عن دائرة طبعنا وتخالفت أوصاف أصلنا وفرعنا ونقلنا الى دائرة الخير على جادّة الشرّ أقدام صنعنا لا يقع لنا منهم صيد ولا يؤثّر لنا فيهم سيف كيد . فاذا عجزنا

عن الايذآء في الظاهر لم يبقَ الّا الاغوآء من باطن الضمائر والتعلّق بأسباب ما نصل اليهِ من الحيل البواطن والظواهر . فقد قال الحكمآء وأهل التجارب ومَن آبتُلي من مكايد الدهر بالنوائب ومُني من ذلك بالعجائب والغرائب : اذا تصدّى الانسان وقصد غريمه وعجز عن مقاومتهِ في الحكومة والخصومه فعليهِ بهدم ذلك الجبل بمغاطيس الخداع ومعاويل الحيل ويستعين في ذلك بأهل النجدة وذوي البطش الشديد والشدّة فيتوصّل بهم الى حسم ذلك الدآء ولو كانوا أعدآء غير أودّآء فتسليط بعض الأعدآء على بعض من أيمن سنّةٍ بل من أحسن فرض ولقد أحسن مَن قال : * شعر *

تفرّقت غنمي يومًا فقلتُ لها * يا ربُّ سلّط عليها الذئب والضَبُعا

ولا يوجد في هذا الباب لجمع شمل الاعدآء أوثق من تفريق الأحباب وهذا الفنّ يحتاج الى فكرٍ عميق ومكرٍ دقيق وعقلٍ كبير وفعلٍ كثير ومصيب رأيٍ وتدبير وسلوكٍ في طريق اصطناع كما فعلت الفارة من الخداع * فقال الوزير ينعم مولانا الباقعة بتحقيق هذه الواقعة *

فقال سمعتُ أنّ بعض التجّار كان لهُ بستانٌ في دار والى جانبهِ حاصل فيهِ المغل المتواصل وفي ذلك الحاصل وكرٌ لشاطر من شطّار الفار لهُ عدّة منافذ والى الجهات طرقٌ ومآخذ احدها الى جهة البستان والبستان كانّهُ جنّة

رضوان فكانت الفارة ذات الشطارة والمهارة تاخذ من الغلّات وأطايب الطعامات ما يكفيها غدآء وعشآء صيفًا وشتآء وفي وقت المصيف تخرج من ذلك المنزل اللطيف الى جهة البستان فتتمشّى بين الغدران وتترقّى الى أعلى الأغصان وتتمرّغ في المروج والرياض وتتبختر في ظلال الدوح والغياض ثمّ تعود الى وكرها وتأرز الى جحرها وكان عيشها هنيّا وأمرها رضيّا ومضى على ذلك دهرها وآنقضى في أرغد عيشٍ عمرها * ففي بعض الأحيان خرجت على العادة للتنزّه في البستان فمرّ بسكنها أفعوان فرأى مكانًا مكينا وسكنًا حصينا بالأطعمة محفوفا وبطيب الأغذية مكنوفا فدخلهُ وآستوطنه وترك ما سواهُ من الأمكنه * فلمّا رجعت الفارة الى مكانها المألوف وجدت بهِ العدوّ الظالم العسوف فأحاط بها من الأمر المخوف ما يحصل من الذئب اذا عانق الخروف . فأسرعت الى أُمّها وشكت اليها نوائب غمّها وما دهمها من نوازل همّها . فقالت أُمّها : لا شكّ أنّكِ ظلمتِ أحدا أو وضعتِ على ما ليس لكِ يدا أو تعدّيتِ الحدود او عاملتِ مغرمًا بالصدود فجوزيتِ باخراجكِ من وطنكِ وابعادكِ عن مقرّكِ وسكنكِ ومَن ظلم ضعيفًا عاجزا سلّط الله عليهِ قويًّا لاكزا وقد رأيتُ يا انسي في حديثٍ قدسي اشتدّ غضبي على مَن ظلم مَن لا يجد لهُ ناصرًا غيري . فلا تُطيلي الكلام

ولا تتصوّري انّكِ ترجعين الى ما لكِ من مقام ولا طاقة
لكِ على مقاومة الثعبان فدعي تعب الخاطر وآطلبي لكِ مأوى
غير هذا المكان * فتوجّهت الى ملك الفار والجرذان وشكت
ما بها من ذلك الشيطان وقالت انا في خدمتك ومعدودة
من رعيّتك عمري على ذلك مضى وزماني في إخلاص العبوديّة
انقضى وأبي كان في خدمة أبيك وجدّي عبد جدّك وذويك
لم نزل في رقّ الطاعة متمسّكين بحبل سنّة الولآء مع
الجماعة كلّ ذلك لأمرٍ يدهم او نازلةٍ تقدم فنستدفع ذلك
الخطيب بخطابكم ونستكفي هول ذلك النازل بجنابكم والآن
لقد وقعت حادثة بالألباب عابثة وبالأفكار عائثة وللأرواح
كارثة وذلك أنّي خرجتُ من مسكني لطلب قوتي ثمّ رجعتُ
الى مبيتي فوجدتُ ظالمًا قد آستحوذ عليه وغاصبًا قد دخل
اليه وهو ثعبان ما لي به يدان وقد ترامَيتُ على جنابك
أستدفع هذا البلآء بك * فقال ملك الفار يا سائبة الاشفار:
مَن ترك ماله سائبا فقد جعله ذاهبا وقال ذوو الاعتبار وأُولو
الأبصار ينبغي بل يجب على الدزدار وحافظ القلعة والحصار
أنْ تكون رجلهُ ذات عرجٍ وآنكسار .لئلّا يكون دينار وجوده
خارج الدار وأنتِ أيّتها الفارة فرطتِ في أمركِ والمفرّط أولى
بالخسارة وقد خاب منكِ المسعى لأنّهم قالوا أظلم من أفعى
ومَن ظلم الأفعوان أنّهُ لا يكدُّ نفسهُ في حفرِ مكان وتهيئة

مبانٍ ومغان ولكنّهُ حيث وجد مسكنا اتّخذهُ لنفسهِ مقامًا
ووطنًا وهذا قد عرف مكانكِ النزه وهو جبّارٌ شرِه فلا يزايلهُ
ولا يقايلهُ ومن أين يلتقي مثل هذا المأوى وفي المَثَل عرف
الكلب بيت العميا فالأولى أنْ ترتادي لكِ موضعا فتتّخذيه
مقامًا ومرتعا * فقالت الفارة وقد تأثّرت لهذه العبارة يا
ايُّها السلطان وملك الفار والجرذان فما فائدة خدمتي وآنقياد
أبي وطاعة جدّي الكبير الأبي واذا كنتم في الدنيا لا تنفعوننا
وفي الآخرة لا تشفعون لنا ولا تدفعون في الأُولى صدمات
الدواهي والبلا ولا تحمون الأودّآء عن مواطئ أقدام الأعدآء
ولا تدفعون في الأُخرى نوائب الطامّة الكبرى فايّ فائدة
لكم علينا ونعمةٍ منكم تُسدى الينا وهل انتم إلّا كما قيل في
الاقاويل : * شعر *

اذا لم يكن لي منك عزٌّ ولا غنى * ولا عند ما يغتالني الدهر موئلُ
فكلّ التفاتٍ لي اليك تكرّمٌ * وكلّ سلامٍ لي عليك تفضّلُ

فقال ملك الفار يا قليلة الاصطبار العديمة العقل والافتكار
اذا اجتهدنا في ردّكِ الى مكانكِ وكنّا على الثعبان كجندكِ
واعوانكِ فهل تشكّين يا مسكينة وبنت مسكين في أنّ
الافعى تتوجّه الى سلطانها وتخبرهُ بشانها وأنّها أُخرجت من
مكانها وتستنصر باعوانهِ وتنتصر على سلطاننا بقوّة سلطانه
وتستجيش وتستغيث وتُغري علينا ذلك الخبيث كما فعل

الرافضيُّ العادي العلقميُّ البغدادي حين دعا التتار العظام لخراب مدينة السلام ومن بعده الذميم نابذ الامام وقصد دمار ديار الشام ولا طاقة لنا بعساكر الحيّات ونحن في احيائهم كعساكر الاموات فتذهب الاموال والارواح وتتعب القلوب والاشباح ومع هذا الامر المعلوم حصول القصد والظفر موهوم فبالله آتركيني وآذهبي وآطلبي لكِ مسكنًا غيرهُ ولا تتعبي * فقالت : هذا منزلي القديم وميراثي عن سلفي الكريم وأين اذهب وفيمَن ارغب إنْ لم تغثني هلكتُ وآنذهلتُ وآنسلبتُ * فقال : لا تطيلي القول فلا قوّة لنا ولا حول * فلمّا أيست الفارة المكّارة الغدّارة تركت سلطانها وذهبت وسلكت طريقها وآنقلبت وأنشدت فأُرشدت :

* شعـــر *

أبعين مفتقرٍ اليك نظرتَني * فحقرتني وقذفتني من حالقِ
لستَ الملومُ انا الملومُ لانّني * أنزلتُ آمالي بغير الخالـــقِ

ثمّ غاصت في بحر الفكر وتشبّثت بأذيال المكر وآستعرضت على مرآة افكارها وجوه الحيل وآستورت من زناد آرائها شرارات النظر في الجدل وأخذت تطوف في اكناف البستان فعثرت في طوافها على ذلك الأفعوان نائمًا تحت وردة متطرّقًا في أهنأ رقدة فرقيت غصنًا من الاغصان فلاح لها الباغبان قد سقى البستان وهو تعبان متكئًا في الرياض على مسكبة

ريحان . فآغتنمت الفرصة ونزلت اليهِ وقربت منهُ ودارت حواليهِ ثمّ وثبت على وجههِ وكان نائمًا فآنتهض مرعوبًا قائمًا فذهبت وآختفت وبذا القدر اكتفت فرجع ونام وغرق في المنام فدخلت في قميصهِ ورقصت فآستيقظ متحيّرًا منزعجًا فرآها فهربت ونكصت . ثمّ عاد واتّكا بعدما غضب وانتكى فوثبت على وجههِ وأدخلت ذنبها في أنفهِ فنهض مستيقظًا مجدّا فرآها واقفةً لا تتعدّى فقصدها فهربت ثمّ رجع فآبت وأتت فنام في مسندهِ فقربت منهُ وعضّتهُ في يدهِ فأنكتهُ وآلمتهُ وأوجعتهُ بما اضرمتهُ فطفر من مرقدهِ وأخذ غصنًا بيدهِ وقصدها وقد ذاق نكدها فهربت غير بعيد فرأى وجهها من حديد فتبعها فمشت ثمّ وقفت وآرتعشت تطمعهُ في صيدها وهو غافل عن كيدها فتبعها وهي قائدة حتّى آنتهت الى الحيّة الراقدة فعندما رأى الثعبان نسي افعال بنت الجرذان فقتل تلك الافعى ولم يخب للفارة مسعى * (وانّما أوردتُ هذه الحكاية) لتقفوا منها على طريق النكاية وليعلم الضعيف اذا كان لهُ أعدا كيف يوقعهم في مصائد الردى واذا استعمل اللبيب العقل المصيب والفكر النجيب أفلح أمرهُ وأنجح فكرهُ . ثمّ إنّ مَن لا يراقب ما ياتي في العواقب ما الدهر لهُ بصاحب فأخشى إنْ ناظرتُ هذا الرجل الكامل الفاضل

ان لا احصل منهُ على طائل ويظهر فضلهُ قصوري فينهدم بنيان قصوري * فقال الوزرآء بعد أنّ اتّفقت الآرآء كلمةً واحدة متّفقة متعاضدة : نعم ما راى مولانا الرئيس صاحب التدليس واسناد التلبيس وانجب اولاد إبليس ونحن ايضًا يا باقعة نخشى عاقبة هذه الواقعة ولقد جرى مثل هذا المجرى بين بزرجمهر ومخدومه كسرى في قضيّة فاق فيها الوزير مخدومهُ الكبير * فسال العفريت وزرآءهُ عن بيان ذلك الشان كيف كان *

فقالوا بلغنا أيّها الخنّاس الملقي الوسواس في صدور الناس أنّ بزرجمهر الوزير كان ذا علمٍ غزير ورايٍ وتدبير وبديهة جوابٍ تفحم الكدّ والتفكير . وكان حكيم زمانه وعليم اوانه وممّن فاق في الفضل والحكم سائر اترابه واقرانه وكان مقربًا عند مخدومه يزيد في كلّ وقتٍ في تكريمه وتعظيمه وتوقيره وتفخيمه ويصغي الى نصائحه ويعد قربهُ من أعظم مناجحه ويصبر على كلامه الصادع ووعظه القارع ونصحه القادع لما فيه من الفوائد والمنافع والحِكم والبدائع وقد قيل : مَن أحبّك نهاك ومَن أبغضك أغراك * فكان الوزير يبادر قبل سائر الخَدَم في وظائف الخِدم ويعجّل من الليل والظلم حتّى كأنّهُ يوافق النجم او يسابقهُ في الرجم ومع ذلك كلّ يوم يجد مخدومهُ راقدًا في النوم فيقرعهُ بالغفلة وينقم

عليه هذه الفعلة ويعلن بالندآء وينادي في الملأ فيقول أفِق يا محجوب وتيقّظ حتّى تظفر بالمطلوب فمَن باكر نجح ومَن غلس المطلوب أفلح ومَن تخلّف في النوم سبقهُ الى المنزل القوم وفاتهُ المطلوب ولا يدرك المحبوب واترك لذّة الكرى فعند الصباح يحمد القوم السرى * وكان كسرى يجد لهذا الكلام أنواعًا من الآلام لأنّهُ كان يطيل السهر الى وقت السحر عاكفًا على المدام وسماع الأنغام ومغازلة الغزلان ومعاقرة الندمان واحيآء الليل عمرٌ ثان فاذا نام واستراح امتدّ نومهُ الى الصباح فلا يوقظهُ الّا عياط الوزير وصراخ ذلك الصائح النذير * فلمّا طال عليه المطال وغلب عليه من ذلك الملال أرصد للوزير في الطريق مَن منعهُ عن التبكير بالتعويق . فتصدّى لهُ الرصد وأعروا رأسهُ والجسد وأخذوا قماشهُ وسلبوا رياشهُ فرجع الى بيته مكرها ولبس ثيابًا غيرها . فأبطأ في ذلك اليوم وتخلّف في الخدمة عن القوم ولم يجئ الّا وقد استيقظ كسرى من النوم وهو جالس في صدر الايوان وحواليه مباشروا الديوان وسائر الوزرآء والاركان وعامة الجند والاعوان كلٌّ في مقامه ضابط زمامه فأدّى بزرجمهر وظائف الخدمة على عادته ووقف في مكانه مع جماعته * فقال كسرى : ما دعا مولانا الوزير في هذا اليوم المنير الى التخلّف والتاخير وترك التبكير وانشادهُ بالتبكير قول

الشاعر الكبير * * شعر * *

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير * انّ ذاك النجاح بالتبكير

فقال : إنّ الحرامي عارضني أمامي وقصدني في ظلامي فأخذ شاشي وسلبني قماشي ورياشي فرجعتُ الى كناسي وجدّدتُ زينتي ولباسي فهذا سبب تاخيري وعدم تبكيري وموجب تخلّفي عن وعظي وتذكيري * فقال كسرى : ما أفادك التذكير في الغرامة في التبكير ولولاهُ ما سُلِب القماش ولا ذهب الرياش ولا قام الحرامي بالمعاش فأين الفلاح في القيام قبل الصباح * فقال بزرجمهر في الحال : وقد أصاب في الجواب ليس ذلك كذلك يا امامي وانّما بكّر قبلي الحرامي ولم اباكر انا بالنسبة اليهِ فرجع فائدة تبكيري منّي عليهِ . فعجب كسرى من خطابهِ وسرعة بديهتهِ في جوابهِ * (وانّما أوردتُ هذا القول) بين يدي امامنا الغول وشيخ المردة المهول ليعلم أنّ كسرى وإنْ كان عالما وفاضلاً وحاكما أذعن لكلام وزيرهِ واتّبع رأي مشيرهِ وأنصف من نفسهِ اذ أدرك الوزير بفهمهِ ما لم يدركهُ هو بحسّهِ * فاسترسل معهم العفريت فيما هم عليهِ والتخلّف عمّا ندبهم اليهِ وقال : فبأيّ الحبائل نصيدهم وبماذا نكيدهم * فقال أحد الوزرآء بالنسآء فانّهنّ زمّامرة المحن وطبل الفتن والطبل لا يضرب تحت الكسآء هنّ أعظم وسائلنا وأحكم أوهاقنا وحبائلنا وناهيك ما قالهُ الشاعر *

* شعر *

وما حزّ اعناق الرجال سوى النسا * وايّ بلآء جآء لسن لهُ اهلا

فكم نار شرّ أحرقت كبد الورى * ولم يكُ الّا مكرهنّ لهُ اصلا

وأنّهنّ اشراك الاشراك واوهاق الازهاق واسواق الفسّاق ومصائد المصائب ومراصد النوائب * وحسبك يا ذا الدها ما اوهى ذلك الحكيم حين سها واذعن لزوجة الرئيس اذ نبّهتهُ على ما عنهُ لها * فسال العفريت عن تلك الحالة وبيان ما ما فيها من المقالة *

فقال : ذُكر أنّ حكيمًا من العلمآء وعالمًا من الحكمآء أُولع بضبط مكر النسآء وشرع في تدوينهِ صباحًا ومسآء وصار يجول البلدان ويطالع لذلك كلّ ديوان ويكتب ما يكون وما كان ويحرّر من ذلك الاوزان بالمكيال والميزان فنزل في بعض الآنآء على حيّ من الاحيآء فصادف ذلك التعيس بنت الرئيس فتلقّتهُ امراةٌ ظريفة ذات شمائل لطيفة وحركاتٍ رشيقة خفيفة وقابلتهُ بالترحاب وفتحت للدخول الباب فاقبل عليها وترامى لديها فانزلتهُ في صدر البيت واخذت معهُ في كيت وكيت كانّها معرفةٌ قديمة وحديثةٌ كريمة وكان زوجها غائبا قد قصد جانبا فشرعت في نزل الضيف لئلّا تُنسب الى بخلٍ وحيف . فاخذ يطالع في ديوانه ويسرّح سوائم طرفهِ في ظرف بستانهِ يشغل اوقاته

ويتفكّر ما فاته ليتعاطى اثباته * فقالت لهُ ضرّة الريم ما هذا الكتاب العظيم ايها الفاضل الحكيم * فقال : شيءٌ صنعتهُ وكتابٌ أَلّفتهُ وهو في الغربة انيسي وفي الوحدة جليسي * فقالت : يا ذا الحكم والحلم ما فيهِ من فنون العلم . فقال : سرٌّ مصون وأمرٌ مخزون ودرٌّ مكنون لا يجوز ابداءهُ ولا يحلّ افشاءهُ . فقالت : ياذا الشكل الظريف والوصف اللطيف والعلم المنيف هذا التعريف لا يليق بالتصنيف فإنّ فائدة التصنيف الاشتهار وثمرة العلم الانتشار وما أخذ اللهُ على الجهّال أن يتعلّموا حتّى أخذ على العلماء أن يعلّموا . فقال : الأمر كذلك يا زين الامور ولكن هذا علمٌ يُصان عن ربّات الخدور ولاسيّما يا حَصان عمّن في دينهِ وعقلهِ نقصان . فأغراها هذا المقال على الالحاح في السؤال وزادت في اللجاج ومارت في الاحتجاج وترامت لديهِ وأقسمت بدلالة الدال عليهِ . فقال : هذا علمٌ لم أُسبق اليهِ جمعتُ فيهِ مكر النساء ومَن أجاد منهنّ ومَن اساء ومَن تعاطت لطائف الحيل وخفيّ الفعل وخفيف العمل ومَن دعت بدعاها حتى بلغت مناها ومَن وقعت في الشدائد فاحتالت بدقيق فكرها لتلك المكائد وتخلّصت من شَرك المصائد . فلمّا سمعت ما قال ووعت صكّت وجهها وأغربت تقهقها وتمايلت تمايل القضيب وقالت سرٌّ غريب وأمرٌ عجيب وضيعة عمرٍ حاصل

فيما لا تحتهُ طائل وشغل سرّ وبال في جمع أمرٍ محال لقد ركبتَ المشاقّ وكلّفتَ نفسك ما لا يُطاق ونسفتَ الرمل بالكربال وغرفتَ البحر بالغربال ووزنتَ الطور بالمثقال وتحمّلتَ الدرّ بالاثقال فارجع عن هذا الغلط ولا ترُم ذلك الشطط فإنّ مكر ربّات الخدور لا يدخل ضبطهُ بسفرٍ تحت مقدور . فقال لها : انتِ غبيّة وعن هذا الكلام غنيّة وإنْ كنتِ فاضلة زكيّة انا قد بلغتُ في ذلك الغاية وأحطتُ به بدايةً ونهاية ووقفتُ على مجملهِ ومفصلهِ فلم يشذّ عنّي شيءٌ من آخرهِ وأوّلهِ . فسلّمت وما تكلّمت وغالطت وما بالطت وسارت وما مارت وفوّضت اليهِ هذا التحقيق وسلكت معهُ غير هذا الطريق حتّى كأنّ هذا الكلام في هذا المقام شيئًا فريّا ونسيًا منسيّا . ثمّ نزلت من برج المنازلة وأخذت تلك الغزالة في المغازلة الى أنْ غالتهُ بغيلها وأوغتهُ بشينها ومينها فاقنعتهُ بنكتةٍ لا يسعنا بسطها وهي التي صوّبت بها رأيها وقالت : ايّها الحكيم العظيم هل كتبت هذه الناقلة في كتابك الكريم * فقال : لا واللهِ الرحمن الرحيم وإنّي قد سلّمتُ اليكِ وتبتُ الى اللهِ على يديكِ * (وانّما اوردتُ هذا المثال) لاعرض على شيخ السعالى وامام الاغوال أنّ النساء في هذه الحركة أعظم متشبّث وأقوى شبكة وهنّ لسلب اللبّ من الرجال اضعاف فتنة المسيح الدجّال ورأيهنّ غير سديد والرجال

لهنّ أذلّ عبيد وإنْ كنّ ناقصات عقلٍ ودين فهنّ كاملاتٌ في سلب العقل المتين والفكر الرزين وأذهب للبّ الرجل الحازم والعقل السديد الجازم وهل أُخرج آدم من جنّة المأوى الّا قصّةُ صدمتهُ من قبل حوّى وكذلك غالب مَن عصى الله وأساء انّما كان سبب كفرهِ واخزائهِ النساء * فلا تعترضوا على هذا الراي المتين ولا تتعرّضوا لهذا الرجل فانّه على الحقّ المبين ولا تقصدو لمعارضتهِ وسوالهِ فربّما يكون مجالكم أُضيق من مجالهِ وإنّا لا نقدر على مناقشتهِ ويظهر جهلنا وعجزنا عند مباحثتهِ * فقال سائر الوزرآء هذا الراي اصوب الارآء فإنّا الى الآن ما بارزناهم بالمخاشنة وانّما كنّا نأتيهم بالمخادعة والمحاسنة فنزين لهم الباطل ونحلّي لهم العاطل ونشوّه وجه الحقّ ونسوّد طلعة الصدق الى أنْ ظهر هذا الرجل ونحن على ذلك فوقف في طريقنا وأراهم الدرب السالك وعلا شانهُ ووضح برهانهُ ونحن على ما نحن عليهِ من الاغوآء والقائهم في مهاوي الأهوآء والحرب بيننا وبينهم سجال فلو كاشفناهم بسوء الفعال انكشف لهم زيف نقدنا وبطل ما كنّا نسوّلهُ بجهدنا فاذا ظهر الحقّ من الباطل وتميّز الحالي من العاطل اخذوا حذرهم وضبطوا أمرهم وداروا بالعداوة ومرّوا بالملوحة بعد الحلاوة ثمّ ظفرنا بهم موهوم ونصرنا عليهم غير معلوم فما نظفر الاّ بالندامة ونرضى اذ

ذاك بغنيمة السلامة ويستمرّ هذا العار علينا الى يوم القيامة وقد قيل : * شعر *

لا تسعَ في الامر حتّى تستعدّ لهُ * سعيٌ بلا علّة قوسٌ بلا وتر

فعند ذلك استشاط العفريت غضبا وطار شررًا لهذا واشتعالاً ولهبا وقال : لقد عظّمتم من شان الانسان واوهنتم بل اهنتم جانب اخوانكم الجان . وضيّعتم حقوق الاخوان وابطلتم حكاية السعالى والغيلان ونسيتم فتن جدّكم الاعلى الباقية على ممرّ الزمان ونحن ادقّ حيلة واجلّ جماعة وقبيلة واوسع ذكرًا واسرع مكرًا واقدم وجودًا واعظم جنودًا واغزر علما وادراكًا وفهما ولا أرى لكم همّة صادقة ولا عزيمة موافقة ، وانا ما قلتُ لكم ما تقدّم من القول الاّ لاخبر ما في فرايض عليكم من الردّ والعول فلا اقوالكم سديدة ولا افعالكم رشيدة ولقد حلّ بكم الصغار وسطا عليكم من الانس الصغار * وأمّا انا فلا بدّ لي من المباحثة والمناقشة والمنابشة والالقآء للمسائل والابحاث في الرسائل من غير وسائط ولا سائل ليهلك من هلك عن بنيهِ ويحيا مَن حيّ عن بنيهِ فاعلموا ذلك وتحقّقوهُ ثمّ أمعنوا النظر فيهِ ودقّقوهُ وهذا هو الرأي الذي صممتُ عليهِ فليتوجّه كلّ منكم بقلبهِ وقالبهِ اليهِ ويقُل في ذلك غثهُ وسمينهُ ويلقِ هجان قولهِ وهجينهُ ولا يدّخر شيئًا من آرائهِ فلابدّ لي من القائهِ * فلمّا سمع الوزرآء هذا الكلام عرفوا أنّ أسباب

دولتهم آذنت بآنصرام غير أنّهم لم يقدروا على المخالفة فما وسعهم الّا المطاوعة والمؤالفة لئلّا ينسبهم الى غرض فيصيبهم منهُ عرض أو مرض فحسّنوا لهُ رأي المصادمة ومباحثة العالِم المقاومة وآتّفقت الآرآء انْ يُرسلوا للعالِم أوّلا وآنتخبوا مَن يصلح أنْ يكون مرسلا فيحملهُ العفريت في الرسالة ما تتضمّنهُ من الحماسة والبسالة حسبما يراهُ رأيهُ التعيس وفكرهُ المدبّر الخسيس * وكان في شياطينهِ المردة وغيلانهِ العتاة العتاة عفريتٌ من الجنّ ماردٌ مسنّ اسمهُ صن بن مصن قد أضلّ عقائد وأزلّ قواعد وأشرب بغض بني آدم وغمّس طائفةً منهم في نار جهنّم بعد ما غطّسهم من المعاصي في يمّ لا يمنعهُ وجومٌ عن الهجوم ولا يخاف الرجوم من النجوم طالما أطال البوائق في المغارب والمشارق وأضرم نيران الإفساد بين الخلائق وملأ ما بين الخافقين من مواقع الصواعق وفوّح نتانة الوساوس وفسآء الظربان في المجالس وآنقضّ للشرّ والفتن على كلّ قائمٍ وجالس فكم لهُ توفيق بين الحرامين وتفريق بين الحلالين وسفك دمآء بين الأخوين والقآء البغضة بين المحبّين والعداوة بين الالفين والعربدة بين السكارى والحروب بين المسلمين والنصارى وبالجملة فقد أُوتي من الوسوسة والتلبيس صنوفًا كثيرة فاق بها على ذرّية إبليس . فآنتدبهُ العفريت الملمّ الى هذا الأمر المهمّ وامهلاهُ الى أنْ آنسلخ اهاب الضوّ ثمّ طار في

عنان الجوّ حتى وصلا الى سفح الجبل متعبّد ذلك العالِم البطل الذي ملأ الدنيا بالعلم والعمل * ثمّ كمن العفريت في مغارة وأرسل رسولهُ بالسفارة يقول أبلغ عالم الانس صاحب الكرامات والانس ومقرّب حظيرة القدس عن شيخ العفاريت الطغاة المصاليت أنّي من قديم الزمان وبعيد الحدثان أضللتُ كثيرًا من الناس بالمكر والخداع والوسواس وفي أمثالي نزلتُ قُل أعوذ بربّ الناس وآبن عمّي هو الوسواس الخنّاس وكان من جنس بني آدم كذا كذا ألف عالم خدّامي ومعي وجندي وتبعي منهم رووس الزهّاد وعلمآء العباد وعلى محبّتي مضوا وبآتّباع أوامري قضوا . فأنا فتنة العالم وأعدى أعدآء بني آدم الشيطان الرجيم وإبليس الذميم اسمُ ذاتي ووصفُ صفاتي . انا مقتدى الشياطين ورأس العفاريت المتمرّدين ومحلّ غضب ربّ العالمين خُلقتُ من مارجٍ من نار وطُبعتُ على القآء البوار والدمار رجوم النجوم إنّما أُعدّت لأجلي وعتاة الغواة لا تصل رووسها الى مواطئ رجلي الشياطين تستمدّ من زواخر مكري والاعور اللعين يقتبس من ضمائر فكري لم تمرّ قضيّةٌ في الزمان الغابر الّا ولي شركةٌ فيها ولا حدثت محنةٌ لنبيٍّ ولا وليٍّ الّا وانا متعاطيها جدّي إبليس نهض لجدّي التعيس والى نحو آدم هوى فعصي ربّهُ فغوى وأنا قضيتُ بالتسويل حتى قتل قائين هابيل وهديتُ قوم لوط الى الخوض

في التلوّط ومحافر القلوط وسوّلتُ لأولاد يعقوب وحاولتُ في قضيّة أيّوب وأنا كنتُ العون لهامان وفرعون وجرّأتُ على قتل الأنبيآء والأولياء وتوصّلتُ بتزيين الوسواس لقاتلي الذين يأمرون بالقسط من الناس ودعوتُ الى عبادة العجل قوم موسى وساعدتُ في التفريق والإضلال بين أمّة عيسى وكم أغويتُ من رهبان بما زخرفتُ من صلبان وقد بلغني من جميع مسترقي السمع وطنّ على أذني ووعاهُ خاطري ووقر في ذهني وأنا أشارف التخوم واسارق النجوم وأسابق الرجوم إنّ لي أسمآء تُذكر في السمآء منها الغليظ الرقبة وشيخ نجد وأزبّ العقبة بي تكثر البدع بين الجماعات والجمع ويظهر من الفتن ما بطن ويغلب من التتار وأهل البوار والخسار أنواع الشرور والجدال الى حين يظهر الدجّال وتستمرّ اليّ هذه الأمور الى يوم البعث والنشور. وبالجملة والتفصيل انا شيخ التكفير والتضليل وتلك صنعتي من الابتدآء وحرفتي الى الانتهآء . ثمّ انّك نبعتَ في هذا الزمان وظهرتَ في هذا المكان تريد أنْ تهدم ما بنيته وتعوّج بصلاحك ما بفسادي سوّيتهُ وتردّ كلامي وتعاكسني في مرامي وانا كنتُ في قديم الزمان من قبل أن توجد أنتَ في المكان ناديتُ بالشرّ بين بنيه وشهرته في ذويه وكانوا قد سمعوا واجابوا واطاعوا وانابوا وشملي بهم منتظم

وامري بتفريق كلمتهم ملتئم اسهم مرامي المشئومة نافذة في المشارق والمغارب وسيوف مناشري المسمومة قاطعة في الاعاجم والاعارب كم لي في الاطراف والآفاق والاكناف من قاضٍ ونائب ومانع من الخير وحاجب وكم لي من جابي منوطٌ بتفريق قلوبهم وجمع سويدآئها الى بابي وكم لي في الزوايا من خبايا وفي اصحاب الروايات من درايات وفقيهٍ في النادي فاق الحاضر والبادي يعلم لي في الشيطنة اولادي وفي البلسة حَفَدتي وأجنادي . وبالجملة غالب الطوائف وأرباب الوظائف على باب خدمتي واقف وعلى طاعة مراسيمي ليلاً ونهارًا عاكف مناي مناهم ورضاي رضاهم وإنْ خالف بعض سرّي نجواهم الاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . وأنت الآن جئت برايتك وسالوسك وطامّتك وناموسك تبدّد عنّي عساكري وتشرّد من بني الانس عشائري من غير أنْ تشاورني ولا تخبرني ولا تحاورني ولا تبحث معي ولا تناظرني وها انا قد جئتُ اليك ونزلتُ كالقضآء المبرم عليك أُريد أنْ أُناظرك في أنواعٍ من العلوم وأسألك عن حقائقها من طريق المنطوق والمفهوم بحضرةٍ من الجنّ والانس وسائر نوع الحيوان. والجنس فيظهر إذ ذاكً جهلُك فينبذك قومُك وأهلُك ويتركك معتقدوك ويتراجع عنك مريدوك وأفسد بين العالم صيتك وأُتلفهُ فآجعل بيننا وبينك موعدًا

لا تخلفهُ * فلمّا وصل رسول العفريت الكافر الصفريت الى
الشيخ العابد والعالم الزاهد الجاهد المجاهد فعندما وقع نظر
الشيخ عليهِ ووصل سهام لحظاتهِ اليهِ كاد أنْ يذوب كالملح
وأن لا يقوم الفساد للصلح فبهت الذي كفر وأخذتهُ الدهشة
والخورِ وغلب عليهِ الانبهار وكاد يحترق من الانوار
وآستولى عليهِ الرجيف وسقط من الوجيف فما أبدى ولا
أعاد ولا قام للصلاح ذلك الفساد * فقال لهُ الشيخ : ما
لك وما أحالك وغيّر حالك وما موجب دخولك عليّ وانتَ
غير منسوب اليّ * فقال : كفّ عنّي انوارك وأطوعني اسرارك
حتّى اقول فانّي رسول فما لي طاقةٌ برؤيتك ولا سواغ وما
على الرسول الّا البلاغ * فقال : رسول ايّ طعين وشيطان
لعين * فقال : انا رسول صحبك العفريت المشقوق الحوافر
الواسع المناخر المسلوب المفاخر أبي السعالي الكافر العالي
قد أقبل اليك في جمعٍ كثير وعددٍ من الجنّ غزير ومعهُ
رؤوس العفاريت والعتاة المصاليت والطغاة المقاليت وقد حمّلني
اليك رسالة تتضمّن من الخبث شجاعةً وبسالة إنْ شئتَ
ادّيتها وإنْ أبيتَ ردّيتُها * فقال : قُل ما تريد وأبلغ ما
معك عن ذلك العنيد وأوجز ما تقول ولعن الله المرسَل
والرسول * فأبلغ الرسالة وأدّاها واسأل في أوديتها مؤادّاها *
فقال الزاهد وكان بالاحوال خبيرًا شاهد : واللهِ مالكم شبهةً

في هذا الكيد الّا الحمار في الوحل والحمام في شبكة الصيد :
قُل لمرسلك أرى قدمك أراق دمك وهواك أهواك وأفعالك
أفعى لك وسؤالك اسوا لك وخبالك أخبى لك فأولى لك
أولى لك ولعن الله أولى لك لا شكّ أنّ الله تعالى أراد
دماركم وأنْ يمحو آثاركم ويخلّي دياركم فتستريح البلاد من
فسادكم والعباد من عنادكم * امّا انا فأذلّ الخلق واحقر
الداعين الى الحقّ ولكن بعون الله وقدرتهِ والهامهِ وقوّتهِ
لي من العلم والفضل ما أُجيبهُ ويقتلهُ من خوفهِ بهِ وجيبهُ
وسيظهر في الجمع على رؤوس الاشهاد عويلهُ ونحيبهُ وسيبين
الله في سنن الخلق فروضهُ ويكشف صحيح الحقّ ومريضهُ واذا
ادّعى بدعاوي طويلةٍ عريضة فانّ الله قتل نمرود العاتي
ببعوضة يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نورهُ ولو
كره الكافرون * أمّا سمع ذلك الملعون وعلم الشقيّ المغبون
أنّهُ ليس لهُ سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون
انما سلطانهُ على الذين يتولّونهُ والذين هم بهِ مشركون فمتى
أراد يحضر ويسبر نفسهُ وخصمهُ ويخبر ويصحب معهُ مَن يريد
من كلّ جنّيّ عنيد وشيطانٍ مَريد فإنّ الحقّ يحقّ فيبطل
الباطل ويتميّز في حلبة السباق الحالي من العاطل فودّ هذا
الجواب الرسول وكشف عن حقيقة القول * ثمّ إنّ العفريت
المخذول سأل الرسول عن أوضاع الشيخ الزاهد واحواله في

المساجد والمشاهد وما شاهدهُ من أُموره وحكاياته وحركاته وسكناته واخلاقه ومعاملاته وكيفيّة هيئته وصورته وما شاع عنهُ في قومه من سيرته * فقال : رأَيتُ رجلاً سعيد الحركات كامل البركات صورتهُ جميلة وأَوصافهُ نبيلة وهيئتهُ جليلة بدنهُ نحيل وفضلهُ عريضٌ طويل وكلامهُ الصادع في امثالنا ثقيلٌ قاطع فقذف الله في قلبه الفزع واخذتهُ نوافض الرعب والهلع * فقال : أَمَا والله انّ هذه الاوصاف لصعبةُ الاعراق والأَعراف وستطرحنا وراءَ جبل قاف وانّها لسيمة الصلاح وعلامة الفوز والنجاح وانّهم لهم المنصورون وحزب الله الغالبون. ولقد ندمت على مراسلته وكان الاولى سلوك طريق مجاملته ولكن الشروع ملزم ولا بدّ أَن أُتمّ ما عليه أَعزم . فواعده الى وقت معلوم ثمّ إنّهُ حضر واحضر معهُ من جنده كلَّ جنّيٍّ ظلوم وعفريتٍ غشوم ومتمرّدٍ مشوم ومخلوق من قبلُ من نار السَّموم . واجتمع من بني آدم عند الشيخ تلامذتهُ واصحابهُ الصالحون وجماعتهُ وكانوا الجمّ الغفير والجمع الغزير . وآشترطوا بعد ما ضبطوا واختبطوا وحلّوا وارتبطوا انّهُ ان اجاب الشيخ سوالات العفريت وسرى في نارهم سريان النار في الكبريت لا يظهر بعد ذلك اليوم لبني آدم احد من اوليك القوم بل يكونون عن الابصار مختفين وتحت الارض في الجزائر والخرائب كزنادقة بغداد منتفين وإن عجز الشيخ عن جواب سواله

يهلكهُ العفريت مع خيله ورجاله * ثمّ شرع العفريت في الرسائل والقاء المسائل : فقال : العالم على كم قسم بالعرض والجسم . وهل للعالم موجد . وهل هو واحدٌ أَم متعدّد * فقال الزاهد الامام العالم على ثلاثة اقسام : الاول مفردات العناصر كالتراب والماء والنار والهواء وتسمّى الاستقصاآت وأُصول الكائنات والمركّبات من هذه الأَجزاء المفردة لا تستمرّ على حالةٍ واحدة ولا تخلو من حركة وانتقال ودأبها التغيُّر من حالٍ الى حال : الثاني الأَجرام العلويّة كالسموات وكواكبها المضيّة وهي متحرّكةٌ بالبروج ولحركتها دائرةٌ ما لها من مركزها خروج فهي متحرّكةٌ من بعض الجهات ساكنةٌ كالفصوص في المرصّعات وتوصف في حركتها بالصعود والهبوط والارتفاع والسقوط والرجوع والاقبال وآستقامة الحال والاختراق والانصراف والانحطاط الى الحضيض والاشراف ويُحكم عليها بالافتراق والاقتران والتربيع والتثليث والتسديس في السيران والمقابلة في الرجعة وبطء السير والسرعة وينسب اليها ما يحدث في العالم السفلي من جزئيّ الوقائع والكلّي ومن نحوسةٍ وسعادة ونقص وزيادة وخير وشرّ ونفع وضرّ وتأثّر وتأثير وقليل وكثير وآنحراف وآعتدال وحدوثٍ وزوال وصحّةٍ وسقم وسكون وأَلم ووجود وعدم فبعض مَن لم يعرف الطريقة يسند هذه الاشياء على الحقيقة وذلك لقصور فهمه وقلّة العقل

كقول الجاهل أنبت الربيع البقل وبعض مَن لم يكن لهُ إدراك يزعم أنّ هذه اشراك ولا يسند هذه الحوادث اليها ولا يعوّل في ذلك أبدًا عليها لا بالحقيقة ولا بالمجاز ولا يسلّم في ذلك الى طريقة المجاز والمحقّقون من العلمآء والراسخون في العلم من حكمآء الفقهآء يسندون هذه الحوادث والتأثير الى قدرة اللطيف الخبير الصانع القدير الفاعل المختار الذي يخلق ما يشآء ويختار فاذا نسبوا هذه الأفعال الى غير ذي الجلال فانّما يجعلونها في ذلك الباب كالآلات والأسباب كتأثير الخبز في الاشباع والنار في الاحراق والايجاع وكفعل المآء في الارواء والدوآء في الادوآء وانّما ذلك كلّهُ بتقدير صانعها وما أودعهُ فيها من خواصّ بدائعها وصفات ودائعها كخاصّيّة الاسهال المودعة في السقمونيا وخواصّ التصبير وغيره الكامنة في الموميا والاسكار في الخمر والاحراق في الجمر وقد رأينا القوّة النامية عقيب الأمطار الهامية والشمس حامية تهيج وتنمو وتموج وتزكو وهذا الصنيع البديع اذا حلّت الشمس في برج الحمل في وقت الربيع واذا نُقلت الى برج الأسد احترق ذلك الجسد وعند نقلها الى الميزان ينقلب هذا الزمان وكذا اذا تحوّلت الغزالة الى برج الجدي فكانّهُ بلغ الى محلّ الهدي . فتموت اذ ذاك قوّة الزمان ويضعف لذلك غالب الحيوان وهذا كلّهُ مشاهد محسوس لا يمكن أنْ تنكرهُ النفوس خواصّ

وضعها خالق الكون يُستفاد بعضها من الطعم والريح واللون وبعضها لا يدرك ما أُودع فيه الّا بارشاد خالقه ومنشيه هكذا جرت سنّة العزيز الوهّاب أَنّ الأَحكام والوقائع تُناطَ بالاسباب وقد يتخلّف منها الأَثر عن المؤثّر ليعلم من ذلك وجود القاهر المدبّر وأَنّها مقهورة تحت الامر ومقسورة قسر العقل مع الخمر . ولولا ذلك من سرٍّ جسيم لَما خفي عن الانسان اغلب ما صنعهُ الخالق الحكيم فكم من آكل وهو جيعان وشارب وهو عطشان ومتدثّر يتدفّأ بالنار وهو بردان والفلك الاعظم محيط بهذه الاجرام ونسبتها اليه كنقطة للبحر الطام متأثّرة بتاثيره دائرة بتدويره يتصرّف فيها على حسب ما شآءهُ باريها وصرفهُ فيها منشيها فاطر السموات والأَرض جامع الخلائق ليوم العرض وكما هي محاطة بالدائرة الفوقانيّة كذلك محيطة بالكرة التحتانيّة * القسم الثالث العقول والنفوس الملكيّة وهي اشرف من الاجرام العلويّة ومقام هذه العقول في مقام عزيز الوصول يسمّى أعلى علّيّين وجواهرها لا تُوصف بتحريكٍ ولا تسكين ولا بهذه البساطة والتركيب وامرها بديعٌ وشانها عجيب . وأمّا العرض فما لا يقوم بذاته وهو في العالم كالالوان والروائح والطعوم واصواته . وأَمّا الجسم فما تركّب من جوهرين فأَكثر وما قام بنفسه يسمّى الجوهر . وأَمّا الموجد للعالم فهو واحدٌ لا يثنّى واحدٌ لا يتجزّى ولو لم يكن للعالم

صانع لكان العالم أضيع ضائع وهل رايت مصنوعًا بلا صانع وسقفًا مرفوعًا بلا رافع وهل نفيُ الصانع الَّا مكابرة وما يجحدهُ الَّا النفوس الكافرة * فقال العفريت : فما الدليل على وجود الصانع العقل والنقل ام أحدهما متبوعٌ والآخر تابع * فقال العالِم الزاهد : قد أطبقت العقلآء وأجمعت الحكمآء أنّ العقل دليلٌ على وجود الصانع وبهِ الدلالة والشرع لهُ تابع وكما هو الدليل على وجود الذات كذلك هو الدليل المستقلّ على اثبات الصفات وهي صفات الكمال ونعوت الجلال * فقال العفريت : فما الدليل على وحدانيّتهِ * فقال الزاهد : كلٌّ من العقل والشرع كافٍ في دلالته * قال العفريت: فما المراد من عالَم الكون والفساد * فقال العالِم : معرفة أُمور المبدأ والمعاد * قال العفريت : فما أفضل العقل أم النقل * فقال العالِم : كلٌّ منهما حجّة الله قد أسند لهُ من عبادهِ مَن يراه، وذلك إنّ الله لمّا ارشدنا الى الدين القويم وثبّت أقدام توحيدنا على الصراط المستقيم نبّهنا أنّ المقصود من الدخول في دائرة الوجود معرفة موجدنا المعبود ثمّ طلب مراضيهِ بما تبرز بهِ أوامرهُ وتقتضيهِ وذلك هو الرشاد بإزاء المكر والعناد الى المعارف الالٓهيّة وما بهِ نظام المعاش ونجاة المعاد وليس لنا دليل في العلم والتعريف سوى طريقتين مرشدتين الى التوقيف على أُمور المبدأ والمعاد وما بينهما في دار التكليف

إحداهما ما جُبلنا عليهِ وما اكتسبناهُ من العقل وثانيتهما ما بلغنا من الاخبار الصحيحة والنقل فالعقل لا يدخل في إثبات المعارف الالٓهيّة ولا في هذا الباب المقدّم من الأُمور المعاشيّة والمعاديّة وهو حجّة الله القاطعة البالغة وأصل براهينهِ الساطعة الدامغة وبواسطتهِ استعبد عبادهُ الكلفة والى مَن خصّهُ بهِ أرسل رسلهُ ثمّ العقل جوّز إرسال الرسل ولا يُردّ ما تقوّى بهِ لتوضيح السبل والنقل لا يأتي بما يناقض العقل وإنّما يرد بما يزكّي قضاياهُ ويصقل مرائي أحكامهِ أحسن صقل ونظير ما حصل للعقل بالشرع من الاستئناس ما حصل للكتاب من معاضدة السنّة والاجماع والقياس ولو ورد المنقول بما يناقض المعقول لا شبه فرعًا يُوجد ما لهُ من أُصول اذا أُقبلت مواكب الأَوامر الالٓهيّة على لسان الرسول خضعت جماجم العقول منقادة بزمام الانقياد والقبول سامعة لما يرد منها مطيعة لما يصدر عنها فتارةً يظهر للعقل ما للأوامر الشرعيّة من الحكم كنار على علم وتارةً يعجز عن الاطّلاع على ما تضمّنتهُ الأحكام النقليّة من الحكم فاذا أُورد الشرع بحكمٍ وكان للعقل في حكمتهِ إدراك آثرهُ وأكّدهُ واستمسك بهِ في تصرّفاته أقوى استمساك وإن لم يكن لهُ في إدراكهِ مدخل نادى بلسان العجز والتسليم سبحان مَن لا يسئل عمّا يفعل والحاصل أنّ سلطان العقول في ممالك خليفة الشرع وولايتهِ معزول ومن

جملة ما ورد من محكمات الاقوال مما ليس للعقل فيه مجال أحوال المعاد ومبدؤها ما يطرأ على العباد . في حدّ هذا الكون من الفساد * فقال العفريت : أخبرني ياذا الانسان مخلوقٌ مماذا وما الآدميّة والنفس الانسانيّة وهل هي واحدة او متعدّدة ومآلها الى أين بعد وقوع البين * فقال العالم : الانسان مخلوقٌ يا مصفعة من هذه العناصر الأربعة التي مرّ ذكرها وتبيّن أمرها التراب والمآء والنار والهوآء فاذا تمازجت واعتدلت اذا تزاوجت حصل لها من التركيب أمزجةٌ ثمانيةٌ لا على الترتيب . والآدميّة عبارةٌ عن القوّة المميّزة بين الحسن والقبيح والفاسد والصحيح والحق والباطل والحالي والعاطل والخير والشرّ والنفع والضرّ والمميّزة لهذه الاشيآء الفارقة يُقال لها النفس الناطقة . وهي ثلاثة أنواع يا خارج الطباع أحدها الروح الطبيعية القائمة بالكبد وهي من الأغذية تستمدّ الثانية الروح الحيوانيّة ومقامها القلب أي كلب وللأبدان منها حراك واستمدادها من حركات الأفلاك الثالثة الروح النفسانيّة ومقامها في الدماغ ومنها الحركات الذهنيّة والقوّة التامّة القويّة تطلب غذآءها من الروح الطبيعيّة والقوّة المميّزة تطلب ما يسعدها في الدارين من الروح النفسانيّة ويُبعدها في المقامين عن الأسباب الشقيّة واستمدادها وقوّتها من الأجرام العلويّة وأعلى مقامات هذه النفس الحكمة والحكمة أوفى منحةً وأوفر نعمة

ومصير هذه الأرواح الى عالم الغياب لاجل الثواب والعقاب وقيل حقيقة نفس الانسان أيّها المارد الشيطان لطيفةٌ روحانيّة ودقيقة ربّانيّة لها تعلّق ربّانيّ بقلبه وقالبه الجسمانيّ وهي المدركة العالمة العارفة الفاهمة بها يتكلّم الانسان وتبصر العينان وتسمع الأذنان وتبطش اليدان وتمشي الرجلان وهي المخاطبة والمعاتبة والمثابة والمعاقبة والمطلوبة والطالبة ويُطلق عليها لفظ القلب تارة ولفظ الروح أُخرى ويقال لها النفس مرّة ولفظ العقل ايضا . وابن آدم هو المخصوص بهذه الكرامات وبهذه النفس دون سائر الحيوانات وإن كان يُطلق على الجميع أنّ لها نفسًا بالاشتراك لكن هذه النفس الناطقة والنطق هو الادراك واختلف أيضًا وتحيّرت الألباب في صنع ربّ الارباب وتاهت الافكار والفطن في كيفيّة تعلّقها بالبدن ولا يحصل لاحد على هذا وقوف الّا بطريق الولاية والكشف . وهذه النفس لمّا كثرت صفاتها وتضادّت نعوتها تخالفت اوصافها وازداد في صفاتها اختلافها حتى قسموها فقالوا : انواعها ثلاثة . ناطقة وشهوانيّة وغضبيّة رضيّة . فالناطقة مسكنها الدماغ ولها فيه مساغ والكبد مسكن الشهوانيّة والقلب مسكن الغضبيّة الرضيّة فايّة نفس غلبت اختيها جذبت احوالهما وصفاتهما اليها . وهذه يا اتعس زوبعة كالعناصر الاربعة فانّها اذا فسد مزاجها وعدل عن الاعتدال ازدواجها عسر علاجها

واستحال الى المطلوب الطالب وعجز عن المعالجة الطابب ففسد البيان وانهدمت الاركان . وقيل هما روح ونفس بغير لبس وهما ضدّان بل ندّان لا يجتمعان ولا يرتفعان . وطبع النفس يا لئيم طبعك طبع الشيطان الرجيم كالنار في جوهرها وخاصّة عنصرها تُنسب اليها الصفات الذميمة والخلال الغير المستقيمة كالجهل والغضب والحدّة والصخب واللوم والسفه والطيش والشره والحميّة والشهوة والقسوة والجفوة والحسد واللجاج والحقد والاحتجاج والحرص والبخل والتواني والكسل والحمق والخيانة والفجور وعدم الأمانة والترفّع والريـــاء والمخاصمة والمرآء وسائر الأخلاق الذميمة والأوصاف المشؤمة الملومة والملكات الخبيثة الرديّة والحركات الشيطانيّة فهي كالنار في احراقها وحدّتها واستشاطتها وشدّتها ودخانها ولهيبها واهلاكها وتعذيبها واقدامها في اعدامها وأكل ما تجده وما تصل اليه تفسده وطلب العلوّ والغليان والغلوّ . وطبع الروح يا أنحس مجروح طبع المآء في النشو والنمآء يُنسب اليه كلّ خُلق كريم وطبع سليم صافي الجوهر ما لامسهُ تطهّر شيمتهُ الحيآء والعلم والصدق والحلم والتفويض والتوكّل والتسليم والتجمّل والاحتمال والاناة والصبر والموافاه والتودّد والاسدآء والسكون والاعطآء والركون والبذل والرضا والفضل والحبآء والعدل والتواضع والعفّة

وعدم الترفّع والخفّة والسلاسة والسهولة وسرعة الانقياد واللين والوداد والرقّة والصفآء والكرم وعدم الجفآء الى سائر الأخلاق المحمودة والأوصاف المطلوبة المودودة وأيّتهما قويت غلبت وجذبت الأُخرى اليها وسلبت وسيّرتها على طبعها وآستخدمتها على ربعها فكم من شيطانٍ يُرى في صورة انسان ومن انسانٍ غلبت عليه أخلاق الجان ومن جانٍ في صورة انسان ونظير هذا الروح والبدن يدركه ذو العقل والفطن فإنّ الروح من عالمٍ نورانيّ لطيفٍ سماويّ والبدن من عالم ظلمانيّ كثيفٍ أرضيّ فأيّهما غلب على صاحبه جذبهُ الى مركزه في جانبه فالانبيآء عليهم السلام صارت أجسادهم أرواحا والكفّار مثلك صارت أنفسهم ظلمانية أشباحا . وقيل يا زوبعة الأنفس أربعة إمّارةٌ وهي أنفس مثلك الكفّار الطغاة ولوّامةٌ وهي أنفس العصاة وملهمةٌ وهي أنفس المخلصين ومطمئنّةٌ وهي أنفس الانبيآء والمقرّبين . والحقّ يا جاحد ما هي الّا نفسٌ واحدة لكن لمّا تجلّت في ملابس الصفات وتكثّرت لها الأخلاق والسمات نوّعوها وبمقتضى التنويع فرّعوها تنزيلاً للتنويع بالصفات منزلة التنويع في الذات فيُقال كانت نفس هذا شيطانيّة فتاب فصارت رحمانيّة وكانت نفس ذاك أبيّة فصارت دنيّة * قال العفريت : أخبرني أيّها الباصر كيف تركيب هذه العناصر * فقال الزاهد : بحسب

الخفّة واللطافة والثقل والكثافة ولمّا كان عنصر التراب
أثقل كان أركد من غيره وأنزل ومن فوقه عنصر المآء
وفوق المآء عنصر الهوآء ومن فوق هذه الثلاثة عناصر عنصر
النار وهو بها محيط دائر وكذلك كلّ عنصرٍ محيط بما تحته وقد
حقّقت هذا وعلمته * قال العفريت : أخبرني عن أقرب الاشيآء
اليك * قال العالِم الأجلّ أقرب الاشيآء الأجل * قال :
أخبرني عن أبعد الاشيآء عنك * قال العالِم الأكبر ما لم
يُقسم ولم يقدّر * قال : أخبرني عن الشيء الممكن عودهُ *
قال : الدولة إنْ زالت وتغيّرت وآستحالت يمكن ردُّها ولا
يستحيل عودها * قال: أخبرني عن الشيء المستحيل عودهُ *
قال : الشباب بغير شكٍّ ولا ارتياب * قال : أخبرني عمّا لا
يمكن بالاكتساب ولا يُنال الّا بتوفيق الوهّاب * قال : العقل
الغريزيّ فانّه وهبيّ عزيزيّ * قال : أخبرني عمّا لا يمكن
ضبطهُ ولا ينضبط ربطه * قال الدهر اذا ولّى والسعد اذا
تجلّى * قال : أخبرني ياذا الجدّ عن الهزل الذي يُراد به
الجدّ * قال : ابراز حكم الأمثال والآيات على لسان الحيوانات
والجمادات * قال : أخبرني عمّا لا يمكن الاحاطة به ولا
الوقوف على معرفة كُنهه * قال : عظمة صانع الكائنات
وخالق الموجودات تعالى أنْ يحاط به علما وتقدّس أنْ تدرك
عظمته معرفة ووهما * فلمّا طالت المقاولة وآنتهت الى هذا

الكلام المجادلة أقبل الليل وحلّ بالعفريت وجنده الويل
وتصدّع المجلس وقام العفريت وهو مبلس وتواعدوا الى
الصباح عند قول حيّ على الفلاح أنْ تجتمع الوجوه الصِباح
لردّ جواب الشياطين القباح فتفرّقوا وقد أحاط بالعفريت الوهم
ونفذ في أحشائه من سهام الذلّ أقطع سهم وبات لا يقرّ لهُ
قرار ولا يأخذهُ آصطبار وساورهُ الافتكار وثاورهُ الهمّ والدمار
والغمّ والبوار *

* شعر *

الى أن اضآء الصبح كالحقّ مقبلا * وولّى ظلام الليل كالجهل مدبرا

فآجتمع مَن كان بالامس حاضرا ومَن سمع بحضورهم ولم يكن
ناظرا من جموع الانس والجنّ وطوائف الجنّ والبنّ وأخذ
كلّ مقامه وابتدأ العفريت كلامهُ وقال : ما منبع الصفات
الحميدة والشمائل السعيدة المارّ ذكرها القارّ امرها وهي يا
هذا نتيجة ماذا * فقال العالم المحقّق العامل المدقّق : هي
ثمرة العقل القويم الهادي الى الصراط المستقيم ويكفي العقل
الشريف أنّه مناط التكليف لهُ الله يخاطب وبه يثيب
ويعاقب وبه ياخذ وبه يعطي وتابعه يصيب ولا يخطئ وكلّما
كان العقل أتمّ كانت محاسن الأخلاق أعمّ وكلّما كان رأي
العاقل أصوب كان في آقتنآء مكارم الأخلاق أرغب * قال
العفريت : فهل هو نوعٌ متّحد او طريقة متعدّد * قال الشيخ :
العقل نوعان وحكمهُ واحدٌ لا يختلف فيه آثنان أحدهما العقل

الغريزيّ اللطيف وهو مناط التكليف يحدثهُ الرحمن ويتدرّج الى بلوغ الانسان فيكمل امّا بالسن او الاحتلام ويجري عليهِ اذ ذاك قلم الاحكام ويدخل في حيز المخاطبين من ذوي الاحلام ويترتب عليهِ الحساب والعقاب من الحلال والحرام والثاني يحصل بالاكتساب والتجربة في كلّ باب ولهذا يُقال : إنّ الشيوخ أكمل عقل من الشباب . وقيل : مَنْ بيّضت الحوادث سواد لمتهِ وأخلقت التجارب لباس جدّتهِ وأرضعهُ الدهر من وقائع الايّام أخلاف ذريّتهِ كان جديرًا برزانة العقل ورجاحتهِ فهو في قومهِ بمنزلة النبيّ في أُمّتهِ . قال بعض الحكمآء كفى بالتجارب تأدّبا وبتقلّب الأيّام عظة . وقالوا التجربة مرآة العقل وقال :

* شعر *

ألم ترَ أنّ العقل زينٌ لاهلهِ * ولكن تمام العقل طول التجارب

قال العفريت : ما فائدة العقل * قال العالِم : فائدتهُ الارشاد في بيدآء الجهالة الى جادّة الرشاد والاعانة في الشدائد والوقوع في مصايد المكائد وحصول الخلاص من شرك الاقتناص واجابة الاغاثة عند الاستعانة والاستغاثة ومدّ المعونة اذا انكسرت من الجبل السفينة في بحر الملامة والخلاص الى برّ السلامة والاغنآء من كنز السعادة والصبر عند استيلآء نوائب الفقر * قال : فمَن العاقل في العالَم ومَن يطلَق عليهِ هذا الاسمَ من بني آدم * قال العالِم : العاقل مَنْ يحتمل اذا أُضيم

ومَن هو في الغضب حليم فاذا أُعطي شكر واذا مُنع صبر ويعفو اذا قدر ويستهين بأُمور الدنيا ولا يغفل عن أُمور الأُخرى * قال العفريت : ما الفائدة في حبّ الدنيا والرغبة الى ما فيها من الاشيا ولأيّ معنًى غلب الحرص والهوى والرغبة فيها على أهلها وبنيها * قال العالِم : لاجل قيام العالم وانتظامهِ على المنهج الأقوم وبقآئهِ المطلوب الى الاجل المضروب الذي قدّرهُ موجدهُ القديم الذي أنشأهُ أوّل مرّة وهو بكل خلقٍ عليم ولا بدّ من أنْ تتمّ كلمتهُ وتنفذ مشيئتهُ ولولا الحرص والأمل لبطل العلم والعمل فانّهما لحجاب الغفلة يغشيان أعين البصائر ويغطّيان طرق الاستدلال والضمائر فلذلك ذهلت العقول عن التأمّل في العواقب واشتغلت بالتهآئها عمّا يجب عليها أنْ تراقب ولولا طول الأمل لَما رجّي العمل ولمَا انتظم أمر المعاش ولا اهتمّ لادّخار قوت ورياش ولا افتكر صاحب اليوم في أحوال غد ولا ارتفعت المعاملات وما داين أحدًا احد ولا زرع زارع ولا غرس غارس ولا بنى بانٍ ولا اخضرّ يابس . ولانقرض اذ ذاك نظم العالِم وبانقراضهِ تنقرض أُمور بني آدم * قال العفريت : أخبرني عن أصل الانسان ومِمّ جوهره وجوهر المَلك والجان * قال الشيخ : أمّا جوهر المَلَك فمن العقل المحض براهُ ربّ السموات والارض ولذلك لا يصدر من الملائكة الاّ الشيم المباركة من الطاعة لمولاهم والانقياد لأوامر مَن أنشاهم

وآمتثال ما أُمر من أَمر مروم وما منّا الاّ له مقام معلوم لا يعصون الله
ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأمّا جوهر الجان واصلك يا أخسّ
شيطان فمن الاخلاق الذميمة والصفات المشؤمة فلهذا
لا يوجد منكم الاّ المكر والبيلسة والشيطنة والوسوسة وأنحس
بصفاتكم من صفة ولم يكن بينكم وبين الحق معرفة فانتم يا
أنحس بغيض وأنجس نهيض مع الملائكة في طرفي نقيض ،
وأمّا جوهر الانسان فما آشتملت عليه صفتا المَلَك والجان فمن
غلب عقله شهوته أُلبس من مكارم الشيم خلعته واضمحلّت
ظلمات نفسه في أنوار الطاعة وتجلّت صفات ذاته من سنن
الأبرار في جماعة وخطّ رسم آسمها قلم الكرام الكاتبين (كلّا انّ
كتاب الأبرار لفي عليين ، وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم
يشهده المقرّبون فهو وان كان بجسمانه مع الانس له حضور
وانس لكن يسرّه في عالم الملكوت حضرة القدس فهو بصفاته
المباركة أشرف من الملائكة ، ومَن غلبت شهوته عقله
وآستولت على قلبه حجب الغفلة فآنغمس في بحر الشهوات
واستحوذتم انتم عليه بذميم الصفات فهو بالنهار ساهٍ وبالليل
لاهٍ (استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله اولئك حزب
الشيطان الّا انّ حزب الشيطان هم الخاسرون . فهو أخسّ من
أرذل الحيوانات وادنى من ادنى الجمادات فقد خاب مآبا
وتعس انقلابا ويقول يوم القيامة يا ليتني كنت ترابا * (قال

الراوي) فلمّا انتهى الكلام الى هذا المقام أمسك العفريت عنانه
وأخرس الله لسانه وظهر فضل الزاهد وعلمه ووفور حكمه وحكمه
وفهمه وأنّه أصاب فيما أجاب ولزم العفريت ومَن معه
من الجنّ والعفاريت وطوائف المَرَدة والشياطين العتاة
المتمرّدين وذوي الابلاس والوسواس الخنّاس ما شرطوه على
أنفسهم من التخفّي وعدم الظهور والتغرّق في الخرائب والكفور
فتفرّقوا وآختفوا ومصلّين ومجدّعين آنتفوا وسكنوا الخرائب
والحمّامات والحانات والخانات فلم يظهروا بعد ذلك للانس
وحصل منهم بذلك للانس الانس وآستراحوا من مشاهدة
طلعتهم القبيحة وآستمرّت الى يوم القيامة من تلك القبائح مستريحة
* وهذا آخر الباب والله أعلم بالصواب *

* الباب الخامس *

في نوادر ملك السباع ونديمه أمير الثعالب وكبير الضباع

قال الشيخ ابو المحاسن المرتوي من بحار الحكمة بماء غير آسن : فلمَّا انهى الحكيم هذا الباب العظيم عن عالم الانس والشيطان الرجيم تنبَّه الملك لغزارة حكمه فافرغ عليه خلع احسانه وكرمه وغمَّسهُ في غدير فضله ونعمه . ثمَّ امر أن يقوّي الطباع ويذكر نوادر الوحوش والسباع لتنبسط النفس وترتاض وتتحلَّى بعقود عقيد هذا الاحماض فقبَّل ارض العبوديَّة شفاهُ الأدب وانتهض لاداء ما عليه من المراسم ووجب وقال : كان في بعض الغياض اسد رباض عظم الصورة كريم السريرة والسيرة وافي الحشمة عالي الهمَّة كثير الاسماء والالقاب عزيز الاصحاب كبير بين الامراء والحجّاب والوزراء والنوّاب يُدعى في جوانب مملكته واطراف ولايته بحيدرة وبيهس وضيغم والدوكس والغضنب والضرغام والعنبس والطيثار والهندس والغضنفر والهرماس والغضبان وابي العبَّاس الى سائر الاسماء والالقاب والكُنى وكثرة الاسماء تدلُّ على شرف المسمَّى وهو مطاع في ممالكه وولاياته واقاليمه مترشّف

ثغور الامتثال بشفاه امثلته ومراسيمه * وكان له من خواصّ الندماء وكبراء الجلساء نديمان كندماني جذيمة يلازمان حضرته ويلجان حريمه احدهما ثعلب يُدعى أبا نوفل والآخر ضبع يُسمَّى أخا نهشل طبعهما ظريف وشكلهما لطيف ومحاضرتهما مرغوبة وصحبتهما مطلوبة * وكان في خدمته دبٌّ هو وزيرهُ ومعتمدهُ ومشيرهُ كافل أُمور مملكته ومدبّر مصالح رعيّته والملك مفوّض أُمور الرعيّة اليه ومعتمد لِما يعلم من كفايته عليه ومشغول ليلاً ونهارًا بمعاشرة نديميه * فاتسع خيال الوزير وأخذ في مجال التفكير الى النديمين لكونهما ناصحين قديمين ربّما يصدر منهما عند الملك ما يحطّ منزلته ويفسدان للحسد الذي لم يخلُ منهُ جسد صولته واستحوذ عليه هذا الخيال واتّسع في ميدانه المجال فكان خائفًا على وظيفته ومنصبه مترقّبًا منهما ما يكون عزله بسببه فنشأ من ذلك في خاطره جساوة أُورثتهُ قساوة وجذبته الى عداوة ووقر في قلبه ذلك وتأكّد وطال عليه من الدهر الأمد . فكان يترقّب لهما الفرص ليوقعهما من الغصص في قفص ويسابقهما قبل انتيابه ويتغدّى بهما قبل أنْ يتعشّيا به . ويقول لابُدَّ من تنظيف الطريق قبل حصول التعويق وقد أحسن مَن قال وأتقن في المقال : * شعر *

ومَن لم يزُح من دربه الشوك قبل أنْ * يطأهُ فلا يعتب اذا شاك رجليه

وأقلّ الأقسام أنْ يبعدها عن حضرة الملك الهمّام * فاتّفق أنّ في بعض الأسحار تجاذب الملك ونديماهُ أطراف الاسمار فأثّر فيهم السهر لطيب السمر في ضوء القمر وحلاوة ما جنوا منهُ من ثمر عاملين بما قيل : * شعر *

متى ما أصادف مَنْ أحبّ بخلوة * أصرّح بما ارجوهُ من متكتّمِ
يقول فأصغي أو أبثّ فينثني * ليسمعَ قولي كالمشوق المتيّمِ
اسامرهُ لا أن امل حديثهُ * وآمرهُ كلّ الامور سوى نَمْ

فاخذت الملك عيناهُ فاستند الى متكاهُ فانحلّ من طرفهِ وكاهُ فلم يتمالك ابو نوفل أن ضحك لمّا غنّت زمّارة الملك فتنبّه من ضحكهِ وتعجّب من جرآءتهِ وفتكهِ . ثمّ استمرّ متناوما لينظر ما يصدر منهما فابتدرهُ اخو نهشل وزجرهُ فقال : ويلك ماذا رأيت وايّ عجبٍ سمعتَ ووعيت حتّى ترتباك في الضحك أما قراتَ وفهمت وسمعتَ وعلمت أنّ الضحك بلا سبب من قلّة الادب وأنّ الحشم وسائر الخدم ومَن نادم الملوك وجالسهم يحترم امورهم ويعظّم مجالسهم سوآء غابوا او حضروا ناموا او سهروا قاموا او قعدوا استيقظوا او رقدوا وقد قيل : رُفع قلم الحساب والضبط والعتاب عن الصبيّ والمجنون والعاشق والمفتون وكذلك السكران والنائم ولاسيّما السهران وعذر النائم يا مسكين اعظم من عذر الباقين فانّ النوم اخو الموت وفيهِ ما ليس في غيرهِ من الفوت وانّما اعتبر الشرع

احوال النيّام وساواهم باليقظى صونًا لبعض الاحكام في نحو من خمسٍ وعشرين مسئلة ضبطها من الحكمآء الكملة . وقد يجب على مَن يجالس الملوك وكان لهُ في خدمتهم سلوك واختصّ بمحاضرتهم واستعدّ لمناظرتهم أنْ لا يبصر منهم الّا المحاسن ولا يخبر عنهم الّا بالأحاسن وقد قيل : مَنْ جالس الملوك بغير أدب حبسهُ فانّهُ خاطر بروحهِ وعرّض للبلآء نفسهُ . وعلى الخصوص اذا صدر من الملوك شيءٌ يُعاب فلا يُحمل ذلك منهم الّا على الفضل والصواب وكلّ ما كان في غير الملوك معتبة فانّهُ اذا صدر من الملوك يُعدُّ منقبة * فقال المغفّل أبو نوفل اذا طهر القلب من الخيانة وعاملت اليد بالأمانة وتنقّى العرض من العيوب وكان اللسان غير كذوب وزكت النفسُ بالحلم وعريت عن الجهل بلباس العلم يصلح لها أنْ تسخر بكلّ أحد وتفخر على اكبر مَنْ يكون ولو انّهُ الأسد وانا اذا طار بهذه الصفات طيري فلا عليّ اذا ضحكتُ على غيري * فقال أخو نهشل : لا تقُل ذلك لا واستعِذ باللهِ من الجهل والخيلا . واعلم ياذا الكرامات أنّ الجاهل يُعرف بثلاث علامات احداها يا محبوب أنْ يرى نفسهُ عاريةً عن العيوب الثانية يا رفيق الخير أنْ يرى نفسهُ أعلم من الغير الثالثة أنْ يرى أنّهُ انتهى في فنون العلم والنُهى وبلغ أعلى المراتب وهذا اكبر المعايب .

وقالت الحكماء : اذا رأيتَ نفسك عاريةً عن العيوب وتصدّيتَ
لتتبّع عثرات الناس بالغيوب وفتّشتَ عن عيوبهم الجيوب
فأنتَ حينئذٍ غارق في بحر العيوب وبالذي انت طالبهُ
مطلوب . وقد قيل : ليكن جلّ مطلوبك حرصك على تفقّد
عيوبك وقُم بذلك على نفسك وذاتك مقام حسّادك ورُقبائك
وعداتك . وقال ذو هدى وما قال سدى :

* شعر *

لكلّ فتى خرجٌ من العيب ممتلي * على كتفهِ منهُ ومن أهل دهرهِ
فعين عيوب الناس نصب عيونهِ * وعين عيوب النفس من خلف ظهرهِ

فقال أبو نوفل صدقتَ ونصحتَ اذ نطقتَ فجزاك الله عنّي
خيرا ووقاك شرّا وضيرا . ولكن يا اخي وقعت هفوة على
سبيل السهوة وحصلت زلّة على غفلة واللفظ من غير
نظر كالسهم اذا رُمي عن الوتر لا يمكن ردّهُ ولا وقوفهُ
وصدّهُ كما قيل :

* شعر *

القول كاللبن المحلوب ليس لهُ * ردّ وكيف يردّ الحالب اللّبنا

ولكن الذنب والاجتراء اذا لم يشتهرا لا يتوجّه عليهما العتاب
ولا يستحقّ مرتكبهما العقاب اذا آستغفر وأناب وانا وإنْ وقع
منّي الخطأ آمِنٌ بحمد الله من شرّ الجزا ومن المواخذة بالجريمة
وإنْ كانت عاقبتها وخيمة لانّها بينك وبيني وانتَ بمنزلة
روحي وعيني ورفيقي وصاحبي ومراعي حقّي وجانبي فسرّي

عندك مصون وأمري عن الاشاعة مخزون وقد قال الحكماء
ذووا التجارب لا تُودع السرّ الّا عند صاحب صدوق صديق
ومحبٍّ شفيق وأنت هو ذاك الموثوق فآطرحهُ من سويداء قلبك
في أسفل الصندوق فانْ آستمرّ عندك ساكنا صرتُ من وبال
أمرهِ آمنا ولا يبعد ذلك من شفقتك وسابق صداقتك ووفائك
بالمروّة وقيامك بحقوق الأُخوّة وأسأل احسانك أنْ تجيب
لصاحبك القديم مرجوّة * قال أخو نهشل : أعجب لأبي نوفل
كيف يغفل أمَا سمعتَ يا عاقل قول القائل من علامات
الجاهل أنْ يعرض مالهُ باللطف ثمّ يتقاضاهُ بالفظاظة والعنف
وأن يودع سرّهُ وخفاياهُ وأمرهُ عند من يحتاج أنْ يتضرّع اليهِ
ويقسم في اخفائهِ وآكتتامهِ عليهِ ثمّ يحلّفهُ أن لا يبديه ولا
يذكرهُ لأحد ولا ينهيه وقد قالت الحكماء لا تُودع أحدًا سرًّا
فانْ فعلتَ فاتك السرّ لأنّ كتمانهُ قيد همٍّ وعناء وابداءهُ كيد
هلاك وبلاء * وقد قيل * شعر *

وكلّ سرّ جاوز الاثنين شاع * وكلّ علم ليس في القرطاس ضاع

لم يقصد بالاثنين الّا الشفتين . وقال الشاعر

اذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسهِ * فصدر الذي يستودع السرّ أضيقُ

* وقال ايضا *

لا تودعنّ ولا الجماد سريرة * فمن الحجارة ما يسرّ وينطق
واذا المحكّ أضاع سرّ أخٍ لهُ * وهو الجماد فمن بهِ يستوثق

* وقال أيضًا *

صُن السرّ عن كلّ مستخبرٍ * وحاذر فما الحزم الّا الحذر
أسيرك سرّك ان صنتهُ * وأنتَ أسيرٌ لهُ إنْ ظهر

وكلّما تحرّك بهِ اللسان انتشر في الكون والمكان * (وناهيك يا تامر قضيّة الحرامي مع الطامر) * قال أبو نوفل كيف تلك يا أخا نهشل *

قال : بلغني أنّ رجلاً من الحرامية واللصوص الكرارية كانت نفسهُ ذات الخيانة تحرّضهُ على الدخول من حواصل الملك الى الخزانة وكان جاهدًا في أن يعطيها من مناها ما يرضيها ولكن كانت نجوم الحرّاس بالرصد ولرجوم ذلك الشيطان كلّ بعد وكتم ذلك السرّ عن الاخوان ومضى عليهِ برهةٌ من الزمان وهو يكابد اكتتامهُ ويخاف من السوء ختامهُ الى أنْ طمح عليهِ ما قصد وغلا خمرُ سرّهِ في قلبهِ وقذف بالزبد فطلب صاحبًا يتلفّظ بهِ اليهِ ويعتمد في اكتتام سرّهِ عليهِ وآختلى في حجرتهِ فقرصهُ برغوثٌ في حنجرتهِ فمدّ يدهُ اليهِ وأفشى سرّهُ معتمدا عليهِ وقال في خاطرهِ عند افشاء سرائرهِ لا لهذا لسان يقدر على البيان وعلى تقدير أنْ لو كان فهو مثل ولدي تربّى من دم كبدي ولحم جسدي وآطّلع على عورتي فلا يقصد عثرتي ولا يكشف سرّي ولا يهتك ستري ثمّ أدنى فاهُ حتّى وافاهُ وقال يا أبا طامر وكاتم السرّ في السرائر انّي

عزمتُ كالمنهمك على الدخول الى خزائن الملك لأستصفيها وآخذ ما فيها فآكتم هذا السر عنّي وآمصص ما شئتَ من الدم منّي ثمّ طرحهُ في سراويلهِ وآستمرّ في نيّتهِ على أباطيلهِ. ثمّ قصد في بعض الليالي ما كان يخلو بهِ على التوالي وبرصدهُ في المكامن من الدخول الى الخزائن فلاحت لهُ فرصةٌ فآنتهزها وآستعمل دقائق صنعهِ وأبرزها وآنتقل من ذلك الى المبيت ولطئ تحت سرير الملك كالعفريت والملك نائمٌ فوق السرير على فراش الحرير وخرزة التاج عند رأسهِ تقد كأنّها سراجٌ متّقد. فقصد اللصّ أخذها وآقتطاعها وفلذها فامهل القوم الى أنْ آستغرقوا في النوم وبينما هو متفكّرٌ فيما بهِ اذ خرج البرغوث من ثيابهِ ودخل الى جسد السلطان وقصّ عليهِ بلسان القرص كلّ ما كان من شان اللصّ. فنهض الملك من مرقدهِ فرأى نقطةً على جسدهِ فطلب النور لينظر الأمور فرأى برغوثًا طار ونزل تحت السرير فقصّوا اثرهُ في المسير فوجدوا الحرامي الكسير فربطوهُ كالأسير ووقع في الأمر العسير بالأمر اليسير فصار كما قيل : * شعر *

مشى برجليهِ عمدًا نحو مصرعهِ * ليقضي الله امرًا كان مفعولا

وانّما اوردتُ هذا المثل لتعلم يا ابا نوفل انّ سرًّا في الفواد لا يُومن عليهِ الجماد فضلاً عن متحرّكٍ من حيوان ونعوذ بالله إنْ كان من جنس الانسان وقد قيل : للحيطان آذان

ومن امثال العجم الاوباش للدبوان اكواش * فلمّا انقضى هذا
الكلام وكان الاسد قد استوفاهُ على التمام وقد اثار في احشآئهِ
لهبا نهض من مرقدهِ ممتلئًا غضبا واستحال وتحرّك وامر بابي
نوفل فقبضوا عليهِ ووضعوا الغلّ في رقبتهِ والسلاسل في يديهِ
ورجليهِ وامر الى السجن برفعهِ بعد التنكيل بهِ وصفعهِ
فتشوّش خاطر صديقهِ وجليسهِ ورفيقهِ . ثمّ انفض المجلس
النظيم ودخل الملك الى الحريم * فتوجّه اخو نهشل الى
السجن المقفل ولام صاحبهُ ابا نوفل وزاد في التعنيف وقال
أيُّها الاخ الظريف ألم تعلم أنّ الشخص اذا تكلّم يضبط
كلامهُ عليهِ ويعود محصول ما يلفظ اليهِ وأنّ كثرة الكلام
تضرّ بالنفس اكثر ممّا يضرّ بالبدن الطعام وكلّ هذا المصاب
انمّا جآء من قبل الاعجاب وكثرة الكلام والغرور وعدم
التأمّل في عواقب الامور قال الشاعر

ما ان ندمتُ على سكوتي مرّةً * ولقد ندمتُ على الكلام مرارا

قال حكمآء الهند وفضلآء السند ما دام الكلام في الفؤاد ولم
يبدُ منهُ على اللسان باد ولم يصب منهُ سائل حرف في
صدفة الاذن او وعآء الطرف فهو كالبنت البكر المشهورة
الذكر كلّ أحدٍ يخطبها ويميل اليها ويطلبها ويتمنّى أنْ
يراها ويترشّف لماها فإنْ أُلقي الى المسامع ووعاهُ كلّ ناظر
وسامع فهو كالعجوز الشوهآء اذا سلوها وقلوها وهي تلازم

صباحًا ومسآء ويفرّ منها الرجال والنسآء ويحيد كلّ احدٍ
عنها فاذا تكلّمت أُسكتت واذا سلّمت أُعرض عنها . وقال
بعض الحكمآء : اللسان أسد وهو حارس الرأس والجسد إنْ
حبستهُ حرسك وإنْ أطلقتهُ حبسك وإنْ سلّطتهُ افترسك .
وقالوا : الكلام أسيرك ما لم تبحْ بهِ فان تكلّمت بهِ فانت
أسيرهُ . قال بعض الحكمآء : انا على ما لم اقل اقدر منّي على
ما قلتُ . وقد قيل : العافية عشرة اجزآء تسعةٌ منها في
الصمت الّا عن ذكر الله وواحد منها في ترك مجالسة
السفهآء . وقيل : الصمت حكمة والبلآء موكل بالكلمة .
وقال الحكمآء : السكوت يستر عيب الجهل ويعظّم حرمة الملوك .
ولقد آذيتَ نفسك وتسبّبتَ فيما اوجب حبسك واقلقتَ
ودودك واشمتّ حسودك ولقد كانت حصّتي من بلائك
وممّا دهاني من شدّة عنآئك اعظم من كلّ حصّة وقصّتي
في ذلك اعجب من كلّ قصّة اذ انتَ رفيقي وزميلي وفي
حضرة الملك ومنادمتهِ عديلي نشأنا على ذلك وسلكنا في
الموافقة والمرافقة اقوم المسالك وكنتَ المرجوّ لمخافي وايابي في
مطافي ومشتكى حزني ومشتفى شجني ومخزن اسراري
واعظم استاري وراوية اخباري في أحباري وراوية أسفاري
في أسفاري ومن اين القى مثلك رفيقا او اجد صديقًا
شفيقا وانتَ صاحب السرّآء ومصاحب الضرّآء وانشد

* شعر *

ومن اين اللقي بعد سبعين حجّة * رفيقًا كمن ارضعته قوّة الصبا
اديبًا اريبًا لم امل مقامه * ولا ملّني يومًا حكيمًا مهذّبا

ويعزّ عليّ ويعظم لديّ أن اراك في هذه الحالة ثمّ أجرى سحائب دموعه الهطّالة وقال : * شعر *

وما على الحرّ انكى أن يرى حزنا * في محنة ضاق عنها دونه الحيل

ولقد تحيّرتُ في هذا الامر المهول وما أدري قصاراهُ الى ماذا يأول وليلة الغمّ الصراح تمّاذا يسفر فيها الصباح * فانكى لذلك ابو نوفل وبكى وتضرّع الى الله وشكا وقال يا اعزّ الاصحاب واحبّ الاحباب لقد اثر عندي ما قلتَ من الكلام اكثر ممّا اصابني من الآلام وكلّنا في هذا سويّة والعبد مقهور مع المنيّة . ولكن الجدّ اذا اقبل ولاحظ بسعده وتفضّل فكلّ حركة تصدر من الغبيّ العاجز يعجز عن مقاومتها البطل المبارز وكلّ قول يتفوّه به الجاهل يدع دليل معانيه ادلّة العقلآء في مجاهل ومذاهل ودعاميص ذوي الآرآء المنصبّة المناهل تلقي من عقنقل الحيرة في مجاهلها مناهل فيصير كلّ وجه اليها مائل كما قيل * شعر *

واذا السعادة لاحظتك عيونها * نَم فالمخاوف كلّهنّ إمانُ
واصطد بها العنقآء فهي حبائل * واقتد بها الجوزآء فهي عنانُ

ونعوذ بالله من ليل السعد اذا أدبر وصبح الخمول اذا أسفر

فانّ اللبيب اذ ذاك يخطئ ما كان يصيب ويفعل العاقل ما لا يرتضيه باقل فيكون جهد النفس زيادة في العكس * شعر *

واذا تولّى الجدّ يحتاج الذكي * في رأيه قبل الزوال مراحا

وانقلاب الدهر وانعكاس الزمان شيمة معهودة وخصلة معدودة كما قيل : * شعر *

ومن ذا الذي ما غرّه صرف دهره * فاضحكه يومًا ولم يبكه سنة

وانا كنتُ غافلا وإن لم اكن جاهلا وقد يكون الشخص عمّا تحقّقه ذاهلا وذلك لمّا كان عوّدني الزمان وألفته من سالف الدوران وارخآء العنان ونيل الاماني والامان واسبال ذيل النعم والاحسان الدائم والكرم فمشيتُ على ما كنتُ اعهده في نفسي اجلهُ وايضا كانت لذّة عشرتك ونعيم صحبتك وحسن موافقتك وعزّ مرافقتك أنساني كلّ بليّة وامنتُ بذلك كلّ رزيّة فألهاني عن التنكّد ودهتني غفلة عن التوزّع والتبدّد مثل ما اصاب ذلك الهدهد * قال اخو نهشل اسرد ذلك المثل *

قال : ذكروا انّ الله مجري الخير علّم بعض عبيده الصلحآء منطق الطير فصاحب منها هدهدا وازداد ما بينهما تودّدا * ففي بعض الايّام مرّ بالهدهد ذلك الامام وهو في مكان عال ملتفت الى ناحية الشمال وهو مشغول بالتسبيح يسبّح

الله بلسانهِ الفصيح فناداهُ يا صاحب التاج والقبآء والديباج لا تقعد في هذا المكان فانّهُ طريق كلّ فتّان ومطروق كلّ صائد شيطان ومقعد ارباب البنادق ومرصد اصحاب الجلاهق. فقال الهدهد: إنّي عرفتُ ذلك وأنّهُ مسلك المهالك قال فلايّ شيءٍ عزمتَ على القعودِ فيهِ مع علمك بما فيه من دواهيهِ. قال أرى صبيّا وأظنّهُ غويّا نصب لي فخّا يروم لي فيهِ زخّا وقد وقفتُ على مكائدهِ ومناصب مصائده وعرفتُ مكيدتهُ أين هي والى ماذا تنتهي وانا اتفرّج عليه واتقدّم للضحك اليهِ واتعجّب من تضييع أوقاته وتعطيل ساعاتهِ فيما لا يعود عليهِ منهُ نفع ولا يفيدهُ في قفاهُ سوى الصفع وأسخر من حركتهِ وأُنبّه مَن يمرّ على خزعبلاتهِ فتركهُ الرجل وذهب وقضى حاجاتهِ وانقلب فرأى الهدهد في يد الصبيّ يلعب بهِ لعب الخليّ بالشجيّ ولسان حالهِ يلهج بمقالهِ * * شعر *

كعصفورةٍ في يد طفلٍ يهينهـا * تقاسي حياض الموت والطفل يلعب
فلا الطفل ذو عقلٍ يرقّ لحالهـا * ولا الطير مطلوق الجناح فيهـرب

فناداهُ وقال : يا ابا عباد كيف وقعتَ في شرك الصيّاد وقلت لي أنّك وعيت ورأيت ما رايت. فقال: أما سمعت أنّ الهدهد اذا نقر الارض يعرف مسافة ما بينهُ وبين المآء ولا يبصر شعرة الفخّ ولا ما ورآء وذاهيك قضيّة آدم ابي البشر

كيف خُذل لمّا غوي واغترّ وبطر وكذلك غيره ممّن اشتهر امرهم وانتشر وأنا لمّا اغتررتُ بحدّة بصري ذهلتُ عمّا يجول في فكري فلغطّت حدّة استبصاري فوقعتُ في فخّ اغتراري * ثمّ قال أبو نوفل وقد أثّر فيهِ كلام أخي نهشل * شعر *

دع عنك لومي فإنّ اللوم اغرآء * وداوني بالتي كانت هي الدآء

وانّما اوردتُ هذه الحكاية لتحقّق عنّي ما في تقريعك وتوبيخك من نكاية واعلم انّهُ وان كانت الاحكام في هذا الباب تُضاف نوعًا الى العلل والاسباب فقد مرّ أنّ الذهول شغلني عن النضل بالفضول وأنّ العذر غير مقبول فانّ الجهل لا يكون حجّة ولا مخلص لسالك الاسوآء المحجّة وقد طال الكلام والحق بيدك والسلام * وأمّا الآن فجلّ المقصود من لطفك المعهود وبذل المجهود وتذكّر سابق العهود وقديم الصداقة واكيد المحبة والعلاقة عطف الخواطر الملكيّة ورجوعها على ما كانت عليهِ من الصدقات السنيّة والعواطف الملوكيّة واقلّ الاقسام الخلاص من هذه البليّة وعلمك قد أحاط بأوثق مناط أنّي شخصٌ وحيد بين ملازمي الخدمة فريد لم يكن لي أخٌ سواك وانتَ مشتكاي وانا مشتكاك وهذا أوان الفتوّة وزمان المروّة وعدم التخلّي عن الاخوان والانبعاث بالهمّة الثابتة الاركان والسعي في خلاص الصاحب القديم من هذا البلآء العظيم واسألك بسالف الخدمة والمودّة ذات القدمة أنْ لا تذكر ما

سلف من التقصير الموجب للتلف فانّي معترف أنّي للذنب مقترف وأنشد * شعـــر *

جاوزتُ في اللوم حدًّا قد أضرَّ بهِ * من حيث قدّرتُ أنّ اللوم ينفعهُ

وانّي اذا تفكّرتُ وتصورتُ ما وقع اذا تذكّرتُ وإن كان قد مضى يضيق بي الفضا وأغرق في عرق الحيا وتسودُّ في عيني الدنيا فكانّه في هذا القبيل عنّي قيل * شعر *

كأنّ فؤادي في مخاليب طائر * اذا ما ذكرتُ الحبّ يشتدّ بي قبضا

وهذا القدر من الاعلان يكفي وانّي استحلي اذا مرَّ بخاطري غصص حتفي . ثمّ علا زفيرهُ وشهيقهُ وبدا من لهيب قلبهِ بريقهُ ومن وادي دمعهِ عقيقهُ حتّى خيف عليهِ غريقهُ وحريقهُ ورقّ لهُ عدوّهُ وصديقهُ وبكى لبكائهِ رفيقهُ * قال اخو نهشل اعلم ايُّها الاخ المفضّل أنّي لم أقل ذاك الكلام للعدوان والملام فضلاً عن ايحاش قلبٍ وايلام ولكن لمّا تألّم جناني اجرى الله ذلك على لساني ولم يكن لذلك الحديث باعث ولا قصد عابث او عائث ولكن صفو المحبّة ووفور الصدق اوجبا التلفّظ بذلك النطق وكيف لا ادرك دقائق المعاني وانا لها من ثمار فضائلك جاني وأمّا بذل الاجتهاد من اهل الوداد فهل يخطر ببالك غير ذلك وبأبي الله والاخلاق الكريمة وما علمتهُ من همّةٍ وشيمة وفواضل فضائل من موانح خصائلك اقتبستها ومطارق معارف على

منوال سجاياك نسجتها أن اتخلّف عن التعلّق باهدابها واغلق ابواب مقاصدها في وجوه طلّابها وأنا ان لم ابذل مجهودي واصرف موجودي في مساعدة خلّي وصديقي وصاحبي ورفيقي بما تقتضيهِ المروّة والفتوّة والصداقة القديمة والاخوّة والّا فاي فائدة في وجودي لوالدي ومولودي وطارفي وتليدي وصديقي وودودي . وقد قيل أربعة اشياء فرض عين في شريعة المروّة على المحبين وكذلك الاخوان وسائر الاصحاب والخلّان الاوّل المشاركة في النوائب وتعاطي دفعها من كلّ جانب الثاني اذا ضلّ أحدهم عن طريق السداد يردّونهُ الى سبيل الرشاد ولا يتركونهُ على غير الصواب بل يستعطفونهُ بألطف خطاب الثالث اذا صدر من أحدهم نوع جفا يلاقونهُ بالوفاء والصفا ولا يتركونهُ على شفا ولا ينسون الوفاء القديم بالجفاء الحادث فربّما يتفرّع على ذلك ما يؤكّدهُ من العوائث الرابع لا يؤاخذون المقصّر في حال الغضب بل يرجئون عقوبتهُ الى أن يطفأ اللهب فربّما يتعدّى بواسطة الغضب الحدّ فيقع بسبب ذلك بين الاصحاب نكد * ثمّ أنّ أبا نوفل قال لأخي نهشل المبادرة أولى الى التلافي لئلّا يسابق الجنود الى تلافي وهذا المصاب انّما جاء بغتة وأخذ قلوبنا واسماعنا بهتة فاستعمل فكرك القويم وتوجّه الى التدارك بقلبٍ سليم * فقال ها أنا أذهب على الفور لهذا المطلب النافع أقوّي العزيمة واجتهد في دفع الموانع فأوّل

ما ابتدي بقصد الملك وانظر ما يصدر منهُ قولاً وفعلاً في هذا الامر المشتبك فأبني على ذلك ما يناسبهُ وأجاريه فيما يميل اليهِ خاطرهُ ولا اجاذبه . ثمّ توجّه الى الاسد ودخل عليهِ فوجد الدبّ جالسًا بين يديهِ وقد بلغهُ قضيّة النديم وأنّه حلّ بهِ العذاب الاليم فاغتنم الفرصة وبادر ليتمّ على أبي نوفل الغصّة ويتعاطى في أمرهِ قصّةً وحصّة فأراد أخو نهشل ان يفتتح الكلام ثمّ افكر في أنّه ربّما يعاكسهُ الدبّ في المرام وأنّهُ اذا أقام في المناقضة لا يمكنهُ مقابلتهُ بالمعارضة وإنْ سكت فالسكوت رضا وانْ وافق فعلى غير مرادهِ مضى فأمسك عن الكلام ورأى السكوت مقتضى المقام . ثمّ أمعن النظر وأجال قداح الفكر فرأى أنّهُ إنْ انفصل المجلس من غير أنْ يفحص بشيءٍ وينبس ربّما يفوت المقصود او يسابقهُ بالمعاكسة عدوٌّ او حسود لاسيّما مثل الوزير الرفيع الخطير صاحب الرأي والتدبير وهو عدوٌّ قديم وفي طريق الخزي نظيرهُ عديم فاذا بادر الملك بالكلام ربّما يقع منهُ فلتةٌ بمقام كما قيل : * شعر *

أتاني هواها قبل أنْ أعرف الهوى * فصادف قلبًا خاليًا فتمكّنا

فتلقّاهُ الملك بقبول فيصول كما يختار في ميدان الفتك ويجول فتنعقد الامور وتتقصّد وتنعقف الاخلاق الاسديّة وتتعرّد فرأى الاولى المبادرة بالكلام والوقوف في مقام الشفاعة أنسب بالمقام فانْ عارض أحدٌ عرف أنّ جوهر كلامهِ عرض ولا تصدّى الّا

لغرض وكان الملك قد سمع كلامهُ بعد معرفة سلامتهِ والقائهِ على أبي نوفل عدلهُ وملامهُ وكلامهُ بلا شكّ مقبول وما لاحدٍ عنهُ عدول وكان الدبُّ منتظرًا خروجهُ من عند الملك حتّى يختلي بالكلام معهُ وينهمك . فأدرك اخو نهشل هذا المرام فوقف في مقام الدعآء وبادر بالكلام ثمّ قال بعد وظائف الدعآء والقيام بما يجب من مراسيم الثنآء العلوم الشريفة والآرآء المنيفة محيطة أنّ من عادة الملوك العظام واخلاق السلاطين الكرام العفو عن الجرائم والاغضآء عن العظائم لاسيّما اذا صدر ذلك من أحد المخلصين والعبيد المتخلّصين على سبيل السهو والخطأ لا على سبيل العمد والاجترآء

* شعر *

مَن ذا الذي ما سآء قطّ * ومَن لهُ الحسنى فقط

وانّ العبد الاقلّ ابا نوفل الواقع في الخطر الخطير المعترف بالذنب والتقصير متوقّع غفرها من صدقات الحضرة الملوكيّة ومراحمها وما اعتادهُ من حلمها الشامل ومكارمها ومحتم على الملوك القيام بقبول الشفاعة دون سائر الخدم والجماعة خصوصًا وقد كان رفيقًا نديما ومصاحبًا قديما ولم يقصد المملوك بذلك الّا سوق الحسنات الكثيفة الى دفاتر الصدقات الشريفة وقصد الخير وذهاب الاسى والضير وانتشار صيتها في الآفاق والاطراف بالعلم والحلم والعفو والصفح والفضل

والعدل والالطاف فلان الاسد من هذا الخطاب وعرف أنّ قصد الشافع من هذا انّما هو الثواب والصواب فأطرق مليّا ولم يجرِ من الاجوبة شيئا . فتأثّر الدبُّ الخبيث والعدوُّ القديم لهذا الحديث وخاف أن يكون السكوت رضا وإن هو رضي يفوت منهُ المنى والاطراق علامة الحلم والسكوت في الحرب دليل السلم ومَن فوّت الفرصة وقع في غصّة ومتى يقع ابو نوفل المختال في مثل هذا العقال وما أظرف مقال مَن قال

* شعر *

وإن رأيتَ غراب البين في شرك * فاذبح وكُل وذر الافراخ في عنقي

وقد قيل

اذا صارت الاعداء نملاً فانهم * اذا لم تطأهم أصبحوا مثل ثعبان

وكم ذا يقاسي من اذاه وقرصهُ * على ضعفهِ إن صار داخل آذان

فانبرى وانبرم وتصدّى للمعاكسة ذلك البرم وغطّى دسائس لؤمهِ بنقوش الكرم وقال : اعلم أيّها النديم القديم ومَن هو للملك أوفى خديم أنّ الواجب على جميع الخدّام أن يكونوا في الصدق متساوي الاقدام ولا يقدّموا على نصح الملك غرضا ولا يطلبوا سوى رضاه على النصيحة عرضا ولا عوضا فلا يصادقوا الخائن ولا يصدّقوا المائن ولا يواطئوا الخاطئ ولا المذنب المتعاطي ولو بالكلام الواطئ ولا يخفوا الخيانة والجناية ولا يرعوا في ذلك أدنى الرعاية فمساعد السارق سارق

ومعاضد المارق مارق والقيام مع الجاني جناية واخفاء الخيانة نكاية وفي هذا الكلام كفاية ومَن اعتذر من جناية جانٍ لاسيّما اذا كان في حقّ ملكٍ أو سلطان فهو شريكٌ فيها بل أعظم حرصًا من متعاطيها لأنّ عظم الجناية ياذا الدراية انّما هو بحسب المجنيّ عليهِ وأنّ ذلك الوهن عائدُ اليهِ لا على مقدار الجاني وانتَ لا تجهل هذه المعاني ولهذا قال بعض اهل الافضال انّ تعاطي الفساد ياذا الرشاد ليس فيهِ صغيرة وانّ كلّ ما يخالف الامر كبيرة وذلك بالنظر الى الجنان الاقدس القاهر تعالى وتقدّس * فقال . اخو نهشل كلام مولانا الوزير هو المفضّل وما أشار بهِ هو الصواب المعدّل ولكن يا مولانا الوزير علمك الخطير خبير بانّنا كلّنا محلّ الخطأ والتقصير ولا يسع الكبير منّا والصغير الّا الحلم الغزير والعفو عن كثير وقل لي مَن هو البرئ عن الهفوة والذي لا يتوقّع من مولانا الملك عفوة وإن لم تقع الشفاعة في الجاني وذي الخلاعة وتخالف سنّة الجماعة فالمحسن لا يحتاج الى شفاعة ومَن لم يجبر المكسور ويأخذ بيد المحقور فما يجد عند انكسارهِ جابرا ولا يؤخذ بيدهِ حين يصير عاثرا وقد قيل من مثلك الفضيل وصاحب الادب الجزيل

* شعر *

اذا اصبحتَ فينا ذا اقتدار * وامرك في رقاب الخلق جاري

أقل واقبل عثارًا واعتذارا * فمن يقبل يقل عند العثار
فما زال الصغار تروم عفــوا * وغفران الكبائر من كبار

واحسن العفو يا ذا السلوك عفو السلاطين والملوك لاسيّما اذا عظم الجرم وكبر الاثم فإنّ العفو اذ ذاك صادر من ملك ذي سلطان قادر مع قوّة الباعث على المواخذة والقدرة الشاملة النافذة وغير الملوك من العاجز والصعلوك عفوهم انّما هو عجز خشية او لتمشية غرض مشية والملوك انّما يؤثر عنهم الخلال الحميدة والخصال الشريفة السعيدة والاكابر يعفون والاصاغر يهفون وقد قسم الحكمآء والحكّام ما يقع من الذنب والآثام اربعة اقسام فاسمع يا كبير هفوة وتقصير وخيانة ومكروه وحرّروا ذلك وضبطوه وذكروا لكلّ جزآء قرّروه فجزآء الهفوة العتاب وبه نطق الكتاب وجزآء التقصير الملامة على ما أورث من ندامة وجزآء الخيانة العقوبة فانّ في ارتكابها للعاقل صعوبة وأعظم بعقابها مثوبة وما يرتكب المكروه الّا الغافل المعتوه وجزآؤه ايضًا بمثله وهذا على مقتضى العقل وعدله والذي صدر من المخلص أبي نوفل انّما هو هفوةٌ بها زلّ وجزآؤهُ على هذا الحساب . انّما هو العتاب وقد استوفاهُ وزيادة وفي هذا لمولانا الملك الارادة فإنْ شآء عاقب على الذنب الصغير وإنْ شآء عفا عن الجرم الكبير والهفوة لا يكاد يسلم منها الخواصّ فضلاً عمّن هو في شرك العبوديّة

والاقتناص ولأن يؤثر الفضل عن الملك وعلى طريق عفوه يُسلك الدرب المستلك خيرٌ من أنْ يؤثر عنهُ لنفسه الانتقام ويخلّد ذلك على صفحات الايّام ولا شكّ أنّ سيرة العفو والفضل أفضل من القصاص والعدل وذلك هو اللائق بالحشمة والاوثق للحرمة والأجدر لناموس السلطنة والأبقى على ممرّ الدهور والأزمنة . ولقد كان جماعة من عظمآء الملوك والاكابر يبحثون عمّن تعاطى الذنوب والاجرام من الاصاغر لاسيما لمَن يتعرّض لذات الملك ونفسه ويستعين بطوائف على فساده من أبنآء جنسه فاذا قدروا عليهم عفوا وتلذّذوا بالعفو والاحسان وآستعفوا وحسبُك يا أبا جهينة ومَن فضلهُ اعذب مزينة واقعة آبن سليمان المخلّدة على ممرّ الزمان وما تضمّنت من مكارم الاخلاق التي تعطّرت بها الآفاق فتوجّه الاسد اليه ومال وقال أخبرنا يا أخا نهشل كيف كان هذا المثال *

قال : لمّا انتهت ايّام بني اميّة وتطرّزت خلع الايّام باعلام الدولة العبّاسيّة واشرق بطلعة أبي العبّاس السفّاح في دياجير الدهر أيمن صباح بأحسن فلاح اختفت نجوم افلاك بني اميّة وكواكب مَن بقي من تلك الزواهر المضيّة وكان منهم ابرهيم ابن سليمان بن عبد الملك بن مروان وجعل السفّاح يتطلّبهم ويرغب مَن يدري بهم ويرهبهم الى

أنْ ظهر ابن سليمان وكان من أمره ما كان فحكى انّهُ بالحيرة مختفيًا في همّ وحيرة . قال ففي بعض الايام ترآءت لي على سطح سوادٌ أعلام فوقع في نفسي وغلب على حدسي انّها قد جآءت لطلبي راغبة في عطبي فتنكّرتُ في الحال وآختفيتُ وخرجتُ من الحيرة والى الكوفة أتيتُ فدخلتها خائفًا اترقّب ولم يكن لي فيها مترصّد ولا مترقّب ولا صديق اركن اليهِ ولا صاحب أعوّل عليهِ فصرتُ في تلك البلاد مثل المنشد ببغداد * شعر *

بغداد دارٌ لأهل المال منعمة * وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللتُ حيران أمشي في أزقّتها * كأنّني مصحف في بيت زنديق

فأدّاني المسير الى باب كبير منظرهُ جايل وداخلهُ دهليز طويل ليس فيهِ أحد من الحجّاب والرصد فدخلتُ اليهِ وبهِ مكان فجلستُ عليهِ واذا برجلٍ جسيم جميل الشكل وسيم على فرس جواد مع طائفة من الاجناد فدخل الى دهليز الباب في خدمتهِ غلمانهُ والاصحاب الى أنْ نزل عن دابّتهِ وآنفرد عن جماعتهِ . فلمّا رآني في وجيف ووجل قال مَن الرجل فقلتُ خلاك الذمّ مختفٍ على دم وآستجرتُ بجوارك ونزلتُ في ديارك . فقال أجارك الله لا تخف من سواه ثمّ أدخلني حجرةً لطيفة تشتمل على اشيآء ظريفة قد جعلها مُضيفة ينزلها كلّ مَن قصدهُ جهلهُ او عرفهُ فمكثتُ عندهُ حولًا اصول

في نعمهِ صولًا ولا يسألني فعلًا ولا قولًا بل كان يركب من الاسحار وينزل اذا آنتصف النهار وذلك كلّ يوم لا تأخذهُ عن ذلك سِنةٌ ولا نوم فسألتهُ في بعض الأيّام ونحن في أهنأ مقام وقد صرتُ عَيبة سرّهِ ومرآة قلبهِ وصدرهِ عن ركوبهِ ونزوله وموجب تنقّلهِ وحلوله . فقال : إنّ ابرهيم بن سليمان بن عبد الملك بن مروان قتل ابي صبرا وأورثني بذلك نكدًا وضرّا وأوهج في فؤادي لهبًا وجمرا وقد دارت على بني أُميّة الدوائر وبلغني أنّهُ بالكوفة مختفٍ حائر فانا كلّ يومٍ أركب اليهِ وافتّش عليهِ لعلّ الله يوقعني بهِ لأشفي قلبي بقتلهِ من كربهِ فآخذ بثاري واكشف عنّي عاري وأطفئ لهبي وآخذ ثار أبي . قال ابن سليمان فعجبتُ من وقائع الزمان وسبّحتُ للرحمن على ما صار وما كان فآستحييتُ منهُ ومن الله وكرهتُ عند ذلك الحياه فسألتهُ عن اسم أبيه لاتحقّق ما يبديهِ وينهيه فأخبرني فعرفتهُ وتذكّرتُ أنّي أنا قتلتهُ فقلتُ : يا هذا وجب عليّ حقّك وأنا غريمك ومسترقّك وقد قرّب الله خُطاك وأنالك متمنّاك . فقال : وما ذاك . فقلتُ أنا ابرهيم الذي على طلبهِ تهيم وانا قاتل ابيك فافعل بي ما يرضيك وخُذ ثارك وأطفئ نارك . فقال : كانّهُ طال بك الجفاء واضرّ بك الاختفاء فاردتَ بالموت الخلاص وآستندتَ لدعوى القصاص . فقلتُ : لا والله الذي علم السرّ وأخفاه بل قلتُ الحقّ

وفُهتُ بالصدق وخلاص الذمّة في الاولى أَخفّ من قصاص الاخرى وأَولى أنا فعلتُ بابيك الاذى في يومٍ كذا ومكانٍ كذا بسبب كذا . قال : فلمّا علم ذلك منّي وتحقّق أنّه صدر عنّي احمرّت عيناهُ وآنتفخت شفتاهُ وقامت عروقهُ ولمعت بروقهُ وأُزبدت شدوقهُ وأطرق الى الارض وكاد يأكل بعضهُ البعض وجعل يرجف ويرعد ويزأر كالاسد ويتململ كريشةٍ تقلبها الريح في قاع البلد وآستمرّ على ذلك زمانا يتأمّل فيما يفعلهُ بي اساءةً واحسانا الى أنْ سكنت رعدتهُ وبردت همّتهُ فامنتُ سطوتهُ . ثمّ أَقبل عليّ ورفع رأسهُ اليّ وقال : أمّا انتَ فستلقى أَبي غدا فيقتصّ لهُ منك جبّار السما وأَمّا انا فلا أَخفر ذمّتي ولا اضيّع جواري وحرمتي ولا يصل اليك مكروهٌ منّي ولكن قم وآخرج عنّي فلستُ آمن نفسي عليك ولا أَقدر بعد اليوم أنظر اليك . ثمّ دفع اليّ الف دينار وقال استعِن بها على ما تختار فلم آخذها ولا نظرتُ اليها وخرجتُ من داره ولم اعرّج عليها ولم أرَ أكرم من ذلك الرجل ولا أَحلم ولا أَعظم مكارم منهُ ولا اجسم * وانّما اوردتُ هذه الحكاية وقى الله مولانا الملك شرّ النكاية ليعلم أنّ الذنب الكبير يستدعي العفو الكثير ممّن قدرهُ عظيم وحسبهُ جسيم ونسبهُ كريم * فقال الوزير : ناموس السلطنة وحشمتها وهيبة الملك وحرمتها لها شروط كلّ منها محرّر مضبوط

وبالمحافظة عليه محوط ولا بدّ من اقامة أَركانها وتشييد بنيانها ويجب الوفآء بها على المملوك والمالك ويُفترض القيام بها على سلاطين الممالك والاخلال برعايتها وهنٌ في الولاية فلا غنى عن العمل بها ورعايتها أحسن رعاية فمن ذلك أن لا يسامح جماعةً ولا يغفل عنهم وعن كيدهم ساعةً فساعةً ولا يركن اليهم في اقامةٍ ولا سيرٍ حيث لا يصدر عنهم للملك ولا للمملكة خير فمنهم مَن يعزل الانسان عن منصبهِ من غير وقوفٍ لعزلهِ عن سببهِ ومنهم مَن يوالي اعدآء الملك وهو ذو اجترآء منهمك ومنهم مَن يراعي مصلحة نفسهِ ويقدّمها على مصلحة مخدومهِ في حالتي رخآئه وباسهِ ومنهم مَن يفشي سرّهُ ولا يراعي خيرهُ وشرّهُ ومنهم مَن يتعرّض لسقطهِ وغلطهِ لتغيير خاطرهِ وسخطهِ ومنهم مَن ينتقص حرمتهُ وينتهك عظمتهُ وحشمتهُ ومنهم ذو الطبع اللئيم المفسد في الحريم ولا شكّ أنّ أَبا نوفل المهمل المغفّل قد ارتكب بعض هذه الصفات وهو متلبّس بأشنع الحركات وهذا يدلّ على لؤم أَصلهِ وشؤم محلّهِ وسوء طويّتهِ وفساد نيّتهِ ومَن اكرم اللئيم فهو الملوم وهذا أَمرٌ معلوم وقد قيل * شعر *

اذا انتَ اكرمتَ الكريم ملكتهُ * وإن انتَ اكرمتَ اللئيم تمرّدا

فقال اخو نهشل الفقير لا تقُل ذلك أيّها الوزير فانّ ابا نوفل عبدٌ خديم ومخلصٌ قديم وظريف نديم ومحبّ صديق وودود

شفيق امينٌ ثقةٌ ذو وفآءٍ ومقة محبٌّ ناصح وجليسٌ صالح لم يعلم مولانا الملك عليهِ الّا الخير ولم يزل يسير في طريق العبوديّة احسن سير ولم يطّلع منهُ على شيءٍ يعيبهُ ولا يشينهُ في الدارين ولا يريبهُ بل هو ملازمٌ لوظائف عبوديّتهِ مباشرٌ لما يجب عليهِ من شرائط خدمتهِ لم يصدر عنهُ ابدًا غشّ لمخدومهِ ولا خروجٌ عن امتثال اوامر مرسومهِ فإن صدرت منهُ هفوةٌ نادرة او سهوةٌ بادرة او جفوةٌ سادرة فحلم مولانا الملك لا يقتضي بل ولا يرتضي اطراح هذه الاوصاف المتعاضدة لاجل هذه الزلّة الواحدة كما قيل

* شعر *

فان يكُن الفعل الذي سآء واحدا * فافعالهُ اللآتي سررن الوف

مع أنّهُ حصل لهُ من كسر الخاطر واحراق القلب واغراق الجفن الماطر ما لا يجبرهُ الّا العواطف السلطانيّة والمراحم الشريفة الملوكيّة ونظرةٌ من الحنوّ والعطف وذرّةٌ من الشفقة واللطف تكفيهِ ومن أليم الجفآء تنجّيهِ وبعد شدّة الممات تحييهِ والّا فلا نعرف احدا يجبر كسر ذلك الوهن ابدا الّا الآلآء السلطانيّة من يد العلوّ تعالى مقامها الى درجات السموّ والعطف والحنوّ . ثمّ عطف على الدبّ وقد حفر لايقاعهِ الجبّ وقال : أمّا انا مع قلّة البضاعة وآحتقار مقامي بين الجماعة فقد أقمتُ نفسي لما وجب عليها في مقام الشفاعة فلا اقصّر فيها ولا ارجع عنها ومَن يشفع

شفاعةً حسنةً يكُن لهُ نصيبٌ منها وأسأل صدقات مولانا أبي الهاس المساعدة في انجاز هذا الالتماس وأنْ يكون شريكًا لي في احراز هذا الجعل والوصول الى أنواع الفضل من هذا الفصل فانّهُ يردّ عنّا فتنة ومَن يشفع شفاعةً سيّئة . وأرجو من وزير الممالك أن لا يقع منهُ مخالفةً في ذلك فانّ مَن سكن الكرم في ربعهِ لا يصدر منهُ الّا ما يليق بكرم طبعهِ وحيث كان مولانا الملك مجبولًا على الشفقة الكاملة والمراحم الشاملة فكلّنا يجب على ذمّتنا ويلزم دائرة همّتنا أنْ نتخلّق باخلاقهِ العليّة ونتشبّث بأهداب شمائلها الرضيّة ونتعاون جميعًا على التزيُّن بملابسة ملابسها البهيّة ونستضىْ بل نهتدي في دياجير المعاش بدراري أفلاك صفاتها الزكيّة فانّ العبد فيما يتعاناه مجبولٌ من طينة مولاه وأنّ الله جلّ وعلا لا يضيّع أمر مَن أحسن عملا * قال فألجم الدبّ ذو الساقطة بما فعلهُ بهِ من المغالطة ثمّ أمسكوا عن الكلام وآنتظروا ما يصدر من الضرغام فلم يبدُ خطابا ولا أنهى جوابا سوى أنْ قال صِلوا في الرحال ولا تبدوا ولا تعيدوا ولا تنقّصوا في هذه القضيّة ولا تزيدوا حتّى أمعن فيها النظر وأستشير فيها مشير الفكر فمهما أشار اليهِ الرأي الصائب وأرشد الى اتباعهِ العقل الثاقب فيما يتعلّق بحالهِ تقدّمتُ اليكم بامتثالهِ * فلمّا انصرفوا توجّه أخو نهشل الى

الحبس وذكر لاخيه ما جرى بينهُ وبين ذلك النحس ثم قال أبشر بالنجاح والفلاح والصلاح فقد رايتُ في جبين الفوز نور صباح ولا شكّ أنّ الله الغفور يُجري على يدي ولساني من الأمور ما يجلب السرور ويُذهب الشرور فكُن أوثق صبور وإنْ حصل في الطريق عقبة تعويق فلا يكُن في صدرك حرج فانّ وراءَها باب الفرج فانّ الظفر مقرونٌ بالصبر والصبر مشفوعٌ باليسر وقد اجاد صاحب الانشاد

* شعر *

اصبر على ما جرى من سابقٍ قدما * فركب الصبر بالامهال تلحقهُ

فشكر لهُ جميل سعيهِ ثمّ عرض على مسير وعيهِ فقال : كنتُ أرى انّ هذه القضيّة تؤخّر ويُرجى السعي في أمرها ولا يُذكر كقاطع البحر بالمراكن والباني على ثبجة أماكن لا يصلح لهُ عملٌ ولا ينجح لهُ أملٌ فيشبه اذ ذاك الحمار المعصوب العينين في المدار يقطع بالمسير زمانهُ ولا يفارق مكانهُ فكان ينبغي الامهال لا الاهمال الى أنْ يتوجّه السعدُ بالاقبال * فقال أخو نهشل : الأمر كما زعمت وأشرت بهِ ورسمت ولكن اختشيتُ إنْ لم أبادر يسبقني عدوٌّ غادر او حسودٌ ماكر او مبغضٌ مكابد فينهي الى المسامع ما ليس بواقع فلم تشعر ايُّها البطل الّا وقد ولج قلب الملك أنواعٌ من مكرٍ ودخل فيصير كما تقرّر في الأمثال عند غالب

الرجال انّ الدعوى لِمن سبق لا لِمن صدق . وبالجملة يا ابا عويلة اذا كانت مقاصد الشخص جميلة وقد أخلص التوكّل على قدرة الله ورحمته الجليلة فانّ الله تعالى ينجّحها ولا يفضحها ويدبّرها ولا يدمّرها وإنْ كان في الظاهر وعند البادي والحاضر يظهر في بعض القضايا نوع همٍّ وغمّ لكنّ ذاك لسرٍّ لم يطّلع عليه الّا مدبّر العالم (وحسبك قضيّة الناصح الاستاذ) الامين الدمشقيّ مع الخائن جاسوس بغداد وهي طويلة طائلة في مجلّةٍ كاملة وايضًا لم أبادر بمفاتحة السلطان في أمرك يا أعزّ الاخوان الّا لئلّا أُنسب الى تهاونٍ وتوانٍ وما من شروط المروّة والصداقة والاخوّة أنْ يتخلّف الفطن في مثال هذا الموطن عن مساعدة الاصحاب ومعاونة الأحباب ولاسيّما صديقٌ مثلك وحبيبٌ متّسمٌ بفضلك وأنّي لا أدع من أنواع الاجتهاد وما يحسن ببالي في الاصدار والايراد شيئًا الّا فعلتهُ ولا امرًا الّا قدّمتهُ ولا فكرًا الّا استعملتهُ ولو بذلتُ في ذلك روحي ومالي وخيلي ورجالي وأنّي مباكرٌ باب الملك وملازمهُ كأحسن من سدك فإنْ رايتهُ مكرّمًا مقامي مصغيًا الى كلامي خاطبتهُ بما يليق وسلكتُ في الشفاعة وحلو العبارة أوضح طريق وإنْ شاهدتُ في خلقهِ شكاسة وفي طبعهِ شراسة وصعوبة وشماسة سلكتُ سبيل حسن السياسة وفي الجملة استعمل

علم الفراسة وفي كلّ حكم نظيرهُ وقياسه وأستعين بالأقرباء والاوِدّاء وأغالط المناقض والمعارض من الأعداء واقصد النجح واراقبهُ وارتقب السعد واخاطبهُ واسلك مع كلّ أحدٍ ما يناسبه فالعدوُّ اقتلهُ والحسود اختلهُ والعذول أفتلهُ والمحبّ أحتلهُ والمبغض أبتلهُ ومَن تصلّب في المدافعة أمثلهُ الى أنْ ينقضي هذا الامر وينطفئ منهُ الجمر ويقبل مبشّر الاماني بالطبل والزمر * ثمّ انّهُ بات متفكّرًا وبادر الى الصباح متبكّرًا وأمّ ابواب السلطان قبل سائر الخدم والأعوان فوجد الدبّ قد سبقه وجلس من عين المكر في الحدقه وقد فوّق سهم الكيد وصوّبهُ الى شاكلة الصيد ولم يبقَ الّا اطلاقه ليشدّ من المرمى وثاقه . فقبّل النديم الأرض وأعلن سلامه وقطع على أبي حميد كلامه وعارض ملامه وناقض مرامه وقال أدام الله ايّام السعادة وأعوام الحسنى وزيادة المستمدّة من بقاء مولانا السلطان وعمّر دهرهُ المخلّد على تعاقب الزمان وأوطأ قمم الامم مواطئ قدمه وأطاب بطيب حياته معايش عبيده وخدمه كانت المواعيد الشريفة والآراء المنيفة سبقت بالتأمّل في أمر عبدها القديم وخديمها الفقير العديم وجالب سرورها أبو نوفل النديم مع ما كان لائحا وعلى صفحات الرضا واضحا من شمائل الاخلاق الملوكيّة ومكارم الشيم السلطانيّة أنّ مراحمها ستأخذ بيد العاثر وتقبل عثرته بحسن المآثر بحيث يشرح الخاسر ويربح

الخاسر والمملوك يسأل مراحمها ويرجو مكارمها أن لا تخيّب ظنّهُ وأنْ تجبر بتحقيق ظنّه وهنهُ وأنْ تجري مماليكها وعبيدها على مَن عوّدها من الصدقات قديمها وجديدها ثمّ أنشد والى الرضا ارشد * شعر *

ارجو ابا العبّاس أن يروي لنا * عن ثغرهِ الضحّاك نورًا يقتبس
فاقرأ تبسّم ضاحكًا من قولها * متهلّلاً نحوي ولا تقرأ عبس

فتبسّم ابو العبّاس ابتسامه ظهرت منها للرضاء علامه * فآشتعل الدبُّ من القيظ وكاد يتمزّق من الغيظ وعلم أنّ عقد امره انفرط ونجم سعده من فلك السعد سقط وأنّهُ لم يكتسب من مكائد القساوة الّا هاتيك العداوة وانكشف عند مالكه ما وطئهُ من مغطّى وقرأ كلّ احدٍ حديث ذلك الموطأ وغلب عليه الوجد في الحال فخرج عن دائرة الاعتدال وسكر من خمرة العداوة فطفح وعربد وشطح فقال : كلّ مَن ستر على اعداء الملك فهو في الخيانة والجناية مشترك وكلّ مَن شفع في الجاني فهو في قيد العصيان عاني بل هو اشدّ من المباشر اذ هو معاشر للمتعاطي ومكاسر والابقاء على المعصية شرٌّ منها والرضاء بكفر الكافر فتنة يُفرّ عنها وما اظنّك أيّها النديم العارف القديم لمعرفة هذا القدر عديم فإنْ ابيتَ الّا الاصرار ومساعدة الفجّار ومعاونة الاشرار فانت حينئذٍ مستخفّ لهيبة وليّ نعمتك مستنقص حرمة مالكك

رقبتك طالب لابتذاله مستهون بمقام جلاله راضٍ بتسليط الانذال والاوغاد والارذال على انتهاك حرمته وابتكاك استار حشمته ونحن لا نرضى بذاء الذمامة ولا كيدً للمخالف ولا كرامة * فعند ذلك استشاط الغضنفر وتأثّر لكلام الوزير وتغيّر وزأر وهمر وزفر زفرةً وزمجر وكاد يثب على ابي جمهر ثمّ انّهُ تماسك وتناسى الغدر وتناسك وقال : يا ابا سلمة كبُرت كلمة غيبة الاصحاب والنميمة بين الاحباب وساءت حركة وبئست ملكة تناسي الحقوق وتعاسي العقوق واطراح جانب الصديق والصدوق والرفيق الشفوق واضاعة خدمة الخديم لا سيّما النديم القديم ولم تزل الاصاغر تستمطر مراحم الروساء والاكابر ولم تبرح الملوك تعطف على مسكينها الصعلوك أَنَسيتَ ما قلتُ لك في حقيقة مَن ملك وهو

* شعر *

ليس المليك الذي تشقى رعيّتهُ * وانمّا الملك مولاً يحفظ الخدما

وايضا لم تزل الاصحاب تساعد اصحابها وتستعطف عليها ملوكها واربابها وترفع بحسن السفارة من ستائر الدهشة حجّابها ويُثبتون بذلك الاجر العظيم والثِواب الجسيم والثناء العاجل والجزاء الآجل في صحائف مخاديمهم ويعدُّون ذلك اربح معاليهم ويبذلون في ذلك الجهد ويبلغون فيهِ غاية الكدّ وذلك ممّا يجب عليهم ويتقدّم بالمحافظة عليهِ اليهم كما قيل :

* شعـــر *

يستعطفون الاكابر * يستعبدون الاصاغر

يحيون رسم الاوائل * يعلّمون الاواخـر

وايُّ فائدةٍ واستفادة ايُّها الوزير ابا قتادة في رعيّة ملكٍ لا تتّفق قلوبهم ولا تُستر بينهم عيوبهم ولا تطهر بالصفاء جيوبهم ولا تتجافى عن مضاجع الجفاء جنوبهم ولا يتساوى في الوفاء حضورهم وغيوبهم تراهم في الغيبة يفتّ بعضهم بعضًا فتّا ويرعون لحومهم قتّا كبهائم لاقت في مرعاها قتّا وفي الحضور تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتّى ثمّ إنْ كان اخو نهشل ساعد اخاهُ ابا نوفل فذاك شيء يجب عليهِ ويُندب اليهِ فانّهُ صاحبهُ القديم وجليسهُ القويم وانْ تخلّى عنهُ فماذا يُرجى منهُ وحجر النوائب هو محكّ الاصحاب وجمر المصائب يُظهر من تبر الصداقة اللباب وقد قام في هذه النوائب بعدّة اشياء كلّها عليهِ واجب أوّلها القيام بحقّ أخيه والسعي في خلاصهِ من هذا الأمر الكريه ثانيها ساق الى صحائفي الحسنات وقصد لي رفع الدرجات ثالثها طلب رضا خاطري وما يشرح صدري ويسرّ سرائري رابعها مباعدتي عن الآثام وخلاص ذمّتي من الوقوع في الحرام فربّما يحملني العنود والخلق الشرود على التعدّي في الحدود خامسها اشتهار اسمي بالفضل وعدم المؤاخذة بالعدل فيشيع في الآفاق عنّي مكارم الاخلاق

سادسها انتشار صيتي بحسن الوفآء والقيام بحقوق الاخوان وعدم الجفآء سابعها انهُ غرس في قلوب الاماثل محبّتهُ وزرع في أرواح الأفاضل مودّتهُ وإنْ كان صدر من أبي نوفل ما صدر فانهُ اعترف بالذنب وعنهُ اعتذر فنعمل معهُ بالظاهر والله تعالى يتولّى السرائر كما قيل : * شعر *

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا * ان برّ عندك فيما قال او فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهرهُ * وقد أجلّك من يعصيك مستترا

ولو بلغت هذه الحكاية غاية الشرّ ونهاية النكايه ما تداني واقعة الملك الصالح عن عدوّهِ المؤذي المسالم * فقبّل الدبُّ الارض وقام في مقام العرض وسأل الملك بيانها ليعلم بحسن التصريف فرزانها ويقيس عليها أوزانها *

فقال : ذُكر أنّ بعض السلاطين تصدّى لهُ عدوٌّ من الشياطين يحرّض عليهِ الاعادي ويفسد عليهِ الحاضر والبادي ويجتهد في اقامتهِ ومسيرهِ في ازالة الملك عن سريرهِ ويغري بهِ العساكر فيقابلهُ ظاهرًا بالنواكر وباطنًا بالمواكر وما فسُد منهُ ما فسد الّا بدواعي الحقد والحسد فجعل الملك يسترضيهِ بالهبات فلا يرضى ويستدنيهِ بالصلات فلا تزيدهُ صلاتهُ الّا بعدًا ونقضا كما قيل : * شعر *

الى كم يداري القلب حاسد نعمة * اذا كان لا يرضيهِ الّا زوالها

فاضطرّ الملك من أُمورهِ واشتغل لايقاعهِ بتدبيرهِ وجعل

ينصب لهُ شرك الوقائع ويجتهد في ايقاعهِ بكلّ دانٍ وشاسع وذلك الباغي أحذر من الغراب وأمهر من طالع الكلاب والملك لا يقرّ لهُ قرار ولا يطيب لهُ عيشٌ لا بالليل ولا بالنهار . فكان من أحسن الاتفاق أنّ علق ذلك الباغي ببعض الأوهاق فحُمل الى حضرة الملك وهو في قيد البلآء مشتبك فلمّا رآهُ في قيد النكد بادر الى الارض فسجد وقال : الحمد لله المغيث حيث أمكن منك ايّ خبيث . أترى هذا في المنام فهو أضغاث أحلام أم سمح الزمان بأهل العدوان وانا يقظان ثمّ شرع في السبّ والتجديع والتوبيخ والتقريع وأقسم بفالق الاصباح وخالق الارواح ورازق الاشباح ليفعلنّ بذلك النبّاح من النكال والجراح ما فعل المصطفى مع سرّاق اللقاح وليُذيقنّهُ كأس البأس وليجرّعنّهُ من خمر المنيّة أمرّ كأس ثمّ أمر الجلّاد أنْ يأتيهُ بآلتهِ من النطع والسيف والعتاد . فعلم ذلك الزنديق أنّهُ وقع في الضيق وأنّهُ لا ينجّيهِ أخٌ ولا صديق ولا افتدآء بشفيق ولا حميمٌ وشفيق فضلاً عن مالٍ ومنال أو خيلٍ ورجال . فلمّا غسل يدهُ من العيش استهوتهُ الخفّة والطيش فشرع في السباب ودخل في الشتم من كلّ باب ورفع بفاحش الكلام الصوت وقال ما بعد الموت موت . فسأل الملك أحد الوزرآء ماذا يقول من الافترآء هذا الظالم المجتري الباغي

المفتري . فقال: يدعو بدوام البقاء ورفعة مولانا الملك والارتقاء ويقول ما أحسن العفو عند المقدرة واللطف والكرم ايام الميسرة وإن لم يكن ثمّ مجالٌ للمعذرة ولو جعل العفو شكر المقدرة لكان اولى واعلى مقامًا في مكارم الشيم واحلى كما قيل :

* شعر *

ما أحسن العفو من القادر * لاسيّما لغير ذي ناصر

ويترحّم على اسلاف مولانا السلطان الذين كان شيمتهم العفو عن ذوي العصيان وكان ذلك منتهى لذّتهم وغاية امنيّتهم وما اجدر مولانا الملك أن يحيي مكارم سلفه ويجعل العفو كلمةً باقيةً في خلفه ولا زال يقول من هذا القول حتى لان لهُ القلب القاسي ورقّ لهُ قلب الملك الجاسي فأمر باطلاقه ومنّ عليه باعتاقه * وكان احد الوزراء واركان الامراء شخصٌ يعاكس هذا الوزير ويناقضهُ فيما يراهُ ويشير وبينهما مرّت اسباب عداوة احلى في مذاق طبعيهما من الشهد والحلاوة كلٌّ مترصّدٌ للآخر زلّة متوقّعٌ لايقاعه في شبكة البلاء غفلة . فحين رأى شقّة الحال نُسجت على هذا المنوال وجد فرصةً للمقال فتقدّم وقال : ما احسن الصدق . وايمن كلام الحق خصوصًا في حضرة المخدوم وهذا امرٌ معلوم عدوٌّ مبينٌ وحسودٌ مهين لم يترك من انواع العداوة شيئًا الّا تعاطاه ولا من الافساد والشرّ صنفًا الّا هيّاه قد اهلك الحرث والنسل

وبدل جنّتي الصلاح من الفساد بخمط وأثل الى أن أمكن الله تعالى منهُ وحان تفريغ الخواطر الشريفة عنهُ ثمّ أنّهُ في مثل هذا المقام بين الخواصّ والعوام يثلب الاعراض من الامراض ويجهر بالسوء من القول ويصرف في الخناء والسبّ ما لهُ من قوّةٍ وحول كيف يحلّ السكوت عن جرائمه وتغطية مساويه وعظائمه فضلًا عن أن تتجلّى سيّئاتهُ في خلع الحسنات وتتحلّى شوهاء سواخط أدعيته بملابس أحسن الدعوات ومع هذا يُطلب لهُ التوقّع والخلاص والاطلاق من شرك الاقتناص وهو على ما هو عليه من الاساءة المنسوبة اليه . امّا والله يا مولانا الهمّام وسلطان الانام ما قال الّا كذا وكذا من قبيح الكلام وتناول العرض المصون بالسبّ والدعاء والملام * فتغيّر خاطر الملك وتشوّش وتعكّر صافي خاطره وتكدّر . ثمّ قال الوزير ذو الصدق في التحرير والله حقك إنّ كذب هذا الوزير عندي خيرٌ من صدقك فانّهُ بكذبه أرضاني والى طريق الحقّ هداني وأصفى خاطري من الكدر وأطفأ ما كان تلهّب في غيظي من شرر ونجّاني من دمٍ كنتُ أُريقهُ ولا يهتدي الى كيفيّة استدلاله طريقهُ فأصلح بذلك ذات البَيْن وصار المتعاديين أحسن محبّين وخلّد ذكري بجميل الصفات وسلك بي طريقة أجدادي الرفات وأمّا أنت فكدّرت عيشي وأثرت غضبي وطيشي وأسمعتني الكلام المرّ وقد مسّني منك الضرّ .

وامّا انا فقد أعتقتُ هذا وأطلقتهُ فلا أرجع في ايذائه وقد أعتقتهُ وقد ثبت لهذا الوزير عليّ حقوق لا ينكرها الّا ذو عقوق ولا تسعها الاوراق والرقوق فكذبهُ عندي خيرٌ من صدقك وباطلهُ أحلى على قلبي من حقّك ولهذا يُقال ما كلّ ما يُعلم يقال * وانّما اوردتُ هذا الكلام يا كرام : لتعلموا أنّ السلطان بمنزلة الامام وأركانه لهُ تبعٌ في القعود والقيام ولايتمّ الايتمام الّا بالاتّفاق بين الرفاق فاذا كان الجماعة مجمعين طائعين لامامهم مستمعين استقام القيام وانتهوا من جميل التحيّات الى السلام ولا يقع لهم انتظام مع مخالفتهم لحال الامام هذا قائمٌ وهذا قاعد وهذا راكعٌ وهذا ساجد وهذا نائمٌ وهذا هاجد وايضًا السلطان بمنزلة القلب والراس وبمنزلة الاعضاء روساء الناس وباقي الرعيّة خدم للرأس والاعضاء منتظرين لما تبرز به المراسيم من الزجر والامضاء فاذا اتّفقت الاعضاء واصطلحت انتظمت أمور كلٍّ من الرأس والرعيّة وانصلحت واذا وقع اختلافٌ وتباينٌ في الأعضا صار كلٌّ من الرأس والقلب والرعيّة مرضى ولقد صدق مَن قال : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضهُ بعضا * وخلاصة هذا الكلام أنّ قصدي أنْ تكون أحوال رعيّتي على النظام لا يقع بينهم شقاق ولا تنافرٌ ولا نفاق وامّا ابو نوفل فيكفيه حياءوهُ وخجلتهُ فقد انتهت وتمّت عقوبتهُ واخذ حقّهُ حقّهُ لا يليق بكرمي أنْ أردّهُ

وهذا الذي ورثتهُ عن أسلافي وهو الخلق اللائق بمحاسن شيمي وأوصافي * فلمّا سمع الوزير هذا الكلام وجرح فؤادهُ نصل هذا الملام ندم غاية الندم وعلم انّهُ قد زلّت به القدم وانّهُ لاحاجتهُ قضى ولا على صديقه أبقى ولم يستفد ممّا ابداهُ من فجم سوى اظهار معاداة أبي النجم وانّهُ اذا تخلّص من حبسه وكوبه ورجع عند الملك الى منادمته وقربه لا بدّ أنْ يتصدّى لمعاداته وسلبه ولا يفيدهُ بعد ذلك افعالهُ ولا يسمع في ابي نوفل اقوالهُ . فانصرف من عند الملك الطيثار لا يدري أين يضع قدمهُ من الافتكار حتّى وصل الى منزله واختلى في فكره بعمله وفرّع للمخلص من هذه الورطة طرقا وتفرّقت روّاد افكاره في منازل الخلاص فرقا فأدّى مصيب الروّاد من الارآء ومفيد القصّاد من الشورى الى السعي في مصالحة أبي نوفل وازالة ما وقع من الغبار في وجوه الصداقة وتخلّل . ثمّ أدّى افتكارهُ وأورى من زند رأيه شرارهُ الى أنّ الذي وقع منهُ قد اشتهر وعلم به أصحاب البدو والحضر فاذا طلب من بعده الصلح فذلك في غاية القبح اذ كلّ مَن في حجره حجز يتحقّق أنّ ذلك خور وعجز فصار يتردّد بين هذه الافكار ويتأمّل ما فيها من تحقيق الانظار وتدقيق الاسرار * فبينما هو في بحر الافتكار يلطمهُ الموج ويصدمهُ التيار دخل عليه

صفيٌّ لهُ صافي الوداد وهو ظبيٌ اغرُّ يُدعى مبارك الميلاد زكيّ الجنان فصيح اللسان دقيق النظر عميق الفكر ذو رأيٍ صواب وشفقةٍ كاملةٍ على الاصحاب فرآهُ مطرقًا الى الارض في فكرٍ ذي طولٍ وعرضٍ فسلّم عليهِ وتقدّم بالسؤال اليهِ عن تشوّر بالهِ وتوزّع حاله فطلب الوقوف على ما نالهُ لينظر عاقبة امرهِ ومآلهُ فأخبرهُ بموجب ذلك وأنّهُ قد سُدّت في وجههِ المسالك * فقال مبارك الميلاد يا صحيح الوداد انتَ قد زعمتَ أنّ مولانا السلطان قد ترك ابا نوفل الندمان وطرحهُ اطراحًا لا رجعة فيهِ وانهُ بعد اليوم لا يذكرهُ ولا يدنيهِ وأنّ عثرتهُ لا تُقال وغصّتهُ لا تزول وقصّتهُ لا تزال هيهات هيهات يا أبا التُرّهات الملوك إنْ لم يعرفوا حقوق خدمهم ولم يثبتوا في ديوان احسانهم قدم قدمهم خصوصًا هذا الملك العظيم الذي أنفاس شيمهِ تُحيي العظم الرميم ونحن قد زجّينا عمرنا في خدمهِ وأذاقنا برد عفوهِ وحلاوة كرمهِ وغذاءُ أرواحنا إنّما هو غوادي حلمهِ وروائح نعمهِ مع أنّ أبا نوفل لم يقع في محذورٍ معضل يوجب تناسي ذممهِ وابتذال حرمتهِ وحرمهِ وانّهُ استغفر وأناب واعتذر وتاب * واعلم ايّها الوزير الاكرم أنّ ذوي النهى والحجر اذا أرادوا الشروع في أمرٍ تأمّلوا في مبداه غايتهُ ومنتهاه وهذا التقرير كالجلوس المقصود من عمل السرير فانّما تنبعث لصنعتهِ النفوس

اذا علمت بحصول الرفعة عليهِ من الجلوس كما قيل :

* شعـــر *

فايّاك والامر الذي إن توسّعت * موارده ضاقت عليك مصادرهُ

قال الدبّ : دعنا من هذا الكلام والاخذ في الملام واسعد في التدارك فانّك نعم المشارك قبل انفلات العنان وانقلاب الزمان وخروج زمام التلاقي من انامل الامكان وانتقال حلّ عقدتهِ من اللسان والبنان الى الاسنان * فقال مبارك الميلاد الراي عندي يا ابا قتاد المبادرة الى الصلح والاصلاح ليحصل النصح والفلاح والاخذ في المصافاة وسلوك طريق الموافاة والعمل بهِ باطنًا وظاهرا والاستمرار عليهِ اوّلًا وآخرا ومحو آثار العداوة وتناسي اسباب الجفاء والقساوة واستئناف المودّة الصافية والمحبّة الوافية وصرف القلب نحو دروس فقه الحلّة الشافية والكافية حتّى يقول من رأى وسمع : الحمد لله آلت العاقبة الى العافية * ثمّ اعلم أنّهُ لا يصفو لك صاحب وخاطرك عليهِ للتكدّر مصاحب ولا يخلص لك صديق ولئن خلوص محبّتك اياه مذيق وقاطع بغضك في الطريق وشوك سعيك راكب التعويق والقلوب في المحبّة تتجازى إنْ حقيقةً فحقيقةٌ وانْ مجازىً فمجازى وكلّ شيءٍ بمقدارٍ وميزان وكما تدين تدان وقلّما تجد من تحبّهُ ويبغضك وتربّهُ ويرفضك وتصفو لهُ ويتكدّر ولا تتغيّر عليهِ ويتغيّر ودونك يا ذا الكرامات ما قال

صاحب المقامات * شعر *

وكلتُ للخلّ كما كال لي * على وفاء الكيل او بخسه

وقال مَن أحسن المقال * شعر *

والعين تَعرف من عيني محدّثها * إنْ كان مَن حزبها او من أعاديها

وما ذاك الّا لانّ الارواح أجنادٌ مجنّدةٌ فما تعارف منها ايتلف وما تناكر منها اختلف وانّما يقع التعارف من الجهتين والتناكر من الطرفين ولا تغالط نفسك وتكابر حسّك أنْ يحبّك مَن تكرهه ويزينك مَن تشوهه ويقربك مَن تقصيه ويقيمك مَن ترميه ويرفعك مَن تضعه ويأخذ بيدك مَن تدفعه كما قيل في الاقاويل : * شعر *

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً * ما لم يروا عندهُ آثار احسان

واعلم أنّ غالب الاخوان في هذا الزمان مسلوب الانسانيّة وانْ كان في زيّ الانسان مَن أحسنتَ اليه أسا ومن ترقّقتَ لهُ قسا ومَن نفعته ضرّك ومَن أمنته غرّك ومَن سكنت أوامهُ بزلال فضلك حرّك وقد أجاد صاحب الانشاد *

* شعر *

جزى الله عنّا الخير مَن ليس بيننا * ولا بينه وُدٌّ ولا نتعارف

فما سامنا خسفاً ولا شفنا أذىً * من الناس الّا مَن نودّ ونألف

واذا كان هذا فيمَن تحسن اليه وتسبغ ملابس أفضالك عليه فكيف يكون حال مَن تُضمر له النكال وتتمنّى وقوعه في

شرك العقال أنّى تراهُ يصفو لك ويتقاضى سؤلك ومأمولك وهو مترقّب غيلة غوْلك متوقّع منك ان يصير مقتولك فماذا عسى أنْ تبلغ منهُ سؤالك ومسؤلك او ترى من محبّته ومودّته مأمولك ومحصولك * وانّما أوردتُ هذه المقامات وانْ كانت من فضلات علمك ورشحات قلمك أنّنا متقدّمات الّا لتتعاطى أسباب الصلح اوّلاً في نفسك ثمّ تستعمل الوسائط فيه من ابناء جنسك فينتج المقصود ويصفو الورد والمورود كما قيل :

* شعر *

فانّ القلوب مرائي الصفات * كما السيف مرآة وجه الذوات

قال الدبّ : انا ألقي الزمام في هذا المقام لنيل هذا المرام الى يد تدبيرك وأكتفي في رعي رياض برائد رأيك وتقديرك فانّ فكرك نجيب وسهم رأيك مصيب فافعل ما تختار وأذقنا من رائق رأيك المشتار . فقال : نقسم اوّلاً باللطيف الخبير أنّك أصفيتَ الضمير من الغشّ والتكدير وكرعتَ من وارد الصفاء الزلال النمير ونفضتَ يد المحبّة والاخاء من علاقات البغضاء والشحناء حتى يجب دعيي ولا يخيب سعيي وابذل مجهودي في نيل مقصودي وابني على اساس واسلك مع الناس مسلك الناس فبادر باليمين الى اليمين وأشهد عليه الكرام الكاتبين انّه صقل مرآة محبّته عن صدا المداهنة وجلا طريق مودّته من غبار المباينة وأنّه يكتفي من غدير

الغدر بما جرى وبطوي حديث الشحناء فلا سمع الواشي بذاك ولا درى فليبذل مبارك الميلاد جهده في السعي في اصلاح الفساد . وعقدا على ذلك العهد وتوجّه مبارك الميلاد من بعد وقصد منزل أخي نهشل فرآه في مَن نار همومه في مشعل وقد غرق في بحر الافكار هائمًا لا يقرّ له قرار فسلّم عليه وتقدّم بالسؤال عن حاله اليه وآنسه بالمحادثه وذكر له الدهر وحوادثه وتذاكرا ما وقع من الدبّ وكيف أظهر نواقض الحبّ وبارز بالعداوة وأبرز بأدنى حركةٍ موجبات القساوة . ثمّ أخذ أخو نهشل في العتاب وفتح لمبارك الميلاد من جهة صاحبه وعتابه الباب فاعترف عن صاحبه بانّ الظلم في جانبه وانّه كان حصل له من الوهم الكاذب ما أورثه الوقيعة في جانب الصاحب وانّه ندم على ذلك واعترف بأنّ فعله حالك ولم يسعه الّا الاعتذار وجبر ما وقع لأبي نوفل من الانكسار بالسعي في مساعدته والقيام معه في جماعته والتوجّه الى حضرة المخدوم والتلافي بمرهم التصافي ما سبق من جراحات الكلام والكلوم . ثمّ اذا حصل من الخواطر الشريفة الاغضاء وأثمر في رياض العفو لجاني الخدم فواكه الرضا يستأنف سوق المحبّة عقود المبايعه ويروّج تاجر الصداقة على مشتري الحشمة في مضان رغباتها بضائعه الى أن يتزايد الوداد ويتأكّد بين الجميع عالم الاتحاد فانهض يا رئيس الاصحاب وأنيس الأحباب .

* شعر *

فالعمــر اقصــر مدّة * من أن يدنّس بالعتاب

ثُمّ نهضا جميعا واتيا ابا نوفل سريعا فوجداه في احرج مكان واوهج زمان محفوفًا بالاحزان مكنوفًا بالاشجان وما حال مَن جفاه احبّاءه واقصاه مولاه وصار وهو جانٍ غريمه السلطان . فلمّا سلّما عليه وجلسا اليه واعتذر مبارك الميلاد بعد اظهار تباشير الوداد أنّ موجب تقصيره في السؤال عنه وتاخيره أنّ قلبه الوامق وطرفه الوادق لم يطاوعا على رويته في تلك الحال ولا سمحت قدمه بالتقدّم اليه وهو مشغول البال . ثمّ تفاوضا في اسباب الصلح وقصدا ابواب النجح . فتجاذبوا اطراف الطوائف وتفكّهوا على موائد التحف واللطائف وما زالوا ينسجون خلع الوفاق ويمزّقون شقق الشقاق الى أن انعقدت اهداب المحبّة والوداد وانحلّت عقود الحقود والكياد وتحقّق كلّ احدٍ من كبيرٍ وصغيرٍ ومامورٍ واميرٍ وجليلٍ وحقيرٍ بحصول خالص المودّة بين النديم والوزير

* شعر *

ولمّا ان تراءى الفجر يحكي * جبين الحبّ او راى اللبيب

توجّه الوزير ومبارك الميلاد واخو نهشل ورؤوس الاجناد مع سائر الامراء والوزراء والاعيان والكبراء حتّى انتهوا الى السدّة العليّة والحضرة الملكيّة السلطانيّة فقبّلوا ارض الطاعة ووقفوا في مواقف الشفاعة ونشروا من الدعاء والثناء ما يليق بجناب

الملوك والعظمآء وذكروا النديم ابا نوفل بما يستعطف به الخاطر المفضّل حتّى عطفت عليهِ مراحمه وانمحت من جريدة الانتقام جرايمه وسمح باحضارهِ لديهِ ليسبل ذيل الكرم والعفو عليهِ ثمّ يشملهُ ثوب الرضا وخلع العفو عمّا مضى . فاسرع نحوهُ البشير بما اتّفق من الجماعة مع الوزير ثمّ وصل القاصد وهو لهُ مراصد فتوجّه منشرح البال منبسط الآمال حتّى دخل على حضرة ذي الدولة والاقبال وقبّل الجدالة ووقف في موقف الخجالة لا يرفع طرفا ولا ينطق حرفا فرسم بالتشريف والخلع ليرفع عنهُ التخويف والهلع فتضاعفت الادعية الصالحة والاثنية الفائحة

* شعر *

بغاويةٍ من ذكرهِ قد تمسّكت * بطيب ثنا يُحيي الزمان روائحه

وأُقيمت حرمتهُ وآستمرّت عليهِ وظيفتهُ * ثمّ انّ الملك انتقل من المجلس الغاصّ الى مجلسٍ خاصّ واجتمع بالخواصّ وعمّ الخطاب لكلّ ناصّ ومحدّثٍ وقاصّ فقال: ليعلم الوزير والنائب والامير والحاجب والصديق والصاحب والجندي والكاتب والمباشر والحاسب والراجل والراكب والآتي والذاهب وليبلغ الشاهد الغائب انّ مقتضى الرياسة في الشرع والسياسة على ما قدّرهُ حكمآء الملوك وسلكوا بعباد الله تعالى احسن السلوك انّ كلَّ واحدٍ من الغنيّ والصعلوك لاسيّما مَن لهُ من الأمر شيّ او نوع مباشرةٍ على ميتٍ او

حيّ لهُ مقامٌ معيّن لا يزايلهُ ومكانٌ مبيّن لا يقايلهُ . فالواجب على كلّ مَن اقامهُ الله في خدمة ملكٍ ولّاه او سلطانٍ علّاه أنْ يلازم مقامهُ ويلاحظ في صفّ جماعتهِ امامهُ ويراقب ما يصدر عنهُ فقد قيل ايّاك وما يُعتذر منهُ فاذا رام أن يتكلّم بكلام بحضرة الامام او بحضور احدٍ من الخواصّ والعوامّ يسبر كلامهُ اوّلاً بمسبار التفكّر ويعيّرهُ بمعيار التامّل والتبصّر ثمّ يسبكهُ في بوتقة الفصاحة ويسكبهُ في قالب الملاحة ويصوغهُ بآلات حسن الانسجام ويرصّعهُ بجواهر مقتضى المقام فاذا صيغ على هذه الصياغة وقعدت على صورة سبكهِ نقوش البلاغة وأُخرج لهُ غوّاص الفكر من بحر المعاني والبيان فرائد افكارٍ لم تظفر بها اصداف الآذان وخرائد ابكارٍ لم تفترعها فحول الاذهان ازدانت بها من حور جنان الجنان ومقصورات خيام الدهور والازمان آنساتٌ لم يطمثهنّ آنسٌ قبلهم ولا جان فاختلب ببهائهِ القلوب والارواح واستلب بروائهِ الاموال والاشباح واستمال الخواطر وسحب الايادي المواطر وصار الدهر من بعض رواتهِ وأشناف ما يرويهِ عنهُ معلّقةً بآذان نيّاتهِ وإنْ وقع والعياذ بالله منهُ ما يُورث الندم والحزن واخرج سهم الكلام من قوس العجلة لا اكتال ولا اتّزن حصل في سوقَي ظاهرهِ وباطنهِ الغبن والغَبَن * فتقدّم مبارك الميلاد وبذل في اداء وظائف الدعآء الاجتهاد وقال :

انّما كان عاقبة هذا الامر واطفاء نائرة هذا الجمر واداءه الى انتظام عقود السعد واشتماله على جمع الخواطر من بعد تباين الخواطر الشريفة وشرف ملاحظتها المنيفة وتوجّه مساعدتها لخدمها وشمول عواطفها على عبيدها وحشمها واقبالها السعيد ولولا ذلك لَمَا انتظم لنا شملٌ ايّها العبيد فالمنّة في هذا كلّه للصدقات الشريفة والجميلة لعواطف مننها المنيفة . وكما انّ الرعيّة لا يستقيم حالها الّا بالملك الواعي فانّها كالرعيّة لا ينتظم لها امرٌ ألا بالراعي كذلك الملك يا ذا الدرجات العليّة لا يصير ملكًا الّا بالرعيّة ولو لم يكن العاشق مشوقا لم يكن المعشوق معشوقا ولو لم يوجد الرامق بالأمل مسوقا لم يصر الملك المامول مرموقا وقد عنى هذا المعنى مَن في رياض المعاني أعنى

* شعر *

وأحقر صبٍّ فيك يهدي سناءه * كأعظمهم اذ من هواك تعظّما
فلا تحتقرهُ انْ تملّكتَ قلبهُ * فلولا الهوى ما كنتَ ملكًا مفخّما
ففي موقف العشّاق منك وظيفةٌ * لكلٍّ فلا يبغي لها متقدّما
وكلٌّ لهُ وجدٌ يليق بحالهِ * وكلٌّ لهُ حالٌ يوافيك مُغرما
ألَمْ تَرَ أنّ الله أوجد حكمةً * ذبابًا وعقبانًا وبقًّا وضيغما
وكلٌّ لهُ نفعٌ وضرٌّ مخصّصٌ * فسبحان مَن قد خصّ طورًا وعمّما

والله تعالى لكمال قدرتهِ واسبال ذيل رحمتهِ خلق الكبير الاعلى محتاجًا لخدمة الصغير الادنى وجعل الحقير الادنى

محتاجًا لرحمة الكبير الاعلى ولهذا اعظم الخالق مَن خلق الخالق واحوج الخلق الى الخلق وهو غنيٌّ عن الخلق * وقيل : ايُّها الملك السنيّ الانسان بطبعهِ مدنيّ وبمقدار كثرة الرعيّة واشتراكهم في الصفات المرضيّة وانقيادهم لاوامر مالكهم السنيّة تصير درجة الملك عليةً كما كان في زمان الملك سليمان ولقد جرى في عصرهِ بين الطيور مفاوضةٌ بين اللقلق والعصفور * فسال ملك الآساد عن تلك المفاوضة مبارك الميلاد * فقال : بلغني يا سلطان الاسود انّ الملك سليمان بن داود كان في سيرانه مع خواصّ اركانه فمرّ بذلك الطلب على شجرة دلب للقلقٍ فيها عشّ قد بناهُ كاحسن عشّ وقد استوكر في عشّهِ عصفور واحتمى بجوارهِ من من موذيات ابي مذعور فكانا يتخاصمان ويتقاولان ويتواصمان ويتصاولان . فوقف الملك الكريم واستوقف الجند العظيم ليسمع ما يقولان وينظر كيف يحولان فسمع اللقلق يقول وهو يجول ويصول ويخاطب العصفور بمجمعٍ من الطيور: اشكر لي حسن الصنيع حيث انزلتك في حصني المنيع لا حيّة ترقى اليك ولا جارح ينقضّ عليك ولولا انّ لك عندي مناخًا ما ابقت لك الحيّة ذاتًا ولا فراخا وانّما سلمتم بجواري وبقربكم من داري . فوثب ابو محرز وتوسّط الجمع وهو يهمز ونادى بين الاطيار أنسيتَ ابا خديج اي جار وانا في المدار

حول هذه الديار آناء الليل واطراف النهار القط النمل الكبار
والصغار ولولا انا حارس مناخك ما ابقى لك النمل اثرًا
ولا لفراخك فكلٌّ منّا محتاجٌ الى جاره مغتبطٌ بجواره آمنٌ
بهِ في سربهِ ومطارهِ فارفع من بيننا هذا النكد ولا يمنّ منّا
احدٌ على احد فالحقوق ما تضيع بين الجيران كما تُراعى بين
الاصحاب والاخوان وكما تدين تدان ومع هذا فكلّنا نصلّي
على الملك سليمان ملك الانس والجان وسلطان الطيور
وسائر الحيوان فانّهُ بحسن عدلهِ اعتدل الزمان وبيُمن فضلهِ
صلح الكائن والمكان * ونحن ايضًا كذلك نشكر الله ربّ
الممالك اذ منّ علينا بهذا السلطان المالك ملك الوحوش
الاكابر وكاسر السباع الكواسر المشفق على الضعفاء والاصاغر
فلم يخلُ من فضلهِ سبعٌ ولا طائر * ثمّ نهضوا فوقفوا
ودعوا للملك وانصرفوا * هذا آخر الباب والله
اعلم بالصواب والحمد لله ربّ
* العـــالمين *

*

الباب السادس

في نوادر التيس المشرقيّ والكلب الافرقيّ

قال الشيخ أَبو المحاسن من مآء معارفهِ غير آسن ومَن
لمدود أَرض الفضل من فضائلهِ رواس وفي مشحون بحر
العلم من فواضلهِ مواس : فابتهج الملك لهذا الكلام وارتاح
لِما تضمّنهُ من الحكم والاحكام واستزاد اخاهُ من عقود هذا
النظام . فقبّل الارض في مقام الخدّام وقال : بلغني يا ملك
الانام أَنّ راعيًا كان يرعى ثلّةً من الاغنام وحَيْلةً من
المعز الجسام وفي ماشيتهِ تيسٌ مطاع كلّها لهُ أَتباع وهو
قديمها وقائدها وزعيمها وابو نتاجها وحمو نعاجها واصلهُ
من الشرق لم يكُن بينهُ وبين ابليس في الشيطنة فرق
اسمهُ الذميم التيس الزنيم وكان بواسطة الفحولة والكبر
والتقدّم في الحضر والسفر يستطيل ويصول وينطح الكباش
والوعول ويكسر اصحاب القرون من الفحول فيجرح ضعيفها
ويطرح نحيفها ويضرب بخالصها لفيفها الى أَن اباد اعيانها
وأَعجز رعيانها وطال منهُ العقوق فذهب بهِ الراعي الى
السوق ليبيعهُ ويستريح ويخلّص الماشية من شرّهِ ويريح .
فبينما هو يطوف اذا برجلٍ مهولٍ مخوف طويل القامة كبير

الهامة كانّهُ زبنيّ القيامة شثن اليدين ازرق العينين اسود الخدّين بثوب وسخ وطرطورٍ سنخ وسطهُ محزوم بسيرٍ مبزوم . فصادف الراعي وهو في السوق ساعي فمدّ يدهُ الى التيس وقال بكم هذا يا ابا الكيس فوقع بينهما الاتّفاق ووقع الزنيم في شبكة الرباق فتأمّل شكل القصّاب وصورتهُ القاضية بالعجاب فرأى رجلًا كانّهُ من الشياطين معلّقًا في وسطه عدّة سكاكين فدخلهُ الرعب ورجف من الرهب وأدرك بالفراسة انّهُ سيهلكهُ ويحذف راسه وقال: ظنّي والظنّ يخطئ ويصيب أنّي وقعتُ مع هذا في يومٍ عصيب وأنّهُ قاصد هلاكي ومقيمٌ عليَّ البواكي فالاولى الاحتراز والتأهّب قبل زمان الجزاز فإنْ حصل خير فما في الاحتراز خير وإنْ وقع على الاهلاك العزم فاتلقّى سيفهُ بما اعددتهُ من ترس الحزم فوزن الجزّاز الثمن وشحط الزنيم بالرسن وأتى بهِ مطابخ فقطعها الى مسالخ فشمّ رائحة الزهومه وأحسّ من الجزّار نكدهُ وشومه . فلمّا دخل المسلخ ورأى القصّابين هذا يذبح وهذا يسلخ واللحم شقّات على الجدران معلّقات وأنهر الدمآء كدموع العشّاق جارية. ورؤوس الغنم وجلودها وأكارعها كلّ كاشية هذه الكاشية في ناحية وهذه الكاشية في زاوية فرجف قلبهُ وازداد رعبهُ والتجأ الى الله تعالى وتاب اليهِ عمّا عليهِ من الذنوب وما لا فما واطأ القصّاب

المصارع انْ شدّ من المشرقيّ الاكارع وجدلهُ على الجدالة وأخرج لذبحهِ الآلة . فلمّا رأى هذه الحالة تحقّق ما كان ظنّهُ فاستحضر بالهُ وأيقن أنّهُ هالك لا محالة فنظر الى القصّاب وذكر ما قيل في حقّ الساب * شعر *

نظروا اليك بأعينٍ محمرّة * نظر التيوس الى شفار الجازر

فوجد السكّين كليلة ليس للذبح بها حيلة فطلب المسنّ ليحدّها ويريح ذبيحتهُ إنْ حدّها فتركهُ وذهب للمسنّ وقد تحقّق الزنيم ما كان ظنّ فتنفّس لهُ البلا وآرتخى عنهُ عقد القضا فتمطّى في رباط الاكارع فمزّقهُ بحيلٍ قاطع ثمّ وثب وقصد الهرب وخرج من الباب وصاحوا عليهِ هرّاب فلم يلتفت الى الصوت وفرّ فرار الموت وطلب الخلا وطريق الفضا فلم يزل في ميدان الجري جاريا حتى وصل الى ثغرةٍ خرج منها الى الصحرآء ناجيا فآنقطع عن ذلك الجنّي تابعهُ ولم يوجد من شياطين الانس رائيهِ وسامعهُ فآنتهى بهِ التسيار في تلك الصحاري والقفار الى جبلٍ فآوى فيهِ الى غار كان ياوي اليهِ مع المواشي أوان الامطار فأمسى فيهِ تلك الليلة الى وقت الاسفار * فلما أصبح الصباح خرج الى السراح وهو في نشاطٍ ومراح وجعل يرتاد أنيسًا ليكون جليسا او رفيقًا صالحا او صديقًا ناصحا يتآنس بهِ في الغربة ويمسح بأنامل موانستهِ ثقل الكربة وما يحصل على جبين راحتهِ من عرق القربة . وبينما هو ينشر البيدآء

ويطوي اذ سمع نباح كلب يعوي فترجّى الخير وزوال الضير ثمّ قصد نحوه فرآهُ مقبلاً من فجوه فناداهُ أهلاً بأحبّ الاحباب وأعزّ الاصحاب المفضّل على كثير ممّن لبس الثياب . فلمّا دنا منهُ بادر الى عناقه وتباكى لأليم فراقه فتعانقا تعانق المحبّين وتباثّا مباثّة مَن مضّهُ البين . ثمّ قال لهُ اعلم يا لطيف الحركات وكثيف البركات أنّ كلامنا غريب وكلّ غريب للغريب نسيب وانا قد تفرّستُ فيك وما تكاد فراستي تخطيك انّك رفيق صالح وشفيق ناصح وأحسن مليح ممالح وفي طريقة اخوان الصفا قيّم وراجح وانْ كانت الجنسيّة بيننا مختلفة لكن القلوب بحمد الله تعالى مؤتلفة وكم لك من اياد سابقة وصدقات متناسقة وكم حططنا في المراعي وبتنا في الحظائر نائمين وأنت لحفظنا ساعي تحرسنا من الغداة الى الرواح ومن المساء الى الصباح فأخبرني ما شانك وأين مكانك وما اسمك وما صنعتك ورسمك ومجيئك من أين وما حاجتك في البين *

قال : امّا اسمي فيسار وامّا مكاني فبلاد التتار وصنعتي راعي وسبب مجيئي ضياعي ولي صاحبٌ اسمهُ أقرق من دشت قفجاق بن شقرق كنتُ في خدمته راعي ماشيته فأضللتُ رعيتي وضيّعتُ حقّ حرمتي وأنا اطلب وليّ نعمتي لأمحو من وصمة الجفاء سيمتي فهذا شاني وجلّ بغيتي * قال الزنيم . انا من حين شاهدتُ في وجهك الانوار علمتُ أنّك يسار

وانّك معدن الذكاء والالقاب تنزل من السماء . وامّا طلبك لصاحبك ورعيتك فانّهُ دالّ على كمال مروّتك ولا يُنكر لك الرفاء فانّ بينك وبينهُ الوفاء مقام الصدق والصفاء ولم يقع بينكما قطّ بعدٌ ولا جفاء وشهرتك بحمد الله بجميل الصفات التي قلّما تجتمع في زكيّ الذوات ولا تصفو الاّ للاولياء والبررة المبرّزين الاصفياء من المسكنة والقناعة والجراءة والشجاعة وحفظ العهود والوفاء وكسر النفس والصفاء وعدم الحقد والحسد واطراح العجب والنكد والحراسة والسهر وقيام الليل الى السحر والتودّد الى الناس حتّى قال فيك بن عبّاس كلبٌ أمين خيرٌ من صديق خوون . وعندك من التهذيب وقبول التعلّم والتاديب ما يصيّر صيدك مذكي وسنّك كالشفرة مزكي وفي شانك يا ذا الوفاء والمنفعة قال الحرث بن صعصعة *

* شعر *

وما زال يرعى ذمّتي ويحوطني * ويحفظ عرسي والخليل يخون
فيا عجبًا للخلّ يهتك حرمتي * ويا عجبًا للكلب كيف يصون

ومن هذا الضرب ما رواهُ احمد بن حرب عن ذي العتاب منادم الكلاب انّ الكلب يكفّ عنّي اذاه ويكفيني اذى سواه ويشكر قليلي ويحفظ مبيتي ومقيلي فهو من بين الحيوان خليلي . ثمّ قال احمد بن حرب تمنّيتُ والله أن اكون مثل هذا الكلب لاحوز هذه الصفات وارقى هذه الدرجات وارجو

الله تعالى أن يعطفك عليّ ويقلب قلبك ووجهك اليّ بحيث ترغب في صحبتي وتميل الى صداقتي فترى اذ ذاك منّي بحمد الله تعالى من الاخوّة والصداقة والمروّة والرفاقة ما تنسى به كلّ صديق وتفضّل به الصاحب الجديد على العتيق فتترك سائر اصحابك وتلتهي بي عن اعزّ اوليآئك واحبابك خصوصًا بني آدم الذين انت بهم اعلم مَن اذهبتَ عمرك في خدمتهم والقيام بحقوقهم وحفظ حرمتهم وحراسة مواشيهم ودورهم وكمال فضلك في حياطة بيوتهم وقصورهم ورعاية رعيانهم وصيانة اهلهم وجيرانهم مع قناعتك منهم بما يفضل عنهم من كسرة خبز شعير او عظم يابس كسير او فضلة مرقة قدير واضاعتهم حقوق خدمتك ونسيانهم موجبات شفقتك حتى لو وصل فمك الى زادهم او الى شيء من عتيد عتادهم رموك بالحطب ورضّوا راسك بالحجارة والخشب ولو ولغتَ في انآئهم او شربتَ من مآئهم ما قنعوا في تنظيفه وتطهيره وتشطيفه بمرّةٍ ولا مرّتين ولا اكتفوا في ازالة لعابك بالعين بل دوّنوا الغسل بالحساب وعفروا الوعآء بالتراب ويعدّون ذلك من التعبّد ولا يرعون مالك من تحبّبٍ وتودّد . وانا ارجو أن ترتفع منزلتك وتعلو درجتك ويساعدك ربّ العرش حتى تصير سلطان السباع وملك الوحش وأجتهد في هذه القضيّة الى أن ابلغ هذه الامنيّة واكون السبب في ذلك

الى أن تصير رئيس الممالك فانّ لك عليّ حقًّا قديمًا وفضلًا جسيمًا طالما نمنا آمنين في ظلّ حراستك ورعينا مسرورين مكنوفين بحياطتك واجلنا منك في الخاطر ما قال الشاعر

* شعر *

بقآؤك فينا نعمة الله عندنا * فنحن باوفى شكرها نستديمها

قال يسار: يا اخي جميع ما قرّرتهُ صحيح مقبول داخلٌ في الفصل خارجٌ عن الفضول ولكن انا من جنس السباع مجبولٌ على ما لهم من الطباع ومع هذا فانا عدوّهم وبسببي يزول هدوّهم وانا لم اعادهم الّا فيكم ولا لي وادٌّ الّا في ناديكم فانّ تربيتي بينكم وعيني مقارنة عينكم وانا اليكم اقرب منّي اليهم ومعوّلي عليكم دون معوّلي عليهم وعلى هذا وجدتُ آبآئي واجدادي ونشأتُ من حين ميلادي والخروج عن طريقة الآبآء دليلٌ على العقوق والاباء وهو امرٌ مذموم وهذا شيء معلوم وقد قال صاحب الشرع : الحبّ يتوارث والبغض يتوارث ولكن يا سليم الطباع وخصيب الرباع قولك تصير سلطان السباع سخريةٌ منّي واستهزآء ولا استحق منك هذا الجزآء فانّ معنى هذا القيل امرٌ مستبعدٌ بل مستحيل انّ ابا طاهر نجس العين فانّي من اين وهذا الهوس من اين فان اردتَ اعانتي على ذلك وتكلّفتَ لي برياسة الممالك فكلانا في هذا الهوى سوا وانّ صممنا على ذلك فما لجنونا دوا وهذا

الوسواس من خيالات الافلاس وفي مثل هذا الحال قال مَن صدق في المقال لا خيل عندك تهديها ولا مال . وانا اعلم بانّك تتكلّم بما يطيّب خاطري ويسرّ سرائري ويقرّبك في الحبّ من ضمائري * قال المشرقيّ لا تقُل ذلك يا تقيّ فانا شاهدتُ في جبينك مخايل السيادة ومن شمائلك تقاطر السعادة وقد قيل يا فضيل: المرء يطير بهمّته كما يطير الطير بجناحه. وانا ارجو الله تعالى أنْ ييسّر لي القيام بجميع ما قلته يا امام وانا أُجلسك على السرير وأُقيم في خدمتك الكبير والصغير وارفع راية مراسيمك وانفذ اوامرها في ممالكك واقاليمك واجعل جنود الوحش تحت رايتك واقاليم القفار كلّها تحت ولايتك ولكن بشرط أنْ تتبع ما أراه ولا تخرج عن طوره ولا تتعدّاه وتعمل بكلّ ما أشير اليه ومهما ارشدتك اليه تعوّل عليه * فقال انا طوع يديك وجميع اموري منك واليك فقُل فانّي سامع ولامرك طائع فانهض وعانِي هذه الاماني عسى يصير هذا الباطل حقّا وينقلب هذا الكذب صدقا وقُل ما تقتضيه لاتبعه وأرتضيه * قال : ترجع عمّا انتَ عليه من الأخلاق السبعيّة والأوصاف الكلبيّة من الحرص والشره والتكلّب والتره والنفس المتمرّة والطبيعة المذمرة وتصوم عن الدمآء واللحوم وعن تمزيق الحيوانات وتفريق الجماعات وتحمل النفس على الاخلاق الجميلة والتلبّس بالاوصاف

الفضيلة من العفّة والكرم والعفو عمّن ظلم والقناعة بالنبات عن لحوم الحيوانات ومعاملة الكبير والصغير بالفضل الكثير . والبذل الغزير وتلافي خاطر الخطير والحقير ليسهل العسير وينقاد لك المأمور منهم والامير وهذا امرٌ عليك يسير . وهذا لانّك طالما جرحتَ جوانحهم وكسرتَ جوارحهم واصطدتَ سارحهم وأبدتَ جوارحهم فهم منك متخوّفون والى الايذآء والضرّ منك متشوّفون . واذا رأوا شيئًا خلاف العادة وعلموا أنّ ولايتك فيها الحسنى وزيادة وأصابوا الخير من مواقع الضير ورأوا ما سرّ من مواضع الشرّ والضرّ تشرّب محبّتك منهم الكبير والصغير وانهاك أنْ يراك من الوحوش البهيمة والنفير فيتّخذك الغريب حبيبا ويصير البعيد منك قريبا فتصيد بالمحبّة أرواحهم كما كنتَ اولاً تبيد اشباحهم. واذا ضرب صيتك في الارض ونشر درّهُ بالطول والعرض وتسامعت بك الوفود وتحقّقوا أنّك عدلتَ عن خلقك المعهود أقبلت اليك منهم الجنود وزان جيد جنودهم من جواهر محبّتك عقود وانعقدت بينكم بالمحبّة والولآء عقود العهود فتوفّرت اذ ذاك جنودك وعلت على رؤوس الاقران راياتك وبنودك وجعلوا ذراك مأواهم وحماك مصيفهم ومشتاهم مع أنّ هيبتك في قلوبهم مركوزة وأسنّة مخافتك في احشائهم من قديم الزمان مغروزة وأعلى مَن فيهم يهابك ويخشاك ويتوقّى مكانك ويتحاشاك *

قال يسار : اعلم يا خير سارٍ انّ حبال الآمال ومطالع الخيال ما لم تتعلّق بمامول ولم ترتبط باطراف سول فالنفس ساكنة والروح مطمئنّة هادئة والقلب فرح والخاطر منشرح اذ الطمع ذلٌّ وشين واليأس احدى الراحتين ومتى تعلّقت بذيل المطامع مخاليب الآمال وبلغت الى حصول مامول الخيال وقامت النفس في تحصيله وتحرّكت الجوارح لنيل مأموله وانبعثت الهمّة الى ادراكه وتعلّق القلب بسير افلاكه توزّعت الافكار وتفرّقت وتمزّعت الخواطر وتمزّقت وركب لذلك كلّ صعبٍ وذلول وتقاذفت النفس في كلّ مخوفٍ ومهول وتقلّدت بحمائل قول القائل ＊ شعر ＊

اذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ＊ فاوّل ما يجني عليه اجتهادهُ

ثمّ اذا لم يحصل المأمول ولم تبلغ والعياذ بالله النفس السول مع بذل هذا الجهد والمبالغة في السعي والكدّ ومقاساة التعب ومعاناة النصب ترادف النكد وتضاعف السهد وصارت النفس لهذا البدد وكان في جيد حياتها من فوات المقصود حبلٌ من مسد فلا تزال بين تشويش ضمائر وتقسيم خاطر وفكر غائبٍ وهمّ حاضر . وهذا الامر الذي عزمتَ عليهِ وهممتَ بالترقّي الى عدم الحصول أقرب منهُ الى الوصول . وانا اخاف وذا غير خاف أنْ يغرّنا الطمع في هذه الحركة فينتزع من فراغ أوقاتنا البركة ولا نحصل الّا على مثل ما

حصل لمالك الحزين من السمكة ＊ قال الزنيم : نبّئني ايّها العليم بذلك المثل القويم ＊

قال : بلغني انّهُ كان في مكانٍ مكين ماوًى لمالك الحزين وفي ذلك المكان غياضٌ وغدران تضاهي رياض الجنان : ＊ شعر ＊

حكى بانّها قدَّ الحبيب تمايلا ＊ فجنّ وفي هذا الجنون تفنّنا

فدار عليه النهر وهو مسلسل ＊ فقيّدهُ اذ قد جنا وتجنّنا

وفي مياهه من السماك ما يفوق سابحات السماك فكان ذلك الطير في دعةٍ وخير يزجي الاوقات بطيب الاقوات وكلّما تحرّك بحركة كان فيها بركة حتى لو غاص في تلك البحار والغدران لم يخرج الّا وفي منقاره سمكة ＊ فاتّفق انّه في بعض الآناء تعسّر عليه اسباب الغذا وآرتجّ لفوت قوته ابواب العشا فكان يطير بين عالم الملك والملكوت يطلب ما يسدّ الرمق من القوت فلم يفتح عليه بشيء من أعلى السماك الى أسفل الحوت وآمتدّ هذا الحال عدّة ايامٍ وليال فخاض يومًا في الرقراق يطلب شيئًا من الارزاق فصادف سمكةً صغيرة قد عارضت مسيره فآختطفها ومن بين رجليه التقفها . ثمّ بعد اقتلاعها قصد الى ابتلاعها فتداركت زاهق نفسها قبل استقرارها في رمسها فنادت بعد أنْ كادت أنْ تكون بادت ما البرغوث ودمه والعصفور ودسمه اسمع يا جار الرضا

وَمن عمرنا في صونهِ انقضى لا تعجّل في ابتلاعي ولا تسرع في ضياعي ففي بقآئي فوائد وعوائد عليك عوائد وهو إنّ أبي قد ملك هذا السمك فالكلّ عبيدهُ ورعيّته وواجب عليهم طاعته ومشيئتهُ ثمّ انّي واحد أبويّ واريد منك الابقآء عليّ فانّ أبي نذر النذور حتى حصل لهُ بوجودي السرور فما في ابتلاعي كبير فائدة ولا اسدُّ لك رمقًا ولا اشغل لك معدة فتصير مع أبي الفضيل كما قيل فافقرني فيمَن احبّ ولا استغني فالاولى أن اقرّ عينك واعرف ما بين ابي وبينك فاكون سببًا لعقود المصادقة وفاتحًا لاغلاق المحبّة والمرافقة ويتحمّل لك الجميلة والمنّة التامّة والفضيلة . وأمّا أنا فاعاهدك إنْ أعتقتني ومننتَ عليّ واطلقتني أن اتكفّل لك كلّ يومٍ بعشر سمكات بياض سمان ودكات تأتيك مرفوعة غير ممنوعة ولا مقطوعة يرسلها اليك أبي مكافأةً لما فعلتَ بي من غير نصب منك ولا وصب ولا كدّ تتحمّلهُ ولا تعب . فلمّا سمع البلشون هذا المجون أغراهُ الطمع فما ابتلع فسها ولها ثمّ قال لها : أعيدي هذه الرمزة فبمجرّد ما فتح فاهُ بالهمزة انملصت السمكة منهُ بجمزة وغاصت في المآء وتخلّصت من بين فكّي البلآءِ ولم يحصّل ذلك الطمّاع الاّ قطع الاطماع * وانّما أوردتُ يا ذا الدراية . هذه الحكاية لتتأمّل عقبى هذا الامر قبل الشروع فيهِ وتتدبّر منتهى أواخرهِ في مباديهِ فقد قيل : أوّل الفكر آخر العمل *

قال المشرقيّ اعلم يا مرتقي أنّ مبنى الامور في مجاريها وقواعد ما اسّس عليهِ مبانيها حسن التوكّل على خالقها والانقياد ليد تدبير باريها والمرء يسعى في تحصيل مرامهِ ولا يترك شيئًا من اسباب قيامهِ كقول القائل * شعر *

اذا ما كنتَ في امرٍ مروم * فلا تقنع بما دون النجوم
يرى الجبنآء أنّ العجز حزم * وتلك خديعة الطبع اللئيم
فطعم الموت في شيء حقير * كطعم الموت في شيء عظيم

وحسبك يا ذا الصولة ما اتّفق من السعد لعماد الدولة * فسالهُ يسار عن سرد هذه الاخبار *

قال : كان رجل صيّاد لهُ ثلاثة اولاد كأنّهم حمك وقوتهم السمك تقلّبت بهم الاحوال حتى صاروا برياستهم على الدنيا احمال وانتهوا في الرياسة وساسوا الخلق احسن سياسة وانتشر امرهم وطاب في الدهر ذكرهم . وممّا ملكوهُ العراقان والاهواز وفارس وسرتها شيراز اكبرهم ابو الحسن عليّ بن بويّة الملقّب بعماد الدولة وكان في السلطنة ذا جولةٍ وصولة . ولمّا انتهت ايّام خمولهِ واتّصل بالسعد اسباب وصولهِ حلّ ركابهُ بشيراز وصعد الى حقيقة الملك من المجاز ووفدت عليهِ الوفود واحاطت بهِ جموع الجنود وطالبهُ أهل المراتب بالرواتب والرِوامك بالجوامك والرقاق بالانفاق والاجناد بالارفاد وارباب الولايات بالخلع والجرابات واصحاب الاقامات

بالنفقات والانعامات ولم يكن في خزائنه من ظاهر المال
وباطنه ولا في ذخائره من ظاهر الرفد وضمائره ما يسدّ
رمقهم ويبردُ شرقهم فتراكمت همومهُ وتصادمت غمومهُ وتوالت
افكارهُ وتجاذب به من بحر الحيرة دردورهُ وتيارهُ لانّ امرهُ
كان في مباديه وليل سعده في هواديه وقد قصرت عن طول
الطول اياديه واشرف امرهُ على الاختلال وملكهُ على
الاضمحلال ووقع في يوم لا بيع فيه ولا خلال فدخل الى
مكان منال وهو مشغول البال فاستلقى فيه على ظهره
وغرق في بحار فكره . فبينما هو يلاحظ السقوف وافكارهُ بين
تردّد ووقوف واذا بحيّة عظيمة بجثّة جسيمة من السقف
خرجت ودرجت وفي مكان آخر ولجت فوثب واقفا ورقب
خائفا لئلّا تسقط عليه ويصل اذاها اليه ودعا الفرّاشين
وجماعة فتّاشين بمعاول النبّاشين وامرهم بنصب السلّم والفحص
عن الارقم وتتبّع آثارها واطفآء شرارها فصعدوا الحيطان
وحفروا ذلك المكان وخرقوا سقفه فانفتحت لهم غرفه
كانت مخبأ لمن تقدّمه وضع فيها ديناره ودرهمه وفيها عدّة
صناديق محكمات التوثيق والمغاليق فاطلعوهُ على تلك الخبيّة
والتهوا عن طلب الحيّة الجبيّة فامرهم فنقلوها اليه ووضعوها
بين يديه فاذا فيها من الذهب النضار خمسماية الف
دينار فعرف أنّ ذلك عناية ربانيّة ومواهب صمدانيّة رحمانيّة

فصرف المال في اصلاح حاله وبذرهُ في مزارع قلوب خيله
ورجاله فثبتت اوتاده واستقامت اجناده وقويت سواعده
واعضاده وكان امرهُ قد اشرف على الاختلال وعقد نظامه
على الانفراد والانحلال * وكان من تمام هذه السعادة وتعقيب
هذه الحسنى بالزيادة انّ الملك المذكور بعد هذه الامور
وحصول هذا السرور وانتظام مصالح الجمهور اراد تفصيل
قماش وخياطة خلع ورياش فطلب خيّاطا ثقة ليقلّدهُ هذه
المنطقة فأرشد الى خيّاط ماهر شكله زاهر وفضله ظاهر
وحذقه في صناعته باهر الّا انّه اطروش حقل سمعه بدبى
الوقر مدبوش فما يصل ملك الكلام الى سرير صماخه الّا
بزمر وطبل وجاوش . فدعاهُ فاجلسه بين يديه وطلب
الثياب ليعرضها عليه فتصوّر الخيّاط أنّهُ سُعي به اليه
بسبب وديعة كانت لصاحب البلد لديه وانّما طلبهُ ليطالبه
فامّا يؤدّيها او يعاقبه فتقدّم باليمين مثل المصارعين واقسم
بالله خالق المخلوق ورازق المرزوق انّها اثنتا عشرة صندوق
لم يشعر بها مخلوق وانّه لا يدري ما فيها وانّها مختومة
بختم معطيها . فعجب عماد الدولة من كلامه وسجد لله شكرا
على انعامه ثمّ وجّه معهُ مَن اتى بها ودخل الى بيوت ما
فيها من ابوابها فكان ما فيها من الاموال ونفائس القماش
العال جمل متكاثرة واصناف متوافرة واستولى على ذلك كلّه

وثبت بواسطة المال في ركاب الملك واطئ نعله * وانّما اوردتُ هذا التنظير باذا الراي والتدبير لتعلم أنّ مسبّب الاسباب وميسّر الامور الصعاب اذا دبّر مصالح عبدهِ وشملهُ باحسانه ورفدهِ هوّن عليهِ كلّ عسير وصغّر عندهُ كلّ كبير وانت بكلّ هذا بصير * قال يسار: صدقتَ وصوابًا نطقتَ ولكنّي نظرتُ الى الدنيا ورزتُ أحوالها السفلى والعليا ورأيتُ كلّما آزداد الشخص حرصًا وطمعا ازداد لنفسهِ عبوديّةً وتبعا وللدنيا رقا وللآخرة رشقا فصارت قيودهُ أثقل وحسابهُ أشدّ وأطول وهمومهُ أتمّ وغمومهُ أعمّ وأنّ الوائق بالدنيا والراكن الى ما فيها من أشيا كالجاعل لهُ من السحاب حصنا ومن الحباب كنّا وأيُّ وقاية تحصل من السحاب وأيّ ايواء يصدر من الحباب . ومَن تأمّل الدنيا بعين التبصُّر وتفكّر في تقلّباتها بصيب العقل والتدبُّر عدّ جمعها شتاتا ووصلها انبتاتا ومجيها ذهابا وشرابها سرابا واقبالها ادبارا ونسيمها اعصارا وعطآءها أخذا وعهدها نبذا وصلتها فلذا ووهبها نهبا وايجابها سلبا وحربها سلما ووجودها عدما وكثرتها قلّا وعزّها ذلّا وضحكها نياحة واطلاقها راحة فلم يكُن عندهُ أحسن من فراقها ولا ارحص من طلاقها والقناعة منها بالكفاف والرضا منها بالعفاف كما سلك الفلّاح صاحب الماشية واستراح * فقال الزنيم أخبرني كيف كان

ذاك يا حكيم * فقال: إنّ مخدومي الذي كنتُ عندهُ أحفظ ماشيتهُ وعبدهُ كانَ ذا ثروةٍ عظيمة واموالٍ كثيفة جسيمة وكان ماشيتهُ لا تزيد في القياس عن الفٍ رأس وإنْ حَصل من النتاج المعهود ما يزيد على هذا القدر المعدود تصدّق بهِ او باعه او وهبهُ لبعض الجماعه ولو اراد لجعلها أُلوفًا مؤلّفة واضعافًا مضاعفة وكان في الجيران والاصحاب والاخوان مَنْ هو اقلّ منهُ مالا واقصرُ باعًا واضيقُ مجالا لهُ الالوف من المواشي وكذلك من الخدم والحواشي وهم في كلّ وقتٍ في ازدياد وتضاعف الاعداد من الاصول والاولاد ومخدومي لا يقصد الزياده وإنْ زاد شيٌ أباده * فقال لهُ الراعي وكان عليها اشفق ساعي يا مخدوم مالك لا تريد أنْ تزيد مواشيك وحواشيك وتكثر بالرفق والرفد فواشيك وبالورود والاصدار غواشيك فانّ المواشي تزداد فوائدها وتتوفّر عوائدها باعتبار زيادة اصولها وادرار منافعها ومحصولها وجيراننا كانوا اقلّ عددًا من هذا المقدار فصاروا بالتوفير اكثر عددًا في الاغنام والابقار فزادوا على مواشينا بعد أنْ كان اوساطهم كحواشينا ولا اعرف لهذا موجبا ولا ادري لهُ سببا غير الاهمال وقصد تضييع المال * فقال لهُ مخدومي هذا محيطٌ بهِ معلومي ولكن ايُّها الولد اعلم أنّ انواع العدد آحادٌ وعَشَرات وأُلوفٌ ومِيئات فالالوف غاية الاعداد اذا

اعتبرنا التعداد والشيء اذا جاوز غايتهُ وتعدّى نهايتهُ أَخذ في النقص واذا بلغ مداهُ تراجع بالنكص وقد قيل : الشيء اذا جاوز حدَّهُ شاكل ضدَّهُ ومَن لم يقنع بالقليل لم يرضَ بالجزيل ولقد احسن المقال وصدق فيما قال مَن قال

* شعر *

وما الدهر الّا سُــلَّمٌ فبقدر ما * يكون صعود المرء فيهِ هبوطهُ
وهيهات ما فيهِ نزول وانّمــا * شروط الذي يرقى اليهِ سقوطهُ
فمَن كان أعلى كان أوفى تهمّما * وفآءً بما قامت عليهِ شروطـهُ

وكثيرا ما رأيتُ وسمعتُ ووعيتُ عن اصحاب الالوف القاصدين الازدياد المألوف نزلت أُلوفهم الى الواحد من الاحاد فاستولى عليهم لذلك الهموم والانكاد فتكدّرت خواطرهم واشتغلت ضمائرهم وامّا انا فلم اعلم أنّ الفي نقص ولا جاري حلبة مداهُ نكص فاذا عدّى غايتهُ الزمتهُ نهايتهُ وكبحت جامح طرفهِ وكففت طامح طرفهِ طلبًا للراحة ورغبةً في الاستراحة * شعر *

فكم دقّت ورقّت واسترقّت * فضول العيش أعناق الرجال

وانّما اوردتُ هذا التمثيل لتعلم ياذا التفصيل انّي ما دمتُ لهُ خادما وفي صفّ الخدمة قائما ولم اتعدَّ طوري وهو مقام الخادميّة الى ما ليس لي وهو مقام المخدوميّة فانا مستريح ولغيري مريح ونفسي مطمئنّة وجوارحي عن طيش السعي مرجحنّة

واصحابي احبابي واحبابي اصحابي والخواطر صافية والمحبّة وافية والصداقة باقية ومياهُ المودَّة في رياض الارواح ساقية وفي عروق الاشباح واقفة جارية . فاذا رمتُ مع وجود هذه الحسنى الزيادة وقصدتُ التعدّي الى ما ليس لي بهِ عادة فانا بين امرين متقلّبٌ على جمرتين إمّا عدم الحصول والانقطاع عن الوصول فتتضاعف المنكدات وتترادف المقسمات وبحسبها تصل الهموم وتحصل الغموم كما مرّ سالفا وذُكر آنفا . وامّا الظفر بالمراد على حسب ما يُراد فبقدر ذلك يقع الصداع ويقوم التحاسد والنزاع واوّل ذلك معاداة الاصحاب ومعاناة الاحباب ومقاساة الاتراب وحصول الضغائن وبزوز المكامن بواسطة الترفُّع عليهم وصدور المراسيم والتقدُّم بامتثالها اليهم فالأَولى بحالي التفكّر في مآلي واللائق بشوري أنْ لا اتعدّى طوري ولا انورّط في هذا البحر العميق والبئر الغميق ولا اخرج عن سوآء الطريق فتهوي بي طير الهوان في مكانٍ سحيق * شعر *

وانّي يسارٌ خائفٌ أن يردّني * زماني بما لاقى يسار الكواعب

قال المشرقيّ ابو زنمة ما أُحسن هذه الكلمة وأُيمن هذا النظر وأُرصن هذه الفكر وادقّ معاني هذه المباني ولكن اذا رفعك الله مَن يضعك واذا أَعطاك من يمنعك * * شعر *

وكلّ الناس تطلب المعالي * ونفس الحرّ تأبي أن تُضاما

فلمّا بلغ بهما الكلام الى هذا المقام . قال يسار : اعلم يا فحل الفحول وامام المعقول والمنقول أنّي ما بالغتُ في الامتناع الاّ لأقف على ما فيك من طباع أسبر ثبوت قدمك وثباتك ورأي كلمك فلقد وجدتك في هذا الامر الخطير فوق ما في الضمير وفي مواطن الاختبار أثبت جنانًا من آبن الليث الصغار فآنهض لقصدك وحركته على خيرة الله تعالى وبركته فاني وضعتُ عنان جموح هذا المرام في يد تدبيرك وجعلتُ واسطة هذا العقد جوهرة تفكيرك وسلك نظامه ونظام قلادته جودة تصويرك فانّك أهلٌ لذلك وبرايك تقتدى المسالك * فآبتهج أبو زنمة بهذا المقال ووثب قائمًا في مقام الخدمة وقال : حيثُ آنشرح صدرك لكلامي فسترى في وجهك مجالس قيامي وانا اعلم أنّ معبودك سيبلغك مرامك ومقصودك ولكن يجب التيقّظ وقبل الشروع التحفّظ . امّا التيقّظ فلامور يجعلها الملك مقتدى ولا يغفل عنها أبدا كما فعل الملك الظاهر الموفّق أبو سعيد محمد جمقمق حين آضطربت الاوامر وآختلفت العساكر وآصطدمت الامور وخرج عليه من عساكره الجمهور وقلّ المعين وذلك في سنة اثنتين وأربعين فعصى تنكرى وتترّس في حلب وقام بالراكة الجلب واينال الجلي بالشام وكاتبه الطغام والعظام وهرب بالقاهرة العزيز وأزت الشياطين فآشتدّ الازيز وتخبّط بالصعيد العربان وفشا في

عساكر الاسلام الطربان فسفه الحليم وجار الحكيم وضلّ كلُّ ذي رأيٍ قويم فثبت الملك الظاهر جاشهُ وتعرّف الى الله تعالى فأزال استيحاشهُ وأصفى سرائره ولم تزل سيرتهُ طاهره فكان الله عونهُ وناصره فأطفأ بادنى لطفه شواظ تلك النائره وقد بسط ذلك في سيرته الظاهره فتبدّل الجحيم بالنعيم ورفع الله تعالى عن الاسلام والمسلمين العذاب الاليم كلّ ذلك بثبات القدم وعلوّ الهمم ولم تحصل هذه الفعلة الزكيّة الرائعة الّا بالطويّة الطيّبة والنيّة الصالحة . وأمّا التحفّظ فمن موادّ شرور ملتبس بها الجمهور منها الحقد والملال والكذب في المقال والحسد والاحتيال فانّ الحقود وقود والحسود لا يسود والكذوب يذوب والملول لا يطول والمحتال مغتال وباقي النصائح الزكيّة الروائح تأتيك بالسعد فيما بعد وانا الآن اقدم للبيان واذكر الاهمّ وما فائدته أعمّ قبل الشروع امام المقصود وهو تأكيد مواثيق العهود فانّهُ اذا حفتك الجنود وأحاط بك أرباب الرايات والبنود وأنتَ جالس على السرير وفي خدمتك المأمور والامير والكبير والصغير يعثر على استيفاء الخطاب وآستيعاب الجواب ولا يليق بعظمتك ومقام حرمتك اطالة الكلام ولو آقتضاهُ المقام خصوصًا بحضور الخاصّ والعامّ ولو كان المتكلّم أعزّ الخدّام وأقرب الالزام فلا أقدر أنْ أتجرّأ عليك وأنهي جميع ما أريدهُ اليك لانّ قصد الخادم اقامة حرمة مخدومه والمبالغة في حفظ

ناموسه وتعظيمه وكثرة الكلام تمنعهُ عن هذا القصد وتدفعهُ .
وأمّا في هذا الوقت فانّ كثير كلامي لا يورث شيئًا من المقت
فلا حرج على كلامي كيفما خرج * قال يسار : بارك الله فيك
وأبقاك لذويك فما ادق نظرك وأحسن في عواقب الامور
فكرك وأصوب غوصك على جواهر الانتقاد وأغرب بوصك
الى زواهر الاعتقاد فقل ما بدا لك فما يزين حالي وحالك
فانّ حرمتي حرمتك وحشمتي حشمتك فانْ عظّمتني فقد
عظّمتَ نفسك وانْ وقّرت مالي فقد زدتَ كدسك والخادم
اذا لم يقصد رفعة مخدومه ويعدّ ذلك من أكبر همومه ويسعى
فيه ساعةً فساعة وفي كلّ مكانٍ وعند كلّ جماعة والّا فيدلّ
ذلك على خساسة مقداره وقصور نظره ولوم نجاره وركاكة همّته
واستبذال حرمته * فقال أبو زنمة أوّل شروطي يا ذا العظمة
أنْ لا تقرب المؤذين ولا تلتفت الى الاشرار المغتابين ولا تضيّع
الاوقات في الاصغاء الى القينات ولا تسمع كلام واشٍ وتعدّ
كلامهُ أقلّ من لاش ثانيها ان لا تعجّل في فصل الحكومات
بل تتعاطاها بالتفتيش والالتفات الى أنْ تتجلّى صورتها
وتتعيّن حقيقتها فاذا اوضحت لديك وتجلّت مخدّرة حقيقتها
عليك اجهد فيها بالصدق واعمل بما يقتضيه الحقّ ثالثها
أنْ لا تعوّد لسانك الفحش والبذاءة فانّ في ذلك على الملك
أسوأ اساءة فانّ الكلام يؤثّر في القلوب وينفر من قبيحه

الطالب والمطلوب وقد قيل : * شعر *

جراحات السنان لها التئام * ولا يُلتام ما جرح اللسان

وكما يجب على الملك كفّ اللسان الفصيح عن الكلام البذيّ
القبيح كذلك يجب عليهِ أن لا يصغي اليهِ ويتامّل قول
الشاعر : * شعر *

وسمعك صُن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به
فانّك عند سماع القبيح * شريكٌ لقائله فانتبه

وهذا الامر يا مخدوم لكلّ أحدٍ معلوم على العموم . واما اكابر
السلاطين والملوك الاساطين فهم أعلى مقاما أن يكون الفحش
لهم كلاما وأنْ يجري في مجالسهم او يُسمع من محادثهم ومجالسهم
وكلّ ملك اعتاد مجلسهُ فاحش الكلام اختلّ نظامهُ ومقتهُ
الخاصّ والعامّ ونفرت عنهُ قلوب الرعيّة وبحسب رغبة الرعيّة
تكون الممالك راضية مرضيّة واذا نفرت قلوب الرعيّة كرهوهُ
وتوقّعوا غيرهُ ليقوموا معهُ وينصروهُ واذا لم يوجد عقدوا الحقود
واستمرّوا اذلاّء كاليهود والبغضة كامنة والحسائف باطنة
فتقدّم العداوة وتتقدّم وتتأكّد وتتأزّم واذا قُدّمت العداوة
ذهبت من الصداقة الحلاوة فلا بدّ يومًا من الايام أنْ تبرز
رأسها من جيب الانتقام واذا وجدوا فرصة وثبوا عليه
وقصدوا قصّه كما جرى للقبيرة مع الهريره * قال يسار بيّن
لي هذه الاخبار *

فقال : ذكر شخصٌ معتبر من رواة الخبر أنّ في القديم كان رجلٌ عديم وعندهُ قطٌّ ربّاه وأحسن مربّاه فكان عندهُ كالولد الاعزّ واكرم من ابن الفرات عند ابن المعتزّ وكان القطّ قد عرف منهُ الشفقه وألِف منهُ المودّة والمِقه فكان لا يبرح عن مبيته ولا يسعى لطلب قوته فحصل له هزال وتغيّر ما لهُ من أمرٍ وحال لا عند صاحبهِ ما يغذيهِ ولا هو ذو قوّةٍ على الاصطياد تغنيهِ الى أنْ عجز عن الصيد فصار يسخر بهِ من أراذل الفيران كلّ عمروٍ وزيد وصار كما قيل : * شعر *

خلت الرقاع من الرخا * خ وفرزنت فيها البيادق
وتسابقت عرج الحمير * فقلتُ من عدم السوابق
وسطا الغراب على العقا * ب وصاد فرخ البوم باشق
سكتت بلابلة الزما * ن واصبح الخفّاش ناطق

وايضًا

واذا خلا الميدان من أُسدٍ * رقص ابن عرس وتوسّ النمس

وكان في ذلك المكان ماوى لرئيس الجرذان وفي جوارهِ مخزن لسمّان فاجترأ الجرذان لضعف ابي غزوان وتمكّن من نقل ما يحتاج اليهِ وصار يمرُّ على القطّ آمنًا ويضحك عليهِ الى أن امتلأ وكرهُ من انواع المآكل والمطاعم وحصل لهُ الفراغ من المخاوف والمزاحم واستطال على الجيران واستعان بطوائف الفيران على العدوان . فافتكر الجرذان يومًا في نفسهِ فكرًا

اداهُ الى حلول رمسهِ وهو أنّ هذا القطّ وإن كان عدوًّا قديمًا ومهلكًا عظيمًا لكنّهُ قد وقع في الانتحال وضعف عن الاصطياد لقوّة الهزال وقوّتي انّما هي بسبب ضعفه وهذا الفتح انّما هو حاصلٌ بحتفه ولكنّ الدهر الغدّار ليس لهُ على حالةٍ استمرار فربّما يعود الدهر عليه وترجع صحّتهُ وعافيتهُ اليه فانّ الزمان الكثير الدوران ينهب ويهب ويعطي ما سلب ويرجع فيما وهب كلّ ذلك من غير موجب ولا سبب . واذا عاد القطّ الى ما كان عليه يتذكّر من غير شكّ اساءتي اليه فيثور قلقهُ ويفور حنقهُ ويأخذهُ لاذاي والانتقام سهرهُ وارقهُ فلا يقرّ لي معهُ قرار فاحتاج بالاضطرار الى التحوّل عن هذه الديار والخروج عن الوطن المالوف ومفارقة السكن المعروف امر صعب مشوم الكعب فلا بدّ من الاهتمام قبل حلول هذا الغرام والاخذ في طريقة الخلاص قبل الوقوع في شرك الاقتناص ثمّ انّهُ ضرب اخماسًا لاسداس في كيفيّة الخلاص من هذا الباس فاداهُ الفكر الى اصلاح المعاش بينهُ وبين ابي خراش ليدوم لهُ هذا النشاط ويستمرّ بواسطة الصلح بساط الانبساط فرأى أنّهُ لا يفيدهُ ما يريدهُ الّا بزرع الجميل من كثيرٍ وقليل خصوصًا في وقت الفاقة فانّهُ اجلب للصداقة وابقى في الوثاقة ثمّ بعد ذلك يترتّب عليها العهود ويتأكّد ما يقع عليهِ الاتّفاق من العقود وهو أن يلتزم الجرذان أن

لابي غزوان في كلّ غداه من طيب الغذآء ما يكفيه لغداهُ وعشاه لانّ الشيخ في الدرس قال : خير المال ما وُقيت بهِ النفس الى أن يصحّ جسدُهُ ويردُّ اليهِ من عيشهِ رغدهُ ويكون ذلك سببًا لعقود الصداقة وترك العداوة القديمة المساقه وأن تشترط دوام المحبّة وازدياد الوداد والصحبة وأن لا يقصد ابو الهيثم ابا راشد بشيءٍ من الاذى والشرور والمفاسد ويعمل هذا الهرّ بموجب ما قال الشاعر *

انّ الكرام اذا ما اسهلوا ذكروا * مَن كان بالفهم في المنزل الخشن

ثُمّ انّ الجرذان جمع من الاخباز والاجبان واللحم القديد والمطعم المزيد ما قدر على حملهِ ونهضت قوّتهُ بنقلهِ وقصد مقام الهرّ وسلّم عليهِ سلام مكرم مبرّ محبّ قديم وصديق حميم وقدّم ما معهُ اليه وترامى بكثرة التودُّد والاشتياق عليه وقال يعزُّ عليَّ ويعظم لديَّ انّي اراك يا خير جار في هذا الضرر والاضطرار ولكن العاقبة الى الخير وسيقبل السعد باحسن طير فتقدّم ايُّها الخيطل وكُلْ من هذا الماكل فاذا سددت خلّتك كلّمتك بشيءٍ استشير بهِ خدمتك فانهُ قد قيل

* شعر *

انّ الصداقة اولاها السلام ومن * بعد السلام طعامٌ ثمّ ترحيبُ

وبعد ذاك كلامٌ في ملاطفةٍ * وضحك ثغرٍ واحسانٌ وتقريبُ

واصل ذلك أن تبغي شمائلها * بين الاحبّة تاييدٌ وتاديبُ

لم تنسَ غيبًا ولم تملل اذا حضروا * قد زان ذلك تهذيبٌ وترتيبُ

انّ الكرام اذا ما صادقوا صدقوا * لم يثنهم عنهُ ترغيبٌ وترهيبُ

فتناول القطُّ من تلك السرقة ما سدَّ رمقه وشكر للجرذان تلك الصدقة ولمّا اكل فمهُ استحيت الحدقة ثمّ قال لهُ أنشد ما انت ناشد يا ابا راشد . قال : انّ عليك من الحقوق مثل ما للجار الصدوق على الجار الشفوق وأردتُ أنْ يتأكّد الجوار بالصداقة وتترقّى الى درجة المحبّة بأوثق علاقة وإنْ كانت بيننا عداوةٌ قديمة فنترك من الجانبين تلك الخصلة الذميمة ونستأنف العهود على خلاف الخلق المعهود وتدبير الامور على مصلحة الجمهور ونبني القاعدة في البين على ما يعود نفعهُ على الجانبين واذكر لك اشيآء تحملك على ترك خلقك القديم وتهديك في طريق الاخآء الى الصراط المستقيم وهو أنّ اكلي مثلاً ما يغذي منك بدنا فضلاً عن أنْ يُظهر فيك صحّةً وسمنا ولكن إنْ أمّنتني مكرك وأعملتَ نظرك وفكرك ثمّ رغبتَ في صحبتي وعاهدتني على سلوك طريق مودّتي وأكّدتَ اي ابا غزوان ذلك بمغلّظات الأيمان الى أن استوثق باستصحابك وأبيتُ آمنًا في مجيئك وذهابك ولو كنتُ بين مخالبك وأنيابك فانّي التزم لك في كلّ يوم اذا استيقظتَ من النوم بما يسدّ خلّتك ويبقي مهجتك صباحًا ومسآء وغدآءً وعشآء وإنْ قلتَ انّ ذلك

شيء مجهول فانا اقدّرهُ بنظير هذا المأكول فانّ هذا الغذآء يكفيك عشآء وغذآء وما قصدتُ بذلك الّا رعايةً لحقّ الجوار ولقد آنستني بتسبيحك بالليل والنهار واظنّ وظنّي لا يخيب انّك تبتَ الى الله ورجعت من قريب وكففتَ عن أذى الجيران وعففتَ عن اكل الفيران . ثمّ اعلم يا اسد الضياون انّ لي من هذه المؤنة عشر مخازن قد أعددتُها لمثلك وانا اقدّمها لنزلك واذّخرها لاجلك والقصد أنْ اكون آمنا من سطواتك ساكنا في صدمات حركاتك وذلك انّما يعلم بتاكيد الاخاء وتأييد المحبّة والولآء * فلمّا رأى الهرّ هذا البرّ أعجبتهُ هذه النعم وأطربهُ هذا النغم وأقسم طائعًا مختارا ليس إكراهًا ولا إجبارا انّهُ لا يسلك مع الجرذان الّا طريق الامان والاحسان وأنّهُ لا ينوء اليهِ بقصدِ سوء بحيث تتأكّد المحبّة وتزداد يومًا فيومًا الصداقة والصحبة . فرجع الجرذان وهو بهذه الحركة جذلان وصار كلّ يومٍ يأتي ابا غزوان بما التزم بهِ من الغدآء والعشآء كلّ صباحٍ وعشآء الى أنْ صحّ القطّ وآستوى وسلمت خلوات بدنهِ من الخوّ والخوا وصارت المحبّة تنعقد كلّ يوم عقدًا مجدّدا ويزداد كلٌّ منهما في الآخرة محبّةً وتودّدا * وكان لهذا القطّ ديكٌ وهو صاحب قديم وصديقٌ نديم كلٌّ منهما يأنس بصاحبهِ ويحفظ خاطرهُ بمراعاة جانبهِ فحصل للديك تعويق عن زيارة الصديق

فغاب عنهُ مدّة وكلٌّ منهما للفراق في شدّة فلم يتّفق لهما لقآء الّا وقد حصل للقطّ الشفآء وزال الشقآء . فسأل الديك صاحبه بماذا صارت علّتهُ ذاهبه وذاك الهزال بايّ شيء زال فاخبرهُ باحوال الجرذ ابي جوّال وأنهى امرهُ من الاوّل الى الآخر وبالغ في الشكر في الباطن والظاهر وانّهُ كان سبب حياتهِ ونجاتهِ من مخاليب مهلكاته وانّهُ لم يكن مثلهُ في الاصحاب وقد صار اعزّ الاصدقآء والاحباب * فغار الديك على الصاحب القديم واختشى أنْ يُفسد ما بينهما المفسد الذميم فضحك مستغربا وصفّق بجناحيهِ متعجّبا . فقال لهُ ممّ تضحك . فقال : من سلامة باطنك وانقيادك لمداهنك وحسن صنائعك مع المنافق مخادعك ومكارم اخلاقك مع ناقض ميثاقك واصغآئك لهذا الخبيث بمشوّه الكلام ومموّه الحديث ومَن يأمن لهذا البرم الواجب القتل في الحلّ والحرم المفسد الفاسق المؤذي المنافق الذي خدعك حتّى أمن على نفسهِ واستطرق بذلك الى التمكّن من اذاهُ ونحسهِ فتسلّط في الاذى كما يختار وانهمك في الشرّ آمنًا منك البوار كلّ ذلك بسببك ومكتوبٌ في صحائف كتبك مع انّك لست بمشكور ولا بالخير مذكور وانّ الذي شاع وذاع وملأ عنك الأسماع انّك ستحلّ عقدهُ وتنكث عهدهُ وتنقض الأيمان وتجازي بالسيّئة الاحسان وانّهُ لم يرَ منك ما يسرّهُ وهو متوقّعٌ منك ما يضرّهُ وأعظم

من هذا انّه آذى وحشر فنادى وبالشرّ بادى . فقال : انّهُ احياك بعد الموت وردّك بعد الفوت ولولا فضلهُ عليك وبرّهُ الواصل اليك لمتّ هزالاً وجوعا ولَمَا عشتَ أُسبوعا ولكنّهُ أَشبع جوعك وجلب هجوعك واستنقد من مخاليب المنيّة بعد ذهابك رجوعك فشفاك وعافاك وصفالك وصافاك وكفاك المؤنة وكافاك وانّك كافيتهُ مكافاة التمساح وجازيتَ حسناته بالسيّئات القباح ولم يكُن لاحسانه اليك ولا لما مَنّ به عليك سببٌ ولا علاقه سوى طهارة نفسٍ زكّت اخلاقه ولا لاساءتك عليه سببٌ تنقم به عليه الّا ما أَسداه من مكارم شيمه الواصلة اليك وفوائد نعمه السابقة عليك وقد أَشاع هذا كلّه في الشوارع والحارات خصوصًا في هذه المحلّه ثمّ أقسم بمَن عطفهُ عليك وساق فضلهُ اليك وجعلك محتاجًا الى نواله وأَسبل عليك لباس صدقاته وأَفضاله ليستوفينّ منك ما صنعته وليحفظنّ عليك ما عليه ضيّعتهُ وليوقعنّك في طويّ بليّة يعجز عن خلاصك منها كلّ البريّة فليريحنّ منك جنس الفار وليخلّدنّ ذكر هذه القضيّة في بطون الاسفار وبالجملة فهل سمعتَ ان جرذان صادق هرّة او إتّفق بينهما مرافقةٌ في الدنيا ولو مرّة ومناصحة القطّ والفار كمصادقة المآء والنار

* شعـــر *

فانت كواضع في المآء جمرا * وانت كمودع الريح الترابا

فلمّا سمع القطّ هذا الكلام تألّم باطنه بعض ايلام وما صدّق ولكن ظنّ واشتغل خاطرهُ لامرٍ عنّ وتلهّب واشتعل ومَن يسمع يَخَل وقال للديك جزاك الله عنّي خيرا وما اكثر شفقتك طيرا ولكن مَن قال لك هذا المقال . قال انت محبّ وعلى مودّة الجرذان مكبّ وقد قال الشاعر

وعين الرضا عن كلّ عيبٍ عميت * كما انّ عين السخط تبدي المساويا

ولقد غرّك بلقيماتٍ من الحرام والسحت المنغمس في الآثام وجعلها بمنزلة حبّة الفخّ فلا تشعر بها الّا وانت في السلخ قد وقعت ولا رفيق ولا اخ هناك يعرف تحقيق هذا الكلام ولكن انت الآن راقدٌ مثل النيّام والكلام ما يفيد ولا بدّ أنّ الله تعالى يجري ما يريد وما في اشاعة الكلام طائل وكانّك انت القائل * شعر *

ظنّ العذول بانّ عذلي ينفعُ * قلْ ما تشا فعليّ أن لا اسمعُ

وما قلتُ لك هذا الكلام الّا من فرط الشفقة والضرام ورعايةً لحقّ ما وجب عليّ من القيام وحفظًا للصداقة القديمة والمودّة التي سحائبها ديمة وانا لو غششتُ كلّ احد ما خطر لي أن اغشّك وأن لا استشهد على صدقي الّا بقينك الساكن عشّك فرجّح جانب صدق الديك كفاك الله شرّ مَن يؤذيك * وقال القطّ في خاطره بعد ما اجال قداح ضمائره هذا الديك من حين انفلقت عنهُ البيضة وسرحتُ انا وايّاهُ من الصداقة

في روضة وما وقفتُ لهُ على كذب ولا سمعتُ عنهُ انّهُ لزورٍ مرتكب مع انّهُ مؤذن امين بين ظهور المسلمين وهو بالصدق قمين وما حملهُ على هذا الّا المحبّة وقديم المودّة والصحبة وهو ابعد من أن يكذب ويخدع وايُّ قصدٍ لهُ في أن يغشّ ويتصنّع وتردّد ابو هريره في تيه الحيره بين الديك والفريرة . ثمّ قال للديك وقاك الله شرّ اعاديك فكيف اعرف صدق هذا الخبر وهل للدلالة على سوء طويّته علامةٌ تُنتظر * قال نعم وربّ الحرم علامة ذلك انّهُ اذا دخل عليك ونظر اليك أن يكون منخفض الراس مجتمع الانفاس متوقّعًا حلول نائبة اونزول مصيبةٍ صائبة او شمول بليّةٍ غائبة متلفّتًا يمينًا وشمالا متخوّفًا نكالًا ووبالا طائفًا يتنقّب خائفًا يترقّب وذلك لانّهُ خائن والخائن خائفٌ وهذا بائن وبينما هما في المحاورة والمناظرة والمشاورة يتجاذبان القيل والقال دخل المفسد ابو جوّال وهو غافل عن هذه الاحوال فرأى ابا اليقظان يخاطب ابا غزوان فخنس وقهقر وتخوّف وتشوّر وهو غافلٌ عمّا تقرّر فاشمأزّ لرويته الديك وابرألّ وانتفض واشمعلّ فارتعد الجرذان من شيخ الديكة لمّا رأى منهُ هذه الحركة وانتفش وانزوى وتقبّض وزوى واشبه بغداد بابلع الدوا ونظر يمينًا وشمالا كالطالب للمفرّ مجالا والقطّ يراقب احوالهُ ويتميّز حركاتهِ وافعالهُ فتحقّق ما قالهُ

ابو سليمان ونظر الى الجرذان نظر الغضبان وهمز واكفهرّ وترقصت شواربهُ وآزبأرّ فاضطرب الجرذان وطلب الأمان فنسي السنّور العهود والأيمان ونفض عرق العداوة القديمة والعدوان وظفر على الجرذان وأدخلهُ في حيز خبر كان وأخلى منهُ الزمان والمكان * وانّما أوردتُ هذا التنظير ايُّها الصاحب البصير لفائدتين جليلتين عظيمتين احداهما الاعلام بالتحقيق أنّ العدوّ العتيق لا يتأتّى منهُ صديق ثانيتهما الاعلام بانّ الواجب على الحكّام أنْ لا يعجّلوا بالانتقام فربّما يورثهم الاستعمال الندامة في المآل في حالة لا يفيد العذل والتفنيد وعند ذلك لا يمكن التدارك بل اذ نُقل اليهم وأُورد عليهم ما يُثير غبار الغضب ويحمي من نار السخط اللهب لا يفلتون زمام التثبّت والتفكّر من أنامل التأنّي والتدبُّر خصوصًا السلاطين والملوك الاساطين فانّ قدرتهم واسعة وأطراف أوامرهم شاسعة وأوهاق اختيارهم طويلة ومرامي المراد لمرامهم منيلة وآذان الكون لاوامرهم سميعة وعين المكان لمراسيمهم مراقبةٌ مطيعة فمهما أرادوا من النفع أوصلوا ومهما اختاروا من الضرّ فعلوا وذلك في كلّ حين محسنين او مصيبين ولذلك قالوا القاضي لا يحكم حكمًا الّا وهو راضي ولا يحكم وهو غضبان ولا مشغول الخاطر ولا غرثان فانْ وجدوا طريقًا الى الخير بادروا اليهِ واذا قصدوا ايقاع شرٍّ توقّفوا لديهِ

ولا يهملوهُ بل يسبروا غورهُ الى أنْ يقفوا عليهِ فربّما يكون من مداخلة عدوٍّ او حاسد او بتعاطي مَن لهُ غرض فاسد * ثمَّ اعلم يا ذا التبصرة والفضل والتذكرة انّهُ مَن يعمل مثقال ذرّةٍ خيرٍ يره ومَن يعمل مثقال ذرّة شرّ يره * فلمّا وعى يسار هذا الحوارَ قال : ما أزهى هذه النصائح وأذكى ما لها من روائح وانا أُقبل عليها واقبلها ولا يزايل مرتشف سمعي مُقبلها وعلى ذلك أعاهدك ومهما رأيتَ غيرهُ اعاقدك فانّهُ للمُلك عين المصلحة وللملك زينٌ ومسلحة وأيضًا فاشترط ما بدا لك ممّا يزين حالك ويصون مالك ومالك * قال : وأُريد أن تكون حرمتي موقّرة وكلمتي معتبرة ومنزلتي على أقراني مرتفعة ومكانتي في الممالك متّسعة بحيث تكون مزيّتي ظاهرة ومرتبتي لاكفاءي باهرة وكلامي في محلّ الاصغاء والقبول متّصلاً بالنجاح في السؤال والمسؤل فانّ حسن العهد وحفظ الودّ ورعاية الحقوق القديمة السابقة والخدمة المستمرّة المتلاحقة دليلٌ على كمال المروءة والوفاء ونهاية الفتوّة والصفاء لاسيّما من الملوك والاكابر في حقّ خدمهم الاصاغر . ففي الحقيقة رفعة الخادم وكمال حرمته من رفعة مخدومه وعزّته وكلّ مَن رفع قدر خدمه وحافظ على حفظ حشمه ومنع جانبهم ورعى حاضرهم وغائبهم انّما حفظ أطراف حشمته وراعى جانب عظمته وحرمته وكلّ كبيرٍ امتهن خدّامهُ وأذلّ جماعته وقوّامهُ ولم ينزلهم

منازلهم ولا عرف فضائلهم وساوى بأواخرهم اوائلهم فانّما أضاع مكانة نفسه ولم يغرق في الفكر بين يومه وغده وأمسه واذا لم يصغَ الملك لكلام الوزير واستقلّ ناصحهُ والمشير فابتذلهُ وانتهرهُ واستقلّهُ واحتقرهُ خصوصًا في الجامع والمحافل بين العساكر والجحافل فايُّ حرمةٍ تبقى لهُ عند البقيّة من سائر الخدم والرعيّة وأيّ مرسومٍ وكلام يُسمع لهُ عند العوام فيتكدّر خاطرهُ وتتغيّر سرائرهُ فيدعوهُ ذلك والعياذ بالله الى شقّ العصا اذ صار على باب مخدومه معلّقًا كالخصا وقدرهُ في المكانة وقولهُ في البلاغة صار كالزيف في الصاغة والفسو في الدباغة وناهيك ايّها الخبير ما قالتهُ لامّها الزاغة * قال يسار أخبرني بذلك يا جهينة الاخبار *

قال : ذكر أنّ زاغة في بلد مراغة انتشأ لها فرخة انتشر لها بين الطيور صرخة وكانت ذات بهجة لطيفة وصفاتٍ ظريفة وتربّت يتيمةً بالدلال وجمعت بين فنون الكمال * فلمّا بلغت مبلغ الزواج خطبها من صنوف الطير الازواج وترادفت عليها الخطّاب ودخلوا على امّها في ذلك من كلّ باب فكانت تأبى عليهم ولا تلتفت الى بذلهم ولا اليهم الى أنْ بلغ خبرها الى بومة كريهة الوجه مشومة بينها وبين امّ الزاغة صداقة قديمة فخطبتها لابنها وأبانت للطير مزيد غيظها فاستشارت لامّ ابنتها وأظهرت في ابن البوم رغبتها

وقالت : ايَّ رَبيبة الخير قد رغب فيكِ اصناف الطير فكنتُ أُدافعهم وأُسوّف بهم وامانعهم وقد اشتهر صيتُكِ بين الكبرآء وخطبك منّي الامرآء والوزرآء وانا على المطاولة والردّ والمقاولة وقد استحييتُ منهم واختشيتُ غائلة ما يصدر عنهم ولم افعل ذلك الّا رعايةً لحالك وخوفًا من زوجٍ ظالم بقدركِ غير عالم يستضعف جانبكِ ويكره اهلكِ واقاربكِ ثمّ لا نقدر على مقاومتهِ ونتعب في مرافقتهِ ومفارقتهِ فكنتُ لهذه الامور اخشى تقلُّبات الدهور وارُدّ خطاب الجمهور وقد خطبكِ يا كريمة ابن صاحبةٍ قديمة وهي البومة الفلانية وهي صاحبةٌ هنيّة واخلاق ابنها رضيّة وهو شخصٌ فقير ضعيف الحال حقير نقلبهُ في ايدينا كما نريد ونتصرّف فيهِ تصرُّف الموالي في العبيد لا في الطير جنسٌ يحبّهُ بل كلّهم يكرههُ ويسبّهُ ولا لهُ ناصرٌ علينا ولا جارحٌ يدلّى بهِ الينا فهو تحت طاعتكِ كما تحبّين وفي ربقة ارادتكِ كما تريدين لا كالحمام يتطوّق بطوق الفخر ولا كالهدهد يتتوّج بتاج الكبر فما رايك في هذا الامر * فقالت الزويغة مقالةً بليغة : حفظتِ شيئًا وغابت عنكِ اشيآء ما اصنع بزوجٍ ممتهن وببعض الاجناس ممتحن مكسورٌ مهجور يُتطيّر منهُ بين الطيور هذا يخطفهُ وهذا يلقفهُ وهذا ينقرهُ وهذا ينثرهُ وهذا يأسرهُ وهذا يكسرهُ واذا لم يكن للزوج حرمة ولا تُسمع لهُ كلمة خصوصًا عند زوجته

واهل بيتهِ وعترتهِ فايُّ قدرٍ يكون لهُ عند غيرها وانّى ينشر بالسعد جناح طيرها ومقدار المرأة بين جيرانها واهلها انّما يُعرف بقدر حرمة بعلها وانا كيف يبقى حالي وبالي وما عليَّ ومالي وبين جيراني وصواحبي واهلي واقاربي اذا كان زوجي ذليلًا مهينا محتقر بين الناس حزينا والله لا يكون لي بزوج ولو بلغ راسهُ الى الأوج وما امدّ اليهِ باعي ولا يرفع لهُ في مركب الزوجيّة شراعي * وانّما اوردتُ هذا المثال يا شبه الغزال لابيّن انّهُ اذا لم يكُن لي في داركِ عزّة ولا يرفع مكانتي ومكاني نِشاطٌ وهزّة فلا يرجوني الصديق الموافق ولا يخافني العدوّ المنافق فيختلُّ امري ويضيع في غير حاصلٍ عمري واذا ما أُهمل مرسومي تعدّى الوهن الى مخدومي * قال يسار : ابشر ايُّها الوزير المشفق والكبير المحقّق والحكيم الماهر المدقّق بالدرجة العليّة والمرتبة السنيّة والكلمة المقبولة والوظيفة الفاضلة لا المفضولة ولكن انا ايضًا لي عليك شروط تزين عقودها الملتفّات في المروط هنّ لدار السعادة ابواب وللترقّي الى درج السيادة اسباب ومثلك لا يدلّ الّا على صواب وهي : ان تتقلّد العمل مبسوط الامل بجميع ما قرّرتهُ وتتعاطى ملازمة كلّ ما حرّرتهُ من اقامة ناموس المملكة المبجّلة ورعاية شرائط السلطنة المفضّلة ومحافظة جانب مخدومك والانهآء الى مسامعه جميع ما في معلومك وتقديم

مصالحهِ على مصالحك ومعاملته رعيّته بالجهد في نصائحك
وكفّه عن المظالم والعدول بهِ عن طريق المآثم والغيرة على
دينهِ واعتقادهِ ويقينهِ اكثر من الغيرة على دنياه وفي الجملة
لا يكون الملك الّا لله بحيث لا تكون من قبيل لم تقولون
ما لا تفعلون وايّاك والرشاد والبرطيل والدخول لعرض الدنيا
في الاباطيل وتوقّ ظلم الرعيّة للاغراض الدنيّة او الاعراض
الدنيويّة واتّق دعوة المظلوم وأن يصل سهامها الى مولانا
المخدوم * واعلم انّنا إن بنينا اساس الامور على قواعد الظلم
والشرور فنحن من الخاسرين ومن الذين ظلموا والله لا
يحبّ الظالمين وسيقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله
ربّ العالمين بل ابن الامور على اساس التقوى فانّك
بالتقوى تقوى وبراويتها تروى فمن تحلّى بالقضايا العاطلة
وتشبّث باذيال الامور الباطلة ولم يقصد وجه الله في حركاتهِ
وسكناتهِ وأدخل شوائب الرياء والسمعة في اعمالهِ وطاعاتهِ
لا يمشي له حال ولا يصلح لهُ مالٌ ولا مآل ويصيبهُ ما
اصاب السائح الذي ادّعى اخلاص العمل الصالح ثمّ شرع
في حركتهِ وأخلص فظهرت آثار برآءته فلمّا قصد الاعراض
الدنيّة فسد ظاهرهُ بفساد النيّة * فسأل المشرقيّ عن حال
ذلك الشقيّ *

قال : كان في اقصى بلاد الصين طوائف غير ذي عقل

رصين انبت لهم في بعض الجبال زرّاع القدرة ذو الجلال
في رياض النزاهة والكمال شجرةً ذات بهجةٍ وجمال اصلها في
ارض الملاحة ثابت وفرعها في اصل المحاسن نابت وغصنها
الى سمآء العلا واصل وورقها كعقد الجمان بالبها متواصل
لا سموم الصيف يزبل زهرتها ولا عواصف الخريف تذهب
خضرتها ولا صرصر الشتآء يعرّي اغصانها ولا لواقح الربيع
تذوي افنانها فاعجب بحسنها اهل تلك الديار واشربوها
اشراب بني اسرائيل عجلاً جسد الهٍ خوار ثمّ تفانوا في حبّها
وتهالكوا على قربها فعبدوها كما عبدوه واعتقدوها كما اعتقدوه
واستولى على عقولهم الشيطان وصار يخاطبهم من الشجرة
واحدٌ من الجانّ فزادهم فيها اعتقادا وعمّهم بعبادتها كفراً
وعنادا * فقدم تلك البلاد فقيرٌ من السائحين وهو من عبّاد
الله الصالحين فلمّا رأى تلك الحاله افزعهُ ذلك وهاله
واخذتهُ غيرة الاسلام وغضبةٌ دعتهُ الى القيام فاخذ فاساً
وقصدها ليقطع ساقها وعضدها فلمّا قرب اليها واراد وضع
الفاس عليها سمع منها صوتًا خوّفه وعن مراده اوقفه *
فقال : ايّها الرجل الصالح والقادم السائح فيمَ ذي الهمّة
وعلامَ هذه العزمة المهمّة وما قصدك بهذه الصدمة * فقال :
غيرة الله ايّها المضلّ اللاه شجرةٌ تُعبد من دون الرحمن ولا
يغار لهذا الشان انسان فلاقطعنّكِ ايّتها الشجرة المضلّة

ولاجعلنّكِ حطبًا ومثله فانّك قد اضللتِ كثيرًا من الناس وفعلتِ ما لم يفعلهُ الوسواس الخنّاس وانّكِ لا تنفعين سوى اذاك الى النار تجرّين * فقالت : ايّها الرجل الزاهد الصالح العابد انا ما آذيتك ولا ضاررتك وإن رايتَ نفعتك وبرّرتك وحاشاك أن توذي مَن لا آذاك . وانا اعلم ايّها الرجل الكبير انّك غريبٌ وفقير وما اقدمك على هذا الباس الّا الغربة والافلاس فكفّ عن هذا الامر واطفِ نائرة هذا الجمر وارجع الى منزلك واشتغل بطاعتك وعملك وانا اوصلك كلّ نهارٍ دينارا ذهبًا نضارا كاملاً وافيًا معيارا ياتيك هيّنًا ميسرا كلّ صباحٍ مبكرا اذا استيقظت من رقدتك تجدهُ موضوعًا تحت وسادتك وهذا هو الاليق بحالك وافرغ لخاطرك وبالك وأخلص لك من ورطات المهالك . واذا اصلحت مع الله سريرتك وطهّرت من ادناس الدنيا سرّك وسيرتك فاترك الناس ولو كانوا جيرتك او أهلك وعشيرتك وعليك بخويصة نفسك فاذا أنقذتها من الورطات فأمسك . فلمّا سمع بالدينار الهاه الطمع والاغترار فبردت همّتهُ وضعفت في الله قوّتهُ وتركها ورجع وترك القيام وهجع . فلمّا أصبح الصباح وحاز بالصلاة الفلاح وبادر الى الفراش وطلب المعاش فوجد الدينار كما ذكرهُ الشيطان وأشار فالتقفهُ وابتهج وتحقّق انّه فتوح باب الفرج واستمرّ على ذلك أسبوعا والذهب عنده

مجموعا . ثمّ بعد ذلك قصد الفراش بسرور واهتشاش فلم يجد شيئًا من الذهب فتحرّق قلبهُ والتهب فأخذهُ الحنق والقلق وأخذ الفاس وانطلق . فلمّا قرب من الشجرة نادتهُ بالفاظٍ عكرة قف مكانك واذكر شانك وقل لي فيماذا جئت فلا حييتَ ولا حييت . فقال : جئتُ لأقطعكِ ومن الارض أقلعكِ غيرةً على الدين وقيامًا بحقّ ربّ العالمين . فقالت : كذبتَ انّما غدرتَ وسبّيتَ وقمتَ وقعدتَ وبرقتَ ورعدتَ لفقدك الذهب الذي عنك ذهب وانّما كانت الغيرة الصحيحة والقومة المليحة الناهضة النجيحة القومة الاولى فانّها كانت والحقّ قد تجلّى فلو قامت الخلائق لردّك واجتهدوا في منعك وصدّك لَما ظفروا بك ولا قاموا بحروبك . وامّا الآن فهذه الغضبة غضبة الفاجرة الصخبة التي حصلت بواسطة عدم الدينار فهي التي اثارت منك ما اثار فلو دنوتَ منّي خطوة او تقدّمت من مكانك رتوة دققتُ عنقك وشققتُ زقّك وقد قلتُ انّي لا اضرّ ولا انفع ولا اجلب ولا ادفع فامّا المنفعة يا صلمعة بن قلمعة فانّك رايتها في الدنانير التي لقيتها فتقدّر النفع يا مستحقّ الصفع وامّا المضرّة فقسها على المنفعة يا ابا مرّة فانّ الذي له قدرة على المبرّة ربّما يقتدر على الايذآء والمضرّة وإن شئت تقدّم وجرّب لتعلم واخبر واسبر وانظر كيف انثر منك الراس بهذا الفاس وحقّق وصدّق أنّ كتفك حملت حتفك فبهت

الرجل وتحيّر وخاف وخار وقهقهر وانقطع حبل رجائه
وأفلت يتلفّت الى ورائه * وانّما ذكرتُ هذا لتعلم ايها الوزير المكرم
انّ كلّ أمرٍ لا يُقصد به وجه الله فانّ عقباهُ الندم وإنْ حسن
أُولاه وكلّ قصدٍ ليس لغرضٍ صالح فانّ شجرة غراسه لا تثمر
الّا الفضائح فترك الشروع فيه اولى ومحو صورته من لوح
الضمير أجلى * قال المشرقيّ : ما بقي يا تقي الّا أنْ ترتقي
فلقد طال البيان وضاع الزمان * شعر *

فانهض هُديتَ الى ما رمتهُ عجلا * فالدهر عاتٍ وللتاخير آفاتُ

وكانت هذه المحاورة تحت ظلّ شجرة فيها وكر حمامة وكان
لها بالبلد اقامة في برج رجلٍ من اهل الزعامة ثمّ اختارت
العزلة واحتسبتها نعمةً جزلة فاختارت هذا المقام ولها فيه
عدّة أعوام فسمعت جميع ما قالاه من مبدئه الى منتهاه *
فلمّا وعت ما اتّفقا عليه وتداعيا اليه أخذت تضرب اخماسًا
لاسداس وتتأمّل فيما يتجلّى من عرائس معانيه من القدم الى
الراس وتُجيل في صور مبانيه قداح النظر وتلاحظ سيرة
محاويه بلوامح الفكر وتجوز مذاهبه وتروز عواقبه وتقيس
مداركه بمعارجه وتميس في مداخله ومخارجه فأدّى قائد فكرها
ورائد نظرها الى انّه ربّما يكون لهما شان وعلوّ مكانةٍ ومكان
فانّ محاوراتهما وما مرّ من مناظراتهما كانت منطويةً على ذكاء
وفطنة وتجارب وحكمة وعلوّ همّة صادرةً عن فكرٍ مصيب

ورأيٍ له في السداد اوفر نصيب . واذا كان الامر كذلك
فالاليق في قطع هذه المسالك البادرة الى التعرّف بهما واعانتهما
والتقرب الى خواطرهما ومساعدتهما على ما هما فيه ومساعفتهما
بما تصل اليه اليد وتحويه لانّهما في حالة الشدّة وزمان الانفراد
والوحدة محتاجان الى المساعدة والمساعفة والمرافقة وفي مثل
هذه الحالة تظهر الفضيلة ويتحمّلان المنّة والجميلة وتقع
مساعدتي أحسن موقع ويتميّز لي عندهما أرفع موضع فانّهُ اذا
علا شانهما وارتفع بدون معاونتي قدرهما ومكانهما واجتمع
عليهما الجنود واقبل اليهما الوفود وكثرت الحفدة والاتباع
وتكاثفت العساكر والاشياع فما يظهر لمَن يتقرّب اليهما ويترامى
لديهما اذ ذاك كبير فائدة ولا كثير عائدة * ثمّ انها توكّلت
على الرحمن وصدحت على الاغصان بقولها * شعر *

على الطائر الميمون والبشر والسعد * سموتُ الى العلياء نهداً على نهد

ثمّ هبطت وبين ايديهما سقطت فأذكرت قول الرئيس
هذا الشعر النفيس * شعر *

هبطتْ اليك من المحلّ الارفعِ * ورقاءُ ذات تعزّزٍ وتمنّعِ

وقبّلت الارض ووقفت في مقام العرض ولزمت شرائط الحشمة
وادّت مواجب الخدمة وهنّأت نفسها والكون بسلطنة الملك
يسار ذات الصون وقالت : إنّي لكما نِعمَ العون وموطني في
هذه الشجرة وانا لاوامركما مؤتمرة وقد وعيتُ ما قلتماهُ وما

دار بينكما وذكرتماه ورأيته صادرًا من مشكاة السعادة مشرقًا بانوار السيادة سهامهُ نافذة في قلب الغرض وسيستعبد جواهر الرعايا بأدنى عرض فانّ حسامهُ مطبق لفصل القصد وشانهُ سيبلغ أعلى اليُمن والسعد وها قد جئتُ مبادرة واردةً منهل الطاعة وصادرة فامرا لأمتثل وانظرا لاحتفل وتحكّما لاطيع وتكلّما فانّي سميع فإنْ أشرتما فالقصد قاف وإنْ استشرتما فالرايُ كاف وإنْ خبرتما فالحزم واف وإنْ استنهضتما فالعزم شاف وإن استخدمتما فالعبدُ خادمٌ صاف مصاف * فلمّا رأيا من الحمامة هذه الكرامة تبسّم الزنيم وتفأّل واشرق وجههُ وتهلّل وتيمّن بطلعة الورقا وعلم انّ امرهما يرقى وقال ليسار : هذا من علامات اليسار وجبر الانكسار والخروج الى اليمين من اليسار وعنوان السعود وحصول النجح والمقصود . فانّ حصول مثل هذا الصاحب الصادق والرفيق الموافق والمعين المصادق ادلُّ دليل على انّ الله الجليل مسهّل الصعاب ومفتّح الابواب ييسّر هذا المطلوب ويظهر هذا النجح المحجوب * ثمّ انّهما استشارا الحمامة في كيفيّة نيل الزعامة والشروع في هذا الامر والتوصّل الى دعوة زيدٍ وعمر وطريقة اشتهاره وتعاطي اسباب انتشاره * فقالت : انا من جنس الطير ومشهورةٌ بينهم بالخير ولهم اليّ سكون وعلى مُناصحتي اعتمادٌ وركون . فالصواب في فتح

هذا الباب دعوة الجمهور من الطيور وانا بهم زعيم وفي الرسالة حكيم فانْ اقتضى الراي الرفيع توجّهتُ ودعوتُ الجميع بعد التخبير والتشهير بين الكبير منهم والصغير انّ ابا الجراء السلطان وابا الجداء الوزير وقد وقع الاتّفاق في الآفاق على هذا الوفاق فليبتهج سائر الطيور بهذا الفرح والسرور وليقرأعلى روس الجمهور هذا المقال المنشور وليُبادر الى الخدمة بالحضور ولا يتخلّف احدٌ من آمرٍ ومأمور والحذر الحذر من المخالفة وعدم الانقياد والمؤالفة فقد طاب الوقت وراق وزال المقت والشقاق والمسارعة في اقرب زمان ليأخذوا لانفسهم الامان ولا يركبوا من التعويق سوى متن مسافة الطريق * فأعجب الملك والوزير من الهديل هذا الهدير فكتب بذلك بطاقه وحملتها الحمامة باحكم وثاقه ثمّ اخذت الى الجوّ ووقيت من الجوارح السوّ ثمّ هبطت الى مجمع الطير وهو نادى الندى والخير فرأت منها خلقًا كثيرا وجمعًا غزيرا فسلّمت سلام المشتاق وعانقت عناق العشّاق . فترحّبوا بقدومها وسألوا عن معرب احوالها ومعجمها وقدموا موائد الضيافة واظهروا السرور واللطافة فبثّتهم كثرة الاشواق وما عانتهُ من ألم الفراق وقد حرّضها شدّة الشوق وساقها اليهم اشدّ سوق وبعثها ايضًا باعث وهو من أحسن الوقائع وايمن الحوادث وذلك أنّ شخصًا من أُصلاء بني سلاق الحاكم على بني زغار

وبني براق تولّى سلطنة السباع ومالكية الذئاب والضباع مضافًا الى ذلك الحكم على الطيور والقيام بسياسة أُمور الجمهور وأَقام لهُ في ذلك وزيرا كافيًا ناصحًا مشيرا يُدعى ابا زنمة المشرقيّ من نسل تكابك الارتقيّ وهو من الفحول وكباش الوعول وقد ارسلوني الى الجماعة يامرونهم بالدخول في رياض الطاعة ليحصل لهم الرعيُ والرعاية والرفاهية والحماية ويأمنوا صيد الكائد وكيد الصائد * ثمّ شرعت تبثّ للكبير والصغير ما شاهدت من مخائل الملك والوزير وحسن شمائلهما ويُمن خصائلهما وما هما عليهِ ونُسبا اليهِ من الشجاعة والدين والعقل المتين والفضل المبين والقناعة والعفة والمجد الذي لا يدرك وصفه . وانّ الملك المعلوم قد عفّ عن تناول اللحوم وقد قنع بما يسدّ الرمق من حشيش النبات والورق وقد تكفّل برفع المظالم وردع الظالم واجرآء مراسيم العدل واحيآء مواسم الفضل . فإنْ انابوا واجابوا ربحوا واصابوا وطالوا وطابوا وانْ ابوا وصبوا واهتزّوا للمخالفة وربوا ثمّ وكسهم الدمار واركسهم فلا يلوموا الّا انفسهم * فصدّقوها من اوّل وهله والرائد لا يكذّب اهله لانّهم كانوا بها واثقين ولكلامها في الحوادث مصدّقين فما وسعهم الّا الطاعة والتوجّه الى خدمة الملك في تلك الساعة وبعد ما تبادروا بالتصديق طاروا بالفرح ودخلوا الطريق واستصحبوا من الخدم

والتقادم ما يصلح للمخدوم من الخادم * فلمّا قربت الديار ودنوا من ولاية الملك يسار تقدّمت الحمامة وسبقت وأخبرت الملك والوزير بما فتقت ورتقت فاستبشروا بما تقدّم وبادر الوزير لملاقاة المقدَّم فتلقّاهم بالاحترام والتوقير واكرم الكبير منهم والصغير ومشى معهم بالاكرام والحرمة وأَوقف كلًّا منهم في مقام الخدمة * وحين استقرّ بهم المقام افتتح الوزير الكلام فاثنى على الله تعالى وضاعف التحيّة على الانبيآء ووالى ثمّ امتدح الملك الذكيّ بثنآء يخجل المسك الذكيّ وذكر بعد ذلك ما يتعلّق بسياسة الممالك وأَنّ اللّه مَنّ بالملك عليهِ وساق سلطنة الوحوش والطيور اليهِ وذكر مقام كلٍّ من الطيور وما وظيفتهُ بين اولئك الجمهور فأَطاع الكلّ وتابعوا وعلى ما اقترحهُ عليهم بايعوا وانشدوا فارشدوا * شعر *

ونحن أتينا طائعين ولم نكن * عصاةً فزمُ غير الطيور عساكرا

ولمّا انقضى الوطر من قضايا الطير اخذوا في استدعاء جموع الغير من الوحوش الكواسر والبهائم الجواسر والهوامّ والنواشر والجوارح النواسر وارسلوا من تلك الجماعة الحمامة وقلّدوها فيهِ طوق الزعامة فتوجّهت نحو الوحش والى كلّ قارحٍ من الصيد وجحش وكانوا بذلك قد سمعوا وللمشاورة فيهِ قد اجتمعوا فبلّغت الحمامة الرسالة واظهرت ما فيها من بسالة وكان آخر ما وقع عليهِ الاتّفاق الوفاق وعدم النفاق

وقصد الارتفاق والتوجّه الى خدمة الملك يسار صحبة الرفاق وقالوا لا شكّ ان الكلب بالوفآء مشهور وبحسن الرعاية والحراسة مذكور ويقدر ان يرعانا من الانسان ويحمينا من السباع ومؤذيات الحيوان واوصافهُ مذكورة في الكتاب وناهيك بفضل الكلاب على كثيرٍ ممّن لبس الثياب * فتقدّم خززٌ من بين تلك البزز يُدعى رئيس الارانب محبٌّ الى الاقارب والاجانب وهو مشهورٌ بالحصافة موصوفٌ بالذكآء والظرافة والمعرفة التامّة وبالتجربة المفيدة العامّة بعيد الفكر في العواقب سديد الراي حازمٌ مراقب وقال: يا معشر الاصحاب واولي البصر والالباب كيف خفي عليكم ولم يتّضح لديكم عاقبة هذه الامور وما فيها من عكوسٍ وشرور وهل يصلح للرياسة واقامة السلطنة والسياسة اهل النذالة والخساسة المتّصف بالقذارة والنجاسة او ما علمتم أنّ افحش السباب الشتم باخسّ من الكلاب لا اصلَ تقيّ ولا وصفَ نقيّ ولا نسبٌ طاهر ولا حسبٌ ظاهر ولا وجهٌ زاهر ولا شكل باهر فان كنتم نائمين انتبهوا واعرضوا عمّا قصدتم اليهِ وانتهوا فلعن الله زمانا صار فيهِ التيس وزيراً والكلب سلطانا ولقد ارشد مَن انشد

* شعر *

لقد جار صرف الدهر في كلّ جانبٍ * من الارض واستولت علينا الاراذلُ
هل المسخ الّا أن ترى العرف منكرا * او الخسف الّا حين تعلوا الاسافلُ

فتصدّى الهديل للجواب وقال: لا شكّ ولا ارتياب أنّ المستحق للسلطنة الامام العادل والشخص الكامل الفاضل ولا يُقدح في هذا الفصل دناءة الاصل . فقد قال الشاعر الماهر:

* شعر *

كُن ابن مَن شئت واكتسب ادبا * فسوف يغنيك ذا عن النسبِ
انّ الفتى مَن يقول ها انا ذا * ليس الفتى مَن يقول كان ابي

وقال ايضا

لعمرك ما الانسان الّا ابن يومهِ * على ما تجلّى يومهُ لا ابنُ امسهِ
وما الفخر بالعظم الرميم وانّما * فخار الذي يبغي الفخار بنفسهِ

وامّا الاوصاف فلا شكّ ولا خلاف في انّ الكلاب فُضّلت على كثيرٍ ممّن لبس الثياب وما ذاك الّا لاوصافٍ اختصّتها وآثارٍ اقتفتها واقتصّتها وهي مشهورة وعن الكلاب مسطورة ومن جملة محاسنهم مأثورة . وامّا الاوصاف الذميمة فيمكن صيرورتها مستقيمة وذلك بحسن التاديب والتربية والتهذيب والتمرين والتشذيب حتى يصير نابهُ مدية وهذا ليس فيهِ مرية ويجتزي بالفاكهة والبطّيخ عن اللحم السليخ وبالخبز الشعير عن اكل لحم الحمير وناهيك يا ابا وثاب ما قيل في الكلاب ولابسي الثياب

* شعر *

وما ضرّ اهل الكهف ايمان كلبهم * ولكنّهم زادوا يقينًا على هدى
وما افاد العلم بلعام وهو من * بني آدم لمّا الى الارض اخلدا

وهذا السلطان قد عاهد الرحمن أن لا يمزّق حيوان ولا يذوق لحمان وأن يقنع بالكفاف ويسلك طريق العفاف وما ذاك لعجز يُنسب اليهِ ولا لوهنٍ طرأ عليهِ بل سمت همّتهُ عن ذلك ترفّعا وسلك طريق الملوك في احياء همهما ومعاليها تطبّعًا (وبضدّها تتبيّن الاشياء) فإن احببتم كان لكم الحظّ الاوفر وإن امتنعتم فقد اعذر مَن انذر وبلّغ مَن حذّر وما قصّر مَن بصّر والعاقل مَن يتبصّر عيوبهُ ويسلك من الخلق الجميل دروبهُ * وانا يا مولاي اعرض عليكم هذا الراي وهو شاهد عدل وحكم فصل وهو أن يقع الاتّفاق على واحدٍ منكم من خلّص الرفاق مَن تحقّقتم حسن آرائه وصدقهِ في انبائه وصحّة دينه ورصانة عقلهِ ويقينه فانطلق في ركابه الى حضرة الملك وجنابه فيكتحل بانوار طلعته ويشملهُ بيامن رويته ويطالع جميل صفاته ليسكن الى فضيل حركاته وينتقل من علم اليقين الى عين اليقين فيزول باليقين الشكّ ويظهر خلاصة الذهب بالحكّ . ثمّ ياخذ لكم العهد والميثاق بما يقع عليهِ الاتّفاق وما ترضونهُ وترونهُ من الصواب ويردّ عليكم بذلك الجواب فان وافق قصدكم تؤكّدون عليهِ عهدكم وتتوجّهون بقلوبٍ مطمئنّة وخواطر في حصول المرام مستكنّة والاّ فترون رايكم فيما عليكم وما لكم *

فاستصوبوا هذا الراي واسترضوهُ واستعذبوا لطيف معناهُ واستحسنوهُ وانتدبوا لهذا الامر الخطير مَن يصلح أن يكون عند الملوك السفير فوجدوا ظبيًا طيّب العناصر قد عقدت على غزارة فضلهِ الخناصر من اعقل الجماعة واذكاها واحسنها رايًا وادهاها . فقلّدوهُ الزعامة وارسلوهُ مع الحمامة على أن يجتمع بالملك يسار ويعاهدهُ على ما يقع عليهِ الاختبار ثمّ يسمع اقوالهُ ويشاهد افعالهُ ويميّز احوالهُ ثمّ يردّ عليهم الجواب فيميّزوا ما فيهِ من خطأٍ وصواب فيبنوا عليهِ ويرجعوا اليهِ . فتوجّه الظبي والحمامة مستصحبين الامن والسلامة * فلمّا قربت الديار سبقت الحمامة الى خدمة الملك يسار واخبرتهُ بصورة الاخبار وأنّ الظبي في العقب مقبلٌ بما يحبّهُ الملك ويحب . فامر الملك الوزير أن يتلقّى الظبي الغريب مع جمع الطير الكثير . فتقدّم الوزير وقال اسال مولانا الملك المفضال إن صدر من هذا القاصد خطاب أن يُشار اليّ بردّ الجواب فإنّ ذلك اعلى للحرمة وادنى للحشمة واقوى لناموس الملك والرياسة وازهى لطاووس الياساق والسياسة فإن كان ذلك الجواب متحلّيًا جيدهُ بعقود الصواب كانت سعادة الملك الملهمة وفي خدم الملك مَن تصدّى للامر وابرمه فإن خرج عن طريق الجادّة فلا يُنسب الى الملك تلك المادّة بل يتلقّاهُ الملك بكرمه ويكون الخطأ منسوبًا الى خدمه فاجابهُ الى ما سال

وتقدّم الوزير للملاقاة مع سائر الخول فتلقّوا الظبي بالترحاب
وفتحوا في وجههِ للكرامة اوسع باب ومشوا معهُ حتى وصل
الى الحضرة وشاهد تلك الحشمة والنضرة ❋

فقبّل الارض ووقف وعرف مقدار الملك واعترف وأدّى
الرسالة وبيّن للملك ما فيها من رقّة وجلالة فقابلهُ الملك بما
يليق بحشمته وأجلسهُ بالقرب من حضرتهِ وخاطبهُ بما أذهب
دهشتهُ وآنسهُ بملاطفات جلت وحشتهُ وسالهُ عمّن خلف
ورآءهُ واستقصى في التفحّص أحوالهُ وانباءهُ فبلّغ عبوديّتهم
وطاعتهم وانّ الاخلاص والطاعة شملت جماعتهم وفتح فم
الدعآء بلسانٍ ذلق وخطابٍ طلق وكلامٍ غير معقّد ولا قلق
واطال في الدعآء واطنب في الشكر والثنآء وسأل شمول
المراحم وكفّ كفّ المتعدّي والمزاحم فانّهم انبسطوا وانشرحوا
وابتهجوا باستيلآء هذا الملك وفرحوا وشكروا الله لهذه النعمة
وانّهم يفون بشروط العبوديّة والخدمة ❋ ثمّ سأل أخذ الميثاق
وتأكيد العهد بالايثاق بالامان والاطمئنان لمن ورآءهُ من
الوحوش والغزلان فأعطاهم الامان وشملهم بالاحسان على أنْ
لا يُراق لهم دم ولا يُهتك لهم حرم وانّهم يرعون حيث شآءوا
ويسرحون حيث ذهبوا وجآءوا وأنّ الملك يسار حاكم سلوق
وزغار وخليفة براق وكوباك والتتار قد عاهد الملك الجبّار
أنْ لا يتعرّض لوحش القفار ولا لاحدٍ من أجناس الاطيار

حتى ولا لحيتان البحار ولا يريق لهم دما ولا يقصد لهم أذًى
او ألمًا ويرعى جانبهم ويقضي مآربهم ويحفظ شاهدهم وغائبهم
ويمنعهم من مناويهم ولا يسلّط عليهم مَن يؤذيهم ما داموا تحت
طاعتي وفي جواري وذمّتي ❋ فقبّلت الغزالة بشفاه العبوديّة
خدّ الجدالة وقالت : هذا كان المأمول وجلّ القصد من
الصدقات والمسئول والذي جيء لأجله فقد حصل من
صدقات الملك وفضله ولكن العلم العالي محيط بأنّ وحوش
البسيط أقوام ضعاف ليس بينهم ائتلاف وهم طوائف كثيروا
الاختلاف أجناسٌ متفرّقة وأنواعٌ متمزّقة ليسوا كقطائع الغنم
مجتمعين ولا كحشار الخليل ممتنعين ولا بعضهم لبعض متبعين .
ثمّ لم تزل العداوة بينهم قائمة وعيون الصلح والاتّفاق عنهم نائمة
لا يضبطهم ديوان ولا يحصرهم حسبان ولا يمنعهم من التعدّي
سلطان القويّ يكسر الضعيف ويمزّقهُ والشاكي يستطيل على
الاعزل ويفرّقهُ ولاجل هذا المعنى لا يمكن اجتماعهم في مغنى
بل البعض في قلل الجبال متوطّن والبعض في سرب التلال
متحصّن والبعض متشبّث بذيل الكهوف والمغارات والبعض
في الآجام والآكام خوف الغارات وكلّ يخاف حلول البلآء
قد اتّخذ لذلك القاصعآء والنافقآء واستعدّ بفنون الكيد خوفًا
من جوارح الصيد . واذا كان الامر كذلك فاجتماعنا متعسّر
وحفظنا في الملك غير متيسّر فلابدّ من ترتيب قاعدة تعمّ

منها جميع الوحوش الفائله ويشمل أمنها غائب الملك وشاهده والّا فالحاضر آمن وقلب الغائب غير مطمئنّ ولا ساكن فليفتكر للرعيّة في ضابطة تكون الحرمة فيها للقريب والنائي باسطة * فالتفت الملك للوزير وقال أجب هذا السفير * فقال الزنيم يا أحسن ريم هذه الافكار من قصور الانظار وعدم التأمّل والاستبصار والّا فانّ السلطان في كلّ مكان كلمته عليا ووجوده كالشمس في الدنيا فكما أنّ الشمس اذا استوت وعلى سرير كبد السماء احتوت عمّ فيض شعاعها الجبال والآكام والتلال والآجام وانتشر على البحر والبرّ واشتهر على الفاجر والبرّ فربّت الازهار والاثمار وشبّت مشاعل الكلأ في القفار وطبخت الغلال وفواكه الاشجار وصبغت في كوامن المعادن جواهر الاحجار كما قيل * شعر *

كالشمس في كبد السماء محلّها * وشعاعها في سائر الآفاق

كذلك الملك العظيم اذا انتشر صيت عظمته وعدله في سائر الاقاليم شمل فضله الشريف والوضيع وبلغ جود وجوده الدنيّ والرفيع وردع عدله الطائع والعاصي ووسع نواله الداني والقاصي وانّه كالغمام الصيب الصبيب على الربيع الخصيب والديمة المطبقة والمزنة المغرقة اذا انتشرت في الآفاق وصارت لامّ عهدها هدمًا للاستغراق فروت الحضيض والبقاع وعمّت الوهاد والتلال واليفاع وخاطبها ظمآن الرياض وعطشان

الغياض * شعر *

امطر عليّ سحاب جودك مرّة * وانظر اليّ برحمة لا اغرق

هذا ومتى انتشر في الاطراف انّكم التجأتم الى هذه الاكناف وتطرّز بشمول الصدقات السلطانيّة من ملابس طاعتكم الظراف والاطراف منعت العواطف الملوكيّة والخواطر الشريفة السلطانيّة عوادي المعادي وكفّت اكفّ المصادم والمصادي فلا يجترئ احدٌ على التعرّض لكم ولا يخطر ببال مخالفٍ ان يقطع سبلكم * قال الرسول الامر كما يقول مولانا الامير وما احسن هذا التقرير ولكن مع المراحم السلطانيّة وصدقات العواطف الملوكيّة وحسن الطويّة واحسان النيّة فلابدّ للسياسة وضبط الرياسة وقواعد الملك في الحراسة من ضابطٍ يبني عليه الملك لامره اساسه لا يتميّز كبير دون صغير ولا يختصّ برعايته جليل غير حقير فانّ من احسن اوصاف الملوك والاكابر أنْ لا يغفلوا عن تفقّد احوال الصعاليك والاصاغر ولا يقتصروا في ذلك على نوعٍ دون جنس كما يفعله لغلبته الهوى بعض حكّام الانس مع انّهم مسؤلون عن جليلها وحقيرها ومحاسبون على كبيرها وصغيرها وقد تنبّه لهذا الفعل الرجيح ايّها الوزير النصيح والمنطيق الفصيح انوشروان وهو من الكفّار واشتهر عنه قضيّة الحمار فسأل الوزير بيان هذا التقرير *

فقال الريم بلغنا ايّها الكريم : انّ انوشروان بالغ في نشر العدل والاحسان ومعاملة الرعيّة كبيرًا وصغيرًا بالسويّة وبذل في ذلك جهده واستنهض لمساعدته وكلّ وكله واختشى أنْ يمنع المتظلّم الفقير الابواب بسبب حاجبٍ او كبيرٍ لغرضٍ او عرض او ارتشاء مَن في قلبه مرض فيمشي مدلس البراطيل من خوف الاباطيل ويضيّع بحث صارخ الحقّ في اوقات التعطيل فأدّاهُ قائد اجتهادهِ وانتهى به رائد مرادهِ الى أنْ يعقد في طاق مبيتهِ ومجتمع خاطرهِ عن تشتيتهِ من محاذي السرير حبلاً من الحرير ويربط طرفهُ الادني في حلقة الباب حيث لا حاجبٌ ولا بوّاب وهو مكان مجتمع الجمهور ولا يمنع احدٌ فيه من الوقوف والمرور وأن يشدّ فيهِ أجراس من خالص الذهب لا النحاس بحيث انّهُ اذا حرّك الحبل صوّتت الاجراس صوتًا اخرس من الطبل . ثمّ امر مناديا أنْ يرفع صوتًا عاليا بأنّ مَن كان شاكيا فعليهِ بتحريك ذلك الحبل ليقع الظالم في الكبل وينتصر المظلوم من بعد ومن قبل فاشتهرت هذه العادة ونال بها في الدنيا السعادة وعظم صيتهُ وخمدت عفاريتهُ وانتصفت صفاريتهُ * ففي بعض الظهائر عند قائلة الهواجر وانوشروان في مبيتهِ قد طاب اضطرب الحبل والاجراس اشدّ اضطراب ففزّ انوشروان مذعورا وتصوّر المحرّك مظلومًا مقهورا فابتدر بطلبهِ لينظر في ظلمهِ

وسببهِ فتبادروا الى احضارهِ واستكشاف اخبارهِ واذا هو حمارٌ جرب جنيًا جسمهُ من الجرب خرب ومتن ظهرهِ من الحكّة نُقب وقد هدّ عمارة عمرهِ هادم الهرم وألهب حشيش حشاشتهِ من الجوع ماضي الضرم يحمّلهُ صاحبهُ ما لا يطيقهُ ويقطع عنهُ قوتهُ وعليقهُ يؤذيهِ ولا يداويهِ ويدور بهِ ولا يداريه . فطلب مالكهُ وعتبهُ ثمّ زجرهُ وضربهُ ثمّ أمر بالنداء في الاسواق وامتدّ ذلك حتّى بلغ الآفاق وعمّ الضواحي والرزداق انْ يُسلك بما ملكت اليمين الارفاق ولا يُقتر عليها في الانفاق وكلّ مَن عنده دابّةٌ قد استعملها في صباها واستوفى في خدمتهِ قواها يراعي حقوقها اذا كبرت ولا يضيّع ما قدّمت بما اخّرت وصكّ وجه ذلك الرجل صكّا وكتب عليهِ بفرض حمارهِ صكّا * وانّما ذكرتُ هذا المثال في معرض ما يُقال من انّ عدل السلطان خيرٌ من خصب الزمان وايضًا فانّ قصد الملك اذا كان صالحا كان أمرهُ في جميع الازمان ناجحا وسخّر الله لهُ مَن يرشدهُ الى قصدهِ ويعينهُ على أُمور شعائرهِ ويُحيي ذكرهُ من بعدهِ وتدرّ على يدهِ سحائب البركات ويجري منها على غير قصدهِ ابحر الخيرات وحفظ كلّ مَن اليهِ يُنتسب ورزقهُ كلّ ذلك من حيث لا يحتسب وحاصل هذه المقدّمة أنّ المسؤول من الصدقات المعظّمة انّهُ اذا ترامى على ابواب عدلها شاكي او تعلّق باسباب معدلتها

متظلّمٍ باكي تتصدّى هي بنفسها لكشف ظلامته ولا تترك الغير في فصلها لاقامته وانّ الفقير من جماعتنا والضعيف من اهل طاعتنا اذا مسّت الحاجة به الى بثّ شكوى او رفع بلوى يتقدّم الى شكواه بلا واسطة ليامَن في امره المغالطة ويصادف مقسطةً لا قاسطة ويتساوى في كلٍّ من مشرب العدل والانصاف ومراعي الفضل والالطاف الظّباء والاسود والذئب والعتود والعقاب والعصفور والحمام والصقور ولا يتقدّم في الدعاوي من حيث التساوي الوجيه على الجاهل ولا النبيه على الخامل ولا الكبير على الصغير ولا الجليل على الحقير فانْ اقتضت الآرآء العالية تولية عاملٍ في ناحية فليكُن ممّن لهُ شفقةٌ تامّة ورحمةٌ في امر الرعيّة عامّة ويُعرف ذلك بمَن جرّبته العلوم الكريمة وتحقّقت أنّ نيّتهُ في رعاية الرعيّة مستقيمة قد صارت لهُ الشفقة ملكة وكلٌّ من العدل والانصاف قد ملكه . ولا تولّي أحدًا لغرض او مَن في قلبه من اذى المساكين مرض وانّ الطبيعة اذا اعتادت عادة والسجيّة اذا جعلت لها بعض الاوصاف قلادة سوآء كان ذلك مذمومًا او محمودا مقبولًا عند العقل والشرع او مردودا فانّها تبرزهُ في غالب الاوقات ولا تتخلّف عن ملابسته في اكثر الحالات * شعر *

العين تعرف من عيني محدّثها * إنْ كان من حزبها او من اعاديها

وكلّ قضيّةٍ لا يساعدها القلب فمنتهاها على العكس والقلب ونظيرها يا رئيس المداره قضيّة مَن زوّجتهُ امّهُ وهو كاره * فسال الوزير من السفير تقرير هذا النظير *

فقال كان شابٌّ من العراب قصدت امّهُ تاهّله فزوّجتهُ بامراةٍ ارمله ولم يكُن لهُ احتياج ولا رغبةً في الزواج * فلمّا عقدت الوليمة وصممت العزيمة وجمعت النسآء والرجال أرسلت امّهُ الى جارٍ لهم قوّال استاد في صنعته ماهر في حرفته فدعتهُ الى الجمع ليبتهج بحسن غنآئه السمع فيشغل الوقت ويُذهب المقت ويحصل للحضور النشاط والسرور فتخلّف وأبى وعن الحضور نبا . فسُئل عن تصلّفه وسبب تخلّفه . فقال: بلغني انّ الزوج الخاطب غير طالب ولا راغب واذا كان كذلك فلا يغني الغنآء الّا العنآء ولا يؤثّر في القلوب والاسماع بل تنفر عند سماعه الطباع فكلّ شيء لا يصدر عن رغبة القلب فانّ ايجابهُ لا يفيد الّا السلب فيضحك عليّ القائم والقاعد ويسخر منّي الصادر والوارد ويروح تغزّلي في البارد * وانّما ذكرتُ ذلك لأعرض على آرآء المالك انّهُ اذا اولج أمر الرعيّة الى أحدٍ من الخاصكية ينظر الى شفقته ويسبر وفور رحمته ثمّ يولّيه عليهم ويتقدّم بالطاعة اليهم فيستقيم اذ ذاك فعلهم وفعلهُ ويظهر في حركاته وسكناته عدلهُ وليس العدل في القضايا تساويها ولا اجرآؤها على نسقٍ واحدٍ

يحويها بل معرفة مقاديرها وبيان تقريرها في المبادئ وتحريرها ثمّ اجرآءها على مقتضى مدلولها وردّ فروع كلّ مسئلةٍ الى اصولها ووضع الاشيآء في محلّها وايصال الحقوق الى اهلها ومعرفة منازل اربابها واوضاع اصحابها ومراتب طلّابها فمَن لم يحقّق هذه الامور اضاع مصالح الجمهور فاعطى غير المحقّ ما لا يستحقّ ومنع الحقّ عن المستحقّ . وقد قيل يا ابا السعود انّ حقيقة الجود اعطآء ما ينبغي لمَن ينبغي والّا كان كالباذر في السباخ واشبه في امره اجير الطبّاخ الذي لم يعرف معنى العدل فقصدهُ فوقع في الجدل * فسال الغزال شيخ الاوعال عن هذا المثال * فقال : كان عند بعض الاشياخ من الطبّاخين اجيرٌ طبّاخ لهُ رغبةٌ منهمة على معرفة طبخ الاطعمة وكيفيّة ترتيبها وصنعة تركيبها وكان مغرمًا بذلك يسلك فيهِ كلّ المسالك ويرد فيهِ الموارد ويتبع كلّ صادرٍ ووارد * ففي بعض الآنآء وقف على طبيبٍ من الاطبّآء فسمعهُ يقول أنّ اصلًا من الاصول العدل والتسوية بين الاطعمة والاغذية والعقاقير والادوية فمَن لم يستعمل الاستوا في درجات الغذآء والدوا ضلّ عملهُ وغوى واصل هذا المزاج ولا يُنكرهُ الّا ذو لجاج فانّ العناصر الاربعة منها المضرّة والمنفعة وقد تولّد منها السودآء والبلغم والصفرآء والدم فمتى اعتدلت هذه المتولّدات صحّت الأبدان والذات ومتى عن الاعتدال عدلت

أمرضت وقتلت وكذلك النيّر الاعظم والكوكب المضيء في العالم اذا حلّ في مركز الاعتدال استقام للعالم الحال وطاب الزمان واعتدل وذلك عند نزولهِ في برج الحمل فتصوّر ذلك الولهان انّ المقصود التسوية في الاوزان فانصرف وهو فرحان وقصد طعام الزيرباج وعبّى من مفرداتهِ ما يحتاج ثمّ انّهُ ساوى بين أوازنها وقصد العدل ميزانها وخلط كعقلهِ اخلاطها ووضعها في قدر وساطها فخاب عملهُ في عدلهِ وبان نقصهُ في فضلهِ * فلمّا وعى الملك والوزير ما سلكهُ السفير في نظام هذا التقرير شكرا لهُ مساعيهِ واخصبا في الاكرام والاعزاز مراعيهِ وقالا : جزاك الله خيرًا عن شفقتك وحسن صنيعك لمرسليك ورفقتك فمثلك مَن يصلح للسفارة بين الملوك وتولّي امور الرعيّة من الغنيّ والصعلوك فانّك ناصحٌ لمَن فوقك شفيقٌ على مَن دونك * ثمّ قال الوزير إنّ هذا الملك الكبير مقاصدهُ العظيمة أن تكون الامور مستقيمة وأنْ يصلح العباد والبلاد ويُطمئن المستفيد والمستفاد فآحتفظ ايُّها السفير المنير الضمير بما سمعتَ ورأيتَ وشاهدتَ ووعيتَ وآجعلهُ من عنوان انبآئك ومقدّمات افعالك وآرآئك وأبلغهُ مَن يحفّك من امامك وورآئك . ومهما وصلت اليهِ قدرتك وأحاطت بهِ يدك وكلمتك من ابلاغ الخير الى مسامع الوحش والطير عن هذا الملك وأوصافهِ وتطلّعهِ الى مراقي البرّ والاحسان

وآستشرافہ وما تسكن بهِ الخواطر وتطمئنّ اليہِ الضمائر وتقرّ بهِ العيون بالسرور وتستقرّ بہِ القلوب فے الصدور فلا تأل فيہِ جهدا وأوسع فيہِ جدّا ولا تنہَ في انهآئہِ حدّا فان المجال واسع وميدان المقال شاسع وقد أذن لك فيہِ وإنْ أخفيتهُ في نفسك فالله مبديہ * ثمّ كتب لہُ بذلك مراسيم عن ثغر الاماني مباسيم وأُفيض عليہِ خلع الكرامة وأُضيف اليهِ الحمامة ورجع الى أَهلهِ مغموراً بفضلهِ مسرورًا بقولهِ مشكورًا بفعلهِ فائزًا بالمطلوب ظافرًا بكلّ مرغوب فارغ البال طيّب الحال فاتّصل بأهلهِ في ديارہِ وهم في انتظارہِ فبادروهُ بالسلام وقابلوهُ بالاستلام وقالوا: ما ورآءك ياعصام فبلّغ الجواب بأرشق عبارةٍ وأَليق خطاب وذكر لهم ما رأى وسمع ووعى فآنتشرت هذه الأخبار حتى ملأت الاقطار وتسامع بها وحوش القفار وفاح بطيب نشرها الازهار فكان جميع البرّ معطار * ثمّ اجتمع روسآء الوحوش والبهائم وعرفآء الصوادح والبواغم وكلّ ساكن في القفار من سائم وحائم وأرسل كلّ الى أمّته رسولهُ يدعوها الى ما يحصل سولها وسولهُ فلبّت كلّ امّة دعوة رسولها وأقبلت لاستماع المراسيم وقبولها فاجتمعوا في رياض مرج أخضر وحلقوا لاستماع المراسيم حول المنبر وأطرقوا وسكتوا وآستمعوا وأنصتوا وتناول المرسوم الصادح من الباغم وصعد على الغصن الناعم مطوّق

الحمائم وابتدأ باسم الكريم الغفور وقرأ على روُس الاشهاد مضمون المنشور ودعاهم الى الطاعة والدخول في سنن السنّة والجماعة وانّهم لا يتأخّرون عن الحضور بعد الاطلاع على مضمون المنشور فانّہ فرمان أمان لكلّ من اجناس الحيوان ولم يبقَ مقالاً لمتخلّف ولا مجالاً لمتأخّر ومسوّف كما قيل * شعر *

فمَن جآءنا طوعًا أُتنا بمبعل * ومَن يأبَ لا يعتب علينا فعالنا

الى آخر الرسالة مع ما تحمّلهُ الرسول من مشافهةٍ ومقالةٍ ومن ملاطفاةٍ تشرح الصدر وتستنزل البدر وتوضّح ما للملك من جلالةٍ وقدر . فتلقّى الكلّ هذا الكلام بآذان القبول والاكرام واتّفقوا على التأهّب والمسير والاحتفال بالكبير والصغير واخذوا في تعبية التقادم والخدم وفرضوا ذلك على ما لكلّ من طوائف وحشم وتصدّعوا عن هذا المرسوم على ان يجتمعوا في يوم معلوم ثمّ اعدّ كلٌّ عتاده واكمل خدمتهُ وزاده واجتمعوا لذلك اليوم الموعود وتوجّهوا الى الخدمة في الطالع المسعود * ولمّا دخلوا الدرب وضربوا في الارض ايمن ضرب توجّهت الحمامة بالبطاقة بهذه البشارة والطلاقة فانتشر هذا الخبر وملا البدو والحضر . فلمّا وصل الطائر دقّت البشائر وسرّت الاهل والعشائر ثمّ انّ الملك دعا الوزير وقال : اعلم ايّها الناصح الخبير والبحر النحرير انّ الوحوش واصلة الى منزلك ويخفها وحافرها نازلة في ساحلك وانّ راية

سلطاننا بعون الله بالنصر نُشرت ووحوش الجنود والعساكر بحمد الله تعالى على بساط بسيط الطاعة حُشرت وفي هذه الجيوش اصناف الوحوش وطوائف السباع وانواع الذئاب والضباع وفيهم الفراعل والثعالب والعسابر والارانب ولا شكّ انّ هيبة الملك صادعه وحرمة السلطنة باسطة فارعة وحضرة السلطان ذات جلال وإن كانت جامعةً لصفتي الجمال والكمال وما عند كلّ احد مسكنةٌ للملاقاة ولا ثبات جنانٍ عند المشاهدة للملك اذا رآه فمَن لم يكن بيننا وبينهُ اجتماع فقد وقرت هيبتنا في قلبهِ على السماع ومَن تصدّينا لهُ في ميادين الصيد وافلت بعد معاناة الكدّ والكيد قد رابتهُ على العيان ولا يحتاج في معرفة قوّة سلطاننا الى ترجمان وعلى كلّ تقدير فمشاهدتنا على غالبهم امرٌ عسير لانّهُ ربّما يتذكّر منهم متذكّرٌ او يتفكّر منهم متفكّرٌ واقعةً سبقت او سابقةً وقعت انجرح فيها من نصل انيابنا مفاصل عراقيبه او تعلق بها من اشعارهِ واوبارهِ مشاطة جلابيبه ومَن لم ينجهِ منّا ضباحه ولم يكن سلاحهُ من كلاليب مخالبنا الّا سلاحه فبمجرّد ما يقع نظرهُ علينا او تمثّل بالوقوف لدينا برجفِ فواده وينفض من عيبة كرشهِ زاده فينكص من الخوف على عقبيه .ولا يعرف امرهُ من حواليه فيتبعونهُ ويحصل الفشل ويقع الخباط والخلل فيبهم ما اوضحناه ويفسد اضعاف ما اصلحناه

وينهدم من اوّل الامر الى آخرهِ ما بنيناه ويتعوّج من مستقيم السلطنة ما سوّيناه فلا يحصل من عزّة المملكة الّا على مثل ما حصل لابي الحصين من شيخ الديكة * فقال الوزير ينعم مولانا الاجلّ بتقرير هذا المثل *

قال الملك سمعتُ مخبرا انّهُ كان في بعض القرى للرئيس ديك حسن الخلق وديك مرّت بهِ التجارب وقرأ تواريخ المشارق والمغارب ومضى عليهِ من العمر سنون واطّلع من حوادث الزمان على فنون وقاسى حلوهُ ومرّه وعانى حرّهُ وقرّه وقطع للثعالب شباك مصائد وتخلّص لابن آوى من ورطات مكائد ورأى من الزمان وبنيهِ نوائب وشدائد وحفظ وقائع لبنات آوى وثعالب وطالع من كتب حيلها طلائع كتائب وأحكم من طرائقها عجائب غرائب * فاتّفق لهُ في بعض الاحيان انّهُ وقف على بعض الجدران فنظر في عطفيهِ وتأمّل في نقش برديهِ فرأى خيال تاجهِ العقيقي ونظر الى خدّهِ الشقيقي ونفض برائلهِ المنفش وسراويلهِ المنقش والثوب الذي رقمهُ نقّاش القدرة من المقطع المبرقش فاعجبتهُ نفسهُ وأذّن فاطربهُ حسّه وتذكّر ما قالهُ الاسعد المادح في المعتصم بن صمادح وهو:

كأنّ انوشروان أعطاهُ تاجه * وناطت عليه كفّ مارية القرطا
سبا حلّة الطاوس حسنُ لباسهِ * ولم يكفهِ حتى سبا المشية البطّا

فصار يتيه ويتبختر ويتقصّف ويتخطّر فاستهواهُ التمشّي سويعة

حتى أبعد عن الضيعة فصعد الى جدار وكان قد انتصف النهار فرفع صوته بالآذان فانسى صوته الكتانى والدهان . فسمعه ثعلب فقال مطلب وسارع من وكره وحمل شبكة مكره وتوجه اليه فرآه فسلم عليه * فلما أحس به ابو اليقظان طفر الى أعلى الجدران ثم حيّاه تحية مشتاق وترامى لديه ترامي العشاق وقال : أنعش الله بدنك وروحك وروّى من كاسات الحياة غبوقك وصبوحك فانّك أحييت الارواح والابدان بطيب النغم والصياح في الآذان فانّ لي زمانًا لم أسمع بمثل هذا الصوت وقاه الله نوائب الفوت ومصائب الموت وقد جئت لأسلّم عليك واذكرك ما أسدي من النعم اليك وأبشرك ببشارة وهي أربح تجارة وانجح من الولاية والامارة ولم يتّفق مثلها في سالف الدهر ولا يقع نظيرها الى آخر العصر وهي أنّ السلطان ايد الله بدولته أركان الايمان أمر مناديًا فنادى بالأمان والاطمئنان واجرآء مياه العدل والاحسان من حدائق الصحبة والصداقة في كلّ بستان وان يشمل الصداقة كلّ حيوان من الطير والوحش والحيتان ولا يقتصر فيها على جنس الانسان فيتشارك فيها الوحوش والسباع والبهائم والضباع والأروى والنعام والصقر والحمام والضبّ والنون والذباب وابو قلمون ويتعاملون بالعدل والانصاف والاسعاف دون الاعساف ولا يجري بينهم الّا المصادقة وحسن المعاشرة والمرافقة

فتمحى من لوح صدورهم نقوش العداوة والمنافقة فيطير القطا مع العقاب ويبيت العصفور مع الغراب ويرعى الذئب مع الارنب ويتآخى الديك والثعلب وفي الجملة لا يتعدّى أحدٌ على أحد فتأمن الفارة من الهرّة والخروف من الاسد واذا كان الامر كذا فقد ارتفع الشرّ والاذى فلابدّ أنْ يُمتثل هذا المرسوم ويُترك ما بيننا من العداوة والخلق المذموم ويجري بيننا بعد اليوم المصادقة وتنفتح أبواب المحبّة والمرافقة ولا ينفر أحدٌ منّا من صاحبه بل يراعي مودّته ويبالغ في حفظ جانبه وجعل الثعلب يقرر هذا المقال والديك يتلفّت الى اليمين والشمال ويحتاط غاية الاحتياط ولا يلتفت الى هذا الهذيان والخباط * فقال الثعلب يا أخي ما لك عن سماع كلامي مرتخي انا ابشّرك ببشائر عظيمة لم تتّفق في الاعصر القديمة وانّما برزت بها مراسيم مولانا السلطان الجسيمة وأراك لا تلتفت الى هذا الكلام ولا تسرّ بهذا اللطف العام ولا تلتفت اليّ ولا تعوّل عليّ وتستشرف على بُعدٍ لشيّ فهلا أخبرتني بما اضمرتَ ونويت وتطلعني فيما تتطاول اليه على ما رأيت حتى اعرف في أيّ شيء انت وهل ركنتَ الى اخباري وسكنت * فقال أرى عجاجًا ثائرا ونقعًا الى العنان فائرا وحيوانًا جاريا كانّه البرق ساريا ولا عرفتُ ما هو ولكنّه اجرى من آهوا * فقال ابو الحصين وقد نسي المكر والمين بالله يا أبا نبهان حقّق لي هذا

الحيوان * فقال : حيوانٌ رشيق لهُ آذانٌ طوالٌ وخصرٌ دقيق لا الخيل تلحقهُ ولا الريح تسبقهُ فرجفت قوائمُ الثعلب وطلب المهرب * فقال ابو المنذر تلبَّث يا أبا الحصين واصبر حتى احقّق رؤيتهُ واتبيّن ماهيتهُ فانّه يا ابا الحصين يسبق طرف العين ويكاد يا ابا النجم يخلف النجم في الرجم * فقال اخذني فؤادي وما هذا وقت التمادي ثمّ أخذ يسلح وولّى وهو يصدح بقولهِ : * شعر *

لابس التاج العقيقي * لاتقف لي في طريقي
ان يكُن ذا الوصف حقًّا * فهو والله السلــــوقي

فقال الديك : واذا كان وقد قلتَ أنَّ السلطان رسم بالصلح بين سائر الحيوان فلا بأس منهُ عليك فتلبَّث حتّى يجيء ويقبّل يديك وتعقد بيننا عقود المصادقه ويصير رفيقنا ونصير رفاقه . فقال : ما لي برؤيتهِ حاجة فدع عنك المحاجّة واللجاجة . فقال : او ما زعمتَ يا ابا وثاب انَّ السلطان رسم للاعدآء والاصحاب أنْ يسلكوا طرائق الاصدقآء والاحباب فلو خالف المرسوم هذا الكلب لما قابلهُ الملك الاَّ بالقتل والصلب . قال : لعلّ هذا المشوم لم يبلغهُ المرسوم . ثمَّ ولّى هاربا وقصد للخلاص جانبا * وانّما اوردتُ يا نفيس هذا المثال لتقيس احوال مَن دان لك من هذا الحيوان ولا تشقّها بعصًا واحدة واحسب حال كلّ واحدةٍ على حدة فربّما يكون في هذه البهائم

مَن لا هو باحوال الصلح عالم ولم تبلغهُ الدعوة وانَّما انضاف بسبب رجوة او آمن على سبيل التبعية والتقليد ولم يطّلع على موارد الوعد والوعيد ولا وقف على ما وقع من الاتّفاق ولا يلبث لمصادمة اللقآء وقت التلاق فيصدر منكم حركة تؤدّى الى قلّة بركة وتستطرد الى نفرةٍ وجفول فيدهمنا هدم ما اسّسناهُ على غفول ويقع من الفساد ما لا يمكن تلافيه ويضيع نقود جواهر جهدنا وكدّنا فيه واذا كانت الدنيا محلّ العوارض والغالب انَّهُ عند مشارفة المقصود يحصل العارض والعاقل لا يغفل عن هذا الخطر فعند صفو الليالي يحدث الكدر وقد كفاك من ناداك بقولهِ * شعر *

اذا قربت يداك الى مرامٍ * وقلتَ تحوّلت نفسي مناها
فلا تأمن من الدهر اختلاسًا * يحول فكرهُ في ذا تناهى
كجانٍ لم يصبهُ الشوك الّا * وقد وصلت يداهُ الى جناها

فالرأي السديد يا ابا سعيد يقتضي أن تمضي الحمامة المطوّقة الى تلك الجموع المفرّقة وتنادي في كلّ نادي بين الحاضر والبادي والرائح والغادي بحقائق الامور وتطييب خاطر الجمهور وما هم قادمون عليهِ ومَن هو الواصلون اليهِ ليعلموا انّهم في صفقتهم رابحون وأنّهم على هدًى من ربّهم مفلحون * فتوجّهت الحمامة بهذه النقوش وشهرت النداء في طوائف الوحوش بما هم عليهِ قادمون وأنّهم للملك يسار خادمون ثمّ

تبعها الوزير ومعهُ كلّ امير وكبير من خواصّ المباشرين والاعيان الملازمين وكبرآء الأطيار ورؤسآء الاخيار واستقبلوا ملوك الوحوش والهوامّ ورؤسآء السوائم والسوامّ وقابلوا ملتقاهم بالاعزاز والاكرام ووعدوهم بكلّ خيرٍ واحسان ووصلوا بهم الى ميدان الامان وحين حلّ عليهم نظر السلطان قبّلوا الارض ووقفوا في مقام العرض وأدّوا من واجب العبوديّة النفل والفرض فأنزل كلًّا في مقامه بعد أنْ احلّهُ في محلّ اكرامه وأفاض عليه خلع احسانه وانعامه وعلت منزلة الوزير وتقدّم كما تقدم وأشير وصفا لهم الزمان وعاش في ظلّ عدلهم كلّ ضعيفٍ من الحيوان وتقبّلوا في رياض الاماني على بساط الامان * وفائدة هذه الحكايات تنبيه أشرف جنس المخلوقات وألطف طائفة المكوّنات وهو نوع الانسان الذي اختصّهُ الله تعالى بانواع الاحسان وأيّدهُ بالعقل وأمدّهُ بالنقل على انّهُ اذا كان هذا الفعل الجليل يصدر في التنظير والتمثيل من أخسّ الحيوانات وما لا يعقل من الموجودات فلأن يصدر من أُولي النهى وأُولي الفضل والمكارم والعلا أولى وأحرى لاسيّما مَن رفع الله في الدنيا مقداره وأعلى على قمم الخلائق مناره وحكّمهُ في عبيده المستضعفين واسترعاهُ على رعيّةٍ سامعين مطيعين وسلّطهُ على دمآئهم واموالهم وبسط يدهُ ولسانهُ في رفاهيتهم ونكالهم والحمد لله ربّ العالمين آمين *

الباب السابع

في ذكر القتال بين أبي الابطال الريبال وأبي دغفل سلطان الافيال

قال الشيخ ابو المحاسن مَن ليس لهُ في الفضل مساوٍ ولا مواسٍ : فلمّا انهى الحكيم حسيب كلامهُ الاحلى من النسيب قبّل أخوهُ بين عينيه، وأفاض خالع الانعام عليه، ثمّ استزاده وفتح لجامع فضله باب الزيادة . وكان قد وقع بين ملك الافيال وبين ملك الاسود المسمّى بالريبال المكنّى بأبي الاشبال وأبي الابطال مقالٌ أدّى الى جدال واتّصل بحربٍ وقتال * فسال الملك اخاه هل سمع من ذلك شيئًا ووعاه * فأجاب بالايجاب وذكر في الجواب الامر العجاب فقال : كان ياملك الزمان في بعض أطراف الهنود من عساكر الافيال جنود في جزيرة عظيمة كبيرة لهم من جنسهم وجلدتهم ونفسهم ملكٌ عظيم ذو جسمٍ جسيم وشكلٍ وسيم منظرهُ بديع وهيكلهُ رفيع طويل الخرطوم واسع الحلقوم مبسوط الاذنين حديد العينين طويل الانياب كانّهُ طودٌ في جراب كثيفٌ في المرأى خفيف في الموطأ عدد جيشه غزير ومدد جنده كثير وهو فيهم ملكٌ كبير ذو قدرٍ خطير منفردٍ بالسرير وورثهُ كابرًا عن

كابر وكلّ جيشٍ روساء وأكابر لاوامره طائعون ولما يراه
تابعون فبلغهُ في بعض الايام انّ في بعض الغياض والآجام
مكانًا في غاية النزاهة معدن الفواكه والفكاهة ذا مياهٍ عذبة
ومروجٍ رطبة اراضيها اريضة ورياضها طويلةٌ عريضة اطيارها
تسكر بالحانها وأشجارها تُخجل قدود الملاح باغصانها وازهارها
زهرة وانوارها نضرة ونسيم الصبا والشمال تنشر الى الآفاق طيب
انفاسها العطرة وأنّهُ يصلح ان يكون لملك الافيال مقاما مع انهُ
فيهِ من الجبال والحصون معاصم وعصاما غير انّ فيهِ اسدًا
هصورا جمع فيهِ جندًا كثيرا ولا زال الناقل يصف ويُطنب
ويُعجم في حسن شمائلها ويُعرب حتّى قال بعض الندماء
الحاضرين من الكبرياء لو قصد الملك ذلك المكان وجعلهُ
لنفسهِ من بعض الاسكان وتنقّل اليهِ في بعض الاوقات
وساعات التفرّج في المتنزهات لأراح نفسهُ الخطيرة من وخم
هذه الجزيرة ووجد لذّة الطعام ونشوة الشراب على المدام
والاسد الذي فيها وإنْ كان مالك نواحيها وبيد تصرّفهِ زمام
نواصيها وجماجم قلاعها وصياصيها لكنّهُ ملكٌ عادل وسلطانٌ
فاضل تمنعهُ شهامته وكرم نفسهِ وكرامته ورياستهُ وزعامته
أن يضايق الملك في ذلك او يضيّق سلوكها على سالك وإنْ
شرع في الممانعة وأخذ في أسباب المدافعة بالمقارعة والمنازعة
فالعساكر المنصورة واعدادهم الموفورة فيهم بحمد الله لذلك قوّةٌ

وكفاية ولهم في بداية الحروب هداية وفقاهةٌ ليس لشرحها غاية
ولا لفروع اصولها نهاية يحيون في مباحثها النفوس ويُعيدون
في مدارس الحرب بتكرار الضرب فاني الشجاعة بعد الدروس
فيكفون الملك أمرهُ ويكفّون أذاءهُ وشرّهُ ولا زال يفتل منهُ في
الغالب والذروة ويقوّي بتمويهاته دواعي الحرص والشهوة حتى
اقتنصتهُ اشراك المطامع . وأوقعتهُ في عبوديّةِ شهوة تلك المواضع
ودعتهُ النفس الابيّة وحميّة الجاهليّة وباعث العصبيّة الى
الاستيلاء على تلك الاماكن البهيّة والولايات السنيّة والمساكن
الزهيّة واسامة سوارح اللحاظ في مراعي نزهة تلك الغياض
ومروج اراضي هاتيك الرياض وأزعج في ذلك المقتضي وأسلمهُ
العدل والخلق الرضي وغلب عليهِ سيّئ الطباع واستولت
عليه فوارع الاطماع وعشقها على السماع * وكان عندهُ اخوان
هالهُ عضدان هما وزيراهُ وفي مهامّه مشيراهُ مسعداهُ في الامور
ومنجداهُ في أحوال السرور والشرور أحدهما واسطة خير قليل
الشرّ عديم الضير قد جرّب الزمان وعاناه وقالب قوالب وقائعهِ
بالمقايسة ما قاساه اسمهُ مُقبل وهو كاسمهِ مفضل والآخر
بالعكس في جميع حركاته وكس وهو كاسمهِ مُدبر بكلّ شيءٍ
مُخبر قصدهُ غبار فتنٍ يثيرهُ وعسكر بلاءٍ يُغيرهُ وطالب أذًى
وعناء يعيرهُ او سرّ يذيعهُ او مكرٍ يشيعهُ او متسوّق شرّ يبيعهُ
وهما ملازمان الخدمة واقفان في مقام الحشمة والحرمة كالفتق

والرتق والباطل والحقّ والكذب والصدق وفي الافساد
والاصلاح كالمرهم والجراح ومُصلح الدرهم ومفسد الراح
ومرشد العقل ومضلّ الاقداح وفي الوفاق والشقاق كالسمّ
والترياق وفي الحكم والقضآء كالدآء والدوآء وفيما يقع من
الحوادث المفرّحات والكوارث كالحرّ والبرد والشوك والورد
فاختلى الملك بأخويه واستشارهما فيما أنهى اليه * فقال أخوهُ
المقبل يا مولانا أبا دغفل لو لم يكن بهذا المكان أحد من أدنى
الوحوش فضلاً عن الاسد لكان قصدهُ ترفُّعًا وترفُّها والتوجّه
الى الاستيلآء عليه موجّها فكيف وذلك في ولاية مالك وهو
مالكٌ صعب كأبي حفص الصعب ملكٌ كبير عادل وسلطانٌ
خطيرٌ فاضل مطاعٌ في صاغيته متبوعٌ في حاشيته عادلٌ في
رعيّته سيرتهُ مشكورة ومحاسنهُ مأثورة وهيبتهُ وبسالتهُ غير
منكورة وهو جار حسن الجوار لم يضبط عليه ما يقتضي انتزاع
ملكه من يديه ولم يتعرّض الى متعلّقاتنا ولا آذى أحدًا في
ولايتنا وانّ مولانا السلطان لم يصدر منهُ الاّ العدل والاحسان
الى الأباعد والأجانب فضلاً عن الجيران لاسيّما الملوك والاكابر
ومَن ورث الملك كابرًا عن كابر ولقد تلقّفتُ من أفواه الحكمآء
وتشنّفت مسامعي من جواهر الفاظ العلمآء بثلاث نصائح . هنّ
من أحسن المنائح احداها احذر ايّها الموفّق أنْ تقع في دمٍ
بغير حقّ ثانيتها ايّاك يا ذا التوفيق واموال الناس بغير طريق

ثالثتها ايّاك يا ذا الشيم الكريمة وهدم البيوت القديمة * واعلم أنّ
الله تعالى عمّ رزقهُ وخصّ كلّ موجودٍ بما يستحقّهُ وقد أقام
الاسد في تلك الاماكن وهو وانْ كان متحرّكا فهو فيها ساكن
ولو لم يستاهل لَمَا اختصّ بتلك المناهل وما ينكر هذا الآجاهل
او مَن هو عن الحقّ ذاهل وحاشى أنْ تنسب يا رئيس الاخيار
الى حسدٍ اوسوء جوار وعظمتك تأنف عن ذميم الاخلاق
وكيف وقد انتشر بالفضل صيتها في الآفاق واذا كان للشخص
ما يكفيه فينبغي أنْ يقتصر عمّا يطغيه * فالتفت الملك الى المدبر
واشار اليه كالمستخبر ماذا تشير ايّها الاخ والوزير * فقال :
جميع ما قدّرهُ مولانا الوزير حقّ وجملة ما ذكرهُ وحرّرهُ صدق
نصائح ترشد العقول وتزيّن عقود المعقول والمنقول ولكن لا
يخفى على كريم العلوم أنّ الاسد حيوانٌ ظلوم غالب طالب
وخلاص الرعية من شرّه واجب ويلزم كلّ احد انّ يخلّص
الرعايا من ظلم الاسد ومولانا لم يبلغهُ ظلمهُ ولم يحط بأحوال
الاسد علمهُ وانّهُ من اظلم البريّة لمَن تحت يده من الرعيّة
وانّهُ يجب على مولانا السلطان خلاص الرعيّة منهُ على ايّ
وجهٍ كان وايضًا فانّ انعامات مولانا البارّة على كلّ احدٍ من
الخلق دارّة والخرج والكلف والكرم الذي بأنامله ائتلف كلّ
يوم في ازدياد والعساكر المنصورة كلّ وقتٍ تزداد واذا تتّسع
الولايات وتكثر الجهات والاقطاعات كان الخرج اكثر من

الدخل والمصروف من الخزانة كالوابل والدخل كالطلّ واذا
زاد المصروف على الحاصل عجز الواصل وفرغ الحاصل ودلّ
ذلك على ركاكة الهمّة وقصور النهمة والملك يجب عليه
والمندوب في شروع همّته اليه أن يكون كلّ وقتٍ جديد في
فتحٍ سعيد وترقٍّ مزيد وتوسعة الممالك وتنزيه بساط السلطنة
عن المنازع والمشارك والاستكثار من الجند والرعيّة واستجلاب
خواطرهم الأبيّة بالجوائز السنيّة والانعامات السميّة ولا
يجوز في ملّة الاسلام ان يتعدّد الخليفة الامام ولله درّ القائل
العليّ الشمائل * شعر *

اذا ما لم تكن ملكًا مطاعا * فكن عبدًا لمالكه مطيعا
فان لم تملك الدنيا جميعا * كما تهواهُ فاتركها جميعا

وناهيك يا مالك الممالك والمماليك في علوّ الهمّة وصدق
العزمة وغوص الافكار في استخلاص ممالك الاقطار قصّة
فحل الرجال تيمورلنك الاعرج الدجّال مع نائبه الله داد
احد القوّاد ونوّاب البلاد * فسأل ابو مزاحم اخاهُ عديم المراحم
عن تلك القصّة وايضاحها عن جليّة *

فقال: انّ تيمور رأس الفسّاق الاعرج الذي أقام الفتنة
على ساق لمّا حلّ بالممالك الروميّة في شهور سنة خمسٍ
وثمانمية وأسر مالكها واستخلص ممالكها واستمرّ في ممالك
العرب يصول وفي فكره استخلاص ولايات الشرق يجول . وكان

أقصى ما انتهت اليه في الشرق مملكتهُ ونفذت بسهام
أحكامه فيه أقضيتهُ بلدًا يسمّى اشباره قد أعدّهُ لشياطين
النهب والغارة وبنى فيه قلعة ونقل اليه من ذوي المنعة
جندًا منتخبًا من كلّ بقعة وهو في بحر ممالك المغل والتتار
والحدّ الفاصل بين ممالكه وولايات عبّاد الشمس والنار وأمّر
على اولئك الاجناد شخصًا يُدعى الله داد وهو من خواصّ أمرائه
ورؤساء جنده وزعمائه . فمن جملة ما أمرهُ به ذلك المشوم وهو مخيّم
ببلاد الروم انّهُ ابرز اليه مراسله فيها أمورٌ مجملة ومفصّله
امرهُ بامتثالها وارسال الجواب ببيان كيفيّة حالها منها انّهُ يبيّن
لهُ اوضاع تلك الممالك ويوضّح كيفيّة الطرق بها والمسالك ويذكر
لهُ مدنها وقراها ووهدها وذراها وقلاعها وصياصيها وادانيها
واقاصيها ومفاوزها واوعارها وصحارها وقفارها واعلامها ومنارها
ومياهها وانهارها وقبائلها وشعابها ومضائق دروبها ورحابها
ومعالمها ومجالها ومراحلها ومنازلها وخاليها وآهلها بحيث يسلك
في ذلك السبيل لا الاطناب المملّ ويتجنّب ماخذ الايجاز خصوصًا
المخلّ ويذكر مسافة ما بين المنزلتين وكيفيّة المسير بين كلّ
مرحلتين من حيث تنتهي اليه طاقته ويصل اليه علمهُ
ودرايته من جهة الشرق وممالك الخطا وتلك الثغور والى
حيث ينتهي اليه من جهة سمرقند علم تيمور وليعلم انّ مقام
البلاغة في معاني هذا الجواب هو أن يُصرف فيه ما استطاع

من حشوٍ واطناب وتطويلٍ واسهاب وليسلك في بيانهِ الطريق الاوضح من الدلالة وليعدلْ عن الطريق الخفيّ في هذه الرسالة الى ان يفوق في وصف الاطلال وتعريف الرسوم وحدود الدمن صفة الشيخ القيصوم * فامتثل الله داد ذلك المثال وصوّر لهُ ذلك على احسن هيئةٍ وآنق تمثال وهو انّهُ استدعى بعدّة اطباق من نقيّ الاوراق واحكمها بالالصاق وجعلها مربّعة الاشكال ووضع عليها ذلك المثال وصوّر جميع تلك الاماكن وما فيها من متحرّكٍ وساكن فاوضح فيها كلَّ الامور حسبما رسم بهِ تيمور شرقًا وغربًا بعدًا وقربًا يمينًا وشمالا مهادًا وجبالا طولاً وعرضا سماءً وارضا مرداءَ وشجراءَ غبراءَ وخضراءَ منهلاً منهلا ومنزلاً منزلا وذكر اسم كلّ مكانٍ ورسمه وعيّن طريقهُ ووسمه بحيث بيّن فضلهُ وعيبه وابرز الى عالم الشهادة غيبه حتى كانّهُ شاهده ودليلهُ ورائده وجهّز ذلك اليه حسبما اقترحهُ عليه كلّ ذلك وتيمور في بلاد الروم يمور وبينهما مسيرة سبعة شهور وكذلك فعل ذلك البطل وهو بالبلاد الشاميّة سنة ثلاثٍ وثمانمائة مع القاضي عمدة المؤرّخين ابي هريرة عبد الرحمن بن خلدون الرصين وقد سألهُ عن احوال بلاد الغرب وما جرى فيها من صلحٍ وحرب وما وقع فيها من خيرٍ وشرّ ونفعٍ وضرّ . ثمّ انّهُ اقترح عليهِ وتقدّم بالامر اليهِ بوضع اوضاعها ورسم

مدنها وقلاعها وحصونها وضياعها وتخطيط ولايتها واشكالها وهيئاتها فامتثل ذلك وأبداه وعلى حسب ما اختارهُ واقترحهُ أنهاه وبيّن ذلك مثلما ذكر أعلاه فشاهد اوضاعها وخبر وهادها وبقاعها كأنّ الحائل رُفع من البين وعاين عين ذلك الاقليم بالعين فانظر الى هذا الاغتمي وهو سطيح نصف آدمي وهمّتهُ العالية كالبرق تضرب تارةً في الغرب واخرى في الشرق * وانّما اوردتُ هذه القضيّة ليقف سامعها على مقدار الهمّة العليّة فلا يرضى الملك الهمام بالمنزلة الدنيّة ولا يقنع بالدرجة الوطيّة بل يجتهد في تكثير الجند والرعيّة وفتح الاقاليم العربيّة والعجميّة ولا يقتصر على الحالة السويّة وانّما يلازم طلب الارتقاء بكرةً وعشيّة ويكون سعيهُ كالشكر يطلب المزيد وكما يستديم طلب الزيادة من مولاهُ يستديم زيادة العبيد والّا فيُنسب الى قصور الهمّة وافلاس الذمّة ونقصان الحرمة وبطلان الحشمة واعظم بها من وصمة وبالعجز والتقصير يضيع حقوق الملك الخطير وتجد الرعيّة للطعن مقالا وفي ميدان الاعراض عن الملك مجالا وهذا خلاف موضوع الامامة وعكس ما تقتضيهِ الرياسة والزعامة فانّ موضوع السّلطنة أنْ يتعاطى الملك مهما أمكنه من اسباب الفتح والفتوح وما يستميل بهِ من الرعيّة القلب والروح وذلك بالاحسان والاكرام والبذل والانعام فيهِ تقوى رغبتها وتزداد

صحبتها فاذا لم يكن ذلك قلّ المملوك عن المالك واسمع
قول الاديب ذي الراي المصيب وهو * شعر *

اذا اهملتَ امر العبد يومًا * وقصّرتَ العليق عن الحمار
توقّف في المسير ابو زياد * وقام العبد يجري للفرار

وقيل : والدرّ يقطعهُ جفآء الحالب . فالرأي السديد عندي
والذي بلغ اليه جهدي انفاذ هذه العزيمة وسلوك طريقها
القويمة وابرازها من مكان القول الى ظواهر العمل والحول
والاعتماد على ما قيل * شعر *

فلا تثن عزمك خوف القتال * بسمر دقاق وبيض حداد
عسى ان تنال الغنى اوتموت * فعذرك في ذاك للناس باد
فإن لم تنل مطلبًا رمتهُ * فليس عليك سوى الاجتهاد

فأقبل الملك على المقبل وقال توجّه بكلّيتك عليّ وأقبل
* شعر *

ولا تبق مجهودًا برايك انّـهُ * سديدٌ ومَن يتق السديد سديد

فانّ القلب قد مال الى العزم والاخذ في التوجّه بالحزم وترجّح
جانب الوثوب الى جهة هذا المطلوب فأمعن النظر وأجل
قداح الفكر ولا تخفِ رأيًا يسنح في ايّ جهة ترجّح * فقال
أفعل بشرط أنْ يُقبل اعلم زادك الله علمًا وفضلاً وكرمًا . وحلها
انّ الذي رآهُ العلمآء وأشار بهِ ذوو الحنكة من الحكمآء انّ
مَن طلب وفور خيره وفائدة نفسه من مضرّة غيره لا يتمتّع

بتلك الفائدة ولا تُثمر معهُ تلك العائدة وهذا على تقدير
حصولها والاستيلآء على فروعها واصولها وإن لم يظفر بها فلا
تستفد النفس غير كربها مع زيادة الحسرة وسوء الصيت في
الشهرة ووفور الندم وزلّة القدم وكلُّ مَن اراد تمشية هواه
ولم يلتفت الى ما سواه ورأى نفسهُ احق من غيره فلا
يطمع ابدًا في خيره ولا يكاد يسلم من الانكاد ولا يصفو لهُ
زمان ولا تدوم لهُ اخلآء واخوان ولا تزال ديم الهموم من
غمام الغموم تهمي على حدائق آماله وتسقي مزارع احواله
الى أنْ تخظل نخلات نيّته وتيبس حقول طويّته ويحصد
حرّات الفنا ويدرسهُ درّاس الرّدى ويذري حبّات وجوده
الهوان في الهوآء ويُنقل عن بيدر الشقآء الى طاحون البلآء
فهناك يجدح سويق افعاله ما يزيغهُ فيحسوهُ ويتجرّعهُ ولا يكاد
يسيغهُ ويصهر بهِ ما في البطون ويُقال لهُ ذوقوا ما كنتم
تكسبون هذا واذا كان الدخل لا يفي بالخرج وخيف من
ذلك وقوع هرج ومرج فيحسن التدبير بتصرّف الملك الخبير
وبكفاية الوزير وتوفير المشير يجلّ الحقير ويكثر النزر اليسير
كما قيل * شعر *

قليل المال تصلحهُ فيبقى * ولا يبقى الكثير مع الفساد

وبالخلق الحسن وحسن السياسة تملك رقاب أولي الرياسة
فضلاً عن العوامّ وهذا بحسب المقام ولا يتصوّر انّ مجرّد المال

هو شبكة صيد الرجال فانّ حفظ الممالك هو وراء ذلك وشيء يحتاج في تحصيله والانقطاع الى وصوله الى بذل اموال وارواح وكدّ نفوس واشباح واتعاب خيل ورجال وارتكاب شدائد واهوال وبعد حصوله يتكلّف في محافظته وحراسته وملاحظته الى تحمّل هموم وغموم وكلام وكلوم وآخر الامر يخرج من اليد ولا يبقى الّا النكد والكدّ فتزول في الدنيا اللذّات مع معاناة الكدورات وتجرّع الغصص والمشقّات وتبقى في الآخرة التبعات لجديرٌ بأن لا يُلتفت اليه ولا يعوّل عليه ولا يُهتمّ لهُ بشان ويستغنى عنه وإن احتيج اليه بقدر الامكان والّا فمثل الذي يعلّق به فؤادهُ ويربط بدوامه وبقائه اعتقادهُ ويتصوّر ذلك بفكره الفاسد ونظره الكاسد كمثل كسرى لمّا مات ولدهُ وتفتّت عليه كبدهُ وحصل لهُ عليه الاضطراب وردّهُ عن خطائه البهلول الى الصواب *

فسأل ابو المحجّاج اخاهُ المحجاج عن بيان هذا الامر وكيفيّة إطفاء هذه الجمر *

فقال المقبل ذكر محدّثٌ معدّل أنّ كسرى كان لهُ ولد قد سكن منهُ سويداء الخلد يخجل البدر ليلة تمامه وبتمايل الغصن حالة قيامه وكان يحبّهُ حبًّا جاوز النهاية وتعدّى الحدّ والغاية وكان لشدّة شفقته استبعد حلول تلفه بل احال وفاتهُ وأذهلهُ عن درك الحقّ وفاتهُ فادركهُ الاجل المحتوم

واستوفى مداهُ المعلوم فاضطرب كسرى لموته واضطرم واصطدم بصخور فراقه واصطلم ولم يقرّ لهُ قرار ولا طاوعهُ اصطبار فوعظهُ العلماء فما افاد وثبّتهُ الحكماء بضرب الامثال فأعياهم المراد . وكان في بلده رجلٌ بهلول يتردّد اليه ويدخل في اكثر اوقاته عليه فيلاطفهُ في محاورته ويبتهج بكلماته في مخاطبته فدخل عليه البهلول وهو كئيبٌ ملول لا تسرّ حالهُ صديقا ولا يهتدي الى السكون طريقا . فسالهُ عن حاله وما أوجب توزّع باله وتغيّر اقواله . فقال : يا بهلول عدمتُ ولدي وقرّة عيني وراحة روحي وجسدي * شعر *

لا صبر يجدي على فراقه * ولا معينٌ على احتراقه

وقلتُ

أوّاه من فرقة الاحباب اوّاه * لقد كوى من حشا قلبي سويداه

قال البهلول نعوذ بالله من ساعات الذهول يا ملك الانام إنّ احد الزعماء الكرام شكا اليه بعض مصافيه شيئًا يشابه ما انتَ فيه فقال : كُنْ لربّك كإلف الحمام يذبحون فراخهُ ولا يفارق مناخهُ ولا ينفرّ عنهم ولا يشكو منهم ثمّ انّ البهلول قال وانا لي اليك سؤال فأجبني بجوابٍ شاف فانّك ذو الشاف فلا يكُن فيه جزاف . فقال سل فكلامك لا يملّ قال أكنتَ ترجو أنّ ولدك لا يموت ابدا وأنّهُ يصير في الدنيا مخلّدا . فقال : لا ولكن اردتُ أنْ يبقى مدّة ويتمتّع بشبابه

وبنعيمها عنك ويلتذ بطيب المآكل والمشارب ويقضي عن اوطار الشباب المآرب ويؤنس انداده وصحبه ثمّ يقضي بعد ذلك نحبه . قال : هب انّه عاش مهما رمت وقام وقعد في الدنيا كما قعدتَ وقمت وعاش العيش الطيّب وهمى عليه من سمآء ملاذّها الصيّب وحصل له من العيش الهني والعمر السني امثال الجبال واعداد الرمال فعند مفارقته العيش وحلول الخفّة والطيش هل يدفع عنه ذاك شرّا او يرفع عنه بؤسًا وضرّا ويجلب له منفعه او يذهب من ذلك شيء معه او يفيده أدنى فائدة او يعود عليه منه عائدة . قال: لا. قال: فلا تأسَ على معاش يكون عقبى امره الى لاش وعمر ذلك مصيره سوآء طويله وقصيره وكثير تنعّمه ويسيره * شعر *

واذا كان منتهى العمر موتـــا * فسوآء طويلـــه والقصير

فعش ما شئتَ في الدنيا وادرك * بها ما شئتَ من صيتٍ وصوت

فحبل العمر موصولٌ بقطـــع * وخيط العيش معقودٌ بمـــوت

فهب انّه عاش ونهب الملاذّ وحاش وعلا في أرض التنعّم وغلا وجاش كلّ ذلك في المقدار على حسب ما تختار وانّه جآءه القضا وقد قضى وطره ومضى ثمّ قضى نحبه وقضى. فجبر بهذا الكلام كسرى وسرى عنه همّه واسرى . وقال الآن سكنت فنعم الناصح انت * وانّما اوردتُ هذا التنبيه ايّها الملك النبيه لاعرض على الخواطر السعيدة والآرآء السديدة الرشيدة أنّ

الاقتصار عن هذا أولى وأليق بالركون تحت ارادة المولى * قال المدبر المفتن المعبّر ثلاثة اشيآء ينبغي لطالبها أن يفتكر في عواقبها الاوّل الاسفار في البحار والغوص فيها الى القرار فانّ طالب الجواهر النفيسه ومَن قصد ان يكون في صدر التجارة رئيسه لا يخشى من الغرق ولا عنده من ذلك فرق فهذا يعنى ببضائع المال وذاك يغطس الى قعر الأوحال وكلٌّ منهما لا يفتكر في العاقبة والمآل الثاني المقدّم على الحرب والرشق والطعن والضرب ومصارعة الابطال ومباشرة اسباب القتال لا ينزعج لصوت ولا يفتكر في الهزيمة والجراح والموت والثالث طالب الرياسة والملك ذي السياسة لا يفتكر في الاقتحام ولا يتوانى في الاقدام ولا يتأمّل في العواقب ولا يلتفت الى المناقب ويلقي نفسه في الاخطار ويضرب الى اعماق الاقطار ويجعل جلّ همّه بلوغ الاوطار وقيل * شعـــر *

بقدر الكدّ تكتسب المعالي * ومَن طلب العلا سهر الليالي

تروم العزّ ثمّ تنام ليلا * يغوص البحر مَن طلب اللآلي

قال المقبل الحكيم وتحسبونه هيّنًا وهو عند الله عظيم أولوا الالباب المميّزين بين الخطأ والصواب الناظرون من مبتدأ الامور في اعقابها المستبصرون قبل وقوعها في مآلها ومآبها الآتون بيوت النوائب والنوازل من أبوابها قالوا اذا تحصّن أبو الحصين وأغلق عليه من ورآء جدار بابين ثمّ حاصره اسدٌ من خارج

ساوت قوّة الخارج قوّة الوالج ولا شكّ أنّ حركة العساكر وقطع الفيافي والدساكر والتوجّه الى قتال مَن هو ساكن في سربه محتاطٌ في اقليمه ودربه متحصّنٌ في قلاعه متدرّقٌ بجحفة امتناعه يحتاج في الاموال الى اخراج وفي الرجال الى ازعاج وتحمّل اخطار وتجشّم اسفار وأخذ ضعفاء تحت اقدام وهدم دورٍ وقطع ارحام ومع هذا كلّه حصول المقصود موهوم والظفر به غير معلوم فانْ حصل فقد مرّ أنّ لا ثبات ولا تمتّع وان احتجب فهو وراء ستر التمتّع فكم من دماء حينئذ تُراق وقد كانت مصونة وأموالٍ تُهدر وقد كانت مضمونة واعراضٍ تُهتك وقد كانت محترمة وأنفُس تذلّ وقد كانت عزيزة مكرّمة والحقّ في هذا متّضح ومَن نجا برأسه فقد ربح وقد قدّمتُ هذا التقرير وهندستُ هذا التقدير لانّ العاقل الماهر في التجارة كما يحسب الربح يحسب الخسارة وكلّ هذا في العاجلة فضلاً عن المحذورات الآجلة من غضب الله وعقابه وتوبيخه واليم عذابه واذا خرج الامر عن اليد ودخل على القلب الاشتغال بالنكد وذهب المال والمنال ونقصت الأهبة والرجال وتناقص العَدد والعِدد وتناكص المدد والمِدد فايّ حرمة تبقى للملك عند الرعايا وقد قلّت عنهم منهُ الارفاد والعطايا وكيف يستقرّ ملكهُ اويدور على فلك الثبات فلكهُ فلا تخافهُ الرعيّة ولا يرجونهُ ولا يسمعون كلامهُ ولا يطيعونهُ ويصير كالسحاب الخلّب لا يُوثق منهُ بوعدٍ ولا يحصل

منهُ مطلب إنْ تكلّم عابوا كلامهُ وإنْ حكم نقضوا احكامهُ وإنْ حلم قالوا عاجز وإنْ تقدّم في الحرب قالوا مجنونٌ مبارز . وامّا الغني ذو المال فهو على عكس هذه الاحوال فانْ رأوا منهُ فضلا كان لكلّ مكرمة أهلا فرفعوهُ الى العيوق وكان المعظّم المرموق انْ اعطى قليلاً استصغروا حاتمًا عندهُ وأطنبوا بلسان الثناء في شكرهم رِفدهُ وانْ بخل قالوا مدبّر لا يضيّع مالهُ وان كذب صدّقوا قيلهُ وقالهُ وفي الجملة حركات الغنيّ مستصوبة وكلماتهُ مترشّفة مستعذبة وقد قيل * شعر *

إنّ ضرط الموسر في مجلسٍ * قيل لـــــــهُ يرحمك الله
او عطس المعسر في مجمعٍ * سبّوا وقالوا فيــــــه ما ساه
فضرط الموسر عرنينـــــــهُ * ومعطش المفلس مفســـــاه

وكما قيل * شعر *

الفقر يزري بأقوامٍ ذوي * وقد يسوّد غير السيّد المال

ولقد رشفتُ من افواه الحكماء ونصائح البلغاء بل شاهدتُ من النوائب وتلقّفتُ من ذوي التجارب وتحقّقتُ في الدهر ابي العجائب أنّ الفقر شيب الفتيان وسقم صحيح الابدان ومبعد الاقارب وجاعلهم اجانب وقاطع الارحام ومانع السلام ومبغض الاحباب ومفرّق الاتراب ومشتّت شمل الاصحاب وبالجملة فالذي يجب على وليّ الامر التأمّل في قصارى هذا الامر والتفكّر في عاقبة هذه الحركة وما يحدث

فيها من شؤمٍ وبركة وأن يجيل قداح التدبّر والتبصّر والتصبّر
ويتثبّت في صدر هذا المورد المضيق وما فيه من مجالٍ اوضيق
ولا يعتمد فيه على القوّة والحول واسباب الطول والطول وكثرة
الشوكة والعدد وامداد العدد والمدد مع عدم الاكتراث
بالاخصام وقلّة المبالاة بكلّ اسدٍ ضرغام فانّ الاسد سلطان
السباع وملكٌ عظيمٌ كثير الجند والاتباع شجاعتهُ مشهورة
وشهامتهُ ماثورة به يُضرب المثل ويُشبّه كلّ بطل ونحن
وان كان لنا عساكر كالجبال تهدم الحصون وتدكّ القلال
لكن ما جرّبنا مصارعة الاسود ولا مارسنا مقارعة النمور والفهود
ولا نعرف طريق بلادهم ولا طريقة جدالهم وجلادهم وانّ لهم في
الحروب اساليب وفي افتراس الفرائس انيابًا ومخاليب فاخشى
أن لا تتمّ هذه الامور وتقصر حبالنا عن مصادمة ما لهم من
قصور فيرجع وبال هذه الامور علينا اذ ابتداؤهُ اوّلاً منسوبٌ
الينا ولا نحصل الّا على الندامة والتوبيخ والملامة ويخاطبنا
الحدّ الوبيل بما قيل * شعر *

تبني بانقاض دور الناس مجتهدًا * دارًا ستنقض يومـًا بعد ايـّام

وقال المدبر ولا شكّ انّ جوهر هذا النظام وعقود هذا الكلام
صادرٌ عن فكرٍ بعيد ورايٍ سديد وامرٍ رشيد وتأمّلٍ في
العواقب مفيد اصلهُ الحكمة وفرعهُ الشفقة وزهرةُ المعرفة
وثمرةُ الفطنة ولكن من حين استولى على الملك كيومرث

ومرث على سرير التحكّم اصبع الولاية ابلغ مرث وسنّ
قواعد السياسة واسّس بنيان الرياسة وذلك زمان الابتدا
واوّل ما تملّك على الدنيا والى هذا اليوم لم يزل القوم من
الملوك في روم وطلب الزيادة والسوم ولا عتب في ذلك ولا لوم
وقل لي ايّ ملكٍ مالك تحكّم في الممالك وسلك فيها
المسالك ولم يقصد فيها الولايات الشاسعة ولا الاقاليم الواسعة
ولم يطلب الترفّع على الاقران وعلوّ المكان بقدر الامكان
والملك عقيم والعاجز سقيم وكيف يتصوّر ايّها الملك الاكبر
أن تكون همّة الملك ادنى من همّة تاجرٍ في البحر ينهمك فانّ
التاجر اذا افتكر في لذّة الفائدة وما يعود عليه العائدة وغرّته كما
يقال التسع اواق الزائدة يضع جميع ماله وما تصل اليه يدهُ
من خدمه ورجاله في الفلك المشحون ولا يرهب ريب المنون
ويركب وهو ايضًا فيه ولا يتلفت الى عجائب دواهيه ولا يفتكر
في الغرق ولا في جبر السفينة ولو انخرق ويسلّم قيادهُ الى
متصرّف الهوآء ونفسهُ ومالهُ الى حاكم المآء . وامّا قولكم عساكرنا
اغمار لا دربة لهم بتلك الديار ولا معرفة لهم بمصادمة الاسود
ومقاومة تلك الجنود فاعلم ايّها الوزير الفاضل الكبير انّ
الاسد ملكٌ كاسر وعلى سفك الدمآء جاسر وانّ في رعيّته
مَن آذاهُ وانكاهُ في ذويه وابكاهُ وكسرهُ جبرا واسترعاهُ قسرا
واستولى عليه قهرا فهو منتظر تنفّس الزمان مترقب انقلاب

الحدثان متوقع ايّها الفضيل معنى ما قيل * شعر *

اذا لم يكن للمرء في دولة امرئٍ * نصيبٌ ولا حظٌّ تمنّى زوالها

فاذا سمع بأحد خرج على الاسد ولو كان اقلّ الاعوان فضلاً عن ملك الافيال بل فيل الافيال الفاضل في ذاته الكامل في صفاته العادل في رعيّته البارّ بأهل ولايته المحسن الى اهل مملكته المشفق الحليم الرؤوف الرحيم فبالضرورة يبادر الى الملاقاه ويُسارع الى ما كان يتمنّاه ويغتنم عبوديّة الملك ويعدّها غاية مرتجاه فيدلّ على عورات العدوّ ومظانّ عثراته ويرشد الى طرائق نكاياته ونكباته وينادي في النادي نلتُ مرادي على رغم الاعادي ويعلن بانشادي للحاضر والبادي * شعر *

اذا كان للانسان في دولة امرئٍ * نصيبٌ واحسانٌ تمنّى دوامها

وايضًا في ذلك الاقليم مَن هو متشبّث باسر جسيم وهو مالهُ من مالٍ واولاد واقطاعاتٍ وعقارٍ وبلاد وسوائم ومواش وانقالٍ وحواش فلا يمكنهُ التحوّل عن طريقنا ولا التحمّل لرعودنا وبروقنا ولا قوّة المقاومة ولا طاقة المصادمة فبالضرورة يصانع عن تعلّقاته بالطاعة ويتشبّث بذيل سنّتنا مع الجماعة فنستمدّ بآرائه ورُوائه ونستفيد فيما نحن بصدده دواءً لدائه فقال الملك للمقبل : ما الجواب عن هذا الخطاب * فقال هذا المقال وإن كان لا يخلو عن الاحتمال ووقوعهُ غير محال لكن

الاقرب الى الذهن انّ هذا لا يقع لانّهُ امرٌ مبتدع ولانّ طبائعنا مخالفة لطبائعهم واوضاعنا غير اوضاعهم وناهيك انّ كلاب الحارة في النهب والغارة يمزّق بعضهم بعضًا ويتناحرون فيما بينهم حرصًا وبغضًا حتى اذا دخل بينهم ذئب او حيوانٌ غريب توجّهوا اليه واتّفقوا عليه فمزّقوا اديمه وهتكوا حريمه وجعلوا لحمهُ لجماعتهم وليمه وعند الاسد من الوحوش انواع ما بين سباع وضباع ونمورٍ وذئاب وبرودٍ ورباب وفهودٍ وكلاب كلّهم على طباعه متّفقون على اتباعه وإن اختلفت عليهم الثياب لكن الكلّ كلابٌ اولاد كلاب وكلٌّ من هؤلاء على ما هم عليه متفقوا الاهوآء لهُ على خصمه في مجادلته وخصمه دربةٌ في المساورة ووثبةٌ في المغاورة وانواعٌ في الكرّ والفرّ وروغاتٌ في الخير والشرّ ومداخل ومخارج ومدارك ومعارج وليس في عساكرنا سوى الصدمات والحطم بقوّة النهضات والعزمات فانْ افاد هذا الاصطدام والّا فما ثمّ الّا الانهزام * فلمّا بلغ المقبل في الكلام الى هذا المقام وكان رسخ في قلب الملك من كلام المدبر الوسخ فما اثّر نصح المقبل وما أفاد لانّ النفس بطبعها مائلةٌ الى الفساد فشرع الملك واعتمد على التوجّه الى بلاد الاسد وأمر رؤساء فيلة الهنود بجمع العساكر والجنود وأُشيع ذلك في اطراف الممالك * فاطّلع على هذه الاحوال غرابٌ يكنّى ابا المرقال كان لهُ وطنٌ وولد

وسكنَ في ممالك الاسد لكنّهُ قدم جزيرة الافيال للتنزّه على سبيل التفرّج والتفكّه . فشرع يتأمّل في هذه الامور ويستنتج من قضاياها ما يتولّد من سرورٍ وشرورٍ فانتهى سابق افكاره في ميدان مضمارهِ الى أنّ هذه القضايا تُسفر عن بلايا ورزايا واراقة دماء وخراب اماكن وهلاك رعايا سواءٌ تمّت للافيال او رجعت عليهم بالوبال . فخاف على سكنهِ ودمار اهلهِ ووطنهِ فأدّى فكرهُ الاسدّ أنْ يُطلع على ذلك الاسد ليتداركهُ بحسن آرائهِ ويعترف للغراب بحسن وفائهِ فبكّر بكوره وقصد دوره فوصل في اقرب زمان ونادى بالربيال ابا الزعفران وقال : الله الله انّي انا النذير العريان واطلع الاسد على هذا النكد وقرّر معهُ حقيقة الاحوال وما عزم عليهِ ملك الافيال * فتشوّشت لذلك الخواطر وتصدّعت لخوفهِ الاكابر والاصاغر . ثمّ امر السباع وطوائف الوحوش بالاجتماع مع روساء مملكتهِ واساطين خاصّتهِ ورعيّتهِ وذكر لهم هذا الامر المهول وما عزم عليهِ ملك الفيول وأذن لكلّ واحدٍ منهم في ذلك بما يقول . فوقع الاتّفاق من اولئك الرفاق أنْ يتّفق اعيان كلّ جنسٍ من الحيوان على رئيس من جنسهم يقيمونهُ مقام نفسهم يرضون باقوالهِ ويقتفون آثار افعالهِ وليكن من اهل الحصافة والكفاية واللطافة والدراية والشفقة العامّة والمعرفة التامّة يعقد معهم للمؤامرة مجلس رايٍ ومشاورة فمهما وقع عليهِ

الاتّفاق واجمع عليهِ الرفاق واستصوبهُ الاسد وارتضاه اتّبعوهُ وعملوا بمقتضاه * فتقدّمت طائفة الآساد الى ناجٍ منها نهاد سبعٌ يسود على طوائف الاسود طالما افترس الاقرانَ وانغمس في دماء الشجعان وأضاف جوارح الصيد فضلات ما افترسهُ من عمروٍ وزيد كاسرٌ جاسر باسلٌ باسر حاسرٌ قاسر ظاهرهُ ابي وباطنهُ بالمكر غبي . * شعر *

اسدٌ يسود على الاسود زئيرهُ * رعدٌ وعيناهُ بروقٌ تخطف

فقدّموهُ واختاروه واشتاروا أرأى رأيهِ وامتاروه واختارت النمور نمرًا يمور سريع الوثبة بديع الضربة لطيف الحركات خفيف النهضات قويّ الشماس خفيّ الاختلاس كثيرًا ما كسر أسامه وسامى أسود خفان فاسر ضرغامه كما قيل

* شعر *

نمرٌ تخاف الاسد من وثباتهِ * وتحار في حركاتهِ وثباتهِ

وقدّمت الثعالب ثعلبًا لطيف الروغان ظريف الزوغان خفيّ الحيل قويّ الميل طالما فرّ من طبلٍ وأهال على الصيادين من أهوال وأحرق السلوقيّات سلاحه ونفذ في غالب الاسود بالمكر سلاحه * شعر *

يصلّ بني سلوقٍ من دهاه * فيخلص من مخالبها سليما

واعتمدت الذئاب في هذا الباب على ذئب فعلهُ عجيب وأمرهُ غريب سديد الختل والختر شديد المكر والكسر طالما

أفسد ثلثه ودخل في قطيع ماشيةٍ فقطّعهُ كلّه بعجز الاسود والنمور والفهود شيمتهُ الغدر والخديعة ودأبهُ المكر وسوء الطبيعة

* شعر *

وقد جمع الضدّين نومًا ويقظة * يخاف الرزايا فهو يقظان نائم

فاختلى أبو الاشبال وشاورهم فيما دهمهُ من الاهوال وتوجّه بالخطاب الى الاسد وقال ما رأيك في هذا النكد . فقال : لا تطلب النصر في هذا الحصر الآ من مالك العصر ومصرف احوال الدهر بين الفرج والقسر وهو الله سبحانهُ وتعالى وعزّ شانهُ وجلّ جلالا فانّا مظلومون وهم ظالمون ونحن ما اعتدينا عليهم ولا تقدّمنا بالظلم اليهم فسيردّ الله كيدهم في نحرهم وسيحيق بهم عاقبة مكرهم . وامّا ما يتعلّق بنا وبهم من الفرار والصلح او حربهم فاذكرهُ على التفصيل وأخبر في ذلك الراي الجميل . امّا الفرار فلا سبيل اليه ولا معوّل ابدًا عليه وأنّى ذلك وهو عيبٌ ما وُصمت بهِ الاسود ولا لهم بهِ وصفٌ معهود وبنا يُضرب المثل في الشجاعة والبسالة وتتشبّه بنا الابطال في الاقدام لا محالة وكيف نترك بلادنا وأهلنا وأولادنا من أوّل وهلة ونعزم على الرحلة ولا صادمناهم ولا واقفناهم ولو فعلنا ذلك فهربنا وتركنا مالنا وذهبنا لفسدت امورنا وخربت ممالكنا ودورنا ولآنفرط نظامنا وتعوّج قوامنا واستمرّت هذه الملامة الى يوم القيامة ولدام علينا هذا العار ولا يقرّ لنا بعد ذلك قرار واعلم ايّها الملك

نوّر الله وجه السرير بك أنّ العمر السنيّ ما مرّ في العيش الهنيّ وقد قيل

* شعر *

ما العمر ما طال بهِ الدهور * العمر ما طاب بهِ السرور

والعمر الذي يمرّ في نكد لا يحتسبهُ من ذوي الكفاية أحد وحسبك ما ذكرهُ المترجم من حكاية الملك المعزول مع المنجّم * فسال ابو الاشبال سرد هذا المثال *

فقال الاسد : ذكر القائل أنّ اهل بابل كانت عادتهم في دينهم وسلوك طريقهم مع سلاطينهم انّهم اذا اعتنوا بشخصٍ ملّكوهُ واتّبعوا طريق أمرهِ وسلكوهُ وبذلوا في طاعتهِ ما ملكوهُ فاذا ارادوا عزلهُ تركوهُ ونشروا عنهُ وفركوهُ وأهملوا احسانهُ وفذلكوهُ وسكّنوا غيرهُ في سرير الملك وحرّكوهُ * فاتّفق انّهم ولّوا واحدًا وأعزّوهُ ونصروهُ ثمّ خذلوهُ وأقبلوا عليهِ أوّلًا ثمّ قتلوهُ وكانت مدّة ما بين ذلك يسيرة وعمر ايّامهِ في ولايتهِ قصيرة فحصل لهُ اوّلًا السرور ثمّ تراكمت عليهِ بالعزل الشرور فاحتوشتهُ الفكر وبات يصارع السهر ثمّ قال لو راقبتُ في اوّل الجلوس ما في الطالع من سعودٍ ونحوس ثمّ اخترتُ لساعة ارتقاءي وقتًا يطول في بقاءي وذلك يكون نجمي في برجٍ ثبت لمّا انقلبت كواكب سعدي عن الاستقامة ولا نبت ولكن حيث فات ذلك في الابتداء فأتداركهُ في الانتهاء فلعلّ ذلك يفيد ويردّني الى سرير السرور ويعيد . ثمّ طلب منجّمًا حاذقا ماهرًا في صنعتهِ فائقا وقال: انظر في طالع

جدّي وتأمّل برج نحسي وسعدي واختر لي ساعةً يصلح فيها النزول عن السرير ويكون العود الى السرير بواسطة الناظر اليها غير عسير فانّ الناظر الى الطالع هو الجالب والمانع . فامتثل المنجّم ما رسم وشرع في وضع الاشكال والقسم ثمّ قال أحسن ما نظر في الطالع المسعود من حين الميلاد فانّه اوّل الوجود فاذا اخذ الطالع من ساعة الميلاد ترتّب عليه ما يصدر على ذلك المولود من السعد والاسعاد ومن الخوف والرجآء في عالم الكون والافساد فهل اطّلع الملك في ايّ ساعةٍ وجد وكم اتى عليه من حين ولد . قال : نعم اعرف مدّة عمري جزما وهي اثنان وعشرون يوما . فتعجّب المنجّم من مقاله ولم يقف على حقيقة حاله . فقال : ليوضّح الملك ما اشار لاقف على حقيقة هذه الاسرار . فقال : مدّة استيلائي على السرير هو هذا القدر اليسير وانا لا احسب العمر ولا اعتذر بوصال بيض ولا سمر الّا هذه الايّام والليالي ولا احتسب سواها عمرًا ولو بيع باللآلئ وقد قلتُ * شعر *

وعمرٌ مضى بالهجر لستُ اعدّهُ * ولكنّني اقضيه في زمن الوصل

وانّما عرضتُ يا بطل على رايك السعيد هذا المثل ليعلم انّ ايّام المحنة لا تعدّ عمرا ولو قضى الانسان فيها زمانًا طويلاً ودهرا . وامّا الصلح يا ذا الركون فعلى ايّ وجهٍ يكون ومن اين يقع بيننا وبينهم اتفاق وسكون وليسوا من جلدتنا ولا على ملّتنا وفي ايّ عصرٍ واوان ذلّ الاسد واستكان وخضع للفيل

ودان او اعطى الغضنفر النباج والضرغام الصعب الناج لغيره الجزية والخراج وهو في الحقيقة سلطان الوحوش وواهب التاج فلم يبقَ الّا الاستعداد للمصادمة والتأهّب للمقاحمة والمقاومة ولنا من ذلك في البين احدى الحسنيين امّا الظفر بهم وهو المرام وامّا الشهادة فنموت ونحن كرام وقيل يا حاتم طيّ حسن الثنآء على الميت خيرٌ من سوء الثنآء على الحيّ والموت في مقام العزّة مع النشاط والهزّة ارفع من الحيوة بذلّةٍ ووخزة وكسرةٍ ونخزة وقد كنتُ انشدتُ وقديمًا ارشدتُ

* شعر *

هو الموت ان لم تلقهُ ضاحكًا تمُتْ * عبوسًا بوجهٍ اقتر اللون اغبرا

ومَن لم يمُت في ملتقى الخيل مقبلا * عزيزًا يمُت تحت السنابك مدبرا

فاقبل الريبال على ابي مرسال وقال ايّها النمر وصاحب الخلق الزمر ماذا تشير في هذا المهمّ والمشكل الذي دهم * فقال : انّ الافيال اكبر جسوما واعظم حلوما واقوى في الضرب واعدى في الحرب وقد استعدّوا واقبلوا واتقنوا امورهم واعملوا وانا اخشى أن يكونوا اقوى بطشا وأن نعجز عن المقاومة في المصادمة فانّ فينا العاجز والضعيف والذميم الجثّة والخفيف ومَن لا عرف الافيال ولا رأى تلك الاشكال فينفر من مصادمة الجبال فيطئوننا تحت اخفافهم وتنكسر شوكتنا في اوّل مصافّهم فلم يبقَ الّا الفرار ولا يتقرّر لنا بعد ذلك قرار

فيستولون عنوةً وقسرًا على هذه الديار وينفرط النظام ونرضى عند ذلك بالسلامة والسلام . فعندي الراي ذو الاصالة ان ينتخب الملك مَن يصلح للرسالة ويحسّن العبارة فيسكّن من فورة شغبهم وثورة لهبهم وسورة غضبهم ويعدهم ويمنّيهم ويحسّن التقريب ويقصيهم وفي ضمن هذه الاوقات واثنآء هذه الحالات يراقب اوضاعهم ويخبر جمعهم واجماعهم ويتوصّل الى اسرارهم ويواصلنا باخبارهم ويطالعنا بما خامر افكارهم ويكتب ما قدموا وآثارهم ونستمرّ على المراسلة والمقاولة والمطاولة فان تيسّر رجوعهم وانكشف بالهوينا جوعهم والّا فنكون قد استعددنا عن الاستبصار فنتعاطى امور قتالهم بعد التأمّل والاختبار وان امكننا أن ناتيهم بالليل ونحلّ بهم الدواهي والويل بعد أن يركنوا الى جانبنا ويامنوا من نوائب مصائبنا فربّما نصل الى بعض القصد او يوافق بعض حركاتنا السعد * فالتفت الدوكس الى العملس وقال : اي سيّد وذا الامر الرشيد ماذا ترى فيما طرى وكيف طريق العوم فيما جري قال السمسام يا مولانا الضرغام الذي سمعتهُ من اولي التجارب وتلقّفتهُ من الاصحاب والاجانب انّهُ من التوفيق اذا ابتُلي الشخص بعداوة مَن لا يطيق أنْ يدافعهُ بالهدايا والتحف ويحابيهُ بشيء من الظرائف والنتف فانّهُ قيل في الامثال انّ خير الاموال ما أُدُّخر لدفع البوس ووقيت بنفائسهِ النفوس * فاهب

النهاب بابي وثاب يا أَبا الحصين : ما رأيك في البين وايّ آرآء الاصحاب اقرب الى الصواب * فتقدّم الثعلبان وتكلّم فأبان وقال : أُسعد الله الاحد مولانا الاسد وجعل رأيهُ الاسدّ وفعلهُ على اعدائهِ الاشدّ اعلم ايّها الدلهاث انّ امورنا لا تخلو عن احد ثلاث امّا المقابلة بالمقابحة وامّا المهادنة والمصالحة وقد تقرّر فيما تقدّم وتحرّر بيان كلٍّ منهما وما يصدر فيهما وعنهما وامّا الفرار وتولية الادبار وترك الاوطان والديار فأُفٍّ لذلك من عار وسبةٍ وشنار فما بقي الّا الحالة الثالثة وهي بعساكرهم عابثة ولقلوبهم كارثة وهي طريقة الاحتيال والتوصّل الى القآئهم بطريق المكر في جبّ الوبال فانّ صائب الافكار يعمل ما لا يعملهُ الصارم البيتار فبشباك الحيلة تُصاد كلُّ فضيلة وتهون كلُّ جليلة وأَنا أُفصّل ما أَجملتُ وأُبيّن ما فصّلتُ * امّا المقابلة والاخذ في اسباب المقاتلة فلا طاقة لنا بهِ ولا باب لدخول قبابهِ لانّا عاجزون عن المصادمة قاصرون عن المقاومة محتاجون الى الطعام والشراب وبعض عساكرنا لا يعيش الّا باللحم والكباب وجيشهم الذي قد ملا وسدّ الوهد والفلا يقنعون بالحشيش والكلا فلا يتكلّفون لحمل زاد ولا يحتاجون الى عدّة وعتاد وايضًا أَحوال عساكرنا المفرّقة المضمومة لاختلاف أَجناسها وانواعها غير معلومة فلا اعتماد عليهم ولا يتحقّق الركون اليهم فانّهم أَجناس مختلفة وطوائف غير مؤتلفة

وبينهم معاداة وفي جبلتهم النفرة والمنافاة وبعضهم غذآء بعض وفي قلبهِ منهُ عداوة وبغض لو ظفر بهِ كسرهُ واكلهُ وانْ استنصر بهِ خذلهُ فهم كالقفل المجمع ولون اتّفاقهم ملمع . وامّا عساكر الافيال فبينهم اتّفاق على كلّ حال لانّهم جنسٌ واحد وما بينهم مخالفٌ ولا مناكد . ولهم اعتمادٌ على قوّتهم وعلى اتّفاقهم وشكوتهم والمعتمد على مثل عساكرنا إنْ لم يضبط بطريقةٍ كليّةٍ أمر عشائرنا ينفرط امرهُ ويخمد في ايقادهِ نار الحرب جمرهُ ويعلوهُ من بحر النوائب غمرهُ ويظفر بهِ من اعدآئهِ زيدٌ وعمرهُ ويصيبهُ من الخطّة ما أصاب الصيّاد من القطّة * فسأل أبو الحارث عن بيان هذا الحادث *

قال الثعلب: ذُكر انّ رجلًا ذا كيد كان مغرمًا بالصيد وكان عندهُ قطٌّ صيّاد يجترئ على النمس والفياد . فكان يومًا بين يديهِ فمرّ عصفورٌ عليهِ فطفر كالنمور وحصّل من الهوآء العصفور فأُعجب بهِ صاحبهُ ثمّ قصد الصيد وهو مصاحبهُ وحملهُ تحت ابطهِ وبالغ في حفظهِ وضبطهِ وركب جوادهُ وتوجّه يروم اصطيادهُ فرقى سفح جبل فخرج من ورآء صخرةٍ طائفةٌ من الحجل فتوجّه اليهِ والقى القطّ عليهِ فطار الطير وخاف القطّ وقصد رجوعهُ الى تحت الابط فطفر الى جبهة الجواد وأنشب فيها مخاليبهُ الحِداد فجفلت الفرس من القطّة وخبطت بفارسها الارض شرّ خبطة أزهقت منها نفسهُ وأبطلت حسّهُ *

وانّما اوردتُ هذا المثل ليُحترز ايّها البطل في هذا الامر من وقوع الخلل ويُتفكّر في امر هؤلآء الجماعة وكيف ثباتهم في دعواهم السمع والطاعة فانّهم لا يصلحون للقتال خصوصًا مصادمة عساكر الافيال فالملك لا يعتمد على مثل هذا العسكر اللهمّ آلا أنْ يتقرّر امرهم على صدق اللقآء ويتحرّر . وأمّا ما ذكرهُ مولانا ابو سهيل في تبييت عساكر الافيال بالليل فهو رأيٌ معتبر ولكن فيهِ نظر لانّ ذلك انّما يكون اذا كان العدوّ في سكون وعن توقّع النكبات في ركون فبيناهم في غفلتهم ذاهلون جآءنا باسنا بياتا اوهم قائلون . وامّا اذا كانوا مستعدّين يقظين مجدّين وقد توجّهوا للقتال وانتصبوا للمناضلة على هذه الحال فلا شكّ انّهم أتقنوا أمرهم وأخذوا اسلحتهم وحذرهم فأعدّوا لكلّ نائبةٍ نابا ولكلّ بائقةٍ بابا ولكلّ حربٍ حرابا ولكلّ ضربٍ ضرابا ولكلّ شدّةٍ سدّةً ولكلّ عدّةٍ عدّةً ولكلّ جزّةٍ جمزةً ولكلّ وفزةٍ فزّةً ولكلّ نفرةٍ طفرةً ولكلّ فرّةٍ كرّةً ولكلّ أزمةٍ حزمةً ولكلّ كسرةٍ جزمةً فربّما يكونوا افتكروا منّا هذه المكيدة وأعدّوا في مقابلتها داهيةً نصبوا لها مصيدة فنتوجّه اليها غافلين فننشب في شركها ذاهلين فيُصيبنا من النكال ما أصاب الجمل من الجمّال * فقال الريبال هات يا أبا الترّهات أخبر يا أبا نوفل أخبار الجمل المغفل *

قال : كان جمّال فقير ذو عيال لهُ جملٌ يتعيّش عليهِ

ويتقوّت هو وعيالهُ بما يصل منهُ اليهِ فرأى صلاحه في نقل ملحٍ من الملّاحه فجدَّ في تثقيل الاحمال وملازمتهِ باثقال الاثقال الى أن آل حال الجمل الى الهزال وزال نشاطهُ وحال والجمّال لا يرقُّ لهُ بحال ويجدُّ في كدّه بالاشتغال * ففي بعض الايّام ارسلهُ مع السوام فتوجّه الى المرعى وهو ساقط القوّة عن المسعى . وكان لهُ ارنب صديق فتوجّه اليهِ في ذلك المضيق ودعاهُ وسلّم عليهِ وبثّ عظيم اشتياقهِ اليهِ . فلمّا رأى الخزز هزالهُ تألّم لهُ وسالهُ احوالهُ . فاخبرهُ بحالهِ وما يقاسيه من غذآئهِ ونكالهِ وأنّ الملح قد قرحهُ وجبّ سنامهُ وجرّحهُ وانّهُ قد اعيتهُ الحيله واضلّ الى الخلاص سبيله . فتألّم الارنب وتأمّل وتفكّر في كيفيّة عصر هذا الوهل ثمّ قال: يا ابا ايّوب لقد فزتَ بالمطلوب وقد ظهر وجه الخلاص من شرك هذا الاقتناص والنجاة من الارتهاص والارتصاص تحت حملٍ كالرصاص فهل يعترضك يا ذا الرياضة في طريق الملاحة مخاضة فقال: كثير وكم من نهرٍ وغدير فقال: اذا مررتَ في خوض ولو انّهُ روض او حوض فابرك فيه وتمرّغ وتنصّل من حملك وتفرّغ واستمرّ فيهِ يا ابا ايّوب فانّ الملح في المآء يذوب وكرّر هذه الحركة فانّك ترى فيها البركة . فامّا انّهم يغيّرون حملك او يخفّفوهُ اوتستريح بذوبهِ من الذي اضعفوهُ فتحمّل الجمل للارنب المنّه وشنّف بدرّ هذه الفائدة اذنه .

فلمّا حمّلهُ صاحبهُ الحمل المعهود ودخل بهِ في طريقهِ المورود ووصل المخاضة برك فضربوهُ فما قام ولا احترك وتحمّل ضربهُ وعسفهُ حتى اذاب من الحمل نصفهُ ثمّ نهض انتهاضه وخرج من المخاضه ولازم هذه العاده الى أن افقر صاحبهُ واباده فادرك الجمّال هذه الحيلة فافتكر لهُ في داهيةٍ وبيلة وعمد الى عهنٍ منقوش وغيّر في مقامرتهِ شكل النقوش واوسق للجمل منهُ حملًا بالغ فيهِ تعبيةً وثقلًا وسلّط عليهِ الظما ثمّ دخل بهِ الى الما فلمّا توسّط المآء برك وتغافل عنهُ صاحبهُ وترك فتشرّب الصوف من المآء ما يملوُ البرك ثمّ اراد النهوض فناء بهِ الربوض فقاسى من المشاقّ ما لا يُطاق ورجع هذا الفكر الوبيل على الجمل المسكين باضعاف التثقيل فساء مصيرهُ وكان في تدبيرهِ تدميرهُ وما استفاد الّا زيادة النصب وامثال ما كان يجدهُ من التعب والوصب * وانّما اوردتُ هذا المثل عن الجمل ليعلم الملك والحضّار انّ العدوّ الغدّار والحسود المكّار يفتكر في انواع الدواهي ويفرّع انواع البلايا والرزايا كما هي ويبذل في ذلك جدّهُ وجهدهُ ولا يقصّر فيما تصل اليهِ من ذلك يده فتارةً تُدرك مكائده وتُعرف مصائده وتارةً يغفل عن دواهيها فلا يشعر الخصم الّا وقد تورّط فيها وعلى كلّ حال لابدّ للشخص لهُ وعليهِ من الاحتيال * وامّا طلب الصلح وارسال الهدايا فمن اعظم المصائب واكبر الرزايا فانّ ذلك يدلّ على عجزنا والخور

ويناديْ على هواننا في البدو والحضر ويجرّئ علينا الغريب
ويذهب حرمتنا عند القريب ودونك يا ابا العبّاس ما
ما انشدتك في المقياس * شعر *

وما انا ممّن فرّ من نار خصمهِ * لظلّ حسود او الى فيء شامت

ولكن الرأي الانور ايّها الورد الغضنفر أن تُرسل اليهم رسولا
عاقلًا فصيحًا جميلا بصيرًا بعواقب الامور قد مارس تقلّبات الدهور
وقد ربّي وتربّى وعن الرذائل تأبّى وبأنواع الفضائل تعبّى
واحرم الى كعبة محاسن الشيم ولبّى ولولا انّ باب النبوّة انسدّ
لتنبّى برسالةٍ فحاله تسفر عن بسالةٍ جزله تتضمّن سؤالهم عمّا
أوجب ارتحالهم وسبب قصدهم لبقعتنا وتوجّههم لدخول رقعتنا وما
موجب هذا الاعتدآء ولم يصدر منّا لهم الّا المحبّة والولآء وحسن
الجوار والاحسان الى الكبار والصغار ومعاملة القريب والغريب
بالفضل المجيب والكرم الذي لا يخيب ويذكرهم بسالتنا وشجاعتنا
وفي معاملات المضاربة بضاعتنا ويكشف لهم في ملابسة الحرب
والضرب صناعتنا ويحقّق عندهم ما عندنا من أُسود الحرب
وفوارس الطعن والضرب وأجناس الوحوش الكواسر والسباع
الجواسر وأصناف الفراعل والعسابر ويتكلّم بكلام يراهُ مقتضى
المقام ومناسب للحال ويتّسع في المجال ويميّز أوضاعهم وعساكرهم
ويسبر بمسبار العقل امورهم واوامرهم ويسمع الجواب وما فيه من
خطأٍ وصواب ويوردهُ الينا ويعرضهُ علينا فنعمل بمقتضاه

وينظر الراي السديد فيهِ ما ارتضاه ونبني على ذلك الاساس
ونفصّل على ذلك القياس فاستصوبوا هذا الرأي من الآرآء وطلبوا
لهُ كفوًا من الاكفاء فوجدوا ذئبًا هو من خواصّ الحضرة ومن
ذوي النباهة والشهرة لهُ في ميدان الفضائل كرٌّ وفرّ وفي مظانّ
النفع والضرّ خيرٌ وشرّ قد جُرّب في المصائد ودُرّب في المكائد
وهُذّب في المصادر والموارد ورتّب في المطارف والمطارد ادنى
فضائلهِ حسن السفارة واحدى فواضله ترتيب العبارة حلّال
المشكلات كشّاف المعضلات فوقع عليهِ اختيارهم ورضي بهِ
كبارهم وصغارهم فحمّلهُ الاسد كلامهُ وجعل البسملة مبداهُ والحسبلة
ختامهُ ومن مضمونها بعد ابلاغ التحيّة والاثنية السنيّة الى
الحضرة العليّة ملك الافيال أبي مزاحم المفضال ألهمهُ الله
هداه وصرف عنهُ رداه وبصّرهُ مواقع الخير وهداه ولا شمت
بهِ اعداه وحفظهُ بالعشى والغداه وجعل عقباهُ خيرًا من مبتداه
نحيط علومهُ الكريمة وآرآءهُ العليّة الجسيمة أنّ قوّتنا من قديم
الزمان ظاهرة وهيبتنا باهرة وصولتنا قاهرة لم نزل نفترس
الفوارس ونكرم اصناف الاضياف من الوحش والطير بالفرائس
ويُضرب بنا في الشجاعة والكرم الامثال ويفرّ من بين أيدينا أسود
الابطال ولا عار على مَن فرّ من بين يدي الرئبال وقد اتّصل
بنا أنّ ملك الافيال توجّه الينا بجنوده وهيّأ في ذلك أجناس
عساكره وبنوده وما علمنا لذلك موجبا ولا تقدّمنا بعداوةٍ تنشي

حربًا وحربا   بل ولا تعرّضنا لاحدٍ في ملكه وملكهِ   وعدلنا بحمد
الله تعالى جارٍ في بحار الملك وفلكهِ   والرعايا شاكرةٌ منّا   ولم يُنشر
سوى الذكر الجميل عنّا   فانعموا بردّ الجواب   وميّزوا الخطأ من
الصواب   قبل ان يكشر الشرّ نابه   ويفتح جرابه   ويحرّش للهرير
كلابه   ويسلخ ليلهُ اهابه   ويكسر رائد الفتنة بابه   فتتفاقم الامور
وتتعاظم الشرور   وتتلاطم بحارها وتمور   عند التهاب شواظّ الغيظ
من الاسود والنمور   مع أنّ اعتمادنا على الله العظيم   وتوكّلنا على
العزيز الرحيم * فلمّا بلّغ الذئب الرسالة   وادّى ما فيها من شجاعةٍ
وبسالة   وبيّن لملك الافيال   ما تضمّنته من عظمةٍ وجلال
استشاط ملك الافيال   وتغيّرت لاضطرابه الاحوال   ونظر من
تلك الفيول   الى فيلٍ ظلومٍ جهول   وبدر اليه من غير تدبّر   ولا
تامّلٍ في الامور وتفكّر   وقال: اذهب الى هذا المعتمد على كلامه
الراقد في غفلة منامه   وقل لهُ متى مارستَ معركة الشجعان
او صارعتَ رجال الميدان   وأنّى لك طاقة بمصادمة الجبال   ومن
أين تعرف مقاومة الافيال   فاستيقظ لنفسك   فعن قريبٍ تحلّ
برمسك   واستعدّ لجنودٍ لا قِبَل لك بها   فستشاهد ما لم تسمعهُ
من ضربها في حربها   فلقد أتاك عسكر القضاء وبنوده   وليحطمنّكم
سليمان الافيال وجنوده   فليريقنّ الدماء   وليستأسرنّ الحرائر
كالاماء   وليدوسنّ الاطفال   ولترينّ منه الانكاد والانكال
وليظهرنّ آثار الدمار والبوار   بما لكَ من ممالكٍ ومساكنٍ وديار

وليفعلنّ بولاياتك ما فعلهُ بممالك الاسلام التتار   وأنتَ بين أمرين
وبخير النظرين   امّا أن تطيع لامرنا وتنقاد   وتسلّم الينا ما بيدك
من بلاد   وامّا أن تختار طرق الفراق والفرار   وتنجو منّا منجا
الذباب   وتتنحّى عن طريقنا بما معك من كلابٍ وذئاب   وقد
بالغنا في النصيحة   بعباراتنا الصحيحة   واقوالنا الفصيحة   قبل
افشاء النصيحة   فوصل الفيل الرسول   وادّى هذا المقول *
فتشوّش الاسد   وداخلهُ الغيض والنكد   فاراد الايقاع بالرسول
الظلوم الجهول   ثمّ تمالك   وعن ذلك تماسك   وقال : لولا أنّ عادة
الملوك   ودرب السياسة المسلوك   أنْ لا تُهاج الرسل   ولا تُضيّق
عليهم السبل   لقابلتك عن كلامك الفجّ   بما يجب من العجّ والثجّ .
ثمّ التفت الى الثعلب وقال : يا أبا الحصين   ما عندك في جواب
هذين النحسين . قال الثعلب   انت الاغلب   هذا القيل   اقوى
دليل   وأوضح سبيل   على عدم عقل الفيل   وأنّ فكرهُ وبيل
وبصيرتهُ قد عميت   وطرق هدايته قد خفيت   وانهُ غوى   واضلّ
قومهُ وما هدى   وكلّ مَن اعتمد على قواهُ وحولهِ   واستحلى غرور
فعلهِ وقولهِ   فقد زال وزلّ   وفي عقد البلاء حال وحلّ   وهذا
الجاهل السخيف الكثيف   الثقيل الجثّة الخفيف   قد استحقرنا
في عينهِ   فسيرى منّا حلول حينهِ   وكلّ مَن استحقر واستخفّ
بعدوّهِ   فسيعدم حلاوة هدوّهِ   وسيُحرم مواصلة مرجوّهِ   وقد قالت
الحكماء الاخيار   والعقلاء ذوو الاعتبار   وأولوا التجارب والاستبصار

لا تستحقر السقم والنوم والدين والعدوّ والنار . فالملك اعزّ الله نصرهُ وأعلى منارهُ وقدرهُ وسلّط على الاعدآء قهرهُ لا يلتفت الى هذا الكلام ولا يتزعزع لهذه الاوهام ولا يخف من جهامة الافيال فكلّ ما هو فيه باطلٌ ومحال بل يعتمد على الله العزيز الجبّار ويُصفي نيّتهُ بالعدل والخير مع الكبار والصغار ويقوّي جنانهُ على الملاقاه وقد وافاهُ النصر وآتاه ولاغاهُ السعد ولاقاه فانّ هولآء اعتدوا على ولايته وأتوها فسينزّل الله تعالى عليهم جنودًا لم يروها فكم من مستضعفٍ حقير صدر منهُ بالحيلة امرٌ خطير وبحسن التدبير ومساعدة مَن هو على كلّ شيء قدير تمّ لهُ امرٌ كبير وناهيك قصّة الفارة مع رئيس الحارة وما فعلتهُ اذ ختلتهُ الى أنْ قتلتهُ * فسأل حيدرة عن تلك المأثرة *

فقال بلغني ايّها النفيس انّهُ كان رئيس ضيّق العطن خسيس لهُ زوجةٌ ذات صيانة ودينٌ وامانة لم تزل تتجنّب الخيانة وتتعاطى العفّة والرزانة ولهُ دجاجةٌ تبيض على الدوام فيسرق بيضتها ابو راشد وهم نيّام فاذا افتقد الرئيس بيضتهُ طالب بها زوجتهُ فتحلف انّها ما رأتها ولا تعرف يدًا اخذتها فيولها سبّا ويوجعها ضربا ولا يصدّق قولها ولا يرحم عولها * ففي بعض الاحيان رأت المرأة الجرذان وهو يجرّ البيضة الى جحره وقد بلغ بها باب وكره فدعت بعلها لتريهُ الفارة وفعلها فعلم برآءة ساحتها وعمل على راحتها واعتذر

اليها وطلب الفارة وحنق عليها وأعمل المكيدة ونصب للفارة دون البيضة مصيدة * فلمّا رأت الفارة الشرك علمت انّ ورآءهُ الدرك فشعرت بما وضع عليهِ فلم تتقدّم اليهِ الى أنْ زار الجرذان أحد أقاربه من الفيران فلم يجد شيئًا يضيفهُ فاعتذر الى الضيف بما هو مخيفهُ واراهُ من البيضة سعاد وانّ دونها خرط القتاد . وكان الضيف الغرّ لا يعرف هرًّا من برّ فحملهُ السفه والحرص والشره على أنْ قال انا اخوض هذه الاهوال وأرد من الموت حوضه واصل الى هذه البيضه ثمّ قصد المصيدة فقبضت وريده وفجعت به وليدهُ ووديده . فتنكّدت الفارة وتكدّرت والتظت احشآؤها وتسعّرت وتألّمت لموت ضيفها وبلغ جيرانها حديث حيفها فخجلت منهم واختفت عنهم وشاعت قضيّتها وذاعت بليّتها فلم تجد لبرد النار سوى اخذ الثار . فأخذت تفتكر في وجه الخلاص فرأت انّها لا تخلص من عتب الجيران الّا بالقصاص . فشرعت في تعاطي اخذ الثار من صاحب الدار وكان لها صاحبةٌ قديمة عقربٌ خبيثةٌ لئيمة معدن السموم في زبان ابرتها وطعم المنايا مودعٌ في شوكتها فتوجّهت اليها وترامت عليها وقالت : انّما تُذخر الاصحاب للشدائد ولدفع الضرر والمكائد وانزال الدآء بساحة الاعدآء ولاخذ الثار والانتقام من المعتدين اللئام . وقصّت عليها القصّة وطلبت منها ازاحة هذه

الغصّة وأنْ تاخذ لها بضربانها القصاص ليحصل لها بين
جيرانها من العتب الخلاص فأجابتها الى ما سألت وأقبلت
الى وكر الفارة بما اقتبلت واخذا في اعمال الحيلة فادّت افكارها
الوبيلة الى أنْ تخدعا صاحب البيت بالذهب وتلقياهُ بذلك
في اللّهب . ثمّ امهلا الى أن دخل الليل وشرعا في ايصال
الويل فأخرجت الفارة دينارًا والقتهُ في صحن الدار ووضعت
آخر عند جحر الفار واظهرت نصف دينار من ذلك الذهب
وسترت النصف الاخر عند العقرب واستترت العقرب بجناح
السكون تحت ذيل الكمون وقد عبّت في زبانها ريب المنون *
فلمّا أصبح الصباح ونُودي بالفلاح وجد صاحب الدار في
وسطها الدينار فتفاءل بسعد نهارهِ ولم يعلم انّهُ علامة دمارهِ
ففتح عينيهِ ونظر حواليهِ فرأى عند جحر الفار اخا الدينار
ففرح وطار ونشط واستطار وزاد في الطلب على بقيّة الذهب
فرأى نصف دينار داخل جحر الفار فمدّ يدهُ اليهِ وقد عميت
عينيهِ فضربتهُ العقرب ضربه قضى منها نحبه فبرد مكانهُ
ولاقى هوانهُ واخذت الفارة ثارها وقضت من عدوّها اوطارها *
وانّما اوردتُ هذه الاخبار ليعلم الملك انّ حيلة صائب الافكار
تفعل ما لايفعلهُ العسكر الجرّار بالسيف البتّار والرمح الخطّار
وبقليل الحيلة تتمّ الامور الجليلة فلا يهتمّ الملك بجثث
الافيال ويشرع فيما هو بصددهِ من دقيق الاحتيال وانا ارجو

من الله تعالى الظفر بعدوّنا وحصولنا على غاية مأمولنا ونهاية
مرجوّنا فاوّل ما نعاملهم بالوهم واظهار الصولة والتخويف
والارهاب بقوّة الدولة فانّ الوهم قتّال والعاقل المدبّر يحتال
وطائفة الفيول عديمة العقول وبالوهم يبلغ الشخص مرادهُ كما
بلغ الحمار من الاسد ما ارادهُ * فسال ملك الآساد بيان
حكاية ابي زياد *

فقال ابو الحُصين أخبرني ابو الحُسين ذو المفاخر ناصر
انّهُ كان في بعض الاعصار والمعاصر حمارٌ في مدار يستعملونهُ
بالليل والنهار الى أنْ حصل لهُ الكبر ورُمي بالعبر وابتُلي
باطنًا بالجوع وظاهرًا بالدبر وعجز عن العمل وانقطع منهُ
الامل فتركهُ اصحابهُ واعتقوهُ وفي بعض المراعي اطلقوهُ .
فصار يمرح وفي تلك المروج يسرح الى أنْ خرج الى الصحرا
وانفرد في رياض الفلا فوصل الى بعض الآجام وحصل لهُ
النشاط التام الى أنْ صحّ بدنهُ وسمن وبرأ دبرهُ وأمن
واخذهُ البطر واستولى عليهِ الاشر واستخفّهُ الطيش وطيب
العيش وصار في تلك المراعي يتردّد ذهابًا وايابًا كالساعي
فيستدّي ويلحم في شقّتها ويفصل مهما اختار من مزهر خرقتها
وينهق على عادة الحمير فيملأ تلك الاماكن من الشهيق
والزفير * وكان في تلك الآجام اسدٌ متخيّس يسمّى الشبل
ابن المتأنّس كان ابوهُ ملك تلك الاماكن قد نشأ بها وهو فيها

ساكن شابّ غرير لم يكُن يعرف الحمير ولا طرق سمعهُ شهيقٌ ولا زفير بل ولا خرج من تلك الآجام ولا عرف تصرّفات الأيّام وكان ابوهُ قُتل في الاصطياد وتفرّقت عنهُ العساكر والاجناد فنشأ وحيدًا يتيما وآستمرّ فيها مقيما . فلمّا سمع صوت الحمار اخذتهُ الرعدة والاقشعرار واستولى عليهِ الهلع فقعد عن الاصطياد وانقطع . وصار كلمّا نهق هرب واختفى من الفرق وغلب عليهِ الدهش الى ان كاد يموت من الجوع والعطش . وصار الحمار يتردّد الى عين ما كان الاسد يسكّن منها سورة الظما فما آجترأ بعد ذلك على الورود واضرّ بهِ الخوف والانقطاع والقعود . فلمّا كاد العطش أنْ يقتله توجّه الى العين محفوفًا بالحيرة والوله فوجد الحمار واقفًا عندها وأدرك الحمار خوفه منهُ بالدها فتقدّم اليهِ وصوّب نحوهُ اذنيهِ وحملق عينيهِ فبدر من الاسد صرخه اتبعها من بولهِ شخه وقال للحمار ايش أنت ولايّ شيء هاهنا سكنت وجعل يرجف وفي قيد الخوف يرسف . فعلم الحمار أنّ الاسد حار فقال : بجنانٍ جريّ وبيانٍ قويّ انا في هذا المكان افرّق رزق الحيوان وقد اقمتُ احوش أرزاق الوحوش ثمّ اقسّمها بينهم واملأ جوفهم وعينهم . فقال الاسد انّي جيعان ولي مدّة عطشان فاعطني من الاكل رزقي وافرز لي من المآء حقي . فقال بوجهٍ مقطب ادنُ الى المآء واشرب فدنا وشرب وهو خائفٌ

مضطرب . ثمّ قال انا جائع فاطعمني وعجّل ولا تحرمني فلي مدّةٌ من الجوع لا قرار لي ولا هجوع . فقال الحمار : تعال معي الى موضعي لتعرف مكاني وتقرّر جرايتك في ديواني . فذهبا في طريق حتّى وصلا الى نهر مآء عميق فارادا العبور فقال الاسد الهصور هذا المآء عميق وكم فيهِ من غريق فاحملني في الذهاب وانا احملكَ في الاياب فاجابهُ الحمار وحملهُ وخاض بهِ ونقلهُ فأنشب الاسد الاظفار في كاهل الحمار وثقّل عليهِ فلم يتأثّر لهُ ولم يلتفت اليهِ فزاد وهمهُ من الحمار وقال هذا راس الدعار . ثمّ سارا ساعةً اخرى فرأيا في طريقهما نهرا فطلب الحمار الوثوب وقال هذه نوبتي في الركوب ثمّ طفر على الاسد وثقّل عليهِ الجسد وتمكّن عليهِ وارخى يديهِ ورجليهِ فتضرّر من ثقلهِ وابتلى بشرّ عملهِ ثمّ تورّك عليهِ وانشب في كاهلهِ مساميرَ نعليهِ فماج الاسد ومار وقد اثّرت فيهِ حوافر الحمار فقال لهُ : اثبت وآلك فما حوّلك تحتي واحالك . فقال : يا اخي حرتُ في امري لقد اوجعتني وقصمتَ ظهري فكان يكفيني جوعي وقلّتي وخضوعي وما ادري هذا الضرّ والبلا من اين اقبلا فقل لي ما الذي انشبتهُ في كاهلي ونزّلتَ بهِ من حافرك في ساحلي . فقال : هذه مسامك لطلّاب الجرايات والجوامك وهي اربعون مسماك لابدّ أنْ تثبت كلّها في قفاك حتّى يترصّع لك اسمٌ في الديوان

والّا فالرزق لا يحصل بالهوينا بل بالهوان . فقال : ياأخاه اتركني لوجهِ الله وارفق بي رفقا وما اريد منك رزقا ودعني بالامانة ووفّر الجراية على الخزانة ولا رأيتُك ولا رأيتَني ولا عرفتُك ولا عرفتَني فانّي اتقوّت من حشيش الارض وخشاشها واستعدّ لمعاد نفسي بالرفق في معاشها فنزل عنهُ الحمار وتركهُ وسار فهرب منهُ بعدما ودّعهُ وولّى يلتفت يمينًا وشمالًا لئلّا يتبعهُ ❊

وانّما صوّرت هذا النقش لتعلم يا ملك الوحش أنّ الوهم يصدر كالسهم وهو عند براهمة الهند وحكمآء السند احد طرق العلم رقاك الله الى سلّم السلم والوهم غالب على الافيال بل سهم الوهم يقتل كثيرًا من الرجال فنرجو من الله ان يبلغنا مقصودنا وننال بحولهِ مسعودنا وأنْ يرجّع اعدآءنا بالخيبة وفراغ العيبة وهذا المثل الذي ضربتهُ والتقريب الذي قرّبتهُ انّما هو مثل العاجز الضعيف مع القويّ العسوف لا العسيف ❊

وامّا نحن بقوّة الله وحولهِ ومساعدة نصرهِ وطولهِ فقوّتنا قاهرةٌ قائمة وصدمتنا بعون اللهِ دعائمها داعمة لم يحصل منّا خوفٌ خور ولا فزعٌ ولا جزعٌ ولا جور ففينا بحمد الله قوّةٌ لمصادمتهم وقدرةٌ لمقاومتهم فامضِ لامرك فكأنّي بك وقد رجعتُ فائزًا بنصرك مجبورًا بكسر عدوّك محبورًا بيُسرك ثمّ انّهُ اقتضى راي ابي الضراغم اعادة الذئب الى ابي مزاحم برسالةٍ مضمونها : بصّرك الله بعيوب نفسك واراك عاقبة غدك في صبح امسك وجعلك

ممّن اتّبع الهدى وامتنع عن موارد الردى اعلم أنّ علمآء الهند وحكمآء البراهمة والسند امتازوا عن حكمآء الاقاليم ووضعوا رقعة الشطرنج للتعليم وانّ واضع ذلك صوّر الرقعة بصورة الممالك وقسّمها بالسويّة وجعل لكلّ قسمٍ جنسًا من الرعيّة ووضع لهُ نوعًا من السير لا يتعدّاه وبيّن لك منهم مكانًا لا يتخطّاه وانا اخاف أنْ تتعدّى مكانا هو مقامك وتقصد بيت الشاه ويفوت مرامك وينادبك فرزين العقل وانتَ راحل في النقل ياذا الهوس ماذا بيت الفرس فتتمّ وانتَ تصرخ في لعبك بالنفس مع الرخّ فلا يفيدك الندم وقد زلّت بكَ القدم وخرجتَ في لعبةٍ من رقعة الوجود الى العدم وترى تلافي الموافاة فات ويقول خصمك وقد رأى كلاحة وجهك شاهَ مات فلا تعتمد على جهامة جسدك وكفّ عن حقدك وحسدك ولا تقصد حرم كعبة غيرك بالفكر الوبيل فيصيبك مثلما اصاب اصحاب الفيل حين ارسل الله عليهم طيرًا ابابيل ترميهم بحجارةٍ من سجيل وتصير بعد وقوع الملاحم وصدوع المقاحم أبا حرمان بعد ان كنتَ ابا مزاحم ❊

فلمّا قرأ الفيل هذه المطالعة غطّى حميّة الجاهلية منهُ الباصرة والسامعة فاراد ان يأمر بايطآء الرسول تحت اخفاف الفيول لكن راجع عقلهُ واحضر وهلهُ وردّ الذيب بجوابٍ مخيب وسهمٍ غير مصيب . وقال : استعدّوا للقتال ومصادمة الابطال

ومقارعة الافيال . ثمّ امر بالعساكر فتجهّزت وبامور الحرب
فتنجّزت وثار بغضبٍ احمى من جمر الغضا وسار بالعساكر
الجرّارة فملأ الفضا * فبلغ الملك المظفّر أبا الحرث الغضنفر ما
فعلهُ الاكلب فاستشار الثعلب . فقال : اعلم أيها الملك وقاك
الله شرّ المنهمك أنّ الافيال لا يعرفون الّا المصادمة والاندفاع
مرّةً واحدةً في المخاصمة وليس لهم في الحرب حراب الّا الخراطيم
والانياب لا يعرفون الكر والفرّ ولا يفرقون بين النصب والجرّ
ولكن بعض العساكر لهُ في ذلك معارف ومناكر منها المواجهة
والمشافهة والمصارعة والمقارعة والمدافعة والممانعة والمخاتلة
والمخادعة والمناوشة والمهاوشة والمعانشة والمهارشة والمكافحة
والملاطحة والمطارحة والمرامحة والمرافشة والمراوسة والممارسة
والمعاكسة والوثوب والمساورة والروغان والمصادرة والاحتيال
والكيد والاغتيال للصيد والربوض في الكمين والنهوض من
ذات الشمال وذات اليمين وكلّ أرباب هذه الملاعب واصحاب
هذه المخارق والمذاهب في عساكرنا موجودون مجدّون ومن
أبطالنا معدودون معدّون فلابدّ من ترتيب كلٍّ في مكانهِ
وايقافهِ بين اضرابهِ واقرانهِ وتعبيتهم ثمّ تخبيتهم * وكان بالقرب
من ميدان النطاح وموضع جولان الكفاح وهو بريّةٌ قفراء
وأرضٌ غبراء انهر مياهٍ جارية وعليها جسورٌ وقناطر عالية
فاقتضى رأي الاسد والفكر الاسدّ أنْ يُطلقوا ثغور المياه على

البرّية ويتركوا فيها لعساكرهم طرقًا ودروبًا مخفيّة ثمّ انهم عبروا
تلك المياه وصفّوا العساكر للملاقاة فقدّموا امامهم الثعالب
والكلاب وكلّ سريع المجيء خفيف الذهاب وصفّوا ورآءهم
الذئاب والنمور والفهود والببور ووقف الاسد بين الاسود في
قلب الجنود بعد أن عبّى الاطلاب وعرف مقام كلٍّ من
القرانيص والاجلاب . ثمّ أنّ الثعالب ونظرآءها دخلت من الافيال
ورآءها وصارت تروغ بينها وتلاعب على عينها حينها وتتعلّق
باذنابها وتتشبّث بعراقيبها وكعابها فزاد حنقهم وثار قلقهم
وتقدّموا واصطدموا وحطّموا واضطربوا وبنار الحرب اصطلوا
فناوشهم الببور البواسر وهاوشهم النمور الجواسر وهارشهم الاسود
الكواسر ثمّ ولّوا امامهم مدبرين وقصدوا الطرق المخفيّة عابرين
فتصوّر الافيال ان جيش الاسد فرّ وجندهُ انحطم وانكسر وانّ
عسكرهم غلب وانتصر فحطموا يدًا واحدة بهمّةٍ متعاضدة ونهمةٍ
متعاقدة وصدمةٍ متآكدة ففي الحال ارتدموا وفي الاوحال
ارتطموا وقُطع دابر القوم الذين ظلموا . ثمّ كرّت عليهم الاسود
والنمور والفهود وسائر السباع والذئاب والضباع فوقعوا في
تلك الفرائس وقوع الجياع على الهرائس وعانقوهم معانقة الاحباب
للعرائس واملوا واذّخروا وحمدوا الله تعالى وشكروا ومن بعد
ما ظلموا انتصروا واظهر العدل للحقّ منارهُ ومَن آذى جارهُ ورّثهُ
الله دارهُ والله لا يهدي القوم الظالمين والحمد لله رب العالمين *

الباب الثامن

في حكم الاسد الزاهد وامثال الجمل الشارد

قال الشيخ ابو المحاسن مَن لجرعة الفضل احسن حاسن: فلمّا وعى الملك الجليل والقيل الفضيل ما جرى بين الاسد والفيل من القال والقيل وانجرار ذلك الى الضرب الوبيل وعلم انّ عاقبة الظلم وخيمة وخاتمة التعدّي والطمع مشئومة امر روساء المملكة وزعماء السلطنة بالكفّ عن الطمع وتجنّب الحين والهلع ومعاملة الاهل والجار بحسن الخلق والجوار وانتشار ذلك بالاشهار في الولايات والاقطار. فانّ العاقل مَن اعتبر بغيرهِ وكفّ كفّهُ عن اذاهُ وضيرهِ ونشر مهما استطاع من موائد احسانهِ وخيرهِ وعدى عن التعدّي والعدوان لاسيّما اذا كان ذا قدرةٍ وامكان وتحكّم في الفقراء والضعفاء وسلطان * فنهض الحكيم حسيب وقبّل ارض العبوديّة بشفاهِ التاديب وقال: بلغني ايُّها الملك المفضال ممّا يطابق هذه الاحوال انّهُ كان في بعض الازمان وانزه الاسكان سلطان الحيوان اسدٌ عظيم الخلقة جسيم الشفقة جليل المكارم سليل الاكارم قد بلغ في الزهد الغاية وفي الورع والعفّة النهاية مع حسن الاوصاف والشمائل وكرم الاعطاف والفضائل قد

جمع بين الهيبة والشفقة والصدق والصدقة وسورة الملك وسيرة العدل وسيمة الفصل وشيمة الفضل هيبتهُ ممزوجة بالرافة وعاطفتهُ مدموجة في الصولة والضرافة قد عاهد الرحمن بالكفّ عن اذى الحيوان وان لا يربق دما ولا يتناول دسما ولا يرتكب محرّما يتقوّت بنبات القفار ويقوم الليل ويصوم النهار يرعى في دولتهِ الذئب مع الغنم وينام في كنف ضمانهِ وكفالة مامنهِ الثعلب والارنب بعد حرّ الحرب والحرب في ظلّ الضالّ والسلم كما قيل: * شعر *

وَلِيَ البريّة عدلهُ فتمازجت * اضدادها من كثرة الايناس

يحنو على ابن الماء امّ الصقربل * يحمي اخو القصباء اخت كناس

وفي جوارهِ دوحةٌ كثيرة الثمار غزيرة الانهار نضيرة الازهار رائقة الماء والكلا فائقة النشو والنما شائقة النشر والهوا رياحينها طريّة ومروجها بهيّة ومقاصفها شهيّة. فكان الاسد ذو الزهاده اذا اطال اجتهاده واراد أن يريح نفسهُ من مشاق العباده يتوجّه الى ذلك الروض الاربض والمرج البهي الغريض والمرعى الطويل العريض فيتنزه في نواحيهِ بسرح سوائم طرفهِ فيهِ ويشغل صادح لسانهِ بتسبيح خالقهِ ومنشيهِ * فبينما هو في بعض الاوقات يتمشّى في تلك الخضراوات صادف دبًّا عظيم الجسم مليح الوسم فقبّل الارض بين يديهِ وذكر انّهُ اقبل لينتمي اليهِ وانّهُ قد سمع باوصاف عدلهِ ومكارم شيمهِ

وفضلهِ فقصدهُ ليتشبّث باذيالهِ وينتظم في سلك خيلهِ ورجالهِ ويزجي في خدمتهِ باقي عمرهِ ممتثلًا بارز مرسومهِ ونافذ امرهِ . فتلقّاهُ بالقبول والاقبال وشملهُ بالفضل والافضال وقال لهُ طب نفسًا وقرّ عينا لقيتَ زينا ووقيتَ شينا فانتظم في سلك خدمهِ وانغمر في بحر كرمهِ واشترط عليهِ أن يحتمي عن لحوم الحيوان ولا يتعرّض لايذآء طائر ولا انسان فامتثل ذلك بالسمع والطاعة وسار على سنن السنّة والجماعة * ثمّ بعد مدّة يسيرة قصد الاسد مسيره وخرج يسير على باكر وحولهُ طائفةٌ من العساكر فلقي جملًا ضلّ عن الطريق وتاهَ عن الصاحب والصديق ونسيهُ الجمّال وتركهُ الرفيق فبادر اليه جماعة الاسد وهمّوا بتبضيعهِ بالناب واليد فانّهم كانوا لشدّة القرم الهبت احشآوهم بالضرم فناداهم الاسد ويلكم كفّوا وعن التعرّض الى ايذآئه عفّوا لئلّا يصيبهُ من الكيد ما اصاب صاحب كسرى ذي الايد من كسرى لمّا خرج صباحًا الى الصيد * فقبّل الجماعة الرغام وسالوا الامام عن بيان ذلك الكلام *

فقال ذُكر انّ كسرى اراد يومًا الاصطياد فركب في جماعتهِ واهل طاعتهِ وسار على الصباح وهو في نشاطٍ ومراح وانبساطٍ وانشراح فصادف رجلًا كريه المنظر مشوّه الخلقة اعور . فتشاءم بطلعتهِ وتعوّذ من رويتهِ وتطيّر من صباحهِ وتكدّر صفو انشراحهِ . ثمّ امر بهِ فضُرب ولولا تداركتهُ الشفاعة لصُلب *

ثمّ تركهُ وسار نحو صيد القفار فحاش الصيد واقتنصهُ من عسكرهِ عمروٌ وزيد ورجع مسرورا فرحًا محبورا وادركهُ المسآء فصادف ذلك الرجل ملتفًّا بكسآء وكان ذا لبٍّ صحيحٍ وعقلٍ رجيحٍ ولسانٍ فصيحٍ فابدى كسرا ونادى كسرى فاستوقفهُ بعد ما استلطفهُ وقال : ايُّها الملك العادل والمالك الفاضل اسالك بالله الذي ملّكك رقاب الامم وحكّمك في طوائف العرب والعجم انعم عليَّ بردّ الجواب وبيّن لي الخطأ من الصواب فانّك عادلٌ حكيم فاضلٌ كريم . فوقف بعسكرهِ واستنصت لخبرهِ وقال : هات مقالك وقُل ما بدا لك . فقال: يا ملك ذا الايد كيف كانت احوالك اليوم في الصيد . فقال : على اتمّ ما نريد لقد حصّلهُ السادات والعبيد . فقال : هل حصل في امور السلطنة وهنٌ او خلل او في الخزائن المعمورة نقصٌ وقلل . قال : لا بل احوال السلطنة مستقيمة وديم الخزائن دارّةٌ مقيمة . قال : فهل ورد اليوم من الاطراف خبرٌ يؤذن بتشويشٍ واختلاف . قال : لا بل الجوانب مطمئنّة والثغور من الاعدآء والمخالف مستكنّة . قال : فهل اصاب احد من الخدم والاصحاب والخول والحشم مصاب . قال : بل كلّهم بخير آمنون من الضرر والضير . قال : فلمَ ضربتني واهنتني وعلام كسرتني وطردتني . قال : لانّ التصبّح بك مشوم وهذا امرٌ مشهورٌ معلوم . قال : سألتُك بالله الذي

تتقلّب في مواهبهِ ايُّما كان اشأم على صاحبهِ انا تصحّبتُ بكَ وانتَ تصحّبتَ بي فانتَ اصبتَ الذي ذكرتَ وقد علمتَ ما حلّ بي ومع هذا فانّما عبثَ وعتبتَ على الصانع وذهلتَ عمّا اودعهُ فيّ من اسرارٍ وبدائع فانّهُ لا اختيار لي فيما فطرني عليهِ ولا مدافع ولا حيلةً فيما قدّرهُ عليّ ولا ممانع واسمع ما قلت بعد ما صلت في اهانتي وجلت * شعر *

لقد كان قصدي أن اسود على الورى * بقدٍّ وطرفٍ كامل الخلق بـارع

ووجهٍ يفوق البدر والشمس بهجةً * فعاكسني تدبير ربي وصانـع

ثم خطر بالبال هذا المقال فقلتُ * شعر *

وددتُ لو انّي أحسن الخلق صورةً * وأكمل من بدر السما وهو طالع

فابدعني نقش المصوّر هكذا * ولا صنع لي فيما بي الله صانع

فتنبّه كسرى لكلامهِ وامر باعزازهِ واكرامهِ وتدارك ما فرط منهُ باحسانهِ وانعامهِ * وانّما أوردتُ هذا المثل لئلّا يكون هذا الجمل مثل ذلك الرجل لانهُ قد تصبّح بي فلا يرى ابدًا مكروهًا بسببي بل يرى الخير ويكفي أذى الغير وكذلك كلّ مَن هو عندي ومنسوبَ اليّ من خولي وجندي . ثمّ دعا ذلك البعير وسالهُ عن جليل أمرهِ والحقير . فاخبرهُ انّهُ تاه عن اصحابهِ وانّهُ من بعدِ يتعلّق بغرز ركابهِ ويلازم خدمة بابهِ كاصحابهِ فاكرم مثواه وأحسن مبوّأهُ ومأواه الى أنْ صار من اكبر الخدم وذا خولٍ وحشم ورأس الندماء ورئيس الجلساء وأمن النكد والبؤس

وسمن حتى صار كالعروس * فحسدهُ الدبّ لعدم اللبّ وعزم بمكرهِ على القائهِ في الجبّ واشتدّ بذلك البرم الى اكل لحم الجمل القرم فأخذ يضرب في ذلك اخماسًا لاسداس واحتوشهُ في قضيّتهِ لسوء طويّتهِ القلق والوسواس فلم يرَ أوفق من إفساد صورتهِ واظهار سوء سريرتهِ فيهلكهُ ويكيدهُ ويفتنهُ ويبيدهُ فيصل منهُ الى ما يريدهُ ويثمر بمكرهِ الحسد ويصلح من شرههِ ما فسد ويروّج منهُ ما كسد فادّى فكرهُ الى أنْ يغري بهِ الأسد * فاختلى بالجمل وابتدى بالعمل وقال انّ لي معك كلام على كتمهِ منك أُلام ولكنّك لستَ موضعًا للسرّ لانّك لا تعرف هرًّا من برّ وانتَ سادج ساكن سليم الفكر والباطن وقد قيل الحماقة في الطويل . ولولا وفور شفقتي وحنوّي عليك ومودّتي ما فهتُ لك بكلمة ولتركتُك من التيهِ في ظلمة . وقالت الحكماء ذوو المعارف لا تُفشِ سرّك الى طوائف منها سليم الفطرة ومنها مدمن الخمرة ومنها الكثير الكلام ومنها المرأة والغلام فانّهم ليسوا محلّ الاسرار وانّهم يفشونها بلا اختيار . وقد قيل كم انسان اهلكهُ اللسان وكم حرف ادّى الى حتف * قال الجمل وقد اثّر فيهِ مكرهُ ودخل : يا اخي انا اتحقّق شفقتك وصدقك وصداقتك واعرف محبّتك ونصحك ومودّتك وانتَ لا تحتاج في تجربتي الى دليل فلي في صحبتك زمان كقدّي طويل وانا اوكّد قولي بالأيمان واعقد على ما تلقيهِ اليّ الجنان ولا اتفوّه بهِ لجمادٍ ولا حيوان والشخص اذ لم

يعرف منهُ ما يراد فلا فرق بينه وبين الجماد واذكر ما قلتُ لك في درب ابن تلك * شعر *

ومَن كان ذا عينٍ ولا يبصر الذي * امامُ فهذا والضرير سواء

وذو الجهل خيرٌ من عقولٍ علومهُ * سراجٌ ولكن ليس فيه ضياء

ثمّ أنشأ أيمانًا غلاظًا انّهُ يبالغ فيما يسمع منه احتفاظًا ولا يبدي منهُ لامًا ولا فآء ولا ظا * فلمّا وقف الدبّ على جوابه وربطهُ بزمام تدبيره اختلى به . وقال : تعلم ايّها الصديق المبين انّ ملكنا في غاية العفّة والدين واعلى درجات العباد والزاهدين قد فطم نفسهُ عن الطعوم خصوصًا عن الدمآء واللحوم ولكنّهُ في ذلك كلّهِ غير معصوم فانّهُ قد تربّى بلحم الحيوان وتغذّى بافتراس الاقران وتعوّد رضع الدمآء وقُطعت سرّتهُ على هذا الغذآء وتزهّدهُ انّما هو تكلّف وتعسّف وتصلّف وتعفّفهُ مكابرة وتورّعهُ مصابرة ولابدّ للنفس أنْ تفعل خاصّيتها وتجذب شهواتها اليها ناصيتها وتطمح الى مارزها وتجنح الى مركزها واذ كان ذلك كذلك فاحتفظ لنفسك واحفظ نصيحتي وامسك وتفكّر أحوال غدك في أمسك فانّك في صحبة الاسد على خطرٍ عظيم وخطبٍ جسيم فلا تغفل عمّا قلتُ لك ولا تظنّن أنّهُ لن يقتلك * فداخل الجمل من هذا الكلام الخور ولم يبقَ لهُ طاقةٌ ولا مصطبر ثمّ ثبّتهُ التوفيق ونخل في هذا الامر الجليل فكرهُ الدقيق واستحذر رايهُ في أمرهِ واجال قداح فكرهِ وقال للدبّ المشوم يا أخي فأيّ

ضرورة دعت الاسد الغشوم حتى تعفّف عن أكل اللحوم . قال : انا لا أشكّ في دينه ولا أرتاب في حسن يقينه ولكن ربّما تعود المياه الى مجاريها وتعطي القوس باريها وتتحرّك النفس الابيّة والشهوة التي طالما القت صاحبها في بليّة لانّ الانسان بل سائر الحيوان على ما يقتضيه الكون والمكان دائرٌ مع اختلاف اخلاق الزمان فان الزمان كالوعآء والشخص فيه كالمآء فيعطيه من اخلاقه ما يقتضيه من كدره وصفائه ولهذا قيل لون المآء لون انائه . وقد قيل الناس بزمانهم أشبهُ منهُ بآبآئهم . وناهيك يا ذا الكرامات ما قيل في المقامات * شعر *

ولمّا تعامى الدهرُ وهو أبو الورى * عن الرشدِ في انحائه ومقاصده

تعاميتُ حتى قيل أنّي أخو عمًى * ولا غرو أن يحذو الفتى حذوَ والده

والاسد في هذا الاوان ماشٍ على ما يقتضيه الزمان وانّ الزمان يتحوّل وسيرجع الاسد الى خلقه الاوّل أما بلغك يا ذا الفطنة الحيّة قصّة الحائك مع الحيّة قال لا وربّ البريّة فاخبرني عن كيفيّة تلك القضيّة *

قال الدبّ الافاك ذُكر أنّ حائكًا من الحيّاك كان لهُ زوجةٌ تخجّل شمس الافلاك صورتها مليحة وسيرتها قبيحة فشمّ زوجها روائح ما هي عليه وشعرت هي بما استبان لديه * واتّفق انّ الملك رأى منامًا هالهُ ولكن نسي هيئته وحالهُ فقصد مَن يخبرهُ برؤياهُ ويعبّرها لهُ فنادى في الورى يطلب

لمنامه مخبرًا ومعبّرا . وبينما تلك الفاجرة على حيلة الخلاص دائرة وفي بحر الافكار حائرة سمعت المنادي ينادي في كلّ نادي مَن يدلّ الملك الهمّام على معبّر المنام فلهُ مزيد الاكرام والانعام العام فسارعت المرأة الى باب الامير وقالت قد سقطت على الخبير انّ لي زوجًا حكيما بتعبير المنامات عليما لكنّهُ يتعزّز وعن تعبيرها يتحرّز فلا يفوه بالتعبير الّا بعد ضربٍ كثير وانّهُ ليس لهُ في ذلك نظير * فارسل ورآءهُ واكرم لقآءهُ ثمّ قال لهُ بعد اكرامٍ اوصله ووعدٍ بانعامٍ وصله رأيتُ منامًا راعني وفي الحيرة والفكر اضاعني فدع عنك الاحتشام وأخبرني عن ذلك المنام ثمّ عبّرهُ لي فقد أُخبرتُ انّك حبيب الله وليّ . فقال يا مولانا الملك انا في الجهل منهمك حائكٌ فقير ليس لي من العلم نقير ولقد كذب عليّ مَن نسب العلم اليّ والعين تعرف العين انا من اين وتعبير الرويا من أين فما صدّقهُ ولا في كلامٍ استوثقهُ وصدّق قول المرأة فيه وأمر بايصاله ما ينكيه ثمّ طلب المقارع وشدّوا منهُ الاكارع وضربوهُ ضربًا أعسفه الى أنْ كاد أنْ يتلفه فنادى الامان الامان امهلني ثلاثة ايّام من الزمان فتركوهُ وامهلوهُ وقيّدوهُ واطلقوهُ * فصار يدور في الخرائب ويتضرّع تضرّع التائب . ففي ثالث الايّام وقد ايقن بحلول الحِمام دخل الى مكانٍ خراب واخذ في البكآء والانتحاب فنادتهُ حيّةٌ من

الشقوق مالك تنتحب ياذا العقوق فاخبرها بحاله وما جرى عليه من نكاله . فقالت : ماذا تجعل لي من الانعام اذا اخبرتك بما رآهُ الملك في المنام ثمّ فضضتُ عن تعبيره مسك الختام . قال : اكون لكِ عبدًا وصيفا واعطيكِ ممّا أُعطى نصيفا . قالت : انّ الملك رأى في منامه انّ الجوّ يمطر من غمامه اسودًا ونمورا وفهودًا وببورا وأنّ السمآء في ذلك تمور وتعبير هذا المنام والله العلّام انّهُ يظهر في هذا العام للملك اعدآءُ كواسر وحسّادٌ جواسر يقصدون هلكهُ ويريدون ملكهُ وسيطفئُ نار كيدهم بمياه سيوفه ويسقيهم من رحيق فتوحه كاسات حتوفه فكشفت غمّتهُ ثمّ اصلح لباسهُ وعمّتهُ وقصد باب الملك ونادى غير مرتبك وذكر المنام وعبّره ووعد السلطان بالنصر وبشّره . فتذكّر المنام وحقّقهُ واعتمد عليه وصدّقهُ وامر لهُ بالف دينار وصار لهُ عند الملك بذلك اعتبار * فاخذ الذهب مجبورا وانقلب الى اهله مسرورا ثمّ افتكر ما اشترطهُ مع الحيّة فابت عن الوفآء نفسهُ الشقيّة وخاف أنْ تطالبهُ بحصّتها او تفضحهُ بقصّتها فلم يرَ اوفق من قتلها وسدّ ذريعة سبلها فاخذ عصا ورام بذلك مخلصا وقصد مأواها ووقف فناداها فخرجت مسرعةً اليه واقبلت بالوداد عليه فرأت العصا بيمينه فعلمت انّهُ ناكث بيمينه فولّت هاربة فضربها ضربةً خائبة لكنّهُ جرحها وعمد الى

نفسه ففضحها وتركها وذهب فائزًا بالذهب * فاتّفق أنّ
في العام الثاني رأى السلطان منامًا اقلقهُ وعن نومه ارّقهُ
ومن شدّة اهواله محاهُ الوهم عن لوح خياله . فدعا المعبّر المعهود
اليه وقصّ حالهُ عليه وطلب منهُ صورة المنام وما يترتّب
عليه من كلام فاستمهلهُ الايّام المعدودات وقصد رئيسة
الحيّات وناداها عجلا ووقف في مقام الاعتذار خجلا . فقالت
اي غدر وكيف استحلّيت ما مضى من فعلك ومرّ بايّ
وجهٍ تقابلني وتخاطب وقد قصدتَ عطبي بعد ما خلّصتُك
من المعاطب وقابلتَ احساني بالسوء ولكن غدرك بك يبوء .
فقال: عفى الله عمّا سلف والصداقة بيننا من اليوم تؤتنف
ثمّ انشأ أيمانا انّهُ يبدل الاساءة احسانا وانّهُ لا يخون ولا
يمين فيما يقع عليهِ العهد واليمين بل يعود الى العهود ومهما
وقع عليهِ الاتّفاق لا يمازجهُ خلفٌ ولا نفاق . فقالت :
اريد جميع الجائزة لاكون بها فائزة ولها حائزة . فاجابها الى
ما سألت وعاهدها على ذلك فقبلت وقالت: رأى الامام في
هذا المنام انّ السماء تمطر قردةً وفيرانًا وثعالب وجرذانًا وتعبير
هذه الرؤيا وكلمة الله هي العليا انّهُ في هذا العام والشهور
والايّام يكثر اللصوص والعيّارون والمكرة والطرّارون ويظهر
في العساكر كلّ حسودٍ ماكر وشيطانٍ داعر ولكن صولة
الملك تمحقهم وصواعق سيوفه تصعقهم فاسرع الى السلطان

وخبّرهُ بما رآهُ في منامه وعبّرهُ . فقال بالحقّ اتيت هذا الذي
كنتُ رايت ثمّ امر لهُ بجائزةٍ سنيّة وخلعةٍ بهيّة فصار في
عيشةٍ مرضيّة وحياةٍ هنيّة وسلك طريقتهُ الدنيّة فلم يلتفت
الى عهوده القويّة ونبذ عهد الحيّة الحبيبة وقال : يكفيها منّي
كفّي عنها فلا تطلب منّي ولا اطلب منها * ثمّ انّ السلطان
رأى في المنام في ثالث الاعوام منامًا آخر ونسيهُ فارسل
الى المعبّر فغشيهُ من يمّ الهمّ ما غشيهُ وسالهُ عمّا رآهُ وطلب
منهُ تعبير رؤياهُ فطلب المهلة كما كان واحاط به
موج الهمّ من كلّ مكان ولم يرَ بدًّا من معاودة الحيّة
فاتاها وبه من الحياء كيّة وناداها بصوتٍ خاشع
ووقف في مقام الذليل الخاضع . فخرجت فرأتهُ فزجرتهُ وزأرتهُ
وقالت : يا خائن يا كذّاب يا ناقض العهد يا مرتاب يا قليل
الحياء يا كثير النداء يا صفيق الوجه يا حقيق النجه ترى
بايّ لسانٍ تخاطبني وبايّ وجهٍ تقابلني وقد ختلتَ وفتلت
وفعلتَ فعلتك التي فعلت . فقال : لم يبقَ للاعتذار مجال ولا
للاستقالة مقال وما ثمّ طريق الّا معاملتك بالافضال فإنْ
افضلتِ اتممتِ الاحسان . وإنْ رددتِ فعذركِ واضح البيان
وهذه المرّة الثالثة لا تكن يمينها حانثة ولا عهودها ناكثة
واشهد الله وكفى به شهيدا انّي بعد لا انقض لكِ عهودا
ولا احلّ ممّا بيننا عقودا . فقالت : لا اخبركَ بشيءٍ الّا أنْ تعهد

الي ان تعطيني جميع ما تُعطى وتكفّ عمّا وقع منكَ من الخطأ فسمع مقالها واجاب سوالها . فقالت : رأى الملك في منامهِ كأنّ الجوّ أمطر من غمامهِ واملأ الفضاء من خرافهِ واغنامهِ وتعبير هذا المنام انّه يكون في هذا العام من الخيرات والانعام ما يشمل الخاصّ والعام فتطيب الاودّاء وتتصالح الاعداء وتطيع العصاة وتذعن البغاة ويوافق المخالف ويكثر المحبّ والموالف فاحفظ ما قلتُ لك فقد حللتُ مشكلك . فتوجّه بصدرٍ منشرح وخاطرٍ مطمئنّ فرح وقصّ المنام وعبّر ما فيهِ من الاحلام فطار الملك بالفرح وتمّ سرورهُ وانشرح وأمر بالجوائز فصُبّت عليهِ وبالاموال فانهالت اليهِ فنعم بتلك العطيّة والخلع السنيّة وقصد وكر الحيّة . ثمّ وقف وناداها وقدّم اليها كلّ ذلك واعطاها وشكر لها احسانها وتحمّل جميلها وامتنانها . فقالت لهُ الحيّة : اعلم يا أبلم انهُ لا عتب عليك ولا ملام فيما جنيتهُ اوّلاً من الآثام ولا ما ارتكبتهُ من العداوة والمين في العامين الاوّلين ولا فضل لك في هذه السنة على ما فعلتهُ من الحسنة فانّ ذينك العامين كانا مشتملين على قران النحسين فكان مقتضى حالهما فساد الزمان والعداوة بين الاصدقاء والاخوان ووقوع البغضاء والشرور والحنث والخلف وقول الزور فجريت على مقتضاهما حسب مرتضاهما والناس في طباعهم وايّامهم اشبهُ بزمانهم منهم بآبائهم . وهذا

الاوان قد انصلح الزمان واستقام الطالع وزال الحسد والتقاطع واقتضى الزمان الصلح والصلاح والموافقة والفلاح فمشيتَ على موجبهِ وتشبّثتَ بذيل مذهبهِ فخذ مالك وتصرّف بهِ بارك الله لك فيهِ فلا حاجة لي بهِ ولا يدَ لتقلّبهِ * وانّما اوردتُ هذا المثَل ايّها الجمل لتعلم انّ الزمان لتقلّبهِ في الدوران يدفع بين الاصحاب والاخوان ويباين بين الاصدقاء والخلّان . والاسد المجتهد وإنْ كان قد زهد وترك من اخلاقهِ ما عهد فيمكن عودهُ الى حالهِ الاولى فالاحتراز منهُ في كلّ حالٍ اولى وها انا قد أخبرتك ومن سوء العاقبة حذّرتك وعلى ما وصل اليهِ فكري أطلعتك وفرط محبّتي وشفقتي عليك اقتضى افشاء هذا السر اليك ومَن أنذر فقد أعذر ومَن بصّر فما قصّر * قال الجمل : يا اخي فنترك هذا المقام ونروح ونخدم مَن في خدمتهِ نستريح * قال الدبّ الجاحد اذا كان هذا العابد الزاهد الراكع الساجد الذي قد تعفّف على اكل اللحوم وليس لهُ دأبٌ الّا اغاثة المظلوم قد عفّ عن الدماء وقنع باكل الحشيش وشرب الماء لا تؤمن غائلتهُ ولا تعتمد خاتلتهُ فالى اين نتحوّل وعلى مَن يكون المعوّل وانّى نذهب وفيمَن نرغب * قال الجمل فكيف يكون العمل فلقد ضاقت بنا الحيل وتقطّعت بنا السبل لا طريق للمفرّ ولا قرار للمستقرّ * فأفكر الدبّ طويلا ثمّ رأى رأيًا وبيلا وقال أرى

الرأي السديد والفكر المفيد ان نبادر الى الاسد قبل وقوع النكد فنقصده بما يقصده ولا نوصله الى ما يعتمده فالعاقل يفتكر في عواقب الامور ويقيس بفكره السرور والشرور ويستعمل الحزم واذا قصد امرًا يصمّم العزم وناهيك قضيّة الثعبان مع ذلك الانسان * قال الجمل أَخبرني عن تلك القضيّة ومَن ذلك الانسان وما تلك الحيّة *

قال أَبو حميد الخبيث بلغني من رواة الحديث انّ شخصًا من الصيّادين كان مغرمًا بصيد الثعابين يتسبّب بصيدها ولا ولا يبالي بكيدها فبينا هو يسعَ اذصادف افعى شرّها ناجز كما قال الراجز * شعر *

ارقش ظمآن متى عضّ لفظ * امرّ من صبرٍ ومقرٍ وحظظ

وقد أَثّر فيه الحرّ بالحرق وهو نائم في مكان منطبق فاستبشر الحوّاء برؤيته وقبضهُ من عقصته فلم يفق الثعبان من رقدته الّا وهو من الحاوي في قبضته فتماوت وامتدّ وارتخى فأَسبل بعد ما كان اشتدّ فظنّ الصيّاد انّه مات وانّ مرادهُ منهُ فات فتحرّق لذلك وتألّم وتأَسّف عليه وتضرّم وحرّق عليه الارّم ورماهُ من يده ثمّ دار في خلده أَن في بطنه خرزةً بهيّة مشرقة مضيّة فاخرج الشفرة وقصدهُ ومدّ لتبطيعه يدهُ . فلمّا تحقّق الارقم ما عزم عليه وصمّم خدعهُ وختله وضربهُ فقتله * وانّما ذكرتُ يا أَبا أَيّوب هذا المثل المضروب لتتحقّق انّ المبادرة الى اهلاك

العدوّ اقرّ للعين واجلب للهدوّ ومَن فوّت الفرصة وقع في غصّة واي غصّة وهذا الاسد إن غفلنا عن أَنفسنا ابادها وقصد دمارها وفسادها ولا يفيدنا اذ ذاك الندم بعد ما زلّت القدم وتحكّم في وجودنا من مخاليب العدم * فقال الجمل : اعلم ايها الرفيق الصديق الشفيق انّ هذا الملك آوانا واكرم مثوانا ولم نشاهد منهُ سوءا ولا من ظلمة باطنه آنسنا ضوءا ولو قصد اذانا ما وجد دافعا ولا ممانعا وقد علمنا انّه ترك الاذى وكفّ عن الشرّ والبذا تعفّفًا لا تخوّفا وتكرّمًا لا تكلّفا واختيارًا لا اضطرارا وجبرًا لكسرنا لا اجبارا وأمّا انا على الخصوص فلم أَرَ منهُ الّا الجميل والفضل الجزيل والاحسان العريض الطويل فلايّ شيء أَشرع في اذى نفسي واكدّر صافي حدسي ولم يظهر لي منهُ امارة لا بمقتضىً ولا بدلالة ولا باشارة فضلًا عن سباقٍ اوسياقٍ بعبارة وانا لو متُّ كمدا ما قصدتهُ باذى ولا ردّيتهُ برداءٍ ردا والصوفي ابن الوقت لا يتقيّد بنكدٍ ولا مقت . فانْ قصدني بعد ذلك بشرّ أَو تعرّض لي بهلاكٍ وضرّ ولا يسعني معهُ الّا التفويض والتسليم والتوكّل على العزيز العليم مع انّي لا اقدر على مقاومته ولا قوّة لي في دفع مصادمته ولا طاقة لكسر أَنيابه ومخاليبه ولا خلاص من اشراك أَساليبه غير أَنّي وإنْ كنتُ منسوبًا الى التغفّل لا أَدَع من يدي ذيل التوكّل فبالتفويض يحصل النجاح وبالتوكّل يُظفر بالفلاح كما جرى لذلك الفلّاح

مع الذئب والشجاع حال التوكّل الى الله تعالى والانقطاع * فسأل أبو سلمة ايضاح هذه الكلمة *

قال ابو صابر بلغني من احد الاكابر انّ شخصًا فلّاحًا توجّه الى ضرورةٍ صباحًا من غير رفيقٍ ولا حامل سلاحًا . فبينما هو في البيدآء سائر صادفهُ ذئبٌ داعر خاتل خاتر فقصدهُ ليكسره ففرّ وصعد الى شجره فترصّد نزوله وانتظرهُ تحتها ليغوله فانعصر وعن ضرورته انحصر . وبينما هو في تلك البليّة وقعت عينهُ على حيّةٍ رديّة ذات قرونٍ صاعدة وهي على بعض الفروع راقدة فازداد همّه وأحاط به لوهمه غمّه فاستمرّ بين بليّتين وانحصر في ديواني داهيتين فلم يرَ أوفق من التوكّل على الله والاعراض عمّا سواه فاعتمد متوكّلًا عليه وفوّض أمرهُ اليه . وبينا هو في تلك الشدّة وقد بلغ ضرّهُ حدّه واذ برجل مقبل من الفلا وعلى عاتقه عصا فقصدهُ الذئب من قريب فلمّا راى السلاح فرّ ولهُ كلاح فنزل الفلّاح من الشجره وازال الله تعالى همّهُ وضرره * وانّما أوردتُ هذا المثل لتعلم انّ الله نعمَ المتّكل . فاخرج هذا الوسواس من القلب والراس ولا تبكِ سلفا ولا تعجّل تلفا ولا تخلع الحذآء يا ذا الرياضة قبل أنْ تصل المخاضة ولا تهتمّ لامر ما وقع فانّ ذلك من شرّ البدع فان قصدنا بسوء فالله يكافيه ويكفينا بحوله وقوّته فيه * قال الدبّ ذو الضرر هذا رأي القاصر في النظر العاجز في الفكر فامّا ذو الفكر الثاقب فلا يغفل عن

العواقب فكلّ مَن قصّر عن العواقب نظرهُ ولم يسدّد في الامور فكرهُ فهو كمَن تعلّقت النار باهدابه والتهبت لاحراق ثيابه وهو مشغولٌ عن اطفآئها متساهلٌ في كشف انبآئها فلم يقف الّا وقد نشبت وأعضآؤهُ بالنار التهبت فماذا تفيدهُ الافاقة وقد صار حراقة * قال الجمل : يا اخي أفِق من محالك وعالج فساد تصوّرك وخيالك وانظر قوّة جلدك وكيفيّة حالك انا لحمي من صدقات الاسد نبت وحبّهُ في دمي وعظمي ثبت كيف أجحد نعمهُ او أُريق دمهُ وانا غرس صدقاته وبنيان نفقاته ورفيق حضرته وعتيق منّته مع انّي لو نبذتُ عهدهُ فقطعتُ ما قطعتُ وعزمتُ على مناوشته ما استطعتُ أمَا وعيتَ في معاني ما رويتَ * شعـــر *

هي العنقآء تكبر إنْ تُصادا * فعاند مَن تطيق لهُ عنادا

تريد صيد العقاب بفرخ الغراب ام تقتنص الذئاب بجرو الكلاب وتبغي بالقرود كسر الفهود ام بالسنانير تصيد الاسود ولا والله لا اقصدهُ باذى ولا يطاوعني قلبي على ذلك ابدا ولو فعلتُ ذلك لسعيتُ في دماري وخراب دياري وجدعتُ انفي بكفّي وبحثتُ عن حتفي بظلفي وجززتُ بيدي راسي وقطعتُ قدميّ بفاسي وقلعتُ باصبعي مقلتي واستحفظت ملك الموت مهجتي ولصرتُ من اكبر المعتدين وأفسدتُ ديني ودنياي والله لا يحبّ المفسدين فاطوِ عنّي هذا الكلام وارجع عن

مفاوضتي بسلام ولا تشكك به جنانك ولا تحرك به لسانك وكان بالقرب منهما وكر فارة وقد سمعت ما جرى بينهما من عبارة ووعت كلامهما وما دار بينهما من كلّ منهما * فلمّا رأى الدبّ المريد انّ كلامهُ للجمل لا يفيد أمسك واحتشم واخذهُ في ذلك الندم . ولكن حال من الجمل الحال وأثّر فيه هذا المقال واستولى عليه من الاوجال ما أدّاهُ الى الهزال وصيّرهُ من الانتحال كالخال وذهب ما كان عليه من النشاط وداخلهُ الهمّ والاختباط وصار كلّ يومٍ في انحطاط ولم يزل بين نضوٍ ورازح ورازمٍ ونازح . فتعجّب الاسد من حاله ولم يقف على سبب هزاله * وكان عند الاسد غراب مقدّم على الاصحاب هو وزيرهُ ومعتمدهُ وصاحب أخباره وعضدهُ فعرض عليه حال الجمل وما شاهدهُ منهُ من وجل . وقال: انا عففتُ عن اكل اللحوم ورضيتُ من العيش بادنى الطعوم وهذا أمرٌ قد عُرف واستقرّ فما بال هذا الجمل لا ياخذهُ مقرّ فاريد ان تعرف حالهُ وتخبرني صدقهُ ومحالهُ . فتوجّه الغراب الى منزل الجمل وقد أخلص في القول والعمل وسألهُ عن حاله وموجب هزاله وانتحاله وما سبب هذا الزروح والرزوم المؤدّي الى النزوح فما أحار جوابا ولا ذكر خطأً ولا صوابا . فصار الغراب يرتقبه وحيثما توجّه يعتقبه * ففي بعض الايّام كان الغراب على بعض الآكام رأى الجمل قد اقبل الى المآء ليطفئ بشربه سورة الظمآء فتخفّى الغراب واقتفى ظهره الى ان قاربهُ وكمن خلف

صخره فسمعهُ يقول بعد ما شرب وقد رأى السميكات في اللعب : لك الحمد يا ربّ ما أرحمك وطوبى لكنّ يا سمك لا من رئيسكنّ تخفن ولا من هيبته ترجفنَ لا ملكٌ يهولكنّ ولا سلطانٌ يغولكنّ ولكن البكآء على الجمل الذي ضاقت به الحيل قد وقع في دردور البلآء ولا يهتدي الى طريق النجآء بل ولا يدري عاقبة امره المهول الى ماذا تؤول أالى الغرق والندامة ام الى النجاة والسلامة . ثمّ أخذ في الانتحاب الى أن أبكى الغراب * فلمّا رأى أبو القعقاع هذه الاوضاع قضى من الامر العجاب ما يشيب منهُ الغراب . ثمّ توجّه الى الاسد الشرى وعرض عليه ما جرى بتخبير المشترى . فتشوّش فكرهُ وتشوّر أمرهُ وضاق بالهمّ صدرهُ وقال : انا كففتُ عن الشرّ والشره وعففتُ عن ذلك كأنْ لم يرني ولم أره وتركتُ القرم والاذى وفطمتُ نفسي عن لذيذ الغذا ليأمنني أصحابي ويأنس بي احبابي فاذا لم يستقرّ خاطرهم ولا تطمأنّ على محبّتي سرائرهم فايّ فائدةٍ لي في الحيوة وكيف اخلص في حرم المودّة من كدر العيش الى صفاه وكلّ ملكٍ لا تصفو لهُ رعيّتهُ ولا ترسخ في قلوب جنده محبّتهُ كيف يثبت سلطانهُ او يساعدهُ عند الشدائد أعوانهُ . انا بذلتُ جهدي وطاقتي وتشبّثتُ باذيال الصلاح على قدر استطاعتي ولم يبقَ الّا التضرّع والاستكانة والتخشّع الى مقلّب القلوب وعلّام الغيوب ليكشف هذه الغمّة ويصلح لي هذه الامّة ويجلو

عن جبين الحق بهيم هذه الظلمة. ثمّ تضرّع الى عالم الاسرار ليطلعهُ على حقيقة هذه الاخبار. ثمّ أمر باجتماع جماعته المقيمين على محبّتهِ وطاعتهِ وعرض عليهم هذه الاحوال وطلب منهم استكشاف ما فيها من الاهوال وقال: اعلموا انّي امنتكم من مخافتي وبذلتُ لكم بدل عنفي لطافتي وقد حققتم مرامي وصدّقتم كلامي وعرفتم أخلاقي وشدى اعلاقي كلّ ذلك لطيب خواطركم وتصفو لي سرائركم ولم افعل ذلك عجزًا ولا خورا ولا تهاونًا ولا ضجرا. وانا الآن امركم بواحدة هي أجلّ فائدة ان لا تكتموا عنّي شيئًا تكرهونهُ منّي بل أوقفوني عليهِ وأرشدوني اليهِ ثمّ اجهدوا أنّي أمنعهُ عنّي فانّ فيكم أجلّ محبوبي مَن اهدى اليّ عيوبي. وانّما أوردتُ هذا الكلام في هذا المقام بحضور الخواصّ والعوام على سبيل التحذير والاعلام والتنذيز واقسم بالله العليّ الكبير اللطيف الخبير الذي منهُ المبدأ واليهِ المصير لم يكُن في خاطري من أحدٍ حقدٌ ولا حسد ولا هجس بخاطري لهُ ايذآء ولا نكد وها انا قد اخبرتكم وباطّلاعي أمرتكم فلم يبقَ لي ذنب يُستغفر منهُ ولا لكم في الاخفآء ما يُعتذر عنهُ وانّ الله تعالى لا يعذّب بضلال الاسافل بل يهب للاعالي الاراذل فاذا فسد الراس تغيّرت الناس فحلّ الباس * فقام الحاضرون في مقام العبوديّة والولآء وبسطوا السنتهم بأنواع الثنآء والدعآء ونادوا بكلمة واحدة متّفقة متأكّدة حاشا الله ما علمنا عليك من سوء ولم تزل تطبّب علل

تقصيرنا وتأسو وتستر بذيلك كلّ عارنا وتكسو. وكان هذا الكلام للاكابر وقد اجتمع البادي والحاضر وأبو حميد المفتن فيما بينهم حاضر فأدرك بهذا العمل انّ الاسد شعر بشيءٍ من جهة الجمل فاستدرك فارطه وسلك سبيل المغالطه. ثمّ اختلى بالاسد ولم يكُن معهما أحد وقال: كأنّ مولانا الملك وقاهُ الله شرّ المنهمك أحسّ بشيءٍ أوجب تقرير كلامهِ لطائفة جنده وخدّامهِ وانا عندي كلام لم يطّلع عليهِ أحدٌ من الانام ولم أبدِه للملك بحضرة الجماعة لانّهُ ربّما لا يقصد الملك بهِ الاذاعة ولا يمكنني اخفآؤهُ وقد آن ابدآءهُ فاعلم ايّها الملك الهمام كفاك الله شرّ اللئام: انّهُ كما يستحقر العالم الجاهل كذلك يزدري الجاهل العاقل وذلك لقصور فهمهِ وعدم علمهِ ومهما أحاط الخادم بمرتبة مخدومهِ وزاد علوّ قدرهِ في معلومهِ ازداد في قلبهِ وجوارحه مقدار تعظيمهِ واستقرّت هيبتهُ في قلبهِ وروحه وصارت كؤوس خشيتهِ تنادمهُ في غبوقهِ وصبوحه وكلّما ضعفت معرفة الخادم بالمخدوم قلّت قيمتهُ عندهُ وهذا أمرٌ معلوم. ثمّ اعلم يا ملكًا اعظم: انّ الجمل الطويل الأمل قد اغترّ بالملك حين كان في ذرى أمنهِ سدك وأحسن اليهِ غاية الاحسان وصار في عدم الوفآء كالانسان وحصل لهُ من سورة غضبهِ الامان فجهل قدره وتعدّى طوره وقد قيل:

* شعر *

اذا انتَ أكرمتَ الكريم ملكتهُ * وانْ انتَ اكرمتَ اللئيم تمرّدا

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى * مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندا

وناهيك ما قد قيل في الاقاويل عن حماقة كلّ طويل فلا جرم فسد دماغهُ حين حصل فراغهُ وتطاولت نفسهُ في مسراها الى اشيآء لا يمكن افشاها ولا يتفوّه بها مؤمنٌ ولا يرضاها لانّ ذكرها قبيح والكناية ابلغ من التصريح * فلمّا سمع الاسد هذا المقال علم ببديهة العقل انّهُ زورٌ ومحال . ثمّ ارسل الى الغراب وذكر لهُ هذا الخطاب ليميّز خطاهُ من الصواب ويبيّن القشر من اللباب . فلمّا اتى الغراب الى حضرتهِ وجلا صورة هذا القول على مرآة فكرتهِ قال لهُ : ضميرك المبارك في حلّ هذا المشكل لا يُشارك فانّهُ حلّال المشكلات موضّح المعضلات . وامّا انا فلا اسمع هذا الكلام ولا اقبل في الجمل الملام فانّي اعرف تواضعهُ ومسكنتهُ وصبرهُ وطاعتهُ واخلاصهُ وقناعتهُ وانّهُ صادقٌ في محبّتهِ مخلصٌ في عبوديّتهِ واعرف انّ خوفهُ من الملك غالبٌ على رجآئهِ وانّهُ مع ذلك مقيمٌ على سنن وفآئهِ وعقود عهودهِ وصفآئهِ ولو اراد الذهاب لذهب بسلام ولا في وظيفتهِ قيدٌ ولا في وتيرتهِ خطام . ثمّ قال الغراب : والغالب على ظنّ ذوي اللبّ انّ هذه الفتن اصلها واصلاها الدبّ لانّهُ قد تقرّر وتحقّق واتّفق كلّ حكيمٍ موفّق انّهُ اذا نقل ناقلٌ محقق عن عاقلٍ ابتدى بالاحسان اسآءةً فلا يُصدّق فالملك لا يبادر في هذه القضيّة حتّى يتبصّر

الامر عن جليّة وحاشاهُ ان يفرط في خدمة المخلصين من غير أنْ يتدبّر امورهم بيقين ويختلي بعبده الجمل ويتحقّق منهُ اصل هذا العمل بعد استجلاب خاطرهِ وتطييب سرائرهِ وضمائرهِ * فاستصوب الاسد هذا الفصل واختلى بالجمل ليقف منهُ على الاصل وسكّن جاشهُ وازال بلطيف الكلام استيحاشهُ وشكر في خدمتهِ مساعيهُ وطلب بملاصقتهِ مراضيهُ . ثمّ طلب من الجمل تفصيل ما بلغهُ من جمل واكّد قولهُ بالأيمان انّهُ لو صدر منهُ تقصيرٌ ونقصان ولو كان مهما كان فانّهُ قد عفا عمّا هفا ولا يكدّر من عيشهِ ما صفا ولا يمزّق رقيق حاشية وفآئهِ بالجفا ولا يتقيّد بهفواتهِ ولا يطالبهُ ابدًا بزلّاتهِ فليطلعهُ على جليلة الحال وليذكر ما وقع منهُ من اقوالٍ وافعال * فافتكر الجمل في معاهدتهِ مع الدبّ وانّهُ لا يفشي سرّ ذلك العديم اللبّ وكيف ينقذهُ من غضا جمرةٍ شبّ وقضا غمرةٍ صبّ . فقال : إنْ قلتُ اضعتُ صاحبي وإنْ سكتُّ قصّرتُ في جانبي . ثمّ اختار كتم الاسرار وسلوك طريق الاحرار والوفآء بالعقود وعدم نكث العهود وقال : اسعد الله مولانا الذي بوجودهِ احيانا انّي اتفكّر في عواقب الامور وانظر في تقلّبات الدهور واخشى سطوات السلطان واخاف من حوادث الزمان فلا ازال من هذا الخيال في انتحالٍ وهزال الى أن صرتُ الى هذه الحال فان كان هذا ذنبًا

يُوجب العقوبة فانّ ازالتهُ عن خاطري فيها صعوبة وهذه اوهام لا يمكن دفعها ولا يكلّف الله نفسًا الّا وسعها * قال الاسد : فهل اطّلعتَ على ما يوجب ذلك او يدلّ على الالقآء في المهالك وتضييق المسالك من حركات افعالي او من فلتات اقوالي او تقلّبات احوالي او نقل اليك ناقل من جاهلٍ او عاقل * فأُفحم الجمل عن الجواب واطرق فلم ينطق بخطأ او صواب * فقال الغراب : لا ينجيك الّا الصدق وكشف استار الريب عن جبين الحقّ * وكان حاضرُ هذه النجوى خلدٌ اعمى وهم عنهُ غافلون وعن استماعهِ ذاهلون ففي الحال توجّه الى الدبّ وقال صورة ما جرى بتغيير المشترى * فعلم الدبّ انّهُ افتضح وامرهُ اتّضح . فنهض وما قعد ودخل على الاسد فراى الجمل مطرقا لا يلوك منطقا . فمدّ صولجان اللسان وخطف كرة البيان وسابق بالكلام خوفًا من الملام وقال بلسانٍ طلق كلام فاجرٍ مختلق : اعلم ايُّها الطويل الابلم انّك لو امسكتَ عن كلامك القبيح في وقتك الفسيح لكان اصوب واحسن واعجب لكن لمّا فهتَ بالعبر واتيتَ باحدى الكبر وخنتَ وليّ نعمتك وقصدتَ اهلاك الملك بقبيح شيمتك ازال الله سترك وابدى امرك وفضحك وقبحك وبلجام الخزي كبحك لا جرم جرمك حبسك واثمك العظيم اخرسك * فابهت الضرغام من هذا الكلام وشاب الغراب

من هذا الامر المشاب ووقعوا في الاضطراب والشكّ والارتياب واشتبه الخطأ بالصواب وقالوا انّ هذا الشيء عجاب * فقال الجمل للدبّ يا فقيد اللبّ يا قليل النصفة وعديم المعرفة واخس افاك وانجس سفاك وابخس بتاك انظنّني خائفًا من كلامك وخطابك عاجزًا عن ملامك وجوابك أما كفى انّي قصدتُ ستر عوارك واطفآء نارك ومفتكرٌ في تلافي قضيّتك واخماد لهيب فتنك واهماد شرار مصيبتك وعلى تقدير التسليم وانّي فهتُ بالكبر والامر العظيم اكنتُ معك منفردا ام رايت بيننا احدا فان كان بيننا احد فاحضرهُ الى حضرة الاسد فانّي ارضى بهِ وبما بيّن ولا دافعَ لي فيما يشهد به ولا مطعن وان كنتَ انتَ وحدك فما منعك عن نصح الملك وصدّك فانتَ اذًا امّا خائن وامّا مائن وهذا امرٌ محقّقٌ بائن ولولا أيماني التي ربطتُ بها لساني لكنتُ اظهرتُ البرئ والجاني ولكن تحليفي الى الكتم والسكوت الجاني وسيظهر الله الحقّ ويفصل وللباطل صولةٌ ثمّ يضمحلّ * ففكّر الريبال في هذه الاحوال ثمّ امر بهما الى الاعتقال . وكان للملك سجّانٌ ذكيّ كنيتهُ ابو الحصين واسمهُ ذكيّ فتسلّمهما واحتفظ بهما * فلمّا استقرّا في قبضة الحبس واستمرّ امرهما تحت اذيال اللبس توجّهت الفارة التي كانت سمعت سرّ مناجاتهما واطّلعت من اوّل الامر على حكاياتهما الى السجّان وهما في

أضيق مكان وسالته عمّا ذا آل اليه امرها من شان فاخبرها بحالهما وجهل عاقبة مآلهما وانّه ليس بعالم مَن المظلوم منهما والظالم * فقالت الفارة اسالك يا ذا الشطارة والذكاء والمهارة اذا ترجّح لاحدهما الجانب وتبيّن الصادق والكاذب وتعيّن المرضيّ عنهُ والمغضوب عليه تطلعني على ذلك لانظر اليه * قال السجّان للفارة لقد فهمتُ عنكِ بالاشارة وادركتُ من فحوى العبارة أنّ لكِ اطّلاعًا على هذا الامر وفرقًا جليًّا بين تمره والجمر فان كنتِ شممتِ من ذلك روائح فبادري باداء تلك النصائح فانّ قولكِ مقبول ولكِ الفضل لا الفضول ولا تقصدي بهذا الارشاد الّا مصلحة العباد وكشف الغمّة وبراءة الذمّة وردع الظالم وخلاص ذمّة الحاكم * قالت الفارة : وانا لا اقصد الّا اصلاح ذات البين وشمولها بعاطفة الملك بحيث يصيران كالمحبّين ويرتفع النكد ويحصل رضا الاسد ويُحسم الضرر والضير وتُختم عاقبتهما بخير . وايضًا فانّي سمعتُ من العلماء وضبطتُ من نصائح الحكماء ومقالات ذوي الآراء انهم قالوا : ايّاك والتكلّم في امور الملك بيضاء او سوداء وأين بنت الجرد من ملك الوحوش الاسد * قال السجّان : لا تقولي ذاكِ ولا تستحقري جدواكِ وما ترين في فتواكِ ودونكِ القول الصادر من نظم الشاعر الماهر وهو :

لا تحقرنّ الرايَ وهو موافقٌ * حكم الصواب اذا أتى من ناقصِ

فالدرّ وهو أجلّ شيء يُقتنى * ما حطّ قيمتهُ هوان الغائص

وانّ النصيحة كالعسل والحقّ يصدع كالاسل فالعسل يُعطي حلاوة ذوقه سواء كان في صحاف الذهب او في زقّة وقاصد الصواب والنصيحة ومَن اغراضهُ لدفع الفساد صحيحة يخاطر بنفسه وماله ويُراقب ما فيه حسن مآله وافضل المعروف اغاثة الملهوف سمعتُ في المثل السائر افضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطانٍ جائر وهذا الطور عند ملوك الجور فكيف وملكنا اعدل الحكّام وناصر المهتدين الكرام متّصفٌ بمكارم الاخلاق والشيم ومعاملة الكبير والصغير بالمراحم والكرم فان كنتِ تدرين بجهة الانتفاع او لكِ على قضايا الدبّ والجمل اطّلاع وإنْ كان عندكِ ما يُزيل الشكّ والاغاليط ويُحقّ الحقّ ويميّز الاخاليط فقومي وانصحي وقولي تفلحي فانّ في ابدائها منّة عظيمة ونعمة على الملك جسيمة ستبلغني بذلك العيش الهنيّ وترقيني به الى المقام السميّ والسنيّ وإنْ اخّرتِ النصيحة فقد شاركتِ الخائن في الافعال القبيحة * قالت الفارة : ما ادقّ ما نظرت واحقّ ما اشرت لاتردّد للعقل في صحّة هذا النقل ولكن مَن انا في الرقعة ومَنْ يقبل للفارة حتّى تطلب الرفعة فلا انا في البعير ولا في النفير وانّي من مبدأ امري وطول عمري في زوايا الخمول اتحرّز من فضلات الفضول لا لصحبة الملوك لي صورة جميلة ولا في

طريقة السلوك سيرةً نبيلة لا امنيةً ولا ثقة واصدق اسمآئي الفويسقة فكيف اصير مصدّقة وقد أُبيح قتلي في الحلّ والحرم فلا فرق بين وجودي والعدم فلو طلبتُ مصاحبة مَن فوقي لخرجتُ عن دائرة طوقي وصيّرتُ نفسي ضحكةً للناضرين وهزأةً للساخرين خصوصًا ملك الاسود وسلطان الوحوش من النمور والفهود ورحم الله امرءا عرف قدرهُ ولم يتعدّ طورهُ ومن اعجب العجب أن يُجنى من الشوك العنب ولو فعلتُ ذلك لكنتُ كقردٍ حالك ذميمٍ هالك ادّعى رياسة الممالك . ومن احسن الامثالِ ما يُقال : انّ السلطان للانام بمنزلة الحمام البعيد عنهُ يطلب قربهُ والداخل فيه يشكو كربهُ فالاليق بحالي أنْ لا اشغل بالي الخالي بما لا يليق بي ولا بامثالي وحيث اشرتَ عليّ باداء النصيحة وبيان الحالة الفاسدة من الصحيحة طلبًا لمرضاة الملك وصونًا لخاطرهِ عن الامر المشتبه المشتبك والفكر المريب المرتبك فانا امتثل مرسومك واودع ذلك معلومك بشرط أنْ لا تذكرني بشفة ولا تشير الى اسمي بنكرةٍ ولا معرفة * فعاهدها على ما اشترطت فمدّت لسان القول وبسطت ثمّ ذكرت ما جرى بين الدب والجمل من فصول وقرّرت برآءة ساحة الجمل بالمعقول والمنقول * فلمّا اتّضح لابي الحصين السجّان نزاهة عرض الجمل وانّ الدبّ هو الذي اغراهُ على قصد الاسد وحمل وتحقّق ذلك

بالبرهان القاطع والدليل الساطع توجّه الى حضرة الاسد واخبرهُ بما صلح من الامر وما فسد وانّهُ انّما تاخّر عن خدمة مخدومهِ ليصل الى ما في جيب الغيب من مكتومه * فلمّا تحقّق الليث ما في هذا الامر من صلاحٍ وعيث ومَن هو الصالح من الدبّ والجمل والطالح ارسل الى الغراب وعرض عليهِ هذا الامر العجاب وطلب منهُ الارشاد الى هدم ما بناهُ الدبُّ من الايقاع وشاد * فقال الراي عندي أن تجمع العساكر وتنادي للبادي والحاضر ويحضر الدبُّ والجمل ويُعرض على الجميع هذا العمل فاذا ظهر الحقّ وانكشف سجاف الباطل عن جبين الصدق وتبيّن الظالم من المظلوم وتعيّن الصحيح من المثلوم يرى رايك السعيد ما يقتضيهِ ويسلك ما يامر بهِ ويرتضيهِ ويجري على كلٍّ منهما ما يُحكم بتنفيذه ويمضيهِ بحيث لا ينتطح في ذلك عنزانٌ ولا يختلف عليك فيهِ اثنان * فلمّا كان ثاني يوم امر الاسد بجمع القوم واحضار الجمل البري والدبّ المفتري فحضر الكبير والصغير واجتمع الامير والوزير ثمّ علا الملك على السرير واثنى على الله العليّ الكبير ثمّ ذكر ما اهمّه من هذه القضيّة المغمّه وذكر فضل هذه الامّه وما لها من رقّةٍ وجلالة وانّها لا تجتمع على ضلالة . ثمّ قال : ما تقولون في رفيقين شفيقين صديقين لم يكن بينهما سبب مكالحة ولا موجب منازعةٍ ولا مجالحة سوى المحبّة

المليحة والمالحة والمودّة الصافية الصالحة يبيتان في فراش ويستعينان على حسن المعاش حسد احدهما رفيقهُ وخان من غير سببٍ صديقهُ وسعى في اراقة دمهِ وعدم وجودهِ بوجود عدمهِ فماذا يجب على هذا الحاسد المنافق في عملهِ الفاسد الطالب ترويج باطلهِ الكاسد وقصد ذلك البري الصالح الغافل السري والسعي بهِ الى الحكّام والتأثّم بسببهِ في الآثام وارتكاب هذه الجرائم وتحمّل مثل هذه العظائم ❊ فاجاب الجمهور انّ من اكبر الكبائر قول الزور وانّ مرتكبهُ الاثيم يستوجب العذاب الاليم ومَن هو هذا الجري الكذّاب المفتري الذي يرتكب مثل هذه الامور الهائلة والكبائر الوخيمة القاتلة والعظائم المؤذية الغائلة خصوصًا في مثل هذه الدولة العادلة ولايّ شيء يؤخّر جزآءهُ ولا يُحسم دوآءهُ ولا يُضرب ولا يُشهر ولا يؤمر بالمعروف في هذا المنكر ❊ قال الاسد: فاكتبوا بما قلتم محاضر وليعلم الغائب الحاضر حتى اذا وقع الاتّفاق بين الاصحاب والرفاق وارتفع في ذلك النزاع والشقاق وأجمع على ذلك العقل والسمع فعلنا فيهِ ما يقتضي السياسة والشرع فأتبعوا شروطهم وكتبوا بذلك خطوطهم ❊ فعند ذلك طلب الاسد أمّ راشد واقامها في ذلك المحفل الحاشد واستنطقها بما تعلم واستشهدها على الدبّ بما أجرم . فشهدت في وجههِ بما سمعت ورقمت بذلك خطّها ووظعت وزكّاها الحاضرون وشهد بعفّتها

وزهدها الناظرون واتّفقت الكلمة من الكملة على صدقها وحقيقة نطقها . فتهلّل وجه الجمل بهذا القول والعمل وظهرت على صفحات وجه الدبّ العديم الدين واللبّ علامة الانكسار والفضيحة والخسار ولم يسعهُ الّا انّهُ أذعن واعترف انّ لا دافع لهُ في الشاهد ولا مطعن وانّهُ قد اجترم وطلب العفو والكرم ❊ فعند ذلك: غضب الريبال ولم يبقَ للعفو مجال فزأر وزفر وغضب الغضنفر وهمر وزمجر وتطاير من اشداقهِ الزبد ومن عينيهِ الشرر ونعوذ بالله من غضب الملوك خصوصًا على الفقير الصعلوك ومَن احاطت بهِ اوزارهُ وقلّت اعوانهُ وقلّت انصارهُ . ثمّ أمر الاسد بالدبّ أنْ يُلقى من البلآء في جبّ وانّ السباع تحتوشهُ والضباع تنوشهُ ❊ ففي الحال من غير اهمال ولا توانٍ ولا امهال نهشتهُ الذئاب وافترستهُ الكلاب وتخاطفتهُ النمور وتناتفتهُ الببور والتقمتهُ السباع والتهمتهُ الضباع فقطّعوهُ وبضّعوهُ ووزّعوهُ ومزّعوهُ وخزّقوهُ وحزّقوهُ وخرّقوهُ ومزّقوهُ ولم يكتفوا بعظمهِ واهابهِ حتّى لسحوا من دمهِ يابس ترابهِ وكان قد اشتدّ بهم القرم فأُطفئوا بلحمهِ ودمهِ بعض الضرم وزال عن ابي ايّوب الضرّ وارتفعت منزلة ذلك الحرّ وضاعف الله تعالى على برآءة ساحتهِ انواع الحمد والشكر وفائدة هذا المثل الجاري بين الدبّ والجمل معرفة فضيلة الامانة ووخامة المكر والخيانة

فانّ الله تعالى غير مُضيع اهلهِ ولا يُحيق المكر السيّىء الّا بأَهلهِ كما قيل :

* شعر *

لابنآء هذا الدهر في الغدر أسهم * وضرب خياناتٍ وطعن مكيدة
وما للفتى منها طريق سلامة * سوى ترس تفويضٍ لربّ البريّة
وكلّ آمرءٍ رهنٌ بنيّتهِ وفى * كفالة ما ينوي وما في العقيدة

وليكُن هذا آخر باب الاسد الصالح والجمل الامين الناصح والعاقبة للمتّقين والله الموفّق والمعين والحمد لله ربّ العالمين وحسبُنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

الباب التاسع

في ذكر ملك الطير العقاب والحجلتين الناجيتين من العقاب

قال الشيخ أبو المحاسن مَن هو لثوب الفضل كاس ولكاس الظرف حاس وفي حدائق الأَدب أزكى آس ولأَحداق الادبآء أَذكى آس وفي عيون الاعدآء أَنكى آس : فلمّا أنهى الحكيم حسيب كلامهُ الذي استعبد درّ النسيب وذكر من النصائح والحكم عن ملوك العرب والترك والعجم ومن مباحث الجنّ والانس ما حصل للسامعين به النشاط والانس ثمّ استطود الى فوائد البهائم والوحوش ورقم في دار ضرب البلاغة من حسن الصياغة والرقوش ما قعد لهُ من زواهر كلامهِ على سكّة دينار الفصاحة احسن النقوش وعقد بجواهر نصائحهِ لمفرق العدل في دار الملك اكليل العروش افتخر أَخوهُ الفيل بوجوده وقدّمهُ على جميع خواصّهِ وجنوده وأَفاض على حدائق آمالهِ زلال احسانهِ وجوده وقال لهُ : يا نديم الدير وعديم الضير وقديم المير ومديم الخير قد أَفدتَ حكم سائر الحيوان فكرّر علينا من حكم منطق الطير * فابتهج الحكيم في الساعة وانتهض ملبّيًا بالسمع والطاعة * ثمّ انّه قال أَدام الله ذو الجلال ايّام مولانا الامام وشمل بذيل رافتهِ الخاصّ والعام : بلغني انّهُ كان في ممالك اذربيجان جبل يسامي السماك في السموّ ويعالي

الافلاك في العلوّ غرير المياه والاشجار كثير النبات والثمار وفي ذيله شجرة قديمة منابتها كريمة أغصانها مهدّلة وثمارها مسبلة كما قيل * شعر *

وفي أصلها وكرٌ لزوجٍ من الحجل * كأنّ ربّا رضوان البسها الحلل

هو وطنهما المألوف ومقرّهما المعروف ورثاهُ من اسلافهما وهو في الشتاء والصيف مرجع ايلافهما يُدعى الذكر منهما النجدي والأنثى غرغرة بنت السعدي ولذلك الجبل جبلٌ مقارن من جهة الشرق يسمّى القارن لو قصد البدر دورهُ او رفع راسهُ لينظر سورهُ او يحلّ فيهِ شعاعهُ ونورهُ لوقع عن قمّة راسه طرطورهُ في قلّته سرير عقاب منيع الجناب هو ملك الطيور والجوارح وسلطان السوانح والبوارح وصافات تلك القلال وكواسر هاتيك الجبال كلّها تحت أمرهِ العادل العال متوّجٌ فوق راسهِ باكليل ما يبرزهُ من مثال * فكانت الحجلتان كلّما فرختا وقاربت أفراخهما الطيران عزم أبو الهيثم الكاسر بما معهُ من عقابين كواسر وجوارح الطيور ومَن تحت أمرهِ من الجمهور على التنزه والاصطياد فتحيط عساكرهُ بتلك النواحي والبلاد فكانوا كلّما وطئوا ربوة مهّدوها وسلكوا ما بين أكنافها وبطونها ونهودها تصل طراشة العساكر الى الجبل الذي فيه وكر الحجل فتذهب افراخهما تحت السنابك وتضمحلّ تحت اقدام اولئك فتقع الحجلتان في النكد والاحزان وبالجهد والمشقة البالغة يخلصان هما من تلك الداهية الثالغة والنائبة

الدامغة فلم يزالا في نكد على فقد الولد * فافتكرتا في بعض الايام وقد أثّر فيهما هذا الايلام فيما هم فيهِ من النكد لفقد الولد المتجدّد على طول الامد . فقال النجدي لبنت السعدي : قد كبرنا وضاع العمر وحرنا وقاربت شمس عمرنا للأفول واقدام بقائنا أن تزل وتزول * شعر *

وليس لنا مَن يذكر الله بعدنا * اذا ما انشبنا في مخاليب فقدنا

ولا مَن يحيي نشر آثارنا اذا طوى الموت بساط اعمارنا وقد قضينا العمر في الانكاد بفراق الاولاد ثمّ بعد الحيوة ينمحي اسمنا ويندرس بالكلّية رسمنا فلا حيوة هنية ولا اخرى رضيّة واي هنأ مع فراق قرّة العين خصوصًا على وجه المذلّة والشين وما لنا نظير في هذا الدهر المبير الآمَن جمع المال من حلّه وغير حلّه وتركهُ بعد النكد البليغ والحرص الى غير أهله فيصير كما قيل

* شعر *

تؤدّيهِ مذمومًا الى غير حامد * فياكلهُ عفوًا وانت دفين

ولا طاقة لنا في دفع جيش العقاب ولا حيلة الى الخلاص من عقاب هذا العقاب فذهب اكثر العمر في هذا الويل وأشبهنا النائم في طريق السيل وان غفلنا عن أنفسنا ربّما اجتاحونا وطرحونا الى مهلكة تُدير علينا من العدم طاحونا فالراي عندي ان نترك هذا الوطن ونرحل الى مكانٍ لا نرى فيه هذه المحن فانّهُ لم يبقَ لنا طاقة على فراق الولد ولا قلبٌ يحتمل هذا الحزن والنكد

* شعر *

ذاب قلبي بين دمعٍ وضرمٍ * فارحموني انا من لحمٍ ودم

وذاك لانّ المرء يحيا بلا يدٍ ورجلٍ ولا تلقاهُ يحيا بلا كبد * قالت : لقد أعربتَ عمّا في فكري وشرحتَ ما كان يجول في صدري وهذه محنةٌ قد أعياني في دآئها الدوآء وبلآءٌ عمّنا فكلّنا فيهِ سوآء *

* شعر *

المرء يحيا بلا ساقٍ ولا عضدٍ * ولا يعيش بلا قلبٍ ولا كبدِ

(بي مثل ما بكِ يا حمامة فاندبي) وقد قلت * شعر *

ولم يعرف حرارة ما أعاني * سوى قلبٍ كواه ما كواني

وانا لم اخلُ قطّ في وقتٍ من هذا الفكر الذي أوجبهُ الهمّ والمقت . واعلم أنّ سهام آرآء العقلآء ونبال افكار ذوي النظر من الحكمآء انّما تصدر من قوسٍ واحدة وتتوجّه الى عرضٍ طريقتهُ غير متعدّدة وقال العقلآء واولو التجارب من الحكمآء بل أطبق ارباب العقول وأئمّة الدين واصحاب الاصول انّ قضايا العقل كلّها صادقة والسنتها فيما تحكمهُ بالصواب والاصالة ناطقة غير انّ كثيرًا ما تشتبه القضايا العقليّة لسوء التصوّر بالقضايا الوهميّة فيقع الخطأ بواسطة الوهم في الفهم ويُنسب الى العقل ذلك السهم والّا فاتّفاق العقلآء جمعًا انّ القضايا العقليّة لا يقع فيها الخطأ قطعًا وانّ قضايا الحسّ لوقوع الاشتباه واللبس يُتصوّر انّها حقّ ويُقضى لها وعليها بالصدق واذا وقع الخطا لحصول الاشتباه وعدم

التأمّل والانتباه في القضايا الحسّيّة والقضايا التي هي بحاسّة البصر مرئيّة فوقوع الخطأ بالوهم اولى في القضايا العقليّة لانّ طرقها أخفى واحكامها معنويّة . وقد شُبّه العقل بجبلٍ عالٍ عزيز المنال وكلّ مَن قصد الصعود اليه والارتقآء عليه لا يصعدهُ الّا من طريقٍ واحدة منها يوصل منهُ الى الفائدة وسلوك طريق المعاشرة مع العقلآء وذوي الآرآء والاذكيآء في العداوة والصداقة والكدورة والرباقة واللطافة والكثافة والخوف والرجآء والابتدآء والانتهآء انّما هو من بابٍ متّحد لا من طريقٍ متعدّد ولاجل هذا يا متبصّر سلوك مثل هذه الطريق معهم متيسّر لا متعوّج ولا متعسّر وراس خيط هذا الشموط بالاستقامة والصلاح مضبوط بخلاف الجهّال والخلعآء والحمقى والسفهآء فانّ أُمورهم منفرطة وافكارهم وآرآءهم غير منضبطة فتتكدّر خواطر العقلآء في تعليمهم ويعيا طبيب الفكر في تهذيب احمقهم وتاديب سفيههم وقيل :

* شعر *

انّي لآمنُ من عدوٍّ عاقلٍ * وأخاف خلًّا يعتريهِ جنونُ

والعقل فنٌّ واحدٌ وطريقهُ * أدرى وارصد والجنون فنونُ

ولهذا قيل : معاداة العاقل خيرٌ من مصافاة الجاهل . ثمّ قالت غرغرة في اثنآء هذه القرقرة : وأمّا ما ذكرتَ من البيان من مفارقة الاوطان وترك هذا المكان أما سمعتَ انّ حبّ الوطن من الايمان وانّهُ فتّان وقد الفنا وطننا وحبّه وقلع أصول محبّته من قلوبنا صعبه

وهو في معزلٍ عن طرق الجوارح ومكمنٍ عن السوانح والبوارح وانّما
تعرض لاولادنا تلك الآفة من تراكم العساكر المصافة وما يحصل
من أقدامها من كثافة وانا اخاف ان انتقلنا من هذا الوطن
يخرج من ايدينا هذا السكن ولا نحصل على ماوى يليق او لا
توافقنا الغربة او يمنع مانع في الطريق فنقصد الربح فيذهب راس
المال فنخسر ما في ايدينا في الحال ولا يحصل المأمول في الاستقبال
وكيف وهو مسقط راسنا ومحلّ انسنا واناسنا فالاولى بنا الرضا
والانقياد لاوامر ربّ الخلاء والفضا وملازمة الوطن القديم والسكون
تحت يد العزيز العليم وقد قيل: انّما يشفى العليل اذا ترك مشتهيات
نفسه وقيّد متمنّياته في قيد حبسه ولا بدّ للمريد من ترك المراد
وللقانع من قطع النظر عن الازدياد والحريّة في رفض الشهوات
وكلّ ما هو آتٍ آت . وامّا وقائع الاولاد وحصول الانكاد وما يقع
منها بسببهم في كلّ أوان فنحسبها احدى ما يحدث لنا من نوائب
الزمان ونحن بل كلّ المخلوقات عرضةٌ للنوائب والآفات وطعمةٌ
لسنابك الخيول ونهبةٌ لحوادث الدهور ولو انتقلنا عن وطننا وتحوّلنا
عن سكنتا وبعدنا عن هذا الجانب ونزحنا عن الأهل والاقارب
وجاورنا الاباعد والاجانب لا يطيب لنا مقام وتتكدّر أوقاتنا
على مرّ الايام فلا نزال بين تذكّرٍ للوطن المألوف وتحنّنٍ الى
الصاحب المعروف فيسهل عند هذه الانكال مفارقة الاطفال .
ثمّ اعلم ايّها الصاحب الاعظم انّه لو تيسّر لنا مع الانتقال انتظام

الامور واستقامة الاحوال وحُفظت الاولاد وزالت الانكاد وصفا
الوقت وزال المقت فانّ الخاطر يشتغل ونار القلب بسببهم
تشتعل فانّهُ من حين وجود الولد يتقيّد بتعهّدهِ القلب والجسد
وتُصرف الهمّة الى القيام بمصالح معاشهِ الى حين ترعرعهِ وارتياشهِ
ويزداد القلب تعلّقًا بمحبّته ويتقيّد الخاطر بالالتفات الى عمل مصلحته
ويتضاعف ذلك يومًا فيوما وشهرًا فشهرًا وعامًا فعاما فانّ نابهُ
والعياذ بالله نوع ألمٍ او اصابهُ ضرٌّ او سقم التهبت عليه الجوارح
وانقلبت الهموم على القلب والجوانح فانّ آل ذلك الى موت واستحال
وجودهُ الى عدمٍ وفوت فهو المصيبة العظمى والطامة الكبرى
وانّ سلم من هذه العاهات وبلغ من الادراك سالمًا من الآفات
ونجا الى برّ الشباب من بحر المخافات ازدادت كلفتهُ وتضاعفت
مؤنتهُ وركب والداهُ في ذلك كلّ صعبٍ وذلول وذهبا من مسالك
الكدّ والكدح في كلّ عرضٍ وطول وتحمّلا انواع المشاق والاثام
وارتكبا فيما اكتسبا أصنافًا من الحلال والحرام وهذا اذا كان مطيعا
ولاوامرهما منقادًا سميعا وامّا اذا ركب جموح العقوق ونسي ما لهما
عليهِ من حقوق فهي مصيبةٌ أُخرى وداهيةٌ كبرى ويصير كما
قيل

* شعر *

ومن نكد الدنيا على الحرّ ان يرى * عدوًّا لهُ ما من صداقته بدّ

وعلى كلّ تقدير وانتَ بهذا خبير وبدقائقهِ عليم انّ الأولاد
بين الابوين وبين الآخرة سدٌّ عظيم ما يُخلص مع الالتفات اليهم

لله طاعة ولا على الانقطاع منهم الى طريق الآخرة استطاعة فاسمع هذا الكلام باذن التحقيق واسلك في سير معانيه أوضح طريق وحقق ياذا الارشاد انّ وجود الاولاد عند ذوي البصيرة من النقاد نقدٌ مزيّف ومتاعٌ مزخرف وسمٌّ تحت حلوى وسرورٌ فوق بلوى وعاريةٌ مردودة بعد اوقاتٍ معدودة وايّامٌ محدودة بل لعبةٌ من خشب مموّهةٌ بالذهب وطلآءٌ من نضار على كوبٍ من فخار وقد نبّه على هذا ربّ العباد بقوله (انّما الحيوة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الاموال والاولاد . وكما انّ الاطفال الصغار الغافلين عن دقائق الاسرار اذا نظروا الى اللعبة المزيّنة والخشبيات المصبغة المستحسنة التهوا بها عن اكتساب الآداب وملازمة العلمآء والشيوخ والكتّاب فيبلغون وهم جاهلون وعن طرق اكتساب الكمال ذاهلون ويشيبون وهم أحداث ويتصوّرون أنّهم طاهرون وهم أخباث كذلك كلّ مَن التفت الى غير الله خاطرهُ والتهت بامور الدنيا من المال والولد سرائرهُ وضمائرهُ وحُرم من الاطّلاع على دقائق الملك والملكوت وفاتهُ لذّات الوقوف على دقائق الرغبوت والرهبوت فهو عن الله تعالى محجوب وفي عساكر الاموات وان كان محسوب كما قيل *

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لاهلهِ * وأجسادهم دون القبور قبور
وانّ امرءً لم يحيي بالعلم قلبهُ * فليس لهُ حتى النشور نشور

واذا علمتَ هذا وحقّقتهُ وحرّرتهُ وصدّقتهُ فاعلم انّ الأولى بحالنا

والاحسن للنظر في مآلنا ان نعدّ ما نحن فيهِ من جملة النعم وان لا ننقل عن دائرة الرضا والتسليم قدمًا عن قدم وننظر ما يتولّد من حوادث الزمان ولا نرخي في ميدان الطمع العنان ونعرض على جامح الخاطر ما قال الشاعر * شعر *

كم نار باديةٍ شبّت لغير قرى * على بقاعٍ وكم نورٍ بلا ثمـــر
هوّن عليك امورًا انتَ تنكرها * فالدهر ياتي بانواعٍ من العـــبر

قال النجدي : جميع هذا المقول صادر من موارد المعقول موافقٌ لما ورد بهِ المنقول لقد غصتَ في بحر الفطنة على جواهر الحكمة فما تركتَ في ميدان المسائل مقالًا لقائلٍ ولا مجالًا لجائل ولكن لا ينبغي للعاقل ان يغفل عن حوادث الدهر ولا يسند ظهرهُ لكواذب العصر فانّ طوارق الآفات وخوارق العادات ومحن الزمان وفتن الدوران محتجبةً ورآء استار ومستورةً في انواع اطوار ولم يعهد من الدهر الخوّن والزمان المجون اذا استقام او قزل اوجدّ اوهزل او امر بنازلٍ فنزل او ولّى او عزل او اقبل او اعتزل او نقض او غزل أنّ يُرسل قبل ذلك منذرا او مبصرًا او محذّرا ليستيقظ النائم او ينهض الجاثم او يتحرّك القائم وانّما يحطم بغته ويهجم في سكته ويأخذ على بهتة فلا يُفلت منهُ فلتة ولا يمهل الى لحظة ولا لفتة وقد قيل * شعر *

يا راقد الليل مسرورًا بأوّله * انّ الحوادث قد يطرقن اسحارا
لا تركنن الى ليلٍ طاب أوّلهُ * فربّ آخر ليلٍ أوقـــد النارا

وعلى هذا لو وقع منّا غفلةٌ أو ذهول عند قدوم هذا الجيش المهول فاخترم والعياذ بالله واحدًا منّا ونحن احسن ما نكون سكونًا وأمنا فكيف ترين يبقى حال الآخر وهل يصير الّا كما قال الشاعر

* شعر *

ما حال مَن كان لهُ واحد * يؤخذ منهُ ذلك الواحد

واذا بقي احدنا منفردا وانعزل متوحّدا ما يفيدهُ الوطن والجيران والسكن وهل تفي لذّة وصال ألفي سنة بألم فراق تلك الساعة الخشنة كما قيل * شعر *

ان كان فراقنا على التحقيق * هذي كبدي أحق بالتمزيق
لو دام لنا الوصال ألفي سنة * ما كان يفي بساعة التفريق

وكلّ مَن لم يفتكر في العواقب قبل حلولها ويتأمّل في تداركها بقدر الطاقة قبل نزولها ويطمئنّ الى سكون الزمان ويسند ظهرهُ الى مسند الحدثان كان كمَن ترك احدى زاملتيه فارغة وحشا الاخرى من الاحجار الثقيلة الدامغة فانّى يستقيم محمله او يبلغ منزله فلا يزال حمله مائلا وخطبهُ هائلا فالعاقل يسعى فيما يظنّ نفعه ويبلغ في ذلك غاية جهده ووسعه ولا يترك الطلب ولا يغفل عن السبب . وعلى كلّ حال يا ربّة الحجال تعاطي الاسباب لا يقدح في الاتّكال وناهيك يا مليحة العمل حكاية الحمار

مع الجمل * فسالت غرغره ان يبيّن ذلك ويذكره *

قال : بلغني انهّ ترافق في المسير حمارٌ مع بعير فكان الحمار كثير العثار مع أنّ عينيه تراقب مواطئ رجليه وكان الجمل مع عظم هامته وعلوّ قامته وبُعد عينيه عن مواطئ يديه ورجليه لا تزلّ لهُ قدم ولا يصل اليه ألم * فقال الحمار للبعير ايّها الرفيق الكبير: ما بالي في المسير كثير التعثير دائم الوقوع والزلل والعثار والخطل لا اخلو من حجرٍ يدمي منّي الحافر او عثرةٍ ترميني في حفرة حافر مع انّ عينيّ تراقب يديّ ولا تنظر سواهما الى شيّ وانتَ لا تنظر مواطئ اخفافك ولا تعرف على ماذا تقع رؤوس اطرافك لا حجر يصيب خفّك ولا شوكةٌ تخرق كفّك ولا جورةٌ تقع فيها ولا تختل عن طريق تمشيها ولا ادري هذا ممّاذا * قال ابو صابر يا اخي نظرك قاصر وفكرك غير باصر لا تراقب ما بين يديك ولا تنظر ما امامك أَلك ام عليك فاذا دهمك ما دهاك عجز عنهُ نُهاك فلا تشعر الّا وقد وقعت وانخرق ما رقّعت فلا يمكنك التدارك والتلاف الّا وانتَ رهين التلاف وامّا انا فاراقب ما يصير من العواقب وانظر امامي الطريق على بعد فاميّز المسلوك من قبل ومن بعد فلا اصل الى صعبٍ الّا وقد اذللته ولا الى وعرٍ الّا وقد سهّلته ولا الى وهدٍ الّا وقد عرفت طريقها ولا الى عقبةٍ الّا وقد كشفت

واسعها ومضيقها فاستعدّ للامر قبل نزوله وأتأهّب للخطب
قبل حلوله واحتال لقطعه قبل وصوله واحلّه قبل أنْ
يُعقد واقيمه دون أنْ يُقعد وهذه قاعدة للفقهآء واصل كبيرٌ
للحكمآء من العلمآء انّهم قالوا انّ الدفع أهون من الرفع ومن
كلام الالبّآء واصول حذاق الاطبآء قوله * شعر *

الطبّ حفظ صحّة برؤ مرض * من سبب في بدنٍ اذا عرض

وانّما اوردتُ هذا المثل عن الحمار والجمل لتعلمي يا ستّ
الحجل انّه لابدّ لنا من اخذ الاهبة قبل النكبة فما كلّ مرّة
تسلم الجرّة وقد قرب وقت وضع البيض وبعده يدهمنا من
سيل العسكر الفيض فلا بدّ من اعمال الفكر المصيب في
وجه الخلاص من هذا الامر العصيب كما قيل

(مهّد لنفسك قبل النوم مضطجعا)

قالت غرغرة الحكيمة المدبّرة : جميع هذه الاخبار لا تخلو عن
دقيق الانظار وتحقيق مصيب الافكار وغامض معاني الاسرار
وكلّ عاقلٍ يقبله ويُقبّل يديه ويمتثله ويُقبل عليه وكلّ
فكرٍ مصيب يجثو للاقتباس بين يديه ولكن طلّاب الاغراض
الدنيويّة والمسارعون الى نيل المرادات والامنيّة على فرقٍ
شتّى وانا افصّلها حتما حتّى منهم مَن يبلغ الآمال بقوّة الجند
وبذل الاموال ومنهم مَن بفضله وفضيلته وعلمه وقريحته
يساعده الدهر ويعاضده معاون العصر فيقوم معه كلّ كبير

وينهض له كلّ صغير كما قيل * شعر *

واذا اراد الله نصرة عبده * كانت له اعدآؤه انصارا

فلا يحتاج الى كبير سعي ولا في استماع النصيحة ونفعها وعي
بل يصل الى قصده بدون كدّ وبغير جهد وجدّ فمهما
فعل أنجح ومهما قصد افلح وحيثما توجّه أربح وأينما مال
أُرجح . ومنهم مَن يحتاج الى جهدٍ جهيد وسعيٍ مديد وكدٍّ
طويلٍ عريض وجدٍّ عريض غير غريض مع مساعدٍ ناصح
ومعاونٍ صالح وتعاطي اسباب وقرع ابواب وفكرٍ دقيق
ومسعدٍ رفيق حتّى يبلغ مرادهُ ويصل الى ما ارادهُ . ومنهم
مَن تغلب عليه العجلة والطمع وشدّة الحرص والهلع فيسارع
الى نيل ما يرومه فيلقيه في هوّة الحرمان حرصهُ وشومه فيقع
من التعب والنصب في هوّة ويُحرم لكونه اعتمد على ماله
من حولٍ وقوّة فيصير كما قيل : * شعر *

الحرص فوّتني دهري فوائده * فكلّما زدتُ حرصًا زاد تفويتا

ومنهم مَن يتمنّى ثمّ يتكاسل ويرجو ويترقّب ويتساهل فيُحرم
مقصده ويردّ عجزه عن مراده يده وقد قيل في المثل تزوّج
التواني بنت الكسل فأولد الزوجان الفقر والحرمان * فانظر
يا ذا الركون والوقار والسكون نحن من ايّ هذه الفرق نكون
وانت تعلم انّا لا نقدر على مقاومة العقاب ولا أنْ ندفع
عن انفسنا ما يُنزل بنا من عقاب فانّه اذا طار العقاب يبلغ

الثريّا والحساب ونحن اذا تحرّكنا في الهوا فلا نقدر ان نرتفع عن وجهِ الثرى وقد قيل في المثل كما ترى اين الثريّا من الثرى وقيل مَن تعلّق بخصمٍ هو اقوى منهُ فقد سعى في هلاك نفسهِ برجلهِ ووضع تراب الدمار على راسهِ بيدهِ وكنتُ يا بدري انشدتكِ من شعري * شعر *

وَمن يتشبّث في العداوة كفّهُ * باكبر منهُ فهو لا شكّ هالك

وكان مثلهُ مثل النملة الخفيفة التي نبتت لها اجنحةٌ ضعيفة فتحرّكها دواعي الطيران فتتصوّر انّها صارت كالنسور والعقبان فبمجرّد ما ترتفع عن الثرى الى الهوا التقمها عصفور او خطفها اصغر الطيور ولهذا قيل * شعر *

اذا ما اراد الله اهلاك نملـــة * اطال جناحيها فسيقت الى العطب

ونحن ما لنا اطّلاع على مكامن الغيب فنزّه نفسك عن هواجس الريب وليس لنا مساعد من الاقارب والاباعد ولا لنا مال ولا خيل ولا رجال ونحن اقلّ من أنْ يساعدنا زمان او يعيننا على العقاب اعوان فلم يبقَ الّا الركون والاتكال على حركات السكون فماذا ندري غدا ماذا يكون . واعلم أنّ حركاتنا مع العقاب والجامع لنا معهُ من الاسباب متّحدة في الحقيقة وطريقتنا معهُ من جنس مالهُ من طريقة. وهي الطيريّة وكلّنا فيها سويّة وهو منها كاعجاز القران من الفصاحة في الطرق الاعلى ونحن منها كاصوات الحيوان في الطرق

الادنى فالاولى بحالنا الاصطبار الى ان يصل لكسرنا من عالم الغيب انجبار كما قيل * شعر *

الامر يحدث بعدهُ الامر * والعسر مقترنٌ بهِ اليسر
وحلاوة الصبيان من عسل * تلهي وانّ حلاوتي الصبر
والصبر يعقب بعدهُ شكرٌ * من نعمةٍ تاتيك او اجر

فقال الذكر هذا الفكر من الصواب قريب وسهمها عند اولي البصائر والتجارب مصيب ولكن مَن يتكفّل بوفآء العمر الغدّار والايصال الى الاوطار ويقوم بالامن من حوادث الليل والنهار وأنسيتِ انشادي في الوادي يا زين النادي وجمال الحاضر والبادي * شعر *

لئن بادرتُ في تسليم روحي * اتاني من ورآئي مَن يعوق
وان اسرعتُ نحو الوصل عذرًا * فعمري من ورا ظهري يسوق

ثم قال النجدي والرأي السديد عندي والذي اعيدهُ فيهِ وابدي ان نتوجّه الى حضرة العقاب ونكشف عن وجهِ مرادنا لديهِ النقاب ونطلب منهُ الامان من عوادي الدهر ونكبات الزمان ونستظلّ بجناح عاطفتهِ وننتظم في سلك جماعتهِ وخدمتهِ فانّهُ ملك الطيور وبيدهِ ازمة الجمهور وهو وان كان سلطان الجوارح والكواسر وشيمتهُ سفك الدمآء والتمزيق بمخاليبهِ النواسر لكنّهُ ملك عالي الهمّة ومن شيم الملوك الشفقة والرحمة ولا تقتضي همّتهُ العالية الّا الشفقة

الوافية خصوصًا على مَن يرتمي لديهِ وينتمي اليهِ ولا تدعهُ شيمتهُ الابيّة وهمّتهُ العالية الحميّة وشمائلهُ الشهمة الملوكيّة ان يتعرّض الينا بضرر او ان يطير الينا منهُ شرر * قالت غرغرة بعد الاستغراب في الكركرة العجب كلّ العجب من رايك المنتخب انّك تخلط منهُ الغث بالسمين وتسوق فيهِ الهجان مع الهجين فتارةً تصيب حدقة الغرض واخرى تصرف السهم عرض فتصير كما قيل * شعر *

تلوّنتِ حتى لَستُ أدري مَن الهوَى * أريحُ جنوبٍ انتِ أم ريحُ شمألِ

هذه المصائب التي نشكوها والنوائب التي نقرا سورها ونتلوها هل هي غير ما نقاسيهِ من العذاب ونعانيهِ من أليم العقاب في لحظةٍ من ملاقاة عسكر العقاب ثمّ انّك انتَ تحرّكت في آرائك وسكنت وشرقتَ في افكارك وغربت وتباعدتَ وتقرّبت وارتفعتَ وحططت وامتنعتَ وسقطت وجُلتَ وحمت وقعدتَ وقمت ثمّ أسفر رأيك السديد وفكرك الرشيد وأمرك السعيد عن أنْ تجرّنا بسلاسل الحديد الى العذاب الشديد وتخلّدنا فيهِ الدهر المديد ولا والله بل تريد ان نمشي بأرجلنا الى الشبكة ونلقي بايدينا انفُسنا الى التهلكة وقد اشبهتَ في هذه الحركة مالك الحزين والسمكة فقال النجدي لابنة السعدي اريحي وغنّي

(شكوى الجريح الى العقبان والرخم)

فقالت لهُ أزِل الغصّة بقصّ هذه القصّة * فقال : كان في بعض المروج من قرى سروج نهرٌ كثير الحيتان شديد الجريان وفي مكانٍ منهُ مصون مأوًى لمالك الحزين البلشون . فكان يتصرّف في السمك تصرّف المالك فيما ملك قضى في ذلك عمره وزجى اوقاتهِ في طيب عيشٍ ومسرّة الى ان ادركهُ المشيب ورحل عنهُ العمر القشيب وكساهُ خيّاط الدهر دلق ومن نعمرهُ ننكسهُ في الخلق وراي من الكبر اصناف العبر الى ان ضعفت قوّتهُ عن الاصطياد وجرى عليهِ من الالآم والانكاد فصار يمرّ عليهِ برهة من الاوقات وهو عاجزٌ عن تحصيل الاقوات فتوجّه في بعض الاحيان وقد علتهُ كآبة الاحزان ووقف على النهر متفكرًا في تصرّفات الدهر فمرّت بهِ سمكة لطيفة الحركة فراتهُ في ذلّ الانكسار سابحًا في بحر الافتكار ولا قدرة لهُ ولا حركة ولا نهضة لاختطاف السمكة فلم يلتفت اليها ولا عوّل عليها وقد أوطاتهُ الحوادث اقدام الهموم الكوارث وبدّل ربيع شبابهِ بخريف الهرم وحرارة حربهِ ببرودة السلم فوقفت لديهِ وسلّمت عليهِ وسألتهُ عن موجب تفكّره وسبب تحزّنه وتحيّره . فقال : تفكّرتُ ما مضى من الزمان الناظر وما تقضّى فيهِ من طيب العيش وانشراح الخاطر وقد تبدّل وجودهُ بالعدم ولم يحصل من ذلك سوى الذنوب والندم وقد وهنت العظام واستولى على الجسد السقام وتزلزلت اركان الاعضاء وتراكمت فنون الادواء واشتعل الشيب واتقد

وحرّ الآلام وقد * شعر *

عزمتُ على اخلآء جسمي روحهُ * من حرق شيبٍ كلّ عنهُ الراقع
قلتُ اسكنيه يا عمّارة عمـــرهِ * قالت فكيف وبيت جسمك واقع

ثمّ قال ولم أفق من هذه السكرة ولا وقعتُ في هذه الفكرة الا وسفينة العمر بالساحل قد أرست وأصيل شمس العيش على قلّة الفنآء امست فما امكنني الا التلافي بالتوبة والندم قبل حلول نوائب الاجل وزلّة القدم والتطهّر من جناية المظالم بمياه الاستعبار والالتجآء الى جانب الحق بالالظاظ في الاستغفار وغسل أوساخ الذنوب والمظالم بدموع الانابة والاعتذار * شعر *

وما أقبح التفريط في زمن الصبا * فكيف بهِ والشيب للرأس شامل

فاعلمي انّ جامح هواي قلع ضرس الآمال والطمع وجارح متمنّاي نزع خوافي الشره والهلع وقد قدمتُ الى هذا المكان لا تحلّل من الاسماك والحيتان فانّي طالما أغرتُ على عشائرهم وأولادهم وخضتُ في دمآء قلوبهم واكبادهم وشتّتُ شملهم وخوّفت جلّهم وقلّهم وأرغبتهم وأرهبتهم وأقلقتهم وفرّقتُهم وغرّبتهم وبالدمـآء شرّقتهم فرأيتُ برآءة الذمّة في الاولى اولى والمبادرة بالتوبة قبل المصير الى الاخرى أحرى فلعلّ احمال الذنوب تخفّ وسحائب الغفران تكفّ * فلمّا سمعت السمكة هذه الخديعة ووعت بما فيها من حركةٍ بديعة تشرّبتها اضلاعها ودعاها انخداعها الى أن قالت فما ترى ايّها العبد الصالح أن أتعاطاهُ من المصالح ، فقال :

أبلغي السماك هذا الكلام بعد ابلاغ التحيّة والسلام وان يكون القوم من بعد اليوم آمنين من سطواتي سالمين من حملاتي ساكنين الى حركاتي بحيث تنجلي الظلما ويعود بيننا الحرب سلما وينام السمك في الما * قالت لا بدّ من أخذ العهود على الوفآء بهذه العقود وأقلّها المصافحة على المصالحة ثمّ تاكيد الايمان بخالق الانس والجان ولكن كيف اصافيك وانا طعمتك وانى اتخلّص من فيك اذا وضعتَ فيهِ لقمتك * قال لها : ابرمي هذا العلف واربطي بهِ حنكي لتأمني التلف فاخذت قبضةً من الحشيش وفتلت والى ربط فكّهِ أقبلت فعندما مدّ منشارهُ الى المآء وقربت منهُ السمكة العميآء لم يفتر ان اقتلعها ثمّ ابتلعها * وانّما اوردتُ هذه اللطيفة يا ذا الحركات الظريفة لتعلم أنّ قربنا من العقاب القى بنا انفسنا الى أليم العقاب واين غرب عنك نهاك حتّى تسعى بنا الى عين الهلاك ونحن قوت العقاب وغذآؤهُ ولدآء جوعهِ شفآؤهُ ودوآؤهُ وهل يُركن الى العقاب ويؤمَن منهُ ضرب الرقاب وقد قيل * شعر *

أنفاسهُ كذبٌ وحشو ضميرهِ * دغلٌ وقربتهُ سقام الروح

* وقد قيل *

انهاك انهاك لا الوك معذرةً * عن نومةٍ بين ناب الليث والظفر

قال النجدي اسلمي يا قرينة الخير واعلمي انّ الريح وقت الربيع تكسو اكناف الاشجار من أنواع الازهار ووجه الصحارى والقفار

من انوار الانوار ما يدهش البصائر ويروق الابصار وينعش الاجسام ويشفي الاسقام ويبرّد الغليل ويبرئ العليل لاسيّما وقت السحر ونسيم الصبا في ضوء القمر يربّي القلب والروح ويحيي الصبّ المجروح وكذلك المعرّفات النشر واللواقح والمعطّرات بطيب الروائح . وفي المصيف الحرور العسيف والسموم العصيف المذيب المذيف وفي الشتاء وايّام الخريف الصرصر المخيف يصفّر اللون ويغيّر الكون ويعرّي الاشجار ويسقط الثمار ويثير الغبار وربّما كانت اعصارًا فيه نار وتسقم الصحيح وتطيّر الهشيم في الريح . ومنها الاعجاز الموحشات والايّام النحسات والقواصف والعواصف والحواصب والحراجف والصرصر والنكباء والزعزع والرخاء * ثمّ اعلمي يا ربّة الجمال وفتنة الرجال انّ النار تحرق مَن يقربها وتُذهب ما يصحبها وتنشف الطراوة وتشوّه الطلاوة وتلتقم ما تجدهُ وتلتهمهُ وتزدردهُ وتسوّد بدخانها وتؤلم الاجساد بقربانها وتمحو الآثار وتهدم الديار مع انّها تنضج الاطعمة وتصلح الاغذية وتهدي النور وتدفئ المقرور وترشد الضلال في القفار ورؤس الجبال * وكذلك الما يا ذات الثغر الالمى يُذهب الظما ويجلب النما ويبرّد الصدور ويطفئ الحرور ويُنبت الزروع ويدرّ الضروع ويحمل المراكب وما فيها من مركوبٍ وراكب . واذا طفت المياه والعياذ بالله أُغرقت المراكب وحفظت الراجل والراكب واقتلعت الاشجار واقتطعت الاحجار واتلفت الزروع

والثمار . وان تراكمت الامطار قطعت سبل الاقطار وهدمت الديار وردمت الابآر وسل عن ذلك ملابس الاسفار ومجالس الرتب من اهل الامصار . واذا تكاثف الرشّ غرقت مصر واذى اهلها العطش ونعوذ بالله من هجوم السيل في ظلام الليل * وكذلك التراب يا زين الاحباب ينبت الحصرم والعنب والتمر والحطب والشوك والرطب ويشرع سنان الشوك المحدّد وغصون السهم المسدّد ويربّي الورد والازهار والرياحين والانوار والاقوات والثمار والرياض الناضره والغياض الخضره . ثمّ اذا ثار وهاج الغبار خرج من تحت الحوافر فاعمى النواظر ففيه الحلو والمرّ والزوان والبرّ والناعم والخشن والقبيح والحسن والارض مهاد وفراش وفيها اسباب المعاش وهذه المضرّة والمنفعة مركّبة في هذه العناصر الاربعة التي هي اصل الكائنات وسنخ ما نشاهده من المخلوقات * واذا كان ذلك كذلك وقاك الله شرّ المهالك وأوضح لك المسالك فاعلمي بالتحقيق يا صاحبة الثغر العقيق انّ هذا الملك الاعظم بل كلّ اولاد بني آدم مركّبون من الرضا والغضب والحلم والصخب والرفع والحطّ والقبض والبسط والقهر واللطف والظرافة والعنف والخشونة واللين والتحريك والتسكين والبخل والسخاء والشدّة والرخاء والوفاء والجفاء والكدورة والصفاء * واعلمي يا نعم العون وقرينة الصون انّ هذا الكون سرورهُ في شروره مندمج ووروده في صدوره مندرج وصفاؤهُ مع كدره مزدرج وجفاؤهُ بوفائه ممتزج

فيمكن انّ العقاب لكونهِ ملكاً مالك الرقاب مع وجود هيبتهِ القاهرة وسطوتهِ الباهرة وخلقهِ الشرس الصعب الشكس اذا رأى ضعفنا وذلّنا وانكسارنا وقلّنا وترامينا لديه وتعوّلنا عليهِ يضمّنا الى جناح عاطفتهِ ويسبل علينا خوافي مرحمتهِ ويعاملنا بالالطاف ويسمح لنا بالاسعاف دون الاعساف ويعمل بموجب ما قيل

* شعر *

لكلّ كريمٍ عادةٌ يستعدّها * وانت لكلّ المكرمات امام

والقادر على الكسر والجبر لا سيّما اذا كان من ذوي النباهة والقدر لا يعامل ذوي الكسر بالكسر لانّا في مقام الابناء وهو في مقام الابوة والتقوّي على الضعيف ضعفٌ في القوّة وقالوا المصغّر لا يصغر وسجدة السهو لا تتكرر * قالت غرغرة ذات التبصرة هذا وان كان داخلاً في حيز الامكان لكن اخاف ياذا الالطاف انّا بمجرّد الوقوف بين يديهِ في الصفوف لا تُمهل لاداء الكلام ولا للثبات في المقام بل نُعامل بالتمزيق والتخريق وننحر بعد في الطريق فتهوي بنا خواطف الطير في مكانٍ سحيق فيفوتنا هذا المطلب اذ قيل الطبع اغلب وهذا اذا وصلنا اليهِ وتمثّلنا بين يديهِ . واما اذا اعترضنا دونهُ عارض وجرحنا من جوارح الطير معارض ولا حول يحمينا ولا قوّةٌ تنجّينا فينتف رشينا كلّ باغ ويتجاذب لحمنا كلّ طاغ . فيصير مثلنا مثل النمس والزاغ * فسأل اليعقوب

تلك الرقوب كيف هذا المثل أخبريني يا ستّ الحجل *

قالت : كان في بعض البساتين العاطرة والرياض الناظرة مأوى زاغ ظريف حسن الشكل لطيف في رأس شجرة عالية أغصانها سامية وقطوفها دانية . فاتّفق لنمسٍ من النموس في وكرهِ ضررٌ وبوس فانزعج عن وطنهِ واحتاج الى مفارقة سكنهِ فقادهُ الزمان الى هذا المكان فرافقهُ منظرهُ وشامهُ نورهُ وزهرهُ وأعجبهُ ظلّهُ وثمرهُ وأطربهُ بخريرهِ نهرهُ فعزم على السكن فيهِ وتوطّن الى ان يتوطّن في نواحيهِ اذ رآهُ أحسن منزل واذا أعشبت فانزل ووقع اختيار ذلك الطاغ على وكرٍ في اصل شجرة الزاغ فسوّى لهُ وكراً وحفره في أصل تلك الشجرة والقى عصا التسيار واستقرّت بهِ هناك الدار * فلمّا رأى الزاغ هذه الحال داخلهُ الهمّ والاوجال وخشيَ ان يتدرّج من ادناها ويتدحرج الى أعلاها وينشد الاصحاب في هذا الباب

* شعر *

ولمّا مضّني الشوق * الى نحو ابي طوق

تدحرجتُ ولكنّي * من تحت الى فوق

فيصل الى وطنهِ القديم ويذيقهُ العذاب الاليم فليس لهُ خلاص من هذا الاقتناص الا مفارقة الوطن والانزعاج بالتحوّل عن السكن وكيف يفارق ذلك النعيم ويسمح بالبعد عن الوطن القديم وهو كما قيل

* شعر *

بلادٌ بها نيطت عليّ تمايمي * وأوّل ارضٍ مسّ جلدي ترابها

فغلبت محبّة وطنه على قلبه ولم يطاوعه على فراقه لشدّة حبّه . ثمّ اعتراهُ في ذلك الوسواس واخذ يضرب اخماسًا لاسداس في وجه الخلاص من هذا الباس فرأى المدافعة أولى والممانعة عن جوارحه لخاطره اجلى . ثمّ افتكر في كيفيّة المدافعة وسلوك طريق الممانعة فلم يرَ اوفق من المصانعة وتعاطي اسباب المخادعة ليقف بذلك اوّلًا على حقيقة امره ويعرف معيار خيره وشرّه ويصل الى مقدار قوّته وضعفه ورصانة عقله وفهمه وسخفه ويسبر حالتي غضبه ورضاهُ ويدرك غور احواله ومنتهاهُ ثمّ يبني على ذلك اساس دفعه وهدم ما يبنيه من قلعته لقلعه . فهبط الى النمس من الهوآء وحفظ شيئًا وغابت عنهُ اشيآء وسلّم عليه سلام المحبّ على الحبيب وجلس منهُ بمكانٍ قريب وخاطبه خطاب ناصح لا مريب وابتهج بجواره واستأنس بقرب داره وذكر لهُ انّهُ كان وحيدا وعن الجليس الصالح والانيس الناصح فريدا وقد حصل لهُ الانس بمجاورة النمس وانّهُ صدق مَن قال في هذا المقال

* شعر *

انفراد المرء خيرٌ * من جليس السوء عنكَ

وجليس الخير خيرٌ * من جلوس المرء وحدَهُ .

فاستمع النمس حديث الزاغ وما طغى بصر بصيرته عن مكائده وما زاغ . ثمّ افتكر في نفسه ونظر في مرآة حدسه فرای

انّ هذا الطير الخبيث السيرة مشهور وبسوء السريرة مذكور لا اصلهُ زكيّ ولا فرعه عليّ ولا غائلتهُ مأمونة ولا صحبتهُ ميمونة ولا خيرٌ عندهُ ولا مير بل يخشى منهُ الضرر والضير وكانّهُ فيه قيل

* شعر *

وهو غراب البين في شومه * لكن اذا جئنا الى الحق زاغ .

ولم يكن بيننا وبينه قطّ علاقه ولا واسطة محبّةٍ ولا صداقة وامّا العداوة فانّها مستحكمة وكلّ منّا للآخر ماكلةً ومطعمة ولا اشكّ انّه انّما قصد طريقة سوءٍ ومكيدة نكد فإنْ اضعتُ فيه الفرصة اطلتُ الغصّة ووقعتُ من الندامة في قصّةٍ وحصّة ولا يفيدني اذ ذاك الندم انّى وقد فات المطلوب وزلّت القدم (وأَحزم الحزم سوءُ الظنّ بالناس)

فالذي يقتضيه الحزم والرأي السديد والعزم القبض عليه الى ان يظهر ما لديه ثمّ وثب من مربضه وأَنشب في الزاغ مخاليب مقبضه وقبضه قبضة اعمى لا كالقابض على الما * فلمّا رای الزاغ هذا النكد وانّهُ قد صار كالفريسة في مخاليب الاسد ناداهُ يا كريم الخير ويا ايّها الجار الحليم عن الضير انا رغبتُ في مصادقتك وجئتك محبًّا في موافقتك ومرافقتك واردتُ ازالة وحشتك ومؤانستك بابعاد دهشتك وحاشاك أَنْ تخيّب ظنّي فيك وتعامل بالجفآء مَن يوافيك وانشدهُ

* شعر *

وحاشاك أنْ تمشي بوجهك معرضا * وما يحسن الاعراض عن وجهك الحسن

والكرام لا يعاملون الجلساء الّا بالمؤانسة وحسن الوفاء والابقاء على خير وابعد من الضير وانا قد صرتُ جليسك وجارك وانيسك وقد قيل * شعر *

وكنتُ جليس قعقاع بن شور * ولا يشقى لقعقاع جليس

مع انّهُ لم يسبق منّي سبب عداوة ولا ما يوجب هذه الفظاظة والقساوة وهذه اوّل نظرة فما موجب هذه البدرة وما سبب هذه النفرة * قال النمس : ايُّها الزاغ الكثير الرواغ وانحس باغ وانجس طاغ اسمك ناطق انّك منافق وهو خبرٌ صادق اذ هو في الخارج للواقع مطابق ورؤيتك شاهدة انّك تنقض المعاهدة وعين منظرك دلّ على مخبرك وقد قيل * شعر *

والعين تعرف من عيني محدّثها * إنْ كان من حزبها أم من أعاديها

من اين بيننا صداقة ومتى كان بين النموس والزاغ علاقة وكيف تنعقد بيننا صحابة وأنّى يتّصل لنا مودّةً او قرابة بيّن لي كيفيّة هذا السبب ومن اين هذا الاخاء والنسب امّا انت فلي طعمة وامّا انا فلحمي لسدّ اغذآئك لحمة يسوءني ما يسرّك وينفعني ما يضرّك * شعر *

الله يعلم انّا لا نحبّكم * ولا نلومكم انْ لا تحبّونا

انا واقفٌ على ما في ضميرك وعالمٌ بسوء فكرك وتدبيرك قد اطّلعتُ منك على الهواجس كما اطّلع ذلك الماشي على ما في

خاطر ذلك الفارس * قال الزاغ : بيّن لي بلا جدل كيف هو هذا المثل *

قال النمس : ذكر رواة الاخبار ونقلة الآثار انّهُ ترافق في بعض السباسب راجلٌ وراكب وكان مع الراجل من البضائع رزمة وقد جعلها كارةً وحزمها اوثق حزمة وقد اعياهُ حملها حتّى اعجزهُ نقلها . فقال للراكب ايُّها الرفيق الصاحب لو ساعدتني ساعة بحمل هذه البضاعة لكنت ارحتني ونفّست عنّي وشرحتني * شعر *

كذي المجد يحمل اثقالهُ * قويّ العظام حمول الكاف

قال الفارس لا اكلّ فرسي ولا اتعب نفسي ونَفَسي فانّ مركوبي لم يقطع البارحة عليقهُ وانا خائفٌ أنّ لا يقطع بي طريقهُ واذا حفتُ تخلّفي في سيري فانّي اتكلّف حمل اثقال غيري * فبينا هما في هذا الكلام اذ لاح ارنب في بعض الآكام فأطلق العنان ورآء الارنب وذهب ورآءها كراي الزنادقة كلّ مذهب فوجد فرسهُ قويّة النهضة سريعة الركضة فرأى انهُ اضاع حزمه في عدم اخذ الرزمه وما ضرّهُ لو اخذها وساق وذهب الى بعض الآفاق واقام بها اوده وانتفع بها وولده وترك الماشي بلا شي ثمّ رجع بهذه النيّة الضارّة ليحمل عن الماشي الكارة وقال لهُ اعطني هذا الحمل المتعب لاريحك من حمله في هذا المذهب وابلع ريقك واقطع طريقك *

فقال لهُ : قد علمتُ بتلك النيّة وما اضمرتَ من بليّة فاتركني بحالي فلي حاجةٌ بمالي * ثمّ انّ النمس كسر الزاغ وحصل لهُ باكلهِ الفراغ * وانما اوردتُ هذا المثال لتعلم يا فحل الرجال انّ العقاب لا يؤمن ولا يقطع فيهِ بالظنّ الحسن ولا يركن الى خطفة بوارقهِ بمخاليب صواقعهِ وصواعقهِ ولا الى غوائلهِ وبوائقهِ وهذا ان سلمت شقّة حياتنا من تشقيق غواشيهِ وتخلّص برد وجودنا من تمزيق حواشيهِ وانّ بينك وبين هذا المراد خرط القتاد والموانع التي هي دون سعاد فما الوصول الى ملك الطير قريب التناول في السير ولا سهل المأخذ ولا سريع المنفذ واين الحجل من العقاب ذاك في نعائم النعيم وهذا في عقاب العقاب فتدبّر عاقبة هذا الامر وتامّل في الفرق بين التمر والجمر والظاهر عندي وما أدّى اليهِ فكري وجهدي انّ عاقبة هذه الامور ليس الّا القطوع والقصور دون الوصول الى الملك في التصور * قال الذكر لقد كرّرتُ عليكِ مرارا واسندتُ الى سمعكِ انشاءً واخبارا انّ علوّ همّة هذا الملك وفضلهُ الخالي عن شرك وكرم نجاره وأمن خادمهِ وجاره وفيض احسانهِ وبسط كرمهِ وامتنانهِ وانتشار صيت حشمتهِ واشتهار رأفتهِ ورحمتهِ لا يقتضي حرمان مَن قصده وأمّ جنابهُ واعتمده ولجا الى جناح عاطفتهِ وتشبّث بذيل ملاطفتهِ وحاشاه أنْ يصمّ مصون همّتهِ بابتذال دناءة

وتشوّه جمال وفائه لِمن ترقّق لهُ بنكتة جفاءٍ تخيّب رجاءه خصوصًا اذا راى منّي خضوع العبوديّة والقيام براسيم الخدمات الادبيّة والمقام بمراكز مراضيهِ والوقوف عند كلّ ما يعجبهُ ويرضيهِ فانّي بحمد الله تعالى اعرف مداخل الامور ومخارجها وعندي الاستعداد الكامل لصعود معارجها واعلم طرق المجاز الى حقائقها وسلوك دروبها وطرائقها فالأَولى أنْ نقتصر عن المحاورة ونكتفي بهذه المساورة في المشاورة ونتوكّل على مقلّب القلوب ونتوجّه نحو هذا المطلوب بعزمٍ شديد وحزمٍ سديد فانْ تيسّر لي ملاقاة حضرتهِ والتمثّل في مراكز خدمتهِ وحصلت لي مشاهدتهُ واتّفقت مخاطبتهُ ومعاهدتهُ أنشأتُ خطبةً تدفع الخطوب وتجمع القلوب وتؤلّف بين المحبّ والمحبوب وارجو ان تكون نافعة لمصالح الدين والدنيا جامعة فانّ كلامي في مقامي كما قيل في المثل * شعر *

فأوجز لكنّهُ لا يخلّ * وأطنب لكنّهُ لا يملّ

وآخر الامر سلّمت غرغرة زمام انقيادها اليهِ وعوّلت في عمل المصالح عليهِ . ثمّ قالت لهُ عش واسلم وتيقّن واعلم انّك اذا قصدتَ خدمة الملوك واردتَ في طريق مصاحبتهم السلوك فانّك محتاج في ذلك المنهاج الى نورٍ وسراج يهديك الى صفاتٍ جميلة وتلبّسٍ بخصائل نبيلة تتحلّى بجمالها وتتعلّى بكمالها وتتجلّى في شمائل جلالها . الاولى ان تقدّم في جميع

مصادرك ومواردك مراد الملك على جميع مقاصدك . الثانية ان تتلقّى اموره بالتعظيم وتقيم اوامره بالاحترام والتفخيم . الثالثة ان تحسّن اقواله وتزيّن افعاله بوجهٍ لا يتطرّق اليه تشويه ولا يحتاج فيه الى تنبيه . الرابعة ان تجتهد في صيانة عرضك عن الخنا وايّاك أن تقول في حضرته انا فتقع في العنا . الخامسة ان تعدّ على الدوام ومرور الايّام خدماتك الوافرة وحقوقك المتكاثرة عن حقوق نعمةٍ قاصرة . السادسة اذا وقعت منك زلّة فلا تتعدّ بها جمع القلّة بل اطلب لتلك الهفوة في الحال محوه واقصد مراحمه وعفوه فانّ الذنوب اذا تراكمت وتجمّعت وتزاحمت اشبهت المزبلة المدمنة وفاحت روائحها المنتنة والانسان غير معصوم والآدمي بالخطا موسوم . السابعة احفظ وجهك في حضرته عن التقطيب وكلامك ان يفوح منه غير الطيب . الثامنة ايّاك ومصادقة اعدآئه ومعاداة اوليائه . التاسعة كلّما زادك رفعةً وتقريبا مِل الى التواضع واعظامه تصويبا . العاشرة لا تذخر عنه نصيحة وانصحه في الخلوة لئلّا يؤدّي الى الفضيحة واذا اقامك في امر ولو انّه المشي على الجمر لا تطلب منه اجرا . ولا تبدِ لذلك ذكرا فانّ الطمع يورث العقوق والمنّ يسوّد وجه الحقوق * .واعلم انّ حضرة الملوك عظيمة ومجالسهم جسيمة تنزّه عن الكذب والغيبة والنميمة والاقوال الوخيمة والافعال الذميمة . وايّاك

ان تتعدّى القواعد الكسرويّة وتتخطّى القوانين السلطانيّة فانّ اعظمها كان ان يعرف كلّ انسان تقصير نفسه في خدمة مخدومه ويعترف له من احسانه بعمومه ويقيم واجب همّة ملكه ومقام مرسومه * قال النجدي اخبريني يا دعدي وحظّي وسعدي وابنة السعدي ومزيّنة القواعد بشيء من تلك القواعد * قالت : من القواعد الكسرويّة الدائرة بين البريّة ما وضعها بعض الملوك وحمل رعيّته فيها على السلوك وكان مشهور بالعدل والاحسان مذكور باقامة البرهان متّصفًا بالصفات الحميدة مكتنفًا بالشمائل السعيدة من الدين والعفّة وعدم الطيش والخفّة بعقلٍ راجح الكفّه والعلم الوافر والحلم العاطر وذلك انّه في بعض الايّام أمَرَ أنْ يجتمع الخواصّ والعوامّ ما بين أميرٍ ووزيرٍ وكبيرٍ وصغيرٍ وغنيٍّ وفقيرٍ وجليلٍ وحقيرٍ وعالمٍ وجاهلٍ ومفضولٍ وفاضلٍ ومذكورٍ وخاملٍ وناظرٍ وعاملٍ وحالٍ وعاطلٍ وحاكمٍ وقاضٍ وساخطٍ وراضٍ وجنديٍّ وتبعٍ واخرق وصنع ووضيعٍ وشريفٍ ولطيفٍ وكثيفٍ وثقيلٍ وخفيف وقريبٍ وبعيد ومقبولٍ وطريد وشقيٍّ وسعيد وسوقةٍ وتاجر وسفيهٍ وفاجر ودانٍ وقاصٍ وطائعٍ وعاصٍ وصالحٍ وطالح وضاحكٍ وكالح ومصيبٍ ومخطئٍ ومسرعٍ ومبطئٍ وصيّادٍ وملّاح وسيّاحٍ وسبّاح وبلديٍّ وفلّاح ومسلكٍ وسالك ومملوكٍ ومالك بحيث لا يتخلّف عن الحضور أحد ولا يعزي

في التقاعد والدَ عن ولد . ثمّ مهّد لهم في روضٍ اريضٍ ومرجٍ طويلٍ عريضٍ وتصفق مياهُ انهارهِ طربا وتتناغى بأطيبِ الالحان فصحآء اطيارهِ الخطبا وتتراقص بزهر الوقت اغصان اشجاره ويلتذّ بفواكه الجنان جاني ثمارهِ فهو كما قيل

* شعر *

يلتذّ جانيه بانعم مقطفٍ * منهُ وساكنهُ باكرم معطفٍ

والورق بين محلّقٍ في جوّهِ * طربًا ومنحطٍّ عليه مرفرفِ

وأمر بفرش ذلك المكان بالفرش الحسان من الديباج والحرير واطلق مجامر الند والعبير وبيّن لكلٍّ مقامًا معلوما ومجلسًا مقسوما وأحلّ كلًّا منهم محلّهُ واسبغ عليهم ذيل احسانهِ وظلّهُ : ثمّ امر بأنواع الاطعمة المفتخرة واصناف الملاذّ الطيّبة العطرة فأُحضرت في أواني الفضّة والنضار ووُضعت بين يدي اولئك الحضّار بحيث عمّت الجميع ووسعت الشريف والوضيع وجلس الملك في مجلس السلطنة واكتنفهُ من العساكر الميسرة والميمنة واخذ كلٌّ مكانه ورتّب اصحابهُ واعوانه . ثمّ اقام عليهم أرباب الديوان وأدخل جميعهم في دفاتر الحسبان وأمر مناديًا سيّدا يرفع بصوتهِ الندا في ذلك الجمع بحيث شملهُ من الجميع النظر والسمع يا أهل هذا المكان برز مرسوم السلطان انّ كلّ مَن هو في مرتبة من مرضاةٍ او معتبة لا يلاحظ مَن فوقه ولو انّهُ امير او سوقه بل يلاحظ حال مَن هو دونه فائزةً كانت منزلته او مغبونه فانّ

ذلك أجمع للقلوب وادعى للشكر المطلوب وأُجلب للرضا بحوادث الغيوب فانّ مَن رأى نفسهُ في مقام ونظر غيرهُ في ادنى من ذلك المقام استنام وكانت عندهُ منزلتهُ عليّة وعدّ لنفسهِ على غيرهِ مزيّة فتوطّنت نفسهُ على القنع واستقبلت بالشكر ما ورد من هلع مثال ذلك الرئيس النازل في الصدر اذا رأى مَن هو دونهُ في القدر لم يشكّ في انّ محلّهُ محلّ البدر وباقي الرؤسآء كالنجوم فلا ياخذهُ لذلك وجوم . وكذلك النائب بالنسبة الى الحاجب والدوادار بالنسبة الى البزدار والخزندار بالنسبة الى جابي الدراهم والدينار والمهتار بالنظر الى السائس والبرقدار وكذلك السائس بالنسبة الى الحارس وكاتب السرّ المرتفع بالنسبة الى المدبّر والموقع والزمّام بالنظر الى سائر الخدّام وايضًا القاضي مع الفقيه والفقيه مع التاجر النبيه والتاجر مع السوقي السفيه والغنيّ والامير بالنسبة الى المأمور والفقير وعلى هذا القياس أوضاع جميع الناس من ارباب الصنائع وجلّاب البضائع واهل المدن والقرى وذوي البيع والشرا والوهد والذرى وأولي الوضاعة والشرف من أنواع المكتسبات والحرف الى ان ينزلوا في المراتب ويتدحرجوا من اليفاع الى الحضيض في المناصب ويتعاونوا في المناصب والمناقب ويصل قدرهم ونظرهم في ذلك الى كلّ ذي فعلٍ سيّءٍ حالك كارباب العظائم وأصحاب الذنوب والجرائم فينظر المعتوب حالهُ بالنسبة الى المضروب والمشتوم حالهُ بالقياس الى حال

المكلوم والصحيح بالنسبة الى حال الجريح ويلاحظ مضروب العصي حال المسلوخ بالمقارع ومضروب المقارع أحوال مقطوع الاكارع وكذلك المقطوع بالنسبة الى مطلوب الجدوع والمصاب بالمال بالنسبة الى مصاب البدن والاعرج بالنسبة الى المقعد المزمن وكذلك العوران بالنظر الى مصاب العميان وليتأمل الناظر ما قالهُ في ذلك الشاعر * شعر *

سمعتُ أعمى مرّةً قائــــلا * يا قوم ما اصعب فقد البصر
اجابهُ اعور من خلفـــــهِ * عندي من ذلك نصف الخبر

ولتكن هذه القواعد مستمرّة العوائد بين الصادر والوارد ليعلم انّ مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد فاستمرّت هذه القوانين مستعملة غير منسيّة ولا مهملة من زمان ذلك السلطان الى هذا الزمان . وانظر ايّها الفضيل الى معنى ما قيل في هذا القبيل وهو

على كلّ حالٍ ينبغي الشكر للفتى * فكم من شرورٍ عن سرورٍ تجلّت
وكم نقمةٍ عند القياس بغيرها * ترى نعمةً فاشكر لدى كلّ نقمة

وانّما أوردتُ هذه الامثال واطلتُ النفس في بيان هذه الاحوال لتاخذ منها حظّك وتكرّرها فيما أودعتهُ حفظك وتجري بها ليلًا ونهارًا لفظك حتى تصلح لمنادمة الملك ولا يعلق بذيل مكانتك من الحسّاد مرتبك وترضى بأيّ مقام أقامك فيه وتعلم انّهُ اعلا مقامٍ ترتضيه حيث هو لك يرتضيه وتجعل مورد لسانك ومقعد جنانك في طلبك رضاهُ ما كنتُ انشدتُكَ اياهُ من

قديم الزمان وانا عليهِ الآن وهو * شعر *

وأعلى مقاماتي وأسنى وظائفي * وأحسن اسمآئي الذي انتَ ترضاهُ

فقال الذكر ما أحسن عقد هذه الدرر لقد أفصحت اذ نصحت وزيّنت بما بيّنت فجزاك الله خيرا وكفاك ضيرا فحقيقٌ عليّ ان اقتدي بآثارك واهتدي بانوارك فما أرجح ميزانك واغزر حسنك واحسانك لقد جمعتِ بين فصاحة النقل ورجاحة العقل ومزجتِ روح الحصافة ببدن الظرافة وجلوتِ صورة النصيحة في خلعة اللطافة * ثمّ انّهما توكّلا على العزيز الوهّاب وقصدا حضرة ملك الطير العقاب فواصلا السير بالسرى واستبدلا السهر بالكرى ولم يزالا في سيرٍ مجدّ وطلبٍ مكدّ بين الادلاج والدلجة مقارن حتى وصلا الى جبلٍ قارن وكان عند العقاب أحد المقرّبين من الحجّاب يؤيؤ نقيّ الجؤجؤ نقيّ البؤبؤ أحسن منظرًا من اللؤلؤ صورتهُ مسعودة وسيرتهُ محمودة وهو بين اولئك الطير مشكور الاحوال مشهور الخير وفيهِ من المعرفة والدين والعقل الرصين والراي المتين ما يصلح ان يكون بهِ مقتدى السلاطين وعندهُ من الوقوف على دقائق الامور ما فاق بهِ الجمهور وسادبهِ على سائر الطيور وكان صيتهُ قد اشتهر حتّى ملأ البدو والحضر . فترك النجدي بنت السعدي في مكان وقصد اليؤيؤ ليعرض عليهِ ما لهُ من شان فوصل الى جنابه واتى بيت مقصده من بابهِ حتّى دخل عليهِ وقبّل يديهِ وتمثّل لديهِ فتوجّه اليؤيؤ

اليهِ واشار بتقريبهِ منهُ وازال دواعي الوحشة عنهُ واقبل عليهِ
بكلّيّتهِ وزاد في اكرامهِ وتحيّتهِ وسألهُ عن محتدهِ وجرثومتهِ
وما سبب تجشّمهِ في قدومهِ ومن أين حلّ ركابهُ وما قصدهُ
وطلابهُ فانشدَ بديهًا ولم يقل ايّها مفصحًا معلنا مستعينًا
مضمّنا * شعر *

لقد قصّ ريشي الدهر عن كلّ مطلب * والهمني سعدي بانّك رائش

ففي سمري سدٌّ كهبرك مفرطٌ * وفي قصّتي طولٌ كصدك فاحش

ثمّ قال اعلم ايّها الرئيس المحتشم النفيس انّ مولدي في جبلٍ
من جبال اذربيجان في مكانٍ يظاهي الجنان ويباهي روضة
رضوان انزهُ من عنصر الشبابِ وافكه من معاقرة الاتراب
وارفهُ من منادمة الاحباب على رقيق الشراب نشأتُ فيه
مع قرينة جميلة أمينة فقضيتُ فيهِ غضّ العمر وزجيتُ فيهِ
بضّ الدهر قانعًا بما تيسّر من الرزق فارغًا عمّا في ايدي الخلق
متمسّكًا بذيل العزلة اعدّ الانفراد نعمة جزلة مكرّرًا درس
ثلاثة تجمّ النفس القرينة الصالحة والجار المؤانس . وكنتُ
من الدهر على هذا اقتصرتُ ومن لذيذ العيش على
القناعة اختصرتُ ولكن كان مأوانا ومصيفنا ومشتانا محلّ
الحوادث وممرّ العوائث والعوابث ومعبر المصائب للصيد ومورد
المواطئ عمرو وزيد فكنّا كلّما وُلد لنا مولود وتجدّد لنا بالبهجة
والابتهاج عهود حصل للعين قرّة وللروح مسرّة نقول هذا

يُبقي ذكرنا بعدنا ويُحيي آثارنا عند حلولنا لحدنا فلم يكن
أسرع من هجوم خاطف او هبوب ريح نكبة عاصف يخطفهُ من
بيننا ويجذبهُ من قلبنا وعيننا فانْ سلم من تلك المكائد وتخلّص
من سهم المصائب والمصائد حطمتهُ عساكر الملك المنصورة وملأت
الاقطار الجنود الموفورة فلا يخلو منها مكان قدم الّا وقد غصّ
بمواطئ تلك الامم فتذهب منّا قرّة العين وتُدهك غلطًا تحت
الرجلين وهذا هو البلآء الطامّ والمصاب العامّ ولابدّ منهُ في
كلّ عام فكانّهُ ايّها النبيه النبيل في شأننا قد قيل * شعر *

ايا ابن آدم لا يغررك عافية * عليك شاملة فالعمر ممدود

ما أنتَ الّا كزرعٍ عند خضرتهِ * بكلّ شيءٍ من الآفات مقصود

فانْ سلمتَ من الآفات اجمعها * فانتَ عند كمال الامر محصود

فضاق منّا لهذا الوطن فلم أرَ اوفق من مفارقة السكن والمهاجرة
من الوطن فعرضتُ على القرينة هذه الحال وأشرتُ عليها
بالارتحال وقلتُ لها المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد
فابت وكبت وشاقت في ذلك ونبت فلا زلنا نتحاور ونتشاور
ويرمي كلٌّ منّا سهم رايهِ اذ يساور حتّى لانت اخلاقها الصعبة
بعد ان ثلث ما في الجعبة . ثمّ اعطت القوس باريها وسلّمت الدار
بانيها وادركت من ملامح مقاصدي معانيها وسمحت بالانتقال
من تلك البلاد وسلّمت الى يد تدبيري زمام الانقياد فرحلنا
من شقّةٍ بعيدة وقاسينا شدّةً شديدة وقصدنا هذا الحرم اذ رايناهُ

مشتملاً على اللطف والكرم وقطعنا شباك مصائد وخلصنا من اشراك كلّ صائد وفطمنا انفسنا عن حبّات الطمع وتجرّعنا من كاسات الجزع واقداح الفزع جرعًا بعد جرع فوصلنا بحمد الله الى جنابك الامين وبشّرنا مبشّر الاقبال انّك لكلّ خيرٍ ضمين فحمدنا عند صباح الفلاح السرى وانشدنا لسان السعد مبشّرا *

* شعر *

وجدتُ من الدنيا كريمًا تؤمّهُ * لدفع ملمٍّ او لنيل جزيـــل

وإنْ لم يكن بيننا سابقة خدمة لكن تعارف أرواحنا لهُ قدمة مع انّ كرم ذاتك الجميلة وما جُبلتَ عليه من صفاتٍ نبيلة يُغني قاصد صدقاتك عن واسطةٍ ووسيلة ووالله انّي لواثق بانّ ظنّي لوفآء مكارمك صادق فاسأل احسانك يا ذا الخير ايصالي الى خدمة ملك الطير وانْ كانت رفعة مكانه في العيوق ودون الوصول اليه بيض الانوق لكن بواسطة الوسيلة يحصل هذا الشرف والفضيلة ولا زالت الروسآء والاكابر ياخذون بيد الضعفآء والاصاغر ولرايك العلوّ والشرف والسموّ والعطف والحنوّ * فاهتزّ اليويؤ لهذا الكلام وارتاح وظهر في وجهه تباشير المسرّة والارتياح وأنشد * شعر *

قدمتَ بانواع المسرّة والهنا * على خير منزولٍ وأيمن طائر .

فاهلًا وسهلًا ثمّ اهلاً ومرحبًا * وبشرى ويسرى بالعلآء والبشائر

اعلم أنّ قدومك قدوم صدق ومرافقتك سبب الرفق ورؤيتك

فتح باب الفتوح ورؤيتك غذآء القلب وراحة الروح أبشر بكلّ ما تؤمّل وتختار فقد ذهب العثار وجآء الامن واليسار اصبت مرامك وزيّنتَ مقامك وانستَ منزلك واوتيتَ مأملك فطيّب خاطرك وبشّر اهلك وعشائرك واخبر غائبك وحاضرك ولقد قادك الرأي السديد والامر الرشيد حتى أويتَ الى ركنٍ شديد وملكٍ كريم خلقهُ عظيم وفضلهُ جسيم وجودهُ عميم ونظيرهُ عديم رؤوفٌ برعيّته رحيم لا يخيب آملهُ ولا يريب سائلهُ ولا يقطع واصله ولا يمنع حاصله لقد أنبتت مساعيك ازهار الامن والامان وتفتّحت لورودك في رياض سعد الزمان نواظر نرجس النعمة وشقائق فضل النعمان * فاعلم انّ هذا الملك ذو جنانٍ منيع وقدرٍ رفيع وبيانِ معانيه بديع عزيز المنال جامع لصفتي الجمال والجلال قد اختار العزلة في رؤوس الجبال فلذلك طبعهُ لا يخلو من جساوة وقلبهُ من قساوة وانّ غذآءهُ من اللحوم ومن الحيوانات مشروبهُ والمطعوم مخاليبهُ كالاسل ويلجأ الى الله اذا نسر منقارهُ ونسل وحقيقة امره انْ كنتَ عنهُ تسل *

مقرٌّ مرٌّ على اعدآئـه * وعلى الادنين حلوٌ كالعسل

فاذا التجأ اليه فقير او آوى اليه ضعيفٌ او كسير اوقصدهُ محتاج أو سلك الى باب مرضاته منهاج فلا يمكن الطف منهُ ولا اشفق ولا أقرب من عطفه على مؤمليه ولا ارفق فهو كما قيل

(بيض قطا يحضنهُ اجدل)

وسبب ذلك انّ ضميرهُ المنير خالٍ من المكر طاهر من التزوير لا يعرف ختلاً ولا خديعة ولا خيانةً ولا وضيعة ولا كذبًا ولا قطيعة ولا في خاطره فساد ولا عندهُ سوء اعتقاد ولا يعرف غير الحقّ ولا يقول الّا الصدق وذلك لبعدهِ عن مخالطة الناس وعزلتهِ عن كلّ ذي وسواس وخنّاس فلقد اتّفق العالم انّ صحبة بني آدم سمٌّ قاتل وهمٌّ باتل فانّ دأبهم المكر والتلبيس والخداع والتدليس وحسبك قول شاعرهم في كشف ضمائرهم وشرح حقيقة سرائرهم * شعر *

كُن من الناس جانبًا * كي يظنّوك راهبًا
قلّب الناس كيفا شئـ * ـتَ تجدهم عقاربًا

ولقد أرشد مَن أنشد

بنو آدم إنْ رمتَ من خيرهم جنًى * فاحلى الذي تجنيهِ من وصلهم صبرُ
مكارمهم مكرٌ وروٴيتهم ربا * وودّهم موْذٍ وجبرهم كسرُ

فإنْ كان فيهم صالح افسدوهُ والى سبل الضلال ارشدوهُ والكلام في هذا المقام لا يبلغ التمام فيكتفى بالقليل عن الجليل وشمس النهار لا يحتاج في وجودها الى دليل فانهض الآن فقد آن التوجّه الى خدمة السلطان فما كلّ زمان يحصل هذا المكان فانّ الاجتماع بهِ كلّ وقتٍ مشكل فتوكّل على الله يا أحسن متوكّل فاذا دخلتَ عليهِ وتمثلت بين يديهِ فاعرف كيف تقف وانظر ياذا الكمال ماذا يناسب

الحال وبقتضيهِ المقام من فعلٍ وكلام فاسلك طريقتهُ وراع مخارجهُ وحقيقتهُ وادخل معهُ من ذلك الباب ومثلك لا يُدلّ على صواب فما اسرع اللطف واقرب العنف من حركات الملوك والكبرآء وابعد الرفق واشرد الخرق من ملكات السلاطين والخلفآء واقصى مدانيهم اذا غضبوا واوحش موانسهم اذا صخبوا واقرب مباعدهم اذا عطفوا واعجب مناددهم اذا لطفوا ويكفيك ياذا العقل المتين ما قيل في شان الملوك والسلاطين * شعر *

إنّ الملوك بلآءٌ أينما حلّوا * فلا يكُن لكَ في أكنافهم ظِلّ
ماذا تُؤمّل من قومٍ إذا غَضبوا * جاروا عليك وإنْ أرضَيتَهم مَلّوا
وإنْ مَدَحْتَهمو ضَنّوكَ تَخْدَعُهُم * وآسْتَثقلوكَ كما يُستَثقل الكَلّ
فآستَغنِ باللهِ عَنْ أبوابهم كَرَمًا * إنّ الوُقوف على أبوابهمْ ذِلّ

فإنْ رضوا رفعوك فوق الافلاك وإنْ غضبوا والعياذ بالله فهو الهلاك . وناهيك من تقلّبات الملوك ياذا الارشاد في السلوك أطفا اللهُ غضبهم عنك قضيّةً صدرت من تيمورلنك * فسأل فحل المجل الوزير الاجلّ بيان ذلك المثل الصادر من الاعرج الاشلّ *

فقال الدستور ممّا حكي عن تيمور من وقائع الامور وشدّة عزمهِ وحزمهِ وثباتهِ على ما يقصدهُ وجزمهِ وحلول نقمتهِ بمَن يعارضهُ ويعاكسهُ فيما يرسم بهِ ويناقضهُ : انّهُ

لمّا توجّهَ بالجنود الى بلاد الهنود وذلك في سنة ثمانماية وصل بجيوشهِ الطاغية الى قلعةٍ شاهقة اقراط الدراري بآذان مراميها عالقة والرجوم المارقة من النجوم الخارقة تتعلّم الاصابة من رشاقة سهامها الراشقة كانّ بهرام في مهواهُ أحدّ سواطيرها وكيوان في مسراهُ خادم نواطيرها والشمس في استوآئها غرّة جبينها وقطرات السحاب في الانسكاب تترشّح من قعر معينها وشقّة الشفق الحمرآء على آذان مراميها وانوف ابدانها سرادق وكريات النجوم في القبّة الخضرآء لعيون مكاحلها وافواه مدافعها طاباتٌ وبنادق وكأنّ الثريّا في انتصابها قنديلٌ معلّقٌ على بابها لا يهوم طائر الوهم عليها فانّى يصل طائش السهم اليها ولا يتعلّق بخدم خدمتها خلخال خيالٍ وافتكار فضلاً عن أنْ يُحلّق على معصم عصمتها من عساكر الاساورة سوار وفيها من الهنود طائفة ثابتة الجنان غير خائفة جهّزت اهلها وما تخاف عليه الى الاماكن المعجزة وثبتت هي في القلعة حافظة لها متحرّزة مع انّها شرذمةٌ قليلة وطائفةٌ ذليلة لا خير عندهم ولا مير ولا فائدة سوى الضرر والضير ولا للقتال عليها سبيل ولا حواليها مبيتٌ ولا مقيل بل هي مطلّة على المقاتلة مستمكنة على المقاتلة فابى تيمور ان يجاوزها دون ان يجاورها بالحصار ويناجزها واللبيب العاقل لا يترك ورآءهُ لخصمهِ معاقل فجعلت المقاتلة تناوشها من بعيد ويصبّ

كلّ من اهلها عليهم من اسباب المنايا ما يريد كما يريد وكان كلّ يوم يُقتل من عسكرهِ ما لا يُحصى والقلعة تزاد بذلك إبآءً واستعصا وهو يأبى الرحيل عنها الّا أنْ يصل الى غرضهِ منها * ففي بعض ايام المحاصرة مُطروا وبواسطة المطر انحصروا وصار يحثّهم القتال ثمّ ركب لينظر ماذا يصنعون في تلك الحال فلم يرتضِ افعالهم لمّا عكست اوحالهم احوالهم فدعا رؤوس الامرآء وزعماء العساكر والكبرآء وأخذ يمزّق اديم عصمتهم بشفار شتمهِ ويشقق ستر حرمتهم بمخاليب لعنهِ وذمّهِ ونفخ الشيطان في خيشومهِ وألهب فيهِ نار غضبهِ وشومهِ وقال يا لئام وأكلة الحرام تتقلّبون في نعمآءي وتتوانون عن اعدآءي جعل اللّه نعمتي عليكم وبالا والبسكم بكفوانها خيبةً ونكالا يا نابذي الذمم وكافري النعم وساقطي الهمم ومستوجبي النقم ألم تطئوا اعناق الملوك باقدام اقدامي ألم تطيروا الى الآفاق باجنحة احساني واكرامي الم تفتحوا مغلّقات الفتوح بحسام صولتي اما سرحتم في منتزهات الاقاليم سوائم تحكّمكم بترعية دولتي بي ملكتم مشارق الارض ومغاربها وأذبتم جامدها وأجمدتم ذائبها * شعر *

ألم أكُ نارًا يصطليها عدوكم * وحرزًا لما الجئتم من ورآئيا
وباسط خيري فيكم بيمينيا * وقابض شرّ عنكم بشماليا

ولا زال يهمهم ويغمغم ويهذرم ويبرطم وهم مطرقون لا يحيرون

جوابا ولا يملكون منهُ خطابا . ثمّ ازداد حنقا وكاد ان يموت حنقا فاخترط السيف بيدهِ اليسرى وهمز بهِ على قمم اولئك الاسرى وهمّ ان يجعل رقابهم قرابه ويسقي من دمائهم نمل فرندهِ وذبابه وهم على تلك الحال في الخزي والاذلال باذلوا انفسهم ناكسوا رؤوسهم . ثمّ تراجع وتماسك وملك نفسهُ قليلًا وتمالك فأغمد عن تشريتهم حسامه ولم يلق لامره دبرةً ولا قبلةً امامه فغلف غربهُ وشامه ثمّ نزل عن مركبه واستدعى الشطرنج الكبير ليلعب به وكان عندهُ ممّن فاق جندهُ شخصٌ يدعى محمّد قاوجين ذو مكانٍ مكين ومقامٍ امين مقدّمٌ على كلّ الوزرآء مبجّلٌ دون سائر الامرآء وافر الطول مقبول القول مسعود الراي ميمون الفصل مرغوب الفضل محبوب الشكل فتشفّع الوزرآء اليه وترامو في حلّ هذه الاشكال عليه وقالوا ساعدنا ولو بلفظة وراقبنا ولو بلحظة واعمل معنا بهذا المعنى وهو * شعر *

ساعد بجاهك مَن يغشاك مفتقرا * فالجود بالجاهِ فوق الجود بالمال

فاجابهم والتزم أنْ يردّهُ عمّا تأزّم بهِ وازم وراقب مجال المقال وراعى فرص المجال وشرعت افكار تيمور تغور في امر القلعة وتفور وجعل يستضوي اضوآءهم ويستوري آرآءهم ولا يسع كلًّا منهم الّا القبول لما يستصوبهُ رايهُ ويقول * ففي بعض الاحايين اتّفق ان قال محمّد قاوجين وقد زلّ بهِ القدم

وأحاطت بهِ نوازل البلآء والعدم اطال الله بقآء مولانا الامير وفتح بمفاتيح آرآئهِ ورايانهِ حصن كلّ امرٍ عسير هب أنّا فتحنا هذه القلعة بعد أنْ أصيب منّا جانبٌ من اهل النجدة والمنعة هل يفي هذا بذا ام هل يوازن هذا النفع بهذا الاذى فما احتفل بخطابهِ ولا اشتغل بجوابهِ بل استدعى شخصًا من البرقدارية قبيح المنظر الّا انهُ في هيئة ذرّيّة يدعى هراملك ذا عرفٍ سهك ووجهٍ في السواد سدك اوسخ مَن في المطبخ واسنخ مَن في المسلخ لعاب الكلب طهورٌ عند عرقهِ وعصارة القير حليبٌ بالنسبة الى مرقهِ فعند ما حضر لديهِ ووقع نظرهُ عليهِ أمر بثيابٍ محمّد قاوجين فنُزعت وبخلقان هراملك فخُلعت ثمّ البس كلًّا ثياب صاحبهِ وشدّ وسطهُ بحياصتهِ ودعا دواوين محمّد ومباشريهِ وضابطي ناطقهِ وصامتهِ وكاتبيهِ ثمّ نظر مالهُ من ناطقٍ وصامتٍ ونامٍ وجامدٍ وملكٍ وعقارٍ واهلٍ وديارٍ وحشمٍ وخدمٍ من عربٍ وعجمٍ وأوقافٍ واقطاعٍ وبساتين وضياعٍ وخولٍ واتباعٍ وخيلٍ وجمالٍ واحمالٍ واثقالٍ حتّى زوجاتهِ وسراريهِ وعبيدهِ وجواريهِ فانعم بذلك كلّهِ على ذلك الوسخ وامسى نهار وجود محمّد قاوجين الزنخ وهو من ليل تلك النعمة منسلخ . ثمّ قال تيمور وهو كالنمور يمور أقسم بالله وآياتهِ وصفاتهِ ووحيهِ وكلماتهِ وارضهِ وسمواتهِ وكلّ نبيٍّ ومعجزاتهِ ووليٍّ وكراماتهِ وبرأس نفسهِ وحياتهِ لئن

آكل محمّد قاوجين احدًا او شاربهٗ او ماشاهُ او صاحبهٗ او كلّمهُ او صافاهُ او آوى اليهِ او آواهُ او راجعني في امرهِ او شفع عندي فيهِ او فاهَ بعذرهِ لاجعلنّهُ مثله ولاصيّرنّهُ مثله . ثمّ طردهُ واخرجهُ وقد سلبهُ نعمتهُ واحرجهُ فصار مسلوب النعم قد حلّت بهِ في لحظةٍ نوائب النقم فسحبوهُ بالولق ورای نعمتهُ على اذلّ الخلق واتّصل غيرهُ بالحلق وقطع منهُ الحلق فقلقت حبّة قلبهِ اشدّ قلق ولم يزل على ذلك في عيش مرّ وعمر حالك وحاشا ان تشبهَ قضيّتهُ قصّة كعب بن مالكٍ فكان يستحلي مرارة الموت ويستبطئ اشارة الفوت وكلّ لحظةٍ من هذا الحيف اشدّ عليهِ من الف ضربةٍ بالسيف . فلمّا هلك تيمور احياه وردّ عليهِ خليل سلطان ما كان سلبهُ جدّهُ ايّاه * وانّما اوردتُ هذه السيرة يا زكيّ السريرة لتقيس على هذا المثل نظيرهِ وتعرف اخلاق الملوك ومعاملاتهم الغنيّ والصعلوك وانّ نظرهم نضار واعراضهم بوار ودمار ومَن اراد أنْ يطّلع على تقلّبات الدهر فليراقب شفتي الملك اذا انهى وأمر وقال من أحسن المقال

* شعــر * .

قرب الملوك يا اخا القدر السمي * حظٌّ جزيلٌ بين شدقي ضيغم

واعلم يا أبا الفضائل انّ هذا الملك لهُ شمائل وصفاتٌ وفضائل يُستدلّ بظاهرها على باطنها ويُتوصّل بظهور باديها

على حركات كامنها فايّاك ان تغفل عن مراقبتها وتهمل حال عاقبتها بل اجعل شواهدها نصب عينك لتقرب من حياتك وتبعد من حينك . منها اذا رأيتهُ رجع من الاصطياد ظافرا منهُ بالمراد وقد اقتنصهُ وحصّله وملأ منهُ الحوصله وسكنت منهُ بواعث الشره التي هي منفخ لواعج الطيش والسفه . ومنها اذا رأيتهُ جلس في مجلس السرور وبسط لجبهة الكرم جناح النشاط والحبور وضمّ عن مطامح الحرص القوادم والخوافي وطلب من روساء المملكة الانيس المصافي ومن ندماء الحضرة الجليس الصافي ومن مطربي الاطيار البلبل والهزار ومَن رقص بدفوف الازهار وصفق من ذي عودٍ وطار فاستمع لهذا وباسط ذاك وطفق جلساؤهُ ما بين منصتٍ وحاك فانّ هذه الاوقات لما فيها من علامات هي ساعات الانبساط وايّام الفرح والنشاط فاعمل فيها ما بدا لك واطنب مقالك وكرّر جوابك وسؤالك فانّك في كعبة الامن فاستلمها وقد هبّت رياحك فاغتنمها والعب بابطيك وصفق بجناحيك واهدر في نقنقتك واسجع في بقبقتك فانّ الوقت لك لا عليك والسعد الطالع ناظرٌ اليك . ومنها اذا رأيتهُ جالسًا صامتا او الى الارض باهتا او محمّرة عيونهُ او مضطربًا سكونهُ او افعالهُ على غير استواء او اقوالهُ دائرة مع الهوآء فايّاك والدخول عليهِ والمثول بين يديهِ فانّهُ اذ ذاك يجعل ديار جسدك بلاقع ولو انّك النسر

الطائر فتصير في مخالبه اتعس واقع . وعلى كلّ حال فليكن عندك لكلّ مقام من هذه المقامات مقال وإنْ كان السكوت اصلح فاغلق بابَ الكلام قطعًا ولا تفتح فكثيرًا ما تخلّص الساكت من البلاء وافلح وناهيك النصيح بقولِهِ الفصيح وهو

* شعر *

وراقب مقام القول في كلّ مجلس * خصوصًا مقامات الملوك الاكابر

فكم من بليغٍ فوق ذروة منبرٍ * رمتهُ افاعي النطق تحت المقابر

قال المفلح النجدي للمرشد المجدي جزى الله مولانا عن صدقاتهِ أُوفر صلاته وواصلهُ بموائد اكرامهِ في عشيّتهِ وغداته فما أشمل احسانه وحسناته واسعد حركاتهِ وسكناته واوفر شفقتهِ على قاصدي عتباته طالبَ انت دليله كيف لا يفتح الى الخير سبيله ويرجع الى حصول المقام مبيتهُ ومقيله ثمّ انّ اليؤيؤ الشفوق تركهم وطار الى العيوق ثمّ رجع على الفور ووجههُ يرفّ كالنور فدعا اليعقوب وتوجّه وهو معهُ مصحوب واخذا في السير الى خدمة ملك الطير وفرعا في جبل يسامي في المثل قبّة الفلك او مركز الملك يستمدّ السحاب من ماء واديهِ وتسبح سماك السماء في بحر ناديه يغرق جبين الوهم من صعود عقباته ويقصّر صاعد الفكر في سلّم الهواء عن الترقّي الى ادنى درجاتهِ ويستريح راقي الخيال في علّة مواضع عند قصده فروع هضباته فهو كما قيل * شعر *

وطودٌ تلوح الشمس من تحت ذيلهِ * اذا هي في كبد السماء استقرّت

فلا زالا يسيران وفي الجوّ يطيران اليؤيؤ امام قائد الزمام والحجل وراءهُ ينشد هذا الكلام * شعر *

لكلّ امامٍ اسوةٌ يقتدى بهِ * وانت لاهل المكرمات امام

فوصلا من تلك المدارج الى أعلى المعارج وانتقلا في تلك المسالك عن دركات المهالك وانتهيا الى اوجٍ رأيا ملكة النيّرات جاريةً في حضيضه ودرر الدراري راكدةً في قعر مغيضه يشتمل على مروجٍ ورياض وسراعٍ وغياض وبحارٍ وحياض تنادي خيراتها سكّان الربع المسكون في انصبابها عليهم وفي السماء رزقهم وما توعدون رياضٌ تلوّنت ومروجٌ بازاهيرها تحسّنت وأرضٌ قال لها صانع القدرة اذ تمكّنت تكوني كاخلاق الكرام فتكوّنت واخذت زخرفها من رضوان خازن الجنان وأزينت فولجا دار سلطنة العقاب بعد مقاسات عقاب العقاب كما قيل * شعر *

مكانًا فيهِ سلطان الطيور * تصدّر بالسرور على السرير

اطاف به صنوف الطير طرًّا * عكوفًا بالحضور وبالحبور

لكلٍّ في مباشرة مقامٍ * يقوم بهِ جليلٌ او حقير

قد اكتنفهُ الميمنة والميسرة وأحدقت بهِ المقدّمة والمؤخّرة كلٌّ واقفٌ في مقامهِ شاهينهُ مع كركيهِ وبازيهِ مع حمامهِ فالانيس صاحب الظرف والكيس حامل القبز كالاوزان يترنّم في مقابلة الايوان ويمدح ملك الاطيار والامراء والحضّار والكبراء والنظّار

وينشدهم جليل الاوصاف ورقيق الاشعار فممّا انشئَ الاوزان من مناقب السلطان ووجّه بهِ الخطاب الى العتاب قولهُ

* شعر *

مقامك اعلى ان يقوم بوصفهِ * بيان بليغٍ او لسان فصيح

اجلتك عنقا مغرب فاختفت فما * تلوح لطرفٍ في البلاد طموح

والنسر الطائر المقدّم على العساكر . قد اظلّهُ بالجناح وليس عليهِ في طلبته سيادة الطير جناح رافع اللوآء صافٍ في جوّ السمآء رئيس الدير حامل القبة والطير كما قيل * شعر *

ونسرٌ تفرّ الطير من قرب ظلّهِ * وفي ظلّهِ للسعد مأوًى ومنزل

والسنقر في ثوبهِ الفهري وخلقهِ الثمري امير سلاح الجوارح ورأس عساكر السوانح والبوارح كما قيل * شعر *

هو السنقر العالي بهمّتهِ التي * تعلّت على ايدي الملوك بها يلعُ

والشاهين الدوادار عليهِ لمصالح المملكة المدار قد تصدّى لقضآء الحوائج لكلّ داخلٍ وخارج ينظر في الولاية والعزل ويتعاطى الامور بالجدّ لا بالهزل فيقضي المآرب ويوصل المطالب الى الطالب كما قيل

* شعر *

طويل العنق رحب الصدر ضخم * لهُ في آلِ قسطنطين ضبط

تغشّى من سواد العين ثوبًا * عليهِ من دم الاحشآء نقط

والكركي الراطن بالتركي يتجلّى في ثوبهِ المسكي كاتب الاسرار وصاحب الاخبار لسان المملكة ومحور الفلكة مستخدم السيف

والقلم وفي الفضائل والفواضل نارٌ على علم كما قيل *

* شعر *

وكركيّ يحيد الصقر عنهُ * لهيبته بطشهِ وشديد باسهِ

والتمّ المشهور ناظر الجيش المنصور صدر الديوان وقاضي الجند والاعوان كما قيل * شعر *

وتمّ تمّ دست الطير منهُ * كقاضٍ زان ارباب الكتاب

عليهِ من المهابة ثوب مجدٍ * كوجهِ الطائعين لذي الحساب

والطاوس كازهى عروس في افخر ملبوس مقدّم على الخواص كالناظر الخاصّ ناشر مروحة الارتياح يتجلّى بجمال هيئتهِ الفائق على الوجوهِ الملاح كما قيل * شعر *

ثوبهُ قد حار فيه * كلّ صبّاغٍ عليم

ولسان الحسن نادى * صبغة الله الحكيم

فيروق العين منهُ * فوق اوصاف الكليم

والبازي الامير الكبير صاحب الرأي والتدبير أمير الميمنه قد رتّب صفّهُ وزيّنه كما قيل * شعر *

وباز اشهب عيناهُ حمر * يضيء وفي جناحيهِ النجاح

والصقر الشهم السابق في الطيران الوهم امير الميسرة قد فاق بشهامتهِ عسكره كما قيل * شعر *

وصقر إنْ يلح في القفر ظبيٌ * أتيح لهُ من الجوّ انصبابا

أقام بمخلب عن شهم سهمٍ * ونسر عن قويّ الناب نابا

والباشق الجاووش وراس نوبة العساكر والجيوش كما قيل *

* شعر *

انظر الى الباشق في صيدهِ * ينقض كالسهم من الراشق

يقفو حمامًا مثل معشوقةٍ * أتبعها الحبّ حشا العاشق

والببغآء تنجلي في الحلّة الخضرآء وتنثر من الخاتم الياقوت درر الثنآء وتخبر بعجائب الهند وتسرد غرائب رغائب السند كما قيل

* شعر *

تسمّت دُرّةً لكن كساها * حكيم الصنع ثوبًا من زبرجدِ

ومُنّ لها بمنقارٍ عقيق * وخاط شعارها من عين عسجدِ

والهدهد لابس التاج ينهي الى موقع الدراج الاخبار المارّة والاحوال السارّة كما قيل * شعر *

وهدهد البس ثوب البهـا * فعمّ اذ خصّ بصدق النبا

أغرب اذ شرق في حسنه * ففاق اهل التاج حتى سبا

والحمام مقدّم البريديّة يتردّد في مواقف العبوديّة والعصافير كالمماليك الاجلاب في الكتاب يدرسون العلم والآداب والبلبل والهزار ومطوّقات الاطيار وساجعات الاسحار مسبّحات الواحد القهّار يتناشدون الاشعار ويردّدون نغمات الاوتار ومطربات رنّات الاوطار وضروب ضروب الموسيقات من جنك المنقار والشحرور والزرزور وذوات الهديل من الطيور حتى جناح الزنبور تغرّد فتخجّل العود والطنبور وزواجر الطير تبشّر بالفرح والخير وانواع

الجوارح في الحافات والطير في الجوّ صافات كلّ يفدي الملك ويقدّم جسدهُ وروحهُ ويسبّح مَن اتاهُ الملك كلّ قد علم صلاته وتسبيحهُ * فتقدّم اليويُو الى الحضرة والملك في ابهى نضرة وقبّل مواطئ سلطانهِ ووقف من مكان خدمته في مكانهِ وقال شخصٌ عارف بطرائق السلوك يليق لخدمة الملوك واقف بالباب يروم تقبيل الاعتاب يطلب لذلك الدستور والانعام باذن الحضور ليشملهُ النظر الشريف ويحظى بحظّ وريق وريف هل يرجع كالمصروف عن خدمتهِ او يدخل كالدولة والاقبال نعطف بالقبول وأذن بالدخول وسمح بالمثول فتوجّه اليويُو على عجل فدخل الى الحجل وهو من الحياد متأثّر وفي ذيل الدهشة والهيبة متعثّر وعليهِ غلالةٌ سابوريّة وخلعة نيسابوريّة مشتملاً بشملة كافوريّة كانّهُ شيخ الصوفيّة . فلمّا وقع نظرهُ على العقاب قوّى جاشهُ ورفع الحجاب وحلّ عقدة لسانهِ من لكنة الخطاب ثمّ قبّل الارض ووقف وانشد بديهًا وما وقف * شعر *

ولو أنّ فغفور او كسرى وتبّعا * رأوك لخرّوا بين أيديك سجّدا

وما أن وفوا حقًّا عليهم وانّما * على قدر ما في الوسع مدّ الفتى يدا

فابتدر اليويُو بلفظٍ يُخجل اللؤلؤ وقال للحجل يريد ازالة الدهشة والخجل وطيب المقام ببسط الكلام ايها الغريب الاريب والاديب النجيب رأيناك روحًا ملخصا وعقلاً مشخصا صحبتك مرغوبة ومنادمتك مطلوبة لقد حللت محلّ الأمن والاماني

وعقلك السعد والتهاني فدع دهشتك وذر وحشتك وافصح بكلامك عن كمالك وعن مقامك بمقالك فعباراتك عقيلة العقل وواسطة عقود النقل فانْ كان عندك نصيحة تصلح للملوك او وصيّة ترشد أهل السلوك يبيّن العدل بنورها طرائقه ويزيّن العقل بمجازها حقائقه وتستقيم بها الامور ويستفيد منها الجمهور أو نوع رفع مظلمة اوحطّ مأثمة اوكشف بلوى او بثّ شكوى اوحاجةً في نفسك وما قاسيتهُ في يومك وأمسك اولطيفة تشرح بها الصدور وتبسط بايرادها الحضور فهذا وقت تشنيف المسامع بجواهرها ونثر دررها على بادي الحاضرين وحاضرها فانّ المحلّ قابل وعنق الاصغآء الى أطواق لطائفك مائل ومجال الحلم لذلك واسع وسجال الكرم داسع وفاعل الصنيعة صانع وكفّ اللطف معطٍ لا مانع * فقال الجمل بعد ان زال الخجل وحال الوجل وجال الزجل من غير ريث ولا عجل : الحمد لله الذي آسى جراحنا واحيى بعد التلف ارواحنا قد كنّا في بيدآء الحيرة والهلاك وظلمآء الضرّ والخوف في انهماك ومرّت علينا سنون ونحن في الخسار والغبون ونار الاشتياق تضطرم وبواعث تقبيل الاعتاب الشريفة السلطانيّة في الفؤاد تزدحم اذ قد انتشر جناح عدلها ونجاح ظلّها وسماح وابلها وطلّها وكرّر كلّ لسان محامد فضلها واشتهر لكلّ حيوانٍ مآثر نبلها فهي امان كلّ مخوف وملجأ كلّ ملهوف لكن كانت العوادي تقرع

تلك الدواعي وغواشي الحوادث تعترض دون المساعي تارةً باكتناف المخاوف وطورًا باحتفاف الخواطف وحينًا بضعف المباني واونةً بعدم المعاون والمعاني والآن يا ملك الزمان بحمد الله المنّان أزحنا المهالك والمهاوي واسترحنا من ضرب المسالك والمساوي اذ قد طرنا بجناح النجاح من جنح الجناح وصرنا الى محلّ السماح والرباح فزالت العلل وانسدّ الخلل وحللنا في عقوةٍ منيفة وسدّةٍ شريفة فامنّا شوك المكائد وشرور المصائد وتوسّدنا مهاد الدعة واستظللنا جناح الامن والسعة وانّه قد قيل عدل السلطان خيرٌ من خصب الزمان وقيل الملك العادل والامام الفاضل كالأب الشفيق والوالد الرفيق يعامل بالسويّة ويحفظ الرعيّة ويحرسها من برد المآء وحرّ النار كما يحرس الوالد الولد من هبوب الهوآء وشمّ الغبار وقلتُ * شعر *

نزلنا في ذرى ملكٍ كريمٍ * براقا مثل اولاد الكرام
أضلّ نوائب الايّام عنّا * فلم ترنا ولا في الاحلام
ولا مطر السمآء يصيب منّا * كأنّ مقامنا فوق الغمام

فقال الملك اهلاً وسهلاً وناقةً ورحلًا طب قلبًا ونفسا واهنأ معنًى وحسًّا لقد حللتَ بساحة الاستراحة وباحةً للامن مباحة وقاحةً ليس لصائدٍ بها وقاحة ولا لجراحة جارحٍ بها جراحة وقد خلصتَ من جواسر الكواسر ومناسر النواسر ونزلتَ بوادي الخير ونادي ملك الطير فاكرمتَ صدر منزلك ونلتَ غاية

املك فاذهب بسلام وآتِ بما لك من خادمٍ وغلام وأهل وثقل وفرسٍ وجمل ، واثاثٍ وقماش ومعاشٍ ورياش وتخيّر مكانًا تختار وجارًا حسن الجوار * فقال ايّها الملك السعيد انا شخصٌ فريد غريب فقير لا ابريق لي ولا حصير وقلتُ * شعر *

انا لولا الحيا وخوف العار * لم أكن في الانام الّا عار

مَن رآني فقد رآني وبيتي * ودثاري ومركبي وشعاري

غير انّ لي قرينة مثلي فقيرةٌ مسكينة صابرة على السرّآء والضرّآء قضينا معًا ماضي الصباح والمسآء لم يترك عقيل الحوادث لنا دارا ولا يد العوابث عقالًا ولا عقارا ولا مخلب العوابث جارًا ولا جوارا ولا ناب الكوارث ولدًا ولا قرارا والويل كلّ الويل لمن كان مستقرّهُ في طوارق الليل ومن حوادث الدهر على سبيل السيل وقد طال الكلام في كيتَ وكيت وقضايا ذيتَ وذيت الى أن لم يبقَ في البيت سوى البيت ، ولمّا تكرّر ضُرّ ايّوب وتضاعف حزن يعقوب تركنا الديار بالاضطرار وعلى ابوابك الشريفة وقع الاختيار فرصدنا للتحويل أيمن الساعات واخترنا للرحيل احسن الاوقات ثمّ صممنا العزيمة ونادانا هاتف السعد اسرعا نديمي جذيمة فقطعنا المهامه والقفار وأسرينا الليل والنهار فكم رغنا عن ابي الحصين ولقينا ما لاقى الحسين بكربلا من الكرب والبلا وكم لجأنا من بني زغار الى كهفٍ واجمٍ وغار واحترزنا من

قنافذ وافعوانٍ ذي سمٍّ نافذ ونفرنا من حبّات اشراك وحدنا عن اوهاق شباك واخترنا الجوع وعدم الهجوع على الحبّ المبذور لاصطياد الطيور كلّ ذلك في المسالك والسعد قائدنا والغلام رائدنا واليُمن دليلنا وظلال امنك ظليلنا وفي تهاني سعدك مبيتنا وكنف فضلك مقيلنا حتى حللنا في دار الامان ونزلنا بحرم مولانا السلطان فنادانا فضل خالق الورى لا تخافا انّني معكما اسمع وأرى القيا عصا التسيار وانزلا عند خير جار فتركتُ القرينة في منزلةٍ حصينة وكلّ بلادك امينة وأمّمتُ مقامك الشريف وجنابك المنيف مقامًا عظيما وجنابًا كريما ومجلسًا عاليا وبابًا ساميا فتوخّيتُ ثمّ نوديتُ * شعر *

هذا هو الملك الذي من بابه * يُعطى المخوف امانةً لزمانهِ

عمّ الورى احسانهُ فكانّما * ارزاقهم كُتبت على احسانهِ

ثمّ نهض اليعقوب من مكانهِ وقبّل الارض بين يدي سلطانهِ وتوجّه فائزًا بامنيّته حتّى وصل الى خليلته فاخبرها بما جرى بتخيير المشترى وكيف راى اليؤيؤ والملك وصورة ما فعل بهِ وسلك وكيف تلقّى مقدّمهُ واكرمهُ الملك بما اكرمهُ وقرّر كيف كان خطابهُ وعلى ايّ صورةٍ حسناء ردّ جوابهُ فسرّ صدرها وانشرح وطارت بهذا الامر من الفرح ثمّ توجّها الى حضرة السلطان وحصل لهما من الانعام

والاحسان ما نسيا بهِ الاوطان وسلكا بنفس مطمئنة في خدمة الملك مع الجماعة واهل السنّة وخوطبَ اليعقوب من الملك اسكن انت وزوجتك الجنّة * فلمّا استقرّت بهما الدار وتبدّل انكسارهما بالانجبار أُفيض عليهما من الصدقات والادرارات والنفقات ما لم يخطر ببالهما ولا دار على خيالهما وحصل لهما الامن والامان والسلامة والاطمئنان وانشرحت خواطرهما وابتهجت بالسكون سرائرهما . واستمرّ النجدي ملازم الخدمة وتوفّرت عند الملك واتباعهِ لهُ الحرمة وسُمعت كلمتهُ وتزائدت حشمتهُ ولم يزل صبيح الطلعة نجيح السعي والنجعة وضيّ المنظر مقضيّ الوطر يرتع على بساط النشاط ويطير في رياض الامن والانبساط مؤدّيًا شرائط الخدمة على الوجه الاحسن قائمًا بواجب العبوديّة مهما امكن الى ان تميّز على سائر الخدم وتقدّم على السابقين في القدمة وثبات القدم ناشرًا ألوية النصيحة ناثرًا الاثنية الصريحة منادمًا باللطائف الصحيحة والنوادر المليحة بالعبارات الفصيحة والاشارات الرجيحة حافظًا زمام الاحتشام مراعيًا مقامات الكلام على ممرّ الايام وكرّ الشهور والاعوام . ثمّ ختم الكلام في هذا المقام باعظم ختام وهو حمد الله الملك العلام وشكرهُ المستدعي لمزيد الانعام وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

الباب العاشر

في معاملة الخادم والاحباب والاعداء والاصحاب

وبهِ تمّت ابواب الكتاب

قال الشيخ ابو المحاسن الراوي من الادب الاحاسن : فلمّا ابان الحكيم عن هذا الفصل الجسيم وكشف نقاب البيان عن مخدّرات هذا التبيان فتلألأ من وراء سجف الفاظهِ وجوه معانيهِ الحسان وعظم في اعين الاعاظم وكبُر لدى الاعراب والاعاجم ورفعهُ اخوهُ وعظّمهُ ذووهُ فاضاء منارهُ وعلا مقدارهُ وملأ الآفاق انوارهُ ووقع من الملك على الاعتماد عليهِ اختيارهُ ثمّ استزادهُ من فيض هذا اليعبوب واستسقاهُ من حوض هذا الشؤبوب واستطعمهُ من اخبار العقاب واليعقوب ان كان ثمّ بقيّة تجلو القلوب الصديّة * فامتثل الاشارة وحسّن العبارة وقال : ثمّ انّ ابا الحجاج دعا القبيح ابا الدجاج واختلى بهِ دون اصحابهِ وقال لهُ : اعلم يا جليس الخير وانيس الطير ورئيس الدير انّي تحمّلت من اليؤيؤ المنّة العظيمة والجميلة الجسيمة حيث ارشدك الى بابي ونضمك في سلك اصحابي ولا جرم انّهُ قام بما يجب عليهِ وعرف مقدار احساني وميلي اليهِ وانّهُ لأوثق اعواني واصدق خلّاني وصاحبٌ قديم ومخلصٌ عديم النظير

نديم وصديق كافي وناصح مصافي واني لاتيمّن بطلعته، واتبرّك بمشاهدته، واستنجح بآرائه واستصبح في المهمّات المظلمة بلامع ضيائه، ولقد حصل منك على عضد معاضد وساعد مساعد وكهف وذخر وسند وظهر فايّاك ان تترك ذيل مودّته، او ترغب عن صحبته ومحبّته، وان تقتصر ياذا الوقوف في صدقاته على الوقوف فافضل المحبّة واكمل المودّة ما تزايد على مرّ الدهور وترادف على كرّ العصور وثبت اصلهُ وغرزت فروعهُ وفاض من سويداء القلب على مجاري الجوارح ينبوعهُ بحيث يقع الاتحاد وينمزج بالصفاء الوداد فقد قيل لا تصحّ المحبّة بين اثنين حتى يصيرا كالعين حيثما نظرت احديهما شزرا مالت معها تابعة الاخرى بل يصيرا كالنفس الواحدة لاكلّ واحدٍ على حدة ولا كما تقول الملاحدة بل يكمل لكلّ واحد بالآخر الهناء ويحصل له بوجوده السناء واذا خاطبهُ قال يا انا ولا تعملــ يا اكمل كما قيل * شعر *

ملأت حشاشتي شوقًا وحبًّا * فإنّ ترُم الزيادة هات قلبا

فانّ الفتّاح عندهُ الفتوح وباب الفضل والزيادة مفتوح وكرم الله لا يُضاهى وفضلهُ كعلمه لا يتناهى. وانظر يا فضيل وذا العلم العريض الطويل الى ما قيل وهو * شعر * .

ايها السائل عن قصّتنـــا * انا مَن أهوى ومَن اهوى انا

نحن روحان حللنا بدنــا * مَن رآنا لم يفرق بيننـــا

نحن مذ كنّا على عهد الهوى * تُضرب الامثال للناس بنا

فاذا ابصرتــهُ ابصرتني * واذا ابصرتني ابصرتنا

ولقد ذكرك عندي بانواع الفضل وبوفور التجارب والعقل وهذا يدلّ على نصحه وقوّة دينه وصدقه في المحبّة وحسن يقينه ولم يذكر غير الواقع ولاجازف فيما انهاهُ الى السامع بل قال قليلاً من كثير وقطرةً من غدير ولم يخبر بذلك غير خبير فانّي اعرفك كما عرف ووقفتُ على فضائلك كما وقف ثمّ انتَ عندي فوق ما وصف فاريد منك نصائح بالخير لوائح تتضمّن فوائد وعوائد وفرائد تكون لنهم الحكمة موائد ولشهم الحكّام قوائد ولنحور الباب المعقول وارباب المنقول قلائد ولضبط اساس الملك والدين قواعد وعقائد * فتلقى مثالهُ بالامتثال وقبّل الارض في مقام العبوديّه وقام وقال : لنحط العلوم الشريفة والآراء العالية المنيفة انّ صانع العالم تعالى وتعاظم بنى امور المبدا والمعاد وما بينهما من معاشٍ مستفاد على دليلين عظيمين جليلين احدهما العقل الذي هو مناط التكليف وثانيهما قواعد الشرع الشريف فإنْ اردتَ ان تكون سعيد الدارين فاستمسك باذيال هذين الدليلين * امّا العقل فهو الدليل القاطع على وجود الصانع وهو مستقلٌّ بالقطع غير محتاجٍ الى السمع وكما هو مستقلٌّ بالدلالة على وجود ذاته كذلكَ هو مستقلٌّ بالدلالة على تحقيق صفاته ثمّ ورد بذلك

الشرع فتاكّدت في وجود الصانع دلالة العقل بالسمع . وامّا وحدانية الصانع فكلّ من العقل والنقل دليلٌ عليها قاطع وقد تظافرا بالاستباق اليهِ وتظاهرا في الدلالة عليهِ بقول الكافر يوم المصير لو كنّا نسمع او نعقل ما كنّا في اصحاب السعير وبالعقل والسمع يستقيم امر المبدا والمعاش وبالسمع فقط ميت المعاد عاش لانّ امور المعاد من الشرع تُستفاد والعقل في ذلك تابعٌ سامع لاوامر الشرع طائع والمسموع في ذلك دليلٌ قاطع وعلى كلّ تقدير ايها الملك الكبير فاجعل العقل وزيرا تجدهُ لك في ظلمات المشكلات سراجًا منيرا واتّخذ النقل هاديًا ونصيرا يكُن بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورا وعامل الرعيّة بالعدل يعاملك الله بالفضل * واعلم انّ الدنيا في معرض الزوال وانّهُ لابدّ عنها من الانتقال وانّ الله سبحانهُ وتعالى وجلّ سلطانهُ جلالا اقتضت حكمته وجرت بين عبادهِ وصيّته أنْ يكون الانسان جاريًا على ما فطرهُ الرحمن لا على ما تسوّلهُ لهُ النفس الابيّة من العصيان . ولقد بلغني يا ملك الزمان أنّ الملك العادل انوشروان كان بنى اساس ملكهِ على العدل وعامل رعيّتهُ بالاحسان والفضل وقد قيل في الاقاويل لا ملكَ الّا بالرجال ولا رجالَ الّا بالمال ولا مالَ الّا بالعمارة ولا عمارةَ الّا بالعدل فلا ملكَ الّا بالعدل ومن اقوى الصفات العدليّة عمارة بلاد الرعيّة وبذل الجهد في العمارة ليكثر الربح

وتقلّ الخسارة فاذا عمرت البلاد وترمّم الطريف والتلاد حصلت الاموال وكثرت الرجال وانتظمت الاحوال فقد بلغني يا ملك الزمان انّ الملك انوشروان كان مارًّا في سيرانهِ بين جندهِ واعوانهِ فرأى شيخًا كانّهُ قوس قطّان نثر على رأسهِ قزع أقطان وهو في بعض البساتين يغرس نصب تين فتعجّب من انحناء قامتهِ وبياض هامتهِ مع شدّة حرصه وتعبهِ على نصب غرسهِ ونصبه . فقال لهُ : يا ذا التجارب ومَن هو من شرك الفناء هارب الامَ ترتع في ميادين الامل وقد تطوّقتَ باوهاق الاجل تبني واركان جسدك واهية وتغرس وقوائمُ بدنك كاعجاز نخلٍ خاوية وربيع شبابك قد استولى عليهِ خريف الهرم وصيف وجودك قد أدركهُ شتاء العدم ومحت نسيم طراوتك عواصف الذبول ومحت قوى عبالتك بقواصف النحول وقد آن أنْ تغرس للآخرة فانّك قد صرتَ عظامًا ناخرة * فقال : يا ملك الزمان وعادل الاوان قد تسلمناها عامرة فلانسلمها غامرة قد غرسوا واكلنا ونغرس ويأكلون وفي الحقيقة كلّنا زارعون وغارسون * شعر *

لقد غرسوا حتّى اكلنا واننّا * لنغرس حتّى يأكل الناس بعدنا

وأبعد فلاح عن الرشد والفلاح من يتسلّم المعمور ويتركهُ وهو بور . فاعجب انوشروان وفور عقل الشيخ الفان وحسن خطابه وسرعة جوابه فقال زهِ . يعني أحسنتَ وهي كلمة تحسين ولفظة اعجاب وتزيين وكانت علامةُ للاحسان اذا تلفّظ بها السلطان

يُعطى المقول في حقّه اربعة آلاف درهم لرفقه فأعطوا الشيخ الهمّ أربعة آلاف درهم . فقال : ايها السلطان انّ الغراس يُثمر بعد زمان وانا غراسي لحسن طاعته أثمر من ساعته . فقال : زهْ . فأعطوهُ اربعة آلاف اخرى ورفعوا منزلتهُ قدرا . فقال : وأعجب من هاتين القضيّتين انّ الغراس يُثمر مرّة وغرسي يُثمر مرّتين . فقال : زهْ . فاعطوهُ القدر المعلوم وزادوهُ في التكريم والتعظيم والتفخيم . وقال لهُ انوشيروان إنْ امهلك الزمان حتّى تأتيني بباكورة هذا البستان فانا اقطعك خراجه واقضي ما لك من حاجه . فأمهلهُ الدهر وطال به العمر وادرك ما نصبه ولم يخيّب الله تعبه فحمل الى الملك الباكوره ووفى لهُ الملك نذوره * وانّما أوردتُ هذا المثل ليعلم مولانا الملك الاجلّ انّ الدنيا وان كانت ظلاًّ زائلا وحائطًا مائلا فهي مزرعةٌ للآخرة وانّ الآخرة هي الدار الفاخرة وأنّ الله تعالى وجلّ جلالا ولاّك هذه المزرعة وعلّق باوامرك العليّة ما بها من مضرّة ومنفعة وحكّمك في البلاد وملّكك رقاب العباد فايّاك انْ تغفل عن عمارتها بالزراعة او تسلّم زمام تدبيرها الى يد الاضاعة فانّك منقول منها ومسئول عنها وانّ مصالح عساكرك بها منوطة وأحوال ملكك بالعساكر مربوطة فكلّما تعمّرت الضياع والقرى ترفّهت الاجناد والامرا واستراحت الرعيّة واستمرّت مناظم الملك مرعيّة وتوفّرت الخزائن واطمأنّ الظاعن والساكن وقلّت المظالم وكفّت اكفّ الظالم وملاك هذا كلّه العدل

والاستوا ومجانبة الاغراض الفاسدة والهوى . وهذا الذي يقتضيه مقامك ويتمّ به مراسك فانّ الملك انّما هو ملك الاجناد فلابدّ له من عمارة البلاد والنظر في مصالح العباد لينتظم بنظره مصالح العالمين ويستقيم أمر العالم الى الحين الذي قدّرهُ أحكم الحاكمين فانّ سنّة الله جرت على هذا السنن وما رآهُ المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن . وايّاك ايّها الملك العظيم وصاحب الملك الجسيم واخذ المال من غير حلّه ووضعهُ في غير محلّه ولو كان موضع الخير وقُصد به نفع الغير فانّهُ لا يفي ذاك بذا ولا يقوم نفعهُ بما فيه من أذى فذلك كانشاء المغارس وبنيان المدارس وتنوير المساجد وتعمير المعابد وسدّ الثغور وعمارة القبور واقامة القناطر والجسور وعمل مصالح الجمهور واطعام الطعام وكفالة الايتام والحجّ الى بيت الله الحرام واعطاء السائل واغناء الارامل وصرف النفقات واخراج الزكوات والصدقات ومثلهُ الوبيل كما قيل * شعر *

بنى مسجدًا لله من غير حلّه * فصار بحمد الله غير موفّق
كمطعمة الايتام من كدّ فرجها * لك الويل لا تزني ولا تتصدّق

وشرّ الناس ياذا الباس مَن اتّبع قضيّة اياس * فسال العتاب عن بيان هذا الخطاب *

فقال : كان في الشام شخصٌ من اللئام تصدّى لفصل الاحكام ومشى من الظلم في ظلام وشرع في اخذ الاموال

على سبيل التعدّي والوبال فكان اذا اخذ من احدٍ الفا اذخر لنفسهِ من ذلك نصفا وتصدّق بالخمسماية الاخرى على اولي الضرر والضراء كلّ واحدٍ درهما وعدّ ذلك مغنما وقال هذه فائدة علينا بالربح عائدة الحسنات خمسماية والسيّئة واحدة وواحدٌ يدعو علينا وخمسماية يتوجّهون بالثناء والدعاء الينا. ثمّ قال ذلك الجاحد ولا تعجز الخمسماية عن الواحد . هذا وان كان والعياذ بالله صرف ذلك الحرام في الفسق والملاه ونيل الاغراض الفاسدة واقامة الجاه فهو اشدّ في النكال واعظم في الوزر والوبال وهذا المقام يطول فيه الكلام واقلّ ما في الباب أنّ الحلال حساب والحرام عقاب * فاستعذ بالله يا مولى الطير ومولي الخير من نار هذا الشرّ وان تتفرّق طاعتك شذر مذر واعيذك يا سلطان الصافات وما اكتسبتهُ من الطاعات والخيرات ان يُنقل الى ديوان غيرك او يفوز بخيرك سوى طيرك اللّهم الّا أنْ يكون ياذا الوقار والسكون على وجه ما قال مَن احسن المقال * شعر *

ويكتسب الطاعات ذخر العلما * يجود بها يوم القيام على العاصي

او على وجه ما قيل واحسن بهِ من وجهٍ جميل

يجود بما ضنّ الجواد بمثلهِ * من الوفر بل لو امكنتهُ شمائله .

لعاد على المرضى بصحّة جسمهِ * وجاد على الموتى بعمرٍ يطاوله

ومَنّ على النوكى بوافر عقلهِ * وقسّم في الحمقى من الرأي كامله

وثقّل ميزان المخفّ باجرهِ * لذا الوزن لما آد بالوزر كاهله

ولو لم يكُن في كفّهِ غير نفسهِ * لجاد بها فليتقِ الله سائلـه

واعلم ايُّها الملك الاعظم واسلم انّ العدل ميزان الله تعالى في الارض بهِ ينتصف بعض الرعيّة من البعض وبهِ يؤخذ للضعيف من القويّ ويُعبد الله على السراط السويّ ويتميّز الحق من الباطل والحالي من العاطل وهو من صفات الذات واعظم الصفات بمعنى انّ الله تعالى عزّ وجلّ جلالا لـهُ ان يفعل في ملكهِ ما يشاء فيؤتي الملك مَن يشاء ويعزّ مَن يشاء ويذلّ مَن يشاء ويحكم ما يريد والخلق كلّهم لهُ عبيد وجميعهم بعض ملكهِ نافذ فيهم سهم امر ملكهِ فلا اعتراض على فعل المالك ولا فيما يسلك بمملوكه من المسالك ولا مجال لاعتراض عبدٍ على ذلك لاسيّما اذا كان مولاهُ كريمًا وفي افعالهِ مدبّرًا حكيمًا فمن عرف انّ الله عدل وانّ افعالهُ جاريةٌ بين العدل والفضل يتلقّى نقمهُ بالصبر ويقابل نعمهُ بالشكر ويطمئنّ خاطرهُ وتسكن الى مولاهُ سرائرهُ فلا يستقبح موجودا ولا يستهجن مفقودا ولا يستثقل حكما ولا يرى في الكون ظلما بل يستقبل كلّ شيءٍ بالرضا والسرور مسلّمًا ارادته لله تعالى مدبّر جميع الامور ويقابل العوارض بما قالهُ ابن الفارض * شعر *

وكلّ اذى في الحبّ منك اذا بدا * جعلتُ له شكري مكان شكيتي

واعدل المخلوقات واوسط الكاينات الانبيآء عليهم السلام فانّهم اعدل الخلق مزاجًا وطبيعة واقوم الناس منهاجًا وشريعة واوسط البشر افعالاً واقسطهم اعمالاً واقوالاً وانّما يعرض على أقوالهم ويعترض لافعالهم مَن هو عن الصواب منحرف وعن جادة الحق منصرف ومَن عين بصيرتهِ عمياء عن مراقبة التحقيق كالاعمى الذي خرج وهو ماشٍ عن سوآء الطريق فيعثر في شوكٍ او حجر او يصدمهُ حيوانٌ او شجر فيقول نحّوا هذا عن الطريق فانّهُ يحصل بهِ للمارّة تعويق ويعيب على واضعهِ وانّما العيب في طبائعهِ والجهل منسوب اليهِ لعمى قلبهِ وعينيهِ * وقيل الملك يدوم مع العدل ولو كان الملك كافرا ولا يدوم مع الظلم ولو كان الملك مؤمنا وما تعاطى حاكمٌ ذو فضل فصل قضيّةٍ في فصل احسن من سلوك طريقة العدل ولهذا بقيَ اسم انوشروان مخلّدًا بالعدل على مرّ الزمان والى يوم يُنصب الميزان مع انّهُ كان مجوسيًّا يعبد النيران والسنّة التي اخترعها بالسلسلة التي وضعها باقية في ممالك الصين معمولٌ بها الى آخر حين وقيل انّهُ كان شديد الوداد للاصطياد وكان يعشق البازي والزرّق والصقر والباشق والبيدق فسأل يومًا من البازدار لِمَ كانت هذه الاطيار قصار الاعمار. قال: لانّها تظلم الطيور والظالم عمرهُ قصيرٌ لا يطول. فتنبّه بهذه الكلمة واتّعظ وكفّ يدهُ عن الظلم

واحتفظ. ثمّ اسّس قواعد العدل فانتشر ذكرهُ الى يوم الفصل * وروي انّ بعض الملوك العادلين والحكّام الفاضلين استولى عليهِ الكبر ووقر في اذنهِ وقر وكان قبل الصمم في العدل والكرم كما قيل * شعر *

وانّة مظلومٍ وغنّة سائل * على اذنهِ احلى من الشهد في الفم

فحزن لفقد سمعهِ وتأسّف وتحرّق وتلهّف وتأرّق وبكى وتأوّه واشتكى وقال: ما اتلهّف من عدم سماع الحديث الّا على فقدي صوت المستغيث ولا كنتُ اتلذّذ من متكلّم الّا بالاصغاء الى خطاب المتظلّم. ثمّ قال ولئن حرمتُ ذلك من طريق الاخبار فلاتوصلنّ اليهِ من طريق الابصار. ثمّ أمر باشهار النداء في الاطراف والارجاء انّهُ مَن كانت لهُ ظلامة فليظهر لهُ علامة وهي ان يلبس ثوبًا احمر ويقف فوق ذلك التلّ الاخضر لنعرف علامته ونكشف ظلامته. وقيل انّ السلطان السعيد نور الدين الشهيد لمّا أمر ببناء دار العدل وعزم أنْ يقيم فيها للحكومات الفصل ادرك الامير الكبير صاحب الرأي المنير اسد الدين شيركوه ما يعتمدهُ السلطان ويرجوه وما يحملهُ على ذلك ويدعوه وعلم انّ ذلك الاسد لا يُسامح عنهُ احد وانّهُ لا يراعي في الحقّ اميرا ولا كبيرًا ولا صغيرا فانّهُ مع الحقّ وبالحقّ قائم لا تاخذهُ في الله لومة لائم فجمع مباشري ديوانهِ واكّد ما قالهُ لهم بايمانهِ

لئن شكا منهم احد او بلغهُ عن احدٍ من حاشيتهِ ظلم او نكد ليذيقنهُ اشدّ العذاب ولينزلنّ بهِ انكى عقاب. وقال: ما برز هذا الامر العزيز الغالي ببناء هذا المقعد العام العالي الّا لاجلي ولاجل امثالي فما وسعهم الّا طلب الخصوم واسترضاء العادل المظلوم * وروي انّ احد الصدور غصبهُ بعض عمّال المنصور واخذ منهُ كفرًا من الكفور فتوجّه الى الخليفة وضرب لهُ امثالًا ظريفة وقال: أصلح الله امير المؤمنين واقام بهِ شعائر الدين ونصر بهِ المظلومين على الظالمين أأذكر ظلامتي اوّلًا أم اضرب امام حاجتي مثلًا. فقال: دع الجدل واضرب المثل. فقال: لهمك الله العدل واقام بك قواعد الفضل انّ الطفل اذا نابهُ ما يكرههُ او قرعهُ خطبٌ يجبههُ فرّ الى امّهِ واجهش اليها من همّهِ فآوى الى حضنها واندسّ تحت بطنها لانّهُ لا يعرف سواها فيستكشف بها عن نفسهِ ما دهاها ولا يظنّ انّ غيرها يدفع عن نفسهِ ضررها. فاذا عرف اباه بثّ اليهِ شكواه واستدفع بهِ ما عراه لانّهُ قد وقر في وهمهِ أنّ اباهُ اقوى من امّهِ وانّ غيرهُ من الناس لا يقدر على دفع الباس فيلجا اليهِ فيترامى في دفع شدائدهِ عليهِ ولا يقبل عذرهُ ان ترك نصرهُ او قصّر في مبتغاهُ. او تهاون في متمنّاهُ ولهذا قيل: انّ المرأة والطفل الصغير يظنّان انّ الرجل على كلّ شيء قدير. فاذا اشتدّ واستوى واصابهُ

من احدٍ جوى تقدّم الى الوالي لانّ مقامهُ عالي وهو اقوى من ابيهِ فيستكشف بهِ ما وقع فيهِ. فاذا صار رجلًا واصابهُ من احدٍ نكدٌ وبلا استنجد بنائب السلطان فوجدهُ لهُ احسن معوان فاشكاهُ ورفع بلواهُ وكفاهُ اذ دعاهُ من عداهُ ما دهاهُ ورعاهُ عمّا عراهُ فانّهُ اقوى من الوالي واقدر على دفع الظلامة من كلّ منهمكٍ غالي وهو السلطان الحاضر والعامل والناظر على البادي والحاضر. فاذا ظلمهُ الوالي والعامل ونقّصهُ حقّهُ ذو الحكم الكامل تعلّق باذيال عدل السلطان واستكشف براحم نصرتهِ ما دهاهُ من عدوان اذ قد تحقّق ورأى وصدّق انّهُ اقوى من الكلّ والى مرسومهِ مرجع الجلّ والقلّ ولا يدَ فوق يدهِ وانّهُ قد انتهى حديث رفعتهِ لعلوّ سندهِ وبلغ في التسلّط ونفوذ الامر الى اقصى امدهِ اذ هو ظلّ الله في ارضهِ وخليفتهُ في اقامة نفلهِ واحياء فرضهِ وقابض ازمّة المخلوقين ومنصف المظلومين من الظالمين. فاذا لم ينصفهُ السلطان مع القدرة الكاملة والامكان توجّه بشكواهُ الى سلطان السلاطين وطلب رفع ظلامتهِ من ربّ العالمين لعلمهِ انّهُ الحكم الذي لا يجور والحكيم الذي بيدهِ مقاليد الامور والحاكم الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور وانّهُ اقوى من السلطان ولا يحتاج في الشكوى الى بيّنةٍ ولا بيان ولا الى دليلٍ ولا برهان. وقد نزلت بي حادثة للقلب كارثة

وبالفكر عابثة وللسرّ عائثة وهي انّ العامل الفلاني ظلمني واخذ مكاني فانا اشكوهُ اليك وقد ترامیتُ عليك وعرضتُ قصّتي بين يديكِ لانّك نعم السند وليس فوقك احد ولا في الحكّام الآمَن هو لك بمنزلة الغلام وما بعدك الّا الله مولًى لا يخيب مَن رجاه ويجيب المضطرّ اذا دعاه فان وعيتُ قصّتي وكشفتَ غصّتي والّا رفعتها الى الله وقطعتُ النظر عمّا سواه وهذا أوان الموسم واعمال المنسم وانا متوجّهٌ الى حرمهِ ومترام على باب احسانهِ وكرمهِ * فلمّا وعى المنصور خطابهِ ارسلَ من سحاب جفنهِ عبابهِ وقال حبًّا وكرامه ياذا الزعامه بل انصفك وبالفضل اسعفك واضعّف كرامتك واكشف ظلامتك واوصلك حقّك واعطيك مستحقّك وامر فكتب الى واليهِ يضع من معاليهِ ويأمرهُ بردّ اراضيهِ وطلب مراضيهِ والتحلّل من ظلم ايادیهِ واكرام محلّهِ ونادیهِ * وكتب في قضيّة الى اعدل خلفآء بني اميّة من عامله بحمص انّهُ هدم الدمص وعدم النمص وانّ ربضها رابض ومرعى رياضها بارض وانّها محتاجة الى عمارة وزراعة وحراسة ومناعة . فكتب اليهِ عمر بن عبد العزيز هذا الجواب المفيد الوجيز وهو حصّنها بالعدل ونقِ طرقها من الحدل يثبت البنا وينبت الكلا والسلام * وقيل : امير بلا عدل كغيمٍ بلا مطر وعالم بلا ورعٍ كشجر بلا ثمر وشابٌّ بلا توبة كمشكاةٍ بلا مصباح وغنيٌّ بلا سخا كقفلٍ بلا مفتاح

وفقيرٌ بلا ادب كطابخٍ بلا حطب وامرأةٌ بلا حيا كطعامٍ بلا ملح وقاضٍ جائرٍ كملحٍ على جرح * وقيل العالم بستانٌ سياجهُ الشريعة والشريعة سياجة يخدمها الملك والملك راعٍ يعضدهُ الجيش والجيش اعوان يكفلها المال والمال رزقٌ تجمعهُ الرعيّة والرعيّة احرارٌ يستعبدها العدل والعدل سلك بهِ نظام العالم . وحاصل الامر ياذا النهي والامر انّ العدل هو قوام كلّ فضيلة كما انّ الصبر هو اساس كلّ خصلةٍ جميلة والعدل يجري في الصفات كما يمشي في الذوات ومرتبتهُ في العلوّ ان يكون بين التقصير والغلوّ كالكرم الذي يكون بين الاسراف والتبذير والشحّ والتقتير والتواضع الذي بين الضعة والتكبّر وبين التصعّر والتصغر والشجاعة التي بين التهوّر والخفّة والجبن الطائش الكفّة والقناعة التي بين الحرص والطمع والنذالة والهلع وبين العجب والتصلّف والاحتشام والتقشّف والاخلاص الذي بين الشرك والهوى وبين الاعجاب والريا والعفّة التي بين التهافت على المشتبهات والترفّع عن تناول المباحات والطيّبات والحزم الذي بين سوء الظنّ والوهم والوسواس وبين اذاعة السرّ والاستخفاف وعدم المبالاة بالناس والحلم الذي بين الغضب بلا سبب وبين التغاضي عن اللئام عند موجب الانتقام والشفقة ولين الجانب للاقارب والاجانب الذي بين القسوة والاستكبار وبين الرخاوة واللين

المستلزم لتضييع حقوق الاهل والجار وحفظ الحقوق الذي بين التكلّف والعقوق يراعى فيها الحدود ولا يخرج فيها عن الحدّ المعهود فالخروج عنها يسمّى عناد وقساوة والتقصير فيها يُدعى ركاكةً ورخاوة مثلاً مَن يستحق العفو لا يُضرب ومن يستاهل الضرب لا يُقطع ولا يُنكب ومَن استوجب القطع لا يُقتل ومَن وجب عليهِ حدّ لا يُهمل وتجري امور الشرع الشريف على ما ورد بهِ الامر المنيف فما ثمّ احدٌ اكرم من الله ولا ارحم ولا اعلم بامور مخلوقاته ولا احكم * وروي انّ الامام المسدّد جعفر بن محمّد دخل على الرشيد وهو في امرٍ شديد قد استولى عليه الغضب واستخفّهُ الطيش والصخب . فقالَ يا امير المؤمنين ان كان غضبك لربّ العالمين فلا تغضب لهُ اكثر من غضبهِ لنفسهِ وقد حدّ لكلّ شيء حدا من نعمهِ وباسهِ فلا تتعدّ حدودهُ فانّه قد ملّكك عبيدهُ فتذكّر من وقوفهم بين يديك واقتدارك عليهم اذا تمثّلوا قيامًا لديك قدومك يوم القيامة عليهِ ووقوفك خاضعًا منفردًا بين يديهِ ومن انتقامك منهم سوالهِ اياك عنهم فسكن من غضبهِ واقتدى بادبهِ * وقال الحكما للاسكندر عليك بالاعتدال في كلّ الامور فانّ الزيادة عيب والنقصان عجز وفي الحديث خير الامور اوسطها ولهذا قيل في الاقاويل ينبغي للانسان الراجح العقل في الميزان ان يحصّل من كلّ علمٍ مقدار ما يحتاج اليهِ ويعوّل

في مشكلاتهِ عليهِ مثلًا مِن علم الادب ما ينال بهِ عند اربابهِ الرتب كاللغة والنحو والصرف ولو انّه ادنى حرف ليقوّم بذلك لسانهُ ومن علم المعاني ما يبدع بهِ بيانهُ ومن العروض والقوافي المقدار الوافي والمعيار الكافي ومن الطبّ ما يعرف بهِ مزاجهُ ويصلح بهِ علاجهُ ويقوّم بهِ اعوجاجهُ ومن علم الكلام ما يصحّح بهِ دينهُ ويقيم بهِ اعتقادهُ ويقينهُ ومن علم الاصول وما اشتمل عليهِ من معقولٍ ومنقول ما يقدر بهِ على استنباط الاحكام ومعرفة ادلّة الحلال والحرام ومن علم الفروع ما يحكم بهِ اصناف العبادات وانواع العادات وطرائق العقود واقامة الحدود ومن علم مكارم الاخلاق ما يصيد بهِ قلوب الرفاق ويكتسب بهِ الذكر الجميل والثناء الجليل ومن الحرف ما يحصّل بهِ القوت الحلال ولا يصير على الناس كلًّا ذا املال . وقد قيل : خالطوا الناس مخالطةً ان غبتم حنّوا اليكم وان متّم بكوا عليكم . ومن علم الركوب والرمي والسباحة والخطّ ولعب الرمح والسياحة وعلم الفرائض والحساب وطرائق المبايعات والكتاب ما يقدر بهِ على الدخول اليهِ اذا تكلّموا فيهِ بين يديهِ بحيث يكون لهُ فيهِ مشاركة والمام ولا يكون بين الخواصّ كالعوامّ وكلّ ما ذُكر فسلوكهُ عدل والتلبّس بهِ كمالٌ وفضل ورأس مال الجم[illegible] التقوى فانّ الانسان الضعيف بالتقوى يقوى وبالجملة فالعاقل العادل بل

الكامل الفاضل لا يستنكف عن نوعٍ من العلوم ولا تبرد همّته عن اقتباس منطوقٍ ومفهوم * شعر *

عرفتُ الشرّ لا للشرّ لكن لتوقيهِ * ومَن لم يعرف الخير من الشرّ يقع فيهِ

وكلّ صافي السريرة وذي بصيرةٍ منيرة يتوجّه الى التعلّم والاستفادة ويجعل مرادهُ مرادهُ ايّ علمٍ كان خصوصًا اذا كان من الشرف بمكان . قال بعض الوزرآء لابنهِ يا بنيّ تعلّم العلم والادب ولا تسأم فيهما من الطلب فلولا العلم والادب لكان ابوك في السوق حمّالا وللنوق جمّالا فبالعلم والادب ركبنا اعناق الملوك واحوج الناس يا ذا الافضال الى اكتساب الفضل والعلم والكمال السلاطين والملوك ومَن تبعهم في السلوك فانّهم بين خلق الله تعالى هم المرموقون والسابقون بجلائل النعم لا المسبوقون وبحفظ بلادهِ وعبادهِ المستوثقون وبالسؤال عنهم موثوقون فهم المتحمّلون لاعبآء العدل المكلّفون بالمحاسبة عنهُ والفضل وهم اقدر على التحصيل من غيرهم والزمان والمكان تابعان لسيرهم والخاصّ والعامّ يتمنّى قربهم ويسلك في التوصّل الى جنابهم دربهم ويبذل في ذلك ما وصلت اليه يداه ويجعل تحصيل ما يرومونهُ غاية متمنّاهُ فيبذل جهدهُ في ايصالهم اليهِ ويكدّ قلبهُ وقالبهُ في اطلاعهم عليهِ قال الشاعر * شعر *

ولم أرَ في عيوب الناس نقصا * كنقص القادرين على التمام

وقال بعض الملوك لاولادهِ : يا بنيّ اكتسبوا العلم والفضل واذخروا

الحلم والعدل فان احتجتم الى ذلك كان مالا وان استغنيتم عنهُ كان جمالا . وقال بعض الحكمآء العلم ملك ذو اعضآء رأسهُ التواضع ودماغهُ المعرفة ولسانهُ الصدق وقلبهُ حسن النيّة ويداهُ الرحمة ورجلاهُ مثابرة العلمآء وسلطانهُ العدل ومملكتهُ القناعة وسيفهُ الرضآء وقوسهُ المسائلة وسهمهُ المحبّة وجيوشهُ مشاورة الادبآء وزينتهُ النجدة وحكمهُ الورع وكنزهُ البرّ ومالهُ العمل الصالح ووزيرهُ اصطناع المعروف ومستقرّهُ جودة الرأي ومأواهُ الموادعة ورفيقهُ مودّة الاخيار وذخيرتهُ اجتناب الذنوب . والحاصل يا ملك الطير ويا مالك عنان الخير انّ قوام العالم ونظام بني آدم سيف الملوك والسلاطين وقلم العلمآء الاساطين . فمهما حدث من شرٍّ محاهُ سيف الملوك ومهما وجد من خيرٍ اثبتهُ قلم علمآء الارشاد والسلوك وفي الحقيقة يا شيخ الطريقة العالم عبارةٌ عن هولآء وبصلاحهم تصلح الاشيآء وبفسادهم والعياذ بالله تفسد الدنيا اذ هم لزوال الفساد وطهارة العباد وعمارة البلاد بمنزلة الصابون للاوضار والاستغفار للاوزار فاذا فسد هولآء فما لفسادهم دوآء كما قيل * شعر *

الذنب صابون الاستغفار يغسلهُ * كالثوب ينظف بالصابون إنْ وسخا

فما الذي يغسل الصابون من دنسٍ * اذا رأيناهُ صار الذنب والوسخا

وناهيك يا ملك العقبان ما فسد من الزمان وجرى من الدمآء من طوفان وانمحى من امّهات البلدان عند استيلآء الكافر

جنكزخان ❊ فسأل العقاب عن كيفيّة هذا المصاب والعقاب ومَن هو جنكزخان الذي أفسد وخان وما أصلهُ وفصلهُ وكيف كان قطعهُ ووصلهُ حتى نفذ في كبد العالم بالفساد نصلهُ ❊

فقال: هذا رجلٌ من بقايا التتار الساكنين من بلاد الشرق في قفار وهم من بقايا ياجوج وماجوج عن الاسلام منحرفون وعن الايمان عوج سُمّوا بالترك لانهم تركوا عن دخول السدّ بالخروج فكانوا قبل جنكزخان مبدّدين في صحارى لا يتّفق منهم اثنان مسيرة اماكنهم ومدى مساكنهم شرقًا بغربٍ نحو ثمانية اشهر وشمالًا بجنوبٍ لا ينقص عن هذا المدى ولا يقصر حدّها من الشرق حدود ممالك الخطا واقصاها خان بالق وهي مدينةٌ عظمى ووراءها شرقا يا مَن يرقى ينتهى الحدّ بعد السير الجدّ الى بلدةٍ عظيمة ولاياتها جسيمة تدعى خيسار واهلها كفّار وهي مبدا مملكة الصين يا ذا المجد الرصين . ومن الشمال نواحي قرقير وسلنكاي . ومن الجنوب بلادٌ تدعى تنكين وتبت . وتبت هذه يا ذا النسك هي التي يتولّد من غزالها المسك . ومن الغرب حدود بلاد اويغور وما والى تلك الكفور من بلاد تركستان يا ذا الاحسان ويسير المجدّ منها اذا انفصل عنها كذا وكذا شهر حتى يصل من جهة غربها الى ما وراء النهر ❊ ثمّ هولاء التتار كانوا في تلك القفار بين هذه الحدود الاربعة

في مضيعة وايّ مضيعة يتوالدون في ذلك البرّ ويتهارجون في ذلك السهل والوعر كالحيوانات السائبة في البرّ والبحر لا حاكمٌ يردعهم ولا دينٌ واعتقادٌ يجمعهم وهم فيما بينهم قبائل وشعوب واصناف وضروب وخلائق وامم لا يعرفون النظام والسلم بل كلّ امة تلعن اختها وتنهب تحتها وتاكل رختها وكلّ طائفةٍ تعدّ غارتها وتقصد جارتها وكلّ مَن قوي على غيره كسرهُ امّا قتلهُ وامّا أسرهُ لم تزل المكافحة بينهم قائمة والمناطحة بين ثيرانهم وكباشهم دائمة وعيون الرشد والاهتداء عنهم نائمة وضواري الظلم والاعتداء في مسارح سوارح احلامهم سائمة يعدّون النهب غنيمة والفسق والفجور والنميمة أجمل صنعة وأكمل شيمة ياكلون الكلاب والفار وما وجدوهُ من صيد القفار والميتة والدم والهوامّ لا يعرفون الحلال منها والحرام ويلبسون جلودها واوبارها واصوافها واشعارها لا زرع لهم ولا ثمر سوى نوعٌ من الشجر يشبهُ شجر الخلاف هو ثمرهم في الشتاء والاصطياف اسمهُ قسوق وهم على ما هم عليهِ من الفسوق يعبدون الاوثان والاصنام ويسجدون للشمس اذا بزغت من الظلام ويعظّمون النجوم ويعبدونها وتخاطبهم الجنّ ويرصدونها وفيهم كهنة يعتقدونها وسحرةٌ مكرة وسواجع وزجرة يُجبى خراجهم الى ملك الخطا وهم على اشدّ كفور وخطا قد تركّب الكفر في احشائهم وانّ الشياطين ليوحون الى اوليائهم وأعلى مَن فيهم من اكابرهم وذويهم علامة رياسته

وانفرادهِ بسياستهِ وانّهُ فيهم ذو بأسٍ شديد ورأيٍ سديد ومالٍ مديد كون ركابهُ من حديد وباقي اعيانهم وذوي مكانتهم وامكانهم ان كانوا ذوي جدّ فركابهم قضيب ملوّى اوقد وعندهم افخر ملبوس جلود الكلاب والنموس والذئاب والتيوس وقس على هذا جميع تجمّلاتهم ومفاخر آلاتهم فهم من قديم الزمان وبعد الحدثان من حين بلغ ذو القرنين بين السدّين وساوى على ياجوج وماجوج بين الصدفين الى آخر وقت كانوا في قلّةٍ ومقت وضيق حال وسوء بال لا دنيا رخيّة ولا آخرة رضيّة حتى نبغ منهم هذا اللعين الطاغية تموجين الذي تسمّى بجنكزخان وساعدهُ الزمان واطاعهُ المكان فطمّ العالم بالفساد فاهلك العباد والبلاد واخلى الديار والدار وعمّ غالب بلاد الاسلام بالشنار والبوار فصار كلّ من اولئك الطغام الكفرة الفجرة الاوغاد اللئام وكلّ كلّاب خادم كلاب الصيود يجري سيفهُ الكال الكدود من اشراف الملوك وملوك الاشراف وفي اعضاد الاسود وفي رقاب النمور والفهود وكلّ ماضغ شيخ وقيصوم وعلج من اولئك العلوج وعلجوم يتفكّهُ في انواع المستلذّات من المشروب والمطعوم وكلّ صعلوكٍ معلوك من تركيّ متروك اوخدّام مملوك يتحكّم في رقاب اكابر المملوك *

* شعر *

على رأس عبدٍ تاج عزيزينه * وفي رجل حرقيد ذلّ يشينه

ومَن لا يعرف البطائن المرويّة ولم يسمع بالرقاع الكرباسيّة يستوطئُ الاستبرق والديباج ويتقلّب على تخوت الصندل والساج ويترقّى الى سرر الابنوس والعاج ويعامل التجّار والمضاربين في البرّ والبحار بالوف الالوف من الدرهم والدينار فيجبي اليهم نفائس المضارب من المشارق والمغارب ومكامن المعادن وذخائر الخزائن كلّ ذلك بواسطة ذلك الطاغية واستيلآء الفئة الباغية * وكان من امر هذا المصاب الذي بدّل حلاوة العيش بمرارة الصاب وخلّد في الدهر قواعد البلايا والاوصاب انّ الله القاهر فوق عبادهِ الذي لا يسأَل عمّا يفعل من مرادهِ بل لهُ المراد في عبادهِ وبلادهِ المتصرّف في ملكهِ تصرّف المالك في ملكهِ لما اراد ابتذال الصون وعموم الفساد في عالم الكون واستئصال غالب أَهل الارض واذاقة بعض عبادهِ باس بعض واظهار آثار غضبهِ على صفحات الشهود ابراز اسرار قهرهِ على وجنات الوجود ولحس سطور صدور علمآء العالم على لوح الورود بلسان نار السخط ذات الوقود ونقص ارض العلم من اطرافها واخلآء ربوع المحاسن من الافها أَينع هذا التمساح من افواج امواج هذه البحار ونبع هذا التنّين المبين من اوعار تلك القفار واغوار اوغار هاتيك التتار فكان ممتازاً على اقرانهِ بوفور عقلهِ وحسن بيانهِ ذا فكرٍ مصيب ورأيٍ صائب وحزمٍ عجيبٍ وعزمٍ ثاقب وهمّة تباري الافلاك وثباتٍ يجاري السماك

كسر بصدماته الاكاسرة وقصّ بسطواته القياصرة وقرع بعزماته على قمم الفراعنة والجبابرة وقهر بحملاته قهارمة خواقين القياصرة وكان اميًّا لا يقرأ ولا يكتب أعجميًّا عجريًّا لا يحسب ولا ينسب لا طالع الاخبار ولا اقتفى في سياسة الممالك والآثار بل فرّغ ما فرّعهُ من القواعد من صحيفة تفكيره واخترع ما ابتدعهُ من تدبير الملك من مطالعة هواجس ضميره فاسّس قواعد لو ادركهُ اسكندر ودارا لمَا وسعهما الا اقتفاء أثره وشيّد مباني لو بلغت نمرود وشدّاد لبنيا قصور قصورهما واصارهما على اركان خبره وخيره ورتّب تجهيز السرايا والجنود وربط عقود الجيوش والبنود بطرائق يعجز عنها مهندس الحكمة ويتقاعد عن حلّ رموزها معزم الفطنة. وغالب ما يتعاناهُ ويستعملهُ ويتعاطاهُ جيوش الاتراك في بسيط الارض من ابرام طرائق عساكرهم والنقض انّما هو من قوانين ما رتّبهُ وافانين ما هذّبهُ وركّبهُ. ولهُ في ترتيب حراب الحروب وما في فنّ الضرب والضراب من ضروب وطرائق الاصطياد مخترعات دقائق لم يسبق اليها من لدن كيخسرو وكيقباد أحكم بها الموافق ونصر المصادق وكبت المعادي وكسر الاعادي واستطال مع كثرة مخالفيه عليهم وانفذ سهم تحكّمه وتحكيمه فيهم واليهم وصال فيهم حسبما اراد وجال واتّسع لهُ في التضييق على الاسلام والمسلمين المجال فكلّ مَن عاملهُ بالمجاملة وتلقّاهُ بالعبوديّة وحسن المعاملة ابقى على نفسه واهله وماله وحصّنهم

من اليم خيله ورجاله ومَن قابلهُ بالمقاتلة وقاتلهُ بالمقابلة وتلافى صفّ قتاله بسورة المجادلة محا سطور كونه من لوح الوجود واوطأ سنابك خيله منهُ الجباه والخدود فخرّب ديارهم ومسح آثارهم مع شركه واسلامهم وتبدّد عساكره ونظامهم ومع أنّ اكثر الملوك والسلاطين وحكّام الممالك الاسلاميّة من الامرآء والاساطين لعدم اكترائهم بالاتراك والتتر وشدّة ماهم فيه من النخوة والبطر ولاعتمادهم على حصونهم الحصينة وتعويلهم على معاقلهم المكينة ولكثرة العَدد والعِدد ومساعدة المَدد والمِدد ولوفور العمائر ببلادهم وخراب بلاده وبسطة استعدادهم وضيق استعداده لم يعاملوهُ الّا بالمكافحة ولا ردّوا جواب خطاباته الّا باللعن والمكالحة والسبّ والمنابحة ولا قابلوهُ الّا بالمراشحة والمراوسة والمناطحة فقتلهم واباده واستصفى طارفهم وتلادهم وتوطّن ديارهم وبلادهم واباده عن آخرهم واطفأ قبائل عشائرهم فمدّ لاكابرهم اسمطة الرزايا ووضع في افواه اصاغرهم اثدية المنايا واضافهم في ولائم الدمار واطافهم على نجاب الانكسار في ملابس البوار فاستأصل شافتهم بالكلّيّة وحكّم فيهم صوائل المنيّة فلم يبقَ من مایة الف انسان مثلاً مایة انسان وذلك ايضًا امّا على سبيل التغافل أو على سبيل النسيان وسيذكر على سبيل الاجمال ما يدلّ على تفصيل ما لهُ من أحوال وشواهد ما فرّعهُ من اهوال واستمرّ ذلك في ذرّيّته وان كانوا رجعوا عن ملّته ❊

وأصل هذه الاصلة التي اضحت بخلقان اللّعن اكسى من بصلة
قبيلة من تلك التتار الساكنين في تلك القفار تسمّى قنات ظلمة
عتات غير امناء ولا ثقات منها آباؤهُ واجداده وفيها اقاربهُ
واحفاده واخوتهُ واولاده فنشا كما ذكر بطلاً باسلاً وشجاعًا كاملاً
سهام افكاره في عمره وصيبة ورهام آرائه في مكره خصيبة ثمّ
اتّصل بعد ما اخنى وخان بملك الخطا يسمّى باونك خان وأظهر
من أنواع الفراسة والفروسة والكياسة ما فاق به اناسه
وفات من العقل قياسه فقرّبهُ الملك وادناهُ ولمهمّاته اصطفاهُ
ولا زال يترقى عنده الى ان ملك جنده وصار عضدهُ وزنده ودستور
ممالكه ومسلك مسالكه وحاكم امرائه وناظم امور وزرائه وناظر
جمهور كبرائه وعين أعوانه وعون اعيانه واعزّ من اخوته واولاده
وابرّ من حفدته وتلاده وكثفت حواشيه وعظمت غواشيه
وملأت السهل والوعر فواشيه ومواشيه . فثقل على الوزراء
وصعب على الامراء اذ مدار الملك صار عليه ومرجع الامير
والمأمور اليه . فحسده اولاد الخان واخوتهُ واجنادهُ واسرتهُ وعملوا
لهُ المكائد ونصبوا لهُ المصائد وتعاطوا افساد صورته وتواطئوا
على اخماد سيرته فصاروا يتناوبون على ذلك في غيبته ويمزّقون
اديم عرضه عند الخان ويشقّقون ستر عصمته بمخاليب البهتان
ويراقبون للكلام اوقات القبول ويواظبون في السعاية عليه بدلائل
المعقول حتّى اوغروا صدر الملك عليه واخذ يفكر في كيفيّة

ايصال الاساءة اليه ولم يقدر على مواجهته لوفور جماعته وكثرة
حاشيته فانّ اوتارهُ كانت ثابتة وغراس هيبته كالارزة نابتة
وفروع دوحة عصباته قد احاطت بالملك من كلّ جهاته حتّى
قيل انّ ذلك الثقيل كان لهُ من القرابات وذوي الارحام
والعصبات والاولاد والاحفاد ما جاوز في التعداد عشرة آلاف
نسمة كلّ لهُ حرمة وكلمة . فاظمر لهُ السلطان البيات
وانتخب لذلك من عسكره اولي الثبات والاثبات الثقات ولم
يختلف عليه في ذلك اثنان لانّهُ كان قد استحكم فيهم منهُ
الشنآن وعلموا انّ سهم مكرهم نفذ وحسام فكرهم في قطعة فلذ
ورأوا من الرأي أرصنه ان يراقبوا لحتفه مكمنه فتواعدوا على
ليلة معيّنه يدهمون فيها مأمنه . وكان عند الخان صبيّان مجرمان
لا يُوبه اليهما ولا يعوّل في الامور عليهما يدعى احدهما كلك والآخر
بادة فانسلّا من بين اولئك القادة وسلكا طريقًا غير العادة اتيا
تموجين الطاغية اللعين في خفيه ونبّها وعيه واخبراهُ وبصّراهُ
وانذراهُ وحذّراهُ بما تمالأ عليه الملك مع عسكره المنهمك وقالا
ايُّها العفريت قد طُبخت لك قدرة التبييت فتنبّه من النوم
وارقب في الليلة الفلانية هجوم القوم فانّهُ قد مرج مارج
الفتنة فامرج وعن وهاد غفلتك اعرج انّ الملا يأتمرون بك
ليقتلوك فاخرج وباعاهُ من السرّ ما جرى بتخبير المشترى
وقصّا عليه القصص فخلّصا طير حياته من القفص وظبي

نجاته من القنص . فشكر لهما فضلهما واستكتمهما قولهما . ثمّ تثبّت في أمره واخفاهُ عن زيدٍ وعمره وجمع تلك الليلة رجله وخيله ولم يبدِ تلك الحال لاحد من الرجال بل اخلى بيوتهُ ولازم سكوتهُ وقصد أحد الجوانب بما معهُ من راجل وراكب واقام في كمين ينظر ايصدق الواشي ام يمين . فما مضى هزيع من الليل الّا وقد هبطت الخيل فوجدوا البيوت خالية والاطلال خاوية فتحقّق صدق الناقل وانّهُ ناصح عاقل . فعمل مصلحتهُ وأخذ حذرهُ واسلحتهُ وتقرّر وقوع النكد فتقدّم امامهم واستعدّ فقصدوهُ وبالاذى رصدوهُ ولا زالوا يتبعونه حتى التقوا بمكان يُسمّى ببالجونه وهو عين ما في حدود بلاد الخطا فاشتعلت بين الفريقين نار الحرب وقصد كلٌّ منهم الاخر بالطعن والضرب فاعانهُ الله ونصرهُ فكسر الخان وعسكرهُ وفرّ بمن معهُ من فئته وذلك في سنة تسع وتسعين وخمسماية وغنم تموجين من الاموال والمواشي والاثقال وذخائر الخزائن ونفائس البحار والمعادن ما فات الحدّ والحصر خارجًا عن سعادة النصر وهرب الخان وتهدّمت منهُ الاركان . فجمع جنكز خان عسكرهُ وضبط اسماء مَن حضرهُ ومَن كان شاهدًا القتال ومواقف الحرب والجدال من النساء والصبيان والرجال ومن خادمٍ ومخدوم وخاصمٍ ومخصوم ومأمورٍ وأمير وكبيرٍ وصغير حتى السائس والجمّال والطبّاخ والبغّال والطفل

والرضيع والنذل والوضيع ومَن شهد تلك الغارة او كان في تلك الدارة ولو حاضرًا للتفرّج مع النظارة واستبشر بوجودهم وتيمّن بورودهم فاثبتهم في الديوان باسماء آبائهم وجدودهم وفرّق عليهم ذلك الفيء ولم يرفع الى خزائنه منهُ شيء بل وزع ذلك المغنم الوافر العظيم المتكاثر على الحاضرين معهُ من العساكر وضبط اسمائهم في الدفاتر وفرّق ذلك العرض العريض الطويل على قدر الحقير منهم والجليل ووعدهم بكلّ جميل . واما الغلامان اللذان اخبراهُ وعلى ما كان اضمرهُ الخان اظهراهُ وكانا سبب حياته وخلاصه من الموت ونجاته فانّهُ جعلهما ترخان فصار السهم مقاصهُ كانّهما شرخان والترخان عبارة عن المعافى المطلق يستوفي حقوقهُ ولا يقوم بما عليه من حقّ لا يُؤاخذ بقصاص ان قتل وقس على هذا ما يوجبهُ القول والعمل مقضى المآربِ موصول المطالب لا يكلّف بخدمةٍ ومباشره ولا بحضورٍ ومعاشره مهما طلب اعطي ويعدّ مصيبًا ولو يخطي واعلى مراتبه في مراعاة جانبه انّهُ يدخل على السلطان من غير استئذان فيذكر ما لهُ من مآرب فتقضى ومن شفاعةٍ فتقبل وتُمضى ويعطى بذلك مناشير وتواقيع وتقادير تبلغ التاسع من اولاده وتشمل احكامها جميع اسباطه واحفاده * ولمّا انتصر وحصل امنهُ واستقرّ وتعاظم امرهُ واشتهر وعظم صيتهُ وانتشر قرّر كلُّ مَن حضر تلك الوقعة فيما يليق

به من منصبٍ ورفعة فاقبلت القبائل اليه وانهالت الرؤوس
والوجوه عليه ورجع الخان واستعدّ واعدّ ما وصلت اليه يدهُ
من عدد واستعان عليه بالمدد والعدد . ثمّ تلاقيا كرّتين
وتصاولا مرّتين انكسر الخان في الاولى وقبض عليه بعد
الكسرة في الاخرى فقتلهُ وابادهُ واستملك بلادهُ واستولى
على عساكره واستحوذ على ذخائره وعشائره وهربت اولاد
الخان ولجأت الى اطراف تركستان . ثمّ راسل سلطان الخطا
والصين بكلامٍ رصين يدلّ على عقلٍ حصين واسم ذلك
السلطان التون خان وطلب المهادنة والموافقة والمصافاة
والمصادقة فلم يلتفت الى كلامه فضلًا عن اعزازه واكرامه
اتكالًا على حسبه واستنادًا الى نشبه ونسبه واعتمادًا على
سعة ممالكه وكثرة ملوكه ومناعة حصونه وعمارة بلاده
ووفرة ملوكه فانّ ممالك جنكزخان بالنسبة الى ولايات
الخاقان لا شيء واقلّ من لاش وعساكرهُ وقبائلهُ بالنظر
الى اهل الصين أوشابٌ اوباش . فرجع قصّاد جنكزخان
بالخيبة وذكروا ما رأوا للملك الصين من عظمةٍ وهيبة فلم
يلتفت اليه ثمّ قصد التوجّه عليه بعددٍ كالرجال ومددٍ
كالجبال واوقعهُ فكسرهُ وناقفهُ فحصرهُ وقبض عليه وابادهُ
واستصفى ولايتهُ وبلادهُ . وكانت هذه الكسرة والنصرة في سنة
احدى وستماية من الهجرة . فاستقلّ من غير منازع ولا ممانع

ولا مدافع . فلمّا خلصت لهُ الممالك وانقاد لهُ الملوك
والمالك أخذ في ترتيب الامور وتهذيب الجمهور وطيّر
اجنحة مراسيمه الى اطراف ممالكه واكناف اقاليمه فرفع
جميع ما هم عليه من النهب والغارات والتعزّبات وطلب الثارات
فهدم قواعد الظلم والتعدّي في ممالكه فلم يُرَ أيمن من ولايته
ولا آمن من مسالكه وهي ممالك المغل والخطا والى الصين
شرقًا وولايات المغل والجتا وبلاد الترك والى حدود أترار ما
وراء النهر غربًا . فجرى بعد النهب والاسار في ممالك المغل
والتتار والبغي والعدوان العدل والامان والسلامة والاطمئنان
وبعد السرقة والخيانة الوفاء والامانة . وأمر بوضع البرد
والمنارات والعلايم والاشارات وعمرت المفاوز والمناهل وسكنت
الصحارى والمذاهل وعُرفت طرق المهامة والمجاهل وائتلفت
تلك الطوائف والامم وانتشر صيت عدلها في العرب والعجم .
واخترع كما ذكر أنواع سياسات وقرّر للمملكة قواعد بنيانٍ
واساسات الف بها بين تلك الطوائف فلم يرَ بينهم مخالف
ولا غير موالف على سعة ممالكهم واختلاف مسالكهم وتعداد
اديانهم وتفاوت كيل اخلاقهم وموزانهم فانّهم كانوا ما بين مسلمين
ومشركين ومجوس وارباب ناقوس ويهود ومَن لا يُديّن لمعبود
وصباة وغواة وعباد الشمس والنجوم ومَن يسجد لها اوان الرجوم
وكلّ منهم يتعصّب لمذهبه ويغضّ من مذهب صاحبه فلم يتعرّض

لاحدٍ في دينهِ ولا وقف لهُ في طريق اعتقادهِ ويقينهِ . واما هو فلم يتقيّد بدين لا كافر مع الكافرين ولا ملحد مع الملحدين ولا يتعصّب بملّةٍ من الملل ولا يميل لنحلةٍ من النحل بل يعظّم علماء كلّ طائفة ويحترم زهّاد كلّ ملّةٍ على دينها عاكفة ويعدّ تلك الخصلة قربه حيث يعظّم كلّ دين وحزبه وكلّ من اختار من اولادهِ واسباطهِ واحفادهِ وامرائهِ ورعيّتهِ واجنادهِ دينًا من الاديان لا يعترض عليهِ ايّ دين كان . فبعضهم كان مسلمًا حنفيًّا وبعض كان يهوديًّا وبعض نصرانيًّا وبعض مجوسيًّا الى غير ذلك من الالحاد والزندقة وعدم الاعتقاد . وحيث لم يتعرّضوا الى دنياهُ ولا نازعوهُ ملكهُ الذي تولّاهُ لم يشاققهم في دينهم ولم يواقعهم في يقينهم . واخترع هو لنفسهِ في الملك قواعد حمل عليها المقارب والمباعد . ثمّ لمّا لم يكن لهم كتاب ولا خطّ ولا لاولئك الحروف قلم يعرفون بهِ قطّ أمر اذكياء قبيلتهِ وعقلاء مملكتهِ ان يضعوا لهُ خطًّا وقلمًا يكون لهم علمًا وعَلَمًا . فوضعوا لهُ قلم المغلّ واشتغلوا بهِ اهمّ شغل ونسبوهُ الى قبيلتهِ ليدلّوا بهِ على فضيلتهِ فقالوا قوتا تقويغني قلم قنات وهي قبيلة ذلك القنات فوضعوا مفرداتهِ ورتّبوها ثمّ جمّلوها وركّبوها وهي أربعة عشر حرفا ظاهرة بينهم لا تخفى . فأمر اولادهُ واحفادهُ وجماعتهُ وأجنادهُ ومهرة الرجال والاذكياء والاطفال أن يتعلّموا

هذا الخطّ وينشروهُ ويتداولوهُ ويشهروهُ فانتشر بينهم حتّى ملأ راسهم وعينهم فرسموا بهِ المراسيم والمناشير ورصّعوا بجواهرهِ جباهَ المساطير ووضعوا الرسومات الديوانيّة والتوقيعات السلطانيّة وابتدع لهم تواريخ وحساب كلّ ذلك بهذا الكتاب. ثمّ لما تقرّر امرهُ وانتشر في الافاق ذكرهُ مهّد قواعد أسّسها ونصب في دوحة ملكهِ أصول خلاف غرسها ووضع على ما اقتضاهُ رأيهُ التعيس وفكرهُ الخسيس طرقًا وافانين ودرّب في امور الحكومات اساليب وقوانين فجعل لكلّ حكومة حكمًا وفوّق لكلّ حادثة سهمًا وفرّع لكلّ حسنةٍ مثوبة ولكلّ سيّئةٍ عقوبة وقرّر لكلّ معصيةٍ حدًّا ولكلّ بنيان مخالفةٍ هدًّا ولكلّ فرعٍ أصلا ولكلّ سهمٍ من الوقائع نصلا وبيّن كيفيّة الصيد والحرب وسلك في كلّ ذلك الطريق والدرب والقى دروس ذلك على اولادهِ وجنده وجيوشهِ ورعيّتهِ بحيث انّهم حفظوها ورعوها وفي سير سيرهم هرجًا ومرجًا وعوها . فمن احكامها المظلمة وفروعها المعتمة صلب السارق وخنق الزاني وان شهد بذلك واحد فلا يحتاج الى ثاني . ثمّ فصل حدّ السارق بهذيان فارق فقال في السرقة من چركاه او بيت شعرواه بوجوب الصلب وبقطع اليدان كان بالنقب ثمّ كلا السارقين يؤخذ ما لهما من مالٍ وعين ويسترقّ ما لهما من اولاد وينتقل الى السلطنة ما لهما من طريفٍ وتلاد . ومنها

حقيّة دعوى مَن سبق سوآء كذب او صدق ومنها استعباد الاحرار وارث الفلّاح والاكار ومنها امتثال أمر السلطان على الفور من غير توان ومنها لزوم ما لا يلزم من العطايا وايجاب ما يتبرّع به الانسان من التجمّلات والهدايا حتّى لو اعطى شخصٌ شخصا من مالهِ هديّةً أو شقصا فانّ ذاك يلزمهُ في كلّ عام يغرمهُ ومنها الجثو بين يدي الحاكم على الركب وقت التحاكم ومنها مطالبة الجار بالجار ومعاقبة البرئ بجريمة مرتكب الاوزار وذلك لادنى مناسبة من معرفةٍ او مصاحبة فضلاً عن اكبر اصحابه او شديد قرابهِ ومنها ان لا يتقدّم الوضيع على الشريف ولو كان ذا مالٍ عريض وجاهٍ كثيف ومنها العمل بما يقتضيهِ العقل والكفّ عمّا لا يدركهُ ولو ورد بهِ النقل ومنها منع عفو الحاكم وان عفا المظلوم عن الظالم . ونحو هذه الخرافات الباطلة والهذيانات العاطلة ومَن استخفّها واوسخها واخسفها انّهُ لو اخذ احد ابله عن قواعدهم ذو غفله من ثوب احدهم قمله فان دفعها الى صاحبها خلص من تبعة عواقبها وغرامة مطالبها فان شآء قصعها وان أراد وضعها وربّما اختار عودها الى مكانها فرجّعها وان قتلها او رماها والى صاحبها ما اداها فانّ صاحبها يخاصمهُ والى حاكم التتار يحاكمهُ ويدّعي عليهِ بين يديهِ بانّ هذا الانسان عمد الى حيوان ربيتهُ بين

سحري ونحري وغذيتهُ بدم صدري وظهري فقتلهُ قصدا واضاعهُ عمدا من غير سبب تقدّم اليهِ ولا ايذآء اجترأ بهِ عليهِ فينسبهُ الى الاجترام وياخذ ديتها منهُ بالاغترام وقس على هذا اليسير انواعًا من الكثير ومن نتن هذه البعرة على خرافة البعير . ومن هذه القواعد أمر الاقارب والاباعد بما يستصوبهُ العقل ويستنجدهُ النقل من سلوك طريق الفتوّة ومعاملة الخلق بالمروّة والكرم والاحسان والمداراة مع كلّ انسان والكفّ عن الظلم والغارات اللّهم الاّ في طلب الثارات. ثمّ وضع طرق المكاتبات والمراسلات والمشافهات والمخاطبات فكان في المكاتبات طريقة رسمه ان لا يزيد على وضع اسمه ان يقول في اوّل الكتاب وبراعة استهلال الخطاب عند ابتدآء المقال بعد عدّة أوصال جنكزخان كلامي . ثمّ يكتب تحتهُ من نصف السطر الثاني الى فلان ليفعل كذا ولا يتعلّل بان واذا . ثمّ يذكر فخ المقصود بطريقٍ معهود بين العبارات من غير مجازات واستعارات ويختم بذكر الزمان واسم المنزل والمكان . واذا استدعى احدًا الى الطاعة وسلوك السنّة اسوة الجماعة فانّهُ يتجنّب التهويل والتهديد ويتحامى عن التشريد والتشديد ويرغب بالوعد ويترك الوعيد . ثمّ يقول ان سمعتم واطعتم فزتم وغنمتم وان ابيتم وتماديتم فليس أمر ذلك الينا ولا درك علمهِ علينا يرى فيكم الخالق القديم رأيه فانّ في عنايتهِ وتدبيرهِ

كفايه . فهذه القاعدة باقيه في تلك الفئة الباغية مستمرّة على الدوام والى هذه الايّام جارية على هذا النمط يكتبون اسم الخان والخاقان فقط وكذلك الامرآء والوزرآء والمباشرون والكبرآء يكتبون في اوّل الكتاب فلان لا كنية ولا جناب وهكذا الى الاكابر من الادائي يذكرون اسم الكبير ووظيفته فلان لا الفلاني * ولمّا فرغ من ترتيب هذه القواعد الملعونة وخرج بها على خلاف الشريعة الميمونة وقرّر عليها الامور الديوانيّة والاحكام السلطانيّة أمر بها فكُتبت وبهذا الخطّ رُتبت ورُسمت في طوامير ولُفّت في شقف الحرير وزُمّكت بالذهب ورُصّعت بالجواهر كما فعل ماني النقّاش الكافر واضع مذهب المجوس ومصوّرهُ على صفحات الطروس ومبرز المعقول بطريق المحسوس ليكون اقرب الى تفهيم النفوس في كتابهِ المسمّى بزندواستا ثمّ أمر باحترامها وتوقيرها والمحافظة على ضبطها وتحريرها والعمل بها والاقتدآء بما فيها وتعلّق أهل ملّتهِ بقوادمها وخوافيها . ثمّ رُفعت الى خزائنهِ وهي عندهم اعزّ من الكبريت الاحمر في معادنهِ واسمها بالمغلي التورة وتفسيرها الملّة المأثورة فاذا جلس منهم سلطان على سرير وذلك بما للروسآء من اتّفاق وتدبير وعادتهم في ذلك انّهم اذا رفعوا عليهم سلطانا وارادوا ان يبنوا الدار المملكة خانا اجتمع الامرآء من الاطراف واستدعوا اركان الثغور والاكناف واشتوروا فيما بينهم مدّة ايام واستمرّوا في ذلك ما بين نقضٍ وابرام

وربّما اقاموا في ذلك الجمع العامّ حولاً جميعا او ضعفي عام ويسمّون تلك الجمعيّة قورلتاي وهي مستمرّة الحكم في المغل والجغتاي وسبب ذلك تدافع الامره والفرار من ثقل السلطنة الحلوة المرّة كما كان الصحابة الكرام يتدافعون الفتاوي خوف الآثام . فاذا وقع الاتّفاق بين الرفاق وامرآء الجند وروسآء الآفاق على واحدٍ من اولاد الخان وان يكون عليهم المملّك والسلطان وتصوّب الراي عليهِ وتسدّد وضعوهُ على لبدٍ أسود ثمّ رفعه من الارض الى السرير أربعة أنفس كلّ أمير كبير كلّ حامل بطرف رافع في زعمهِ راية الشرف والخان يصيح بلسان فصيح يا روسآء ويا امرآء ويا ملوك ويا زعمآء انا ما اقدر ان اتسلطن عليكم ولا طاقة لي أن اتحكّم لديكم ولا قوّة لي بهذا الحمل الثقيل والدخول تحت هذا الامر العريض الطويل فيقولون بلى يا مولانا الخان نقدر أن نقوم بحمل اعبآء هذا الشان فيتكرّر الخطاب ويتعدّد الجواب حتى يجلّسوهُ على السرير ويبتهج بذلك الكبير والصغير والمأمور والامير ثمّ يأتون بالتورة الجنكزخانية الملعونة الشيطانيّة مبجّلةً معظّمة محترمةً مكرّمة فينهضون اعضآء مالها ويتبرّكون بمسّهم اذيالها فينشرونها ويشهرونها ثمّ ينصتون فيقرونها ثمّ يبايعون الخان على اقامتها وان يراعي احكامها حقّ رعايتها ويبايعهم على امتثال احكامها واجرآء نقضها وابرامها فيجيب كلّ منهم الامر على ذلك وان يقيم

شعائرها المملوك والمالك ثم يضربون له الجنوك ثلاث مرار ثم
يتوجهون الى الشمس في وجه النهار ويضربون لها الجنوك
ويسجد لها من فيهم من مالك ومملوك ولا يفعلون هذا الفعل
الشنيع الا في ايام الربيع . فاذا تعاقدوا وتبايعوا وتعاهدوا وتتابعوا
رفعوا تلك الكفريات واحضروا الالات الخمريات فأدار الخان
عليهم الكاسات واستعملوا الاقداح والطاسات وفتح الخزائن
وأظهر المكامن ونثر النثار من الدرهم والدينار وخلع الخلع
والتشاريف وأعاد في دروس النفائس ابحاث التصريف واستمروا
على ذلك اياما والانعامات تدر عليهم خاصا وعاما *
وسبب تحركه الى ممالك الاسلام وتوجه عنان سخطه الى
طلب الانتقام هو انه لما استقر أمره وانتشر بعد الجور بالعدل
ذكره وطابت بلاده وامنت وخمدت حركات الظلم وسكنت
توجه من بلاد ما وراء النهر فئة في سنة ثلاث عشرة وستماية
فيهم ثلاثة انفار من اعيان التجار أحدهم يدعى احمد الخجندي
والآخر عبد الله ابن الامير حسن الجندي والثالث أحمد بلجيخ
ومعهم من أنواع المتاجر ونفائس الاقمشة والذخائر ما يصلح
للملوك أولي المفاخر فوصلوا الى بلاده الجاري فيها مياه كفره
وعناده وانتهوا الى قوقات والمسيل وهما محل سريره الذليل
فاكرم نزلهم ورفع محلهم وانزلهم في قباب بيض وافاض عليهم
الكرم العريض وكان شعار المسلمين في تلك البلد ان ينزلوهم

في قباب بيض من لبد وكانوا يقربون المسلمين ويحترمونهم دون
الناس اجمعين . ثم أن جنكزخان دعا احد اولئك الاعيان
واستعرض قماشه وساومه بعدما قربه وأكرمه فطلب منه اضعاف
ثمنه وسامه ما يقضي بغبنه وغبنه فما رد جوابه ولا اعتبر
خطابه ثم طلب رفيقيه واستعرض بضائعهما عليه ثم ساومهما
الثمن فقالا يا ملك الزمن ان صلح هذا القماش خدمناك
به بلاش فليكن ثمنه رضاك وهدية في مقابلة ملتقاك وتقدمة
منا اليك بل خدمة الخادم ادخلنا عليك فاعجبه هذا الحوار
وقال بل أنتم تجار انما جئتم لتربحوا وتكسبوا علينا وتنجحوا وأنتم
ضيوفنا فالاولى ان يشملكم معروفنا ولكن انا اقول قولا
وادفع اليكم نولا فان رايتم فيه فائدة وعاد عليكم منه عائدة
قبلتموه والا فالرأي فيما رأيتموه . ثم ذكر لهما مبلغا ارضاهما وبلغ
به منتهى مناهما بحيث ربح درهمهما ثلاثة واربعة وتضاعفت
لهما مع قرب الملك المنفعة . فقالا رضينا بما رسمت وانعمت به
وقسمت . فقال لرفيقهما الاول ان رضيت بمثل ما رضي به
صاحباك فتحول والا فخذ متاعك وتحول وشانك وقماشك
وتحسس مع ذلك رياشك . فقال رضيت بما رضيا به وتلطف
في خطابه وجوابه . فامر في الحال واحضر المال ووزن الثمن
وزاد ومن والبسهم الخلع وافضل في المصطنع وأمر ببضائعهم
فرفعت وفي خزائنه وضعت * ثم امر خواص بطانته ان يدخلوا

هولآء التجّار الى خزائنه . فلمّا دخلوا اليها ووقع نظرهم عليها رأوا من نفائس الاموال والذخائر واصناف الاقمشة والحرائر وأنواع الجواهر الملوكيّة واجناس الامتعة الكسرويّة واعلاق ملوك الصين ومتحفات الملوك والسلاطين ما ابهت نواظرهم وادهش ابصارهم وبصائرهم فنزّهوا في محاسنها ابصارهم واودعوا احاسن مخيلاتها افكارهم . ثمّ أتوا بهم اليه وادخلوهم عليه . فقال : ماذا رأيتم في الخزائن من نفائس البحار والمعادن . فقالوا : ما لا يصلح الّا في خزائنك ولا ينثر على فرق ملوك المشارق والمغارب الّا من مكامن معادنك . فقال : ما بايعناكم فارغبناكم ولا اكرمناكم اذ صحبناكم بنآء على انّا عامدون ولا انّا بقيمة الاشيآء وقدرها جاهلون وانّما فعلنا ذلك الاحسان وجبرناكم النقصان لعدّة معانٍ احدها انكم اضيافنا وقد شملكم كرمنا وانصافنا ثانيها انّ فضلنا الفضيل يقتضي اكرام النزيل ثالثها اردنا اشتهار اسمنا وان تذكر في الاقطار طريقة رسمنا رابعها انّهُ اذا سمع بمعاملتنا التجّار يقصدون بلادنا من الامصار وسائر الافاق والاقطار فتعمر المسالك والدروب ويَربح الطالب والمطلوب خامسها وهو اعلاها وأحسنها وأقواها انكم املتمونا وافدين وانا لا اتخيّب رجآء القاصدين ثمّ سرّحهم شاكرين ولما سمعوا ورأوا ذاكرين * ثمّ اقتضت الارآء فأمر الامرآء واكابر بلاده ورؤسآء أجناده ان يجهّز كلّ منهم الى الجهات الغربيّة

والولايات الاسلاميّة من جهته احدًا من المسلمين ببضائع من امتعة الخطا والصين في صفة التجّار ليتعاملوا في هذه الديار وتنفتح المسالك وتُنقل اليهم بضائع هذه الممالك وتكثر المعاملات وتتّحد الممالك والولايات فامتثلوا مراسيمه وعدّوها غنيمة وجهّز كلّ منهم من جهته مَن وثق بامانته واعتمد على كفايته واعطاهُ من النقود والاجناس مايصير بهِ من روسآء الناس واجتمعوا قافلة وركبوا السابلة نحو اربعماية وخمسين نفرا كلّهم مسلمون كبرا وكتب لهم مراسيم وجائزات باكرام نزلهم في الدروب والمجازات ومعاملتهم بالكرامات وان تهيّأ لهم ولدوابّهم الاقامات ذهابًا وايابا حضورًا وغيابا . ثمّ ارسل معهم الى السلطان قطب الدين محمّد بن تكش علآء الدين بن رسلان بن محمّد بن انوشتكين وانوشتكين هذا هو اتابك الملوك السلجوقيّة والسلطان قطب الدين هو الفائق من تلك الذريّة رسالةً عاطره تستميل خاطره وتسيل من سحائب كرمهِ مواطره وحسن الجوار ومراعاة جانب الجار وسلوك ما تنتظم بهِ الامور وتطمئنّ بهِ الصدور ويحصل بهِ الامن للصادر والوارد والرفاهية للقائم والقاعد وتنعقد بهِ اسباب المحبّة من الطرفين واطناب المودّة من الجانبين وفتح باب المراسلات وكشف حجاب المعاملات وان كانت الاديان مختلفة فلتكن القلوب مؤتلفة وشمول نظر الصدقات السلطانيّة وعواطف مراحمها

الملوكيّة على القصّاد الوافدين على أبواب مكارمها المستمطرين سحائب صدقاتها وديمها بحيث تسنى مطالبهم وتهنى مآربهم او كما قال وصدر منهُ السؤال هذا وأمّا اخبار السلطان قطب الدين فانّهُ كان من اكبر الملوك والسلاطين تملّك عراقي العرب والعجم وما في ممالك خراسان من أُمم واستولى على غالب الممالك بالقهر والى اقصى ولايات ما وراء النهر وجعل جرجانيّة خوارزم مأواه وتقلّب لذلك خوارزمشاه ورفع ما بين ممالكه وبين ممالك جنكزخان من التتار المسلمين بقراجغتاي وعبّاد الاوثان واسترقّهم قهرًا وقسرا واستصحبهم جبرًا وكسرا واستولد من تلك الطائفة المعتدين ولدهُ السلطان جلال الدين فبواسطة انّهُ صار لهُ منهم ولد صاروا اقرب عساكره اليه وعليهم المعتمد فكانوا شعوبًا وقبائل يخرج منهم سبعون الف مقاتل ومنهم ايضًا كانت امّهُ واخواله وخيلهُ ورجاله الى ان خانوه وبذلوهُ وما صانوه واستدفع بهم طارق البلآء فكانوه غريبة نادرة عجيبة . وكان هؤلآء التتار متاخمين بلاد انزار وهي حدّ ممالك السلطان وهم سدّ عظيم بين المسلمين وبين جنكزخان فغزاهم السلطان وابادهم واستعبد كما ذكر اجنادهم . فارتفع السدّ من البين وانهدم الفاصل بين الجانبين واتّصلت المملكتان كالمحبّين اعنى مملكة السلطان ومملكة جنكزخان فسرت السرائر وابتهجت الضمائر ودُقّت في ممالك السلطان قطب الدين البشائر

وزُيّنت الولايات بانواع الذخائر * وكان في نيسابور من أكابر الصدور شخصان من العلمآء فاجتمعا واقاما العزآء فسُئلا عن موجب هذا البكاء وانّما الناس في فروح وهنا . فقالا أنتم تعدّون هذا الثلم فتحًا وتتصوّرون هذا الفساد صلحًا وانّما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سدّ ياجوج وماجوج ونحن نقيم العزآء على الاسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين وستعلمنّ نبأهُ بعد حين وانشد فارشد *

* شعر *

وعلمتُ انّ فراقكم لابدّ أن * يجري لهُ دمعي دمًا وكذا جرى

وكان السلطان قد دانت لهُ البلاد واستولى على اهل البقاع والوهاد واباد ملوك العجم وتفرّد بسياسة تلك الامم وتحت ملكه مملكة خوارزم وقد صمّم العزم بجزم وحمّل الناس على نزع الخلافة من آل عبّاس ووضعها في آل عليّ وقد توجّه الى العراق بهذا القصد الجليّ فوصل الى حدود العراق وهو مجدّ على هذا الاتّفاق فوصل اولئك التجّار الى نزار من صوب جنكزخان وبها من جهة السلطان نائب يُدعى قايرخان . فلمّا وصلوا الى البلد اخبر بهم النائب الرصد فحبسهم عندهُ في مكان وارسل يستأمر فيهم السلطان وبشّع العبارة وشنّع السفارة وذكر انّهم جواسيس تستّروا بالتجارة وانّ معهم من الاموال ما يوازي الرمال ويوازن الجبال مصراع

وما آفة الاخبار الّا رواتها

فأمرهُ بقتلهم وأَخذ ما معهم وسلبهم ففي الحال ابادهم وسلبهم طارفهم وتلادهم وارسل المال الى السلطان واوصلهُ حسبما رسم بهِ الى الديوان فطرحوهُ على تجّار بخارا وسمرقند كما يُطرح على مساكين دمشق القند واستخلصوا ثمنهُ بالظلم وزادوا عليهم فيهِ العزم * وكان سبب ذلك انّ تاجرًا عند قائرخان اراد ان لا يكون عند السلطان تاجرٌ سواهُ فتبعهُ قائرخان لما اغواهُ فتعدّدت الاسباب وانفتح للشرّ ابواب وقالوا شرا هرّ ذا ناب فلم يفلت منهم سوى رجلٍ واحد انجاهُ الله من العدوّ والحاسد فاختفى واتّصل الى بلادهِ واخبرهم بوقوع الامر وفسادهِ فغضب جنكزخان وتحرّك منهُ باعث العدوان . ثمّ تثبّت في أَمرهِ وتلبّث في فكرهِ وأَرسل الى السلطان رسالة فيها تهديد وبسالة وكان السلطان خوارزم شاه لمّا ابدى هذا الخطا وانهاه طيّر مراسيمهُ الى اطراف الممالك يامرهم بالمحافظة على دربندات المسالك ويحرّض ولاة الامور وأَصحاب الادراك في المضائق والثغور والطلائع والارصاد على منع القصّاد وكفّ مَن يخرج من تركستان . الى صوب ممالك جنكزخان . ثمّ أَرسل من جهتهِ جواسيس يختبر احوال ذلك الابليس وينظر امورهُ واوضاعه ومقدار عسكرهِ وأَمرهم في الطاعه وما قصدهُ أن يفعل ليستعدّ لهُ بحسب ما يعلم منهُ

ويعمل . فتوجّهت جواسيس السلطان وطال في غيبتهم الزمان وقطعوا الجبال والقفار وسلكوا المفاوز والاوعار حتّى وصلوا الى بلادهِ وفحصوا عن أمرهِ واستعدادهِ وخبروا أَمر جندهِ وعتادهِ واوضاع عسكرهِ وتعدادهِ فرجعوا بعد مدّة مديدة وزمان واخبروا بما حقّقوهُ السلطان وانّ عدد عساكرهِ يفوت الاحصآء ويخرج عن دائرة الاستقصآء وأَنّهم اطوع البرّية للملك واثبت جنانًا من الاسد المنهمك واصبر جنداً على القتال كانّ امر الهزيمة عندهم محال وانهم اذا واثبوا او حاربوا او سالبوا او لاسبوا او رابضوا او ضاربوا خابطوا ثمّ خاطبوا بقولهِ * شعر *

ونحن اناسٌ لا توسّط بيننا * لنا الصدر دون العالمين او القبر

وانّهم لا يحتاجون في الاسفار ولا عند مقاحمة الاخطار الى كثير مؤنة ولا كبير معونة بل كلّ منهم ينهض باحتياجه واحتياج مركوبهِ الى الجامهِ واسراجهِ ويستبدّ بعمل سلاحه وجميع ما يستعين بهِ سفرًا وحضرًا في صلحهِ وصلاحه ونطاحهِ وكفاحه وكذلك ملبوسهِ وزاده وسائر اهبتهِ وعتاده . فندم خوارزم شاه على ما قدّمت يداه من قتل اصحابهِ وفتح سدّ الثغر وبابهِ وانّى يجدي الندم وقد زلّت القدم وتبدّل الوجود بالعدم وغرق في بحر الهموم وهمى عليه غمام الغموم فشاور لما لقي الشهاب الخيوقي وهو فقيه فاضل ونبيهٌ كامل عالمٌ اجلّ كبير المحلّ لهُ عندهُ محلّ خطير لا يخالفهُ فيما يشير فانّ رأيهُ سديد وقولهُ

وفعلهُ رشيد . فقال يا امام قد تحرّك على الاسلام عدوّ الدّ
الخصام بعساكر كالرمال ذوي صدمات كالجبال فما ترى
فيما طرى . فقال في عساكرك كثرة وانت ذو قوّةٍ ووفرة وزفر
اقدامك لهُ زفرة فكاتب الاطراف واجمع عساكر الاكناف
وادعُ اهل بيضة الاسلام الى هذا النفير فانهُ عام . فاذا وفدوا
عليك وتمثّلوا بين يديك توجّه بهم الى نهر سيحون واجعل
ساحلهُ من فلك الجنود مشحون واملأ بهم تلك المهامة
والقفار وحصّن ممالكك الى حدود انزار فان أقبل العدوّ المخذول
لم يصل الاّ وهو من الكلال محلول فانهُ ياتي من بلادٍ بعيدة
بجنودٍ عديدة وقد أثّر فيه النصب وأخذ منهُ التعب والوصب
فتلاقيه على سيحون وهم كالّون ونحن مستريحون . فجمع بعد
ذلك امرآءهُ ووزرآءهُ وزعمآءهُ وعرض عليهم ما جآءهم وطلب منهم
آرآءهم فلم يرتضوا رأي الشهاب لامرٍ سبق به ربّ الارباب
وقالوا بل نتركهم حتّى يقطعوا الاوعار والمضايق ويتورّطوا في بلادنا
بالعوايق فتزداد مشقّتهم وتطول في المسير شقّتهم لاسيما وهم
بارضنا جاهلون وعن مداخلها ومخارجها ذاهلون فاذا حصلوا
في قبضتنا كان أمكن لنهضتنا فنضيّق عليهم واسع رحابها
وأهل مكّة أخبر بشعابها وذهل اولئك الجمع عمّا رآهُ الفقها وهو
انّ الدفع اولى من الرفع . وبينما هم في المشاورة والمراودة ورد قاصد
جنكزخان برسالة المناكدة وفيها من التشنيع والتقريع والتهديد

والتبشيع العجب العجاب وما يشيّب الغراب . فمن جملة تشنيعاتهِ
ومضمون تهويلاتهِ ما معناه في فحواه كيف تجرّأتم على اصحابي
ورجالي واخذتم تجارتي ومالي وهل ورد في دينكم او جاز في
اعتقادكم ويقينكم ان تريقوا دم الابريآء او تستحلّوا أموال الاتقيآء
او تعادوا مَن لا عاداكم وتكدّروا عيش مَن صادقكم وصافاكم
أتحرّكوا الفتن النائمة او تنهضوا الشرور الجاثمة او ما جآءكم
عن نبيّكم سريّكم وعليّكم ان تمنعوا عن السفاهة غويّكم وعن ظلم
الضعيف قويّكم او ما أخبركم مخبّروكم وبلّغكم عنهُ مرشدوكم
ونبّأكم محدّثوكم اتركوا الترك ما تركوكم وكيف تؤذون الجار
وتسيئون الجوار ونبيّكم قد أوصى به مع انّكم ما ذقتم طعم شهدهِ
اوصابه ولا بلوتم شدائد اوصافهِ واوصابه الا وانّ الفتنة نائمة
فلا توقظوها وهذه وصايا اليكم فعُوها واحفظوها وتلافوا هذا التلف
واستدركوا ما سلف قبل أن ينهض داعي الانتقام ويتحرّك من
الفتن حامي الاضطرام ويقوم سوق الفتن ويظهر من الشرّ
ما بطن ويموج بحر البلا ويروج وينفتح عليكم سدّ ياجوج وماجوج
وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمرٌ معلوم ولابدّ انّ
الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر اسرار ربوبيّته وآثار عدلهِ
في بريّته فانّ بهِ الحول والقوّة ومنهُ النصرة مرجوّة فلترونّ
من جزآء افعالكم العجب ولينساب عليكم ياجوج وماجوج من كلّ
حدب . وكان اللّعين جنكزخان قد مشى على تركستان واخذ

منها عنوة كاشغر وبلاساغون وصارتا في حوز ذلك الملعون
وكانتا في يد كوجلك خان بن اونك خان المارّ ذكرهُ في اوّل
القصّه لمّا قتلهُ جنكزخان وقصّه هرب ولدهُ كوجلك خان
المغبون واستقرّ في كاشغر وبلاساغون الى أن مشت العساكر
عليهِ واخذت تلك الاماكن من يديهِ * فلمّا وصل هذا الخطاب
الى ذلك الاسد الوثاب أمر بمقدّم القصّاد ورئيس اولئك الورّاد
فضُربت رقبته وبمن بقي فحُلقت لحيته وسخّمت بالسواد حليته
ثمّ ردّ الجواب بابشع خطاب ومن فحواه وبارد ما حواه
انّي سائر اليك وهاجم عليك بجنود الاسلام واسود الآكام . وكلّ
بطلٍ ضرغام ولو بلغتَ مطلع الشمس فمحلّك في قعر الرمس
وجاعلك كذاهبٍ امس فتيقن ذلك واعلم انك لامحالة هالك .
وردّ قصّادهُ على عقبهم وقصد التوجّه في ذنبهم فتجهّز وسار
بعسكرٍ جرّار الى صوب التتار واوصل السير وسابق الطير
واراد ان يسبق الخبر ويكبس التتر ويريهم عين العلّة قبل الاثر
فألوى من العراق وساروساق فقطع ممالك خراسان وولايات
ما وراء النهر وتركستان وهجم بذلك البحر الزخّار في تلك المهامه
والقفار فوصل الى حشم في بيوت وهم آمنون في سكونٍ وسكوت
ليس فيهم غير نساء وصبيان ومواشٍ وبعران رجالهم غائبة.
واموره بواسطة الامن سائبة وكانت رجالهم توجّهت لاخذ الثار
من بعض التتار بواسطة عدوان وقع بينهم وبين كوجلك خان

فقاتلوهم وكسروهم ونهبوا أموالهم وهصروهم . ففي غيبتهم وصل
السلطان الى بيوتهم وفي أمنهم وسكوتهم وليس فيهم الّا الحريم
والاطفال والمواشي والاثقال ولا يوبهُ اليهم ولا يعوّل عليهم
فاستولى عليهم ونهبهم وسلبهم عيشهم وسلبهم وأسر العساكر
فنهبوهم وأسروهم وفرّقوهم وكسروهم وهم الجمّ الغفير والعدد الكثير
والمال الغزير ورجع السلطان من فورهِ وابتدأ في حورهِ بعد كورهِ
وتصوّر انّهُ اغنى وانكى وانّهُ اضحك وليًّا وعدوًّا أبكى فما هو
الّا وضع على القرح كيّة وداسٍ ذنب الحيّة . ثمّ رجع التتار ورأوا
ما حلّ بأهلهم من بوار وانّهم أُخرجوا من ديارهم واولادهم ونُكبوا
في طريفهم وتلادهم وانّ نساءهم أُسرت وصفقتهم خسرت فما وفت
نصرتهم بكسرتهم ولا قامت فرحتهم بحسرتهم التهبوا واضطربوا
واصطلموا واصطدموا واخذتهم الحميّة وعصتهم العصبيّة وتنادوا
بالغارات وطلب الثارات وتناخى منهم حماة الحقائق وكماة
المضائق وتتبّعوا في الحال آثار الرجال من غير اهمال ولا
امهال وسلكوا الآثار لاخذ الثار واكبّوا كالبرق الخاطف
وزعقوا كالرعد القاصف واندفعوا كالريح العاصف واندفقوا
كالسهم الناقف ودهموا كالليل المدرك وهجموا كالسيل المهلك
فادركوا عساكرهُ بشرورٍ ثائرة ومراجل صدورٍ بالضغائن فائرة
فلم يشعروا الّا والعدوُّ المضرم غشيهم كالقضاءً المبرم فالوت
عساكرهُ وقابلت واستعدّت وقاتلت والتفّت الرجال بالرجال

وضاقت ميادين المجال واستمرّت ضروب الحرب بينهم سجال وتطاولت سهام الموت لقصر الآجال وتهلّلت ثنايا المنايا لبكاء السيوف وتبسّمت ثغور الرزايا لفتوح الحتوف واستمرّت ديم السهام من غمام القتام على رياض الصدور تهمي ولوامع بروق السيوف على قمم تلك الصفوف بعد الوابل الوسمي بالصواعق ترمي ثمّ انتقلوا من معاشقة المراشقة الى مراشفة المعانقة ومن مكالمة المضاربة الى ملاكمة الملابسة ومن مبادعة المقارعة الى مسارعة المصارعة واستدّت بهم الحال في هذا النزال والجدال ثلاثة ايّام مع الليالي لا يسأمون الطعن والضرب ولا يملّون مباشرة الحراب والحروب الى أنْ جرى من الدماء طوفان وكاد يظهر سرّ كلّ مَن عليها فان كلّ ذلك وكاتب البيض والسمر يستوفي من اقلام الخطّ في صحائف الصفائح مستوردات العمر ولم يُسمع بمثل هذا القتال ولا بنظير هذا الضراب والنضال في سالف الازمنة والاعصر الخوال وما امكن تولّي احدى الطائفتين ولا نكوص جهة من الجهتين ولم يثبطهم عن استيفاء القتال غير انحلال الاعضاء والكلال فانفصلوا وما انفصلوا وانقطعوا بعدما اتّصلوا وحلّوا بعد ما كلّوا وتراجع كلّ عن صاحبه بعد ذوبان قلبه وقالبه واستفراغ جهده بما وصلت اليه غاية كدّه وكان قتلى الفريقين وجرحى الجهتين ما لم يمكن حصرهم ولا يُعرف قدرهم *

فلمّا كانت الليلة الرابعة وهي الليلة الفارقة القاطعة أوقد كلّ من الفريقين في منزله النار واكثر التباذل في المنازل والآثار وتركها وسار فوصل السلطان من بلاد تركستان وقطع سيحون نهر خجند ووصل الى بخارا وسمرقند وشرع في تحصين البلاد والقلاع والاحتفاظ بمدن الممالك عن الضياع وقد سكن الهمّ فؤاده ونهب القلق والارق رقاده وعلم المسلمون انّه لا طاقة لهم بالتتار فخافوا حلول البوار ونزول الدمار وتيقّنوا خراب الديار لانّ السلطان عاجز ولابدّ من قدوم بلاء ناجز وقالوا: اذا كان هذا الخور من شرذمة قليلة من التتر في طرف من اطراف بلاده لا فيهم احدٌ معتبر من اجناده ولا رئيس يُشار اليه من اولاده ولا درى ولا علم بما جرى فكيف اذا دهم بطامته الكبرى واحشاد جيوشه العظمى . فترك خوارزم شاه ببخارا عشرين ألف مقاتل وفي سمرقند خمسين ألف مناضل وقرّر معهم انّه سيجمع الجنود ويستجيش ابطال المسلمين ويعود وتوجّه بثبات عزم واضاعة حزم الى سرير ملكه خوارزم ثمّ انتقل الى خراسان وخيّم بضواحي بلخ في مكان وأقام رخيّ البال كانّ الشيء ما كان ثمّ لا زال يضمحلّ ويذوب ويحلّ به ما يحلّه من نوائب الخطوب حتى انتقل الى جوار الرحمن في أطراف طبرستان في سنة سبع عشرة وستماية وكانت ولايته في العشرين من شوال سنة ستّ وتسعين وخمسماية . وكان ملكًا

عظيمًا وسلطانًا جسيمًا ذو صولةٍ قاهرة ودولةٍ باهرة وجولةٍ ارقدت الملوك بالساهرة فاضلًا فقيهًا عالمًا نبيهًا اضمحلّ بادنى حركةٍ ملكه وغرق في بحر الفنآء بعد الطغيان فلكه وركن الى الخطأ فوقع فيهِ وخانتهُ عساكرهُ ومخالوهُ ودود الخلّ منهُ وفيهِ . وكان في خزائنهِ عشرة آلاف الف دينار ومن اجناس الاقمشة والامتعة والاسلحة ما لا يحصيهِ الّا الواحد القهّار وكان فيها الف حمل من القماش الاطلس واضعافٌ من نفيس النفائس وانفس ومن الخيل المسومة عشرون الف جنيب ومن المماليك الملوك عشرة آلاف كلٌّ لهُ في دار الملك خصيب واوفر حظٍّ ونصيب فما افاد ذلك ذرّة بل نبشوا بعد موتهِ قبره وقطعوا راسهُ وفجعوا بهِ ناسهُ فسبحان مَن لا يزول سلطانه وعزّ وعلا من لا يذلّ شانه

* شعر *

فما كفّ ذو كفٍّ لهُ رائد الردى * ولا مال بالاموال عنهُ حمامه
ولا ملك كلّا ولا ملك حمى * حمى ملكهُ لمّا عراهُ انهدامه

وبسط المقول فيهِ شرح يطول واما أمر الطاغية صاحب الفئة الباغية جنكزخان لمّا وصل قصّادهُ من عند السلطان بعد الفنآء والشدّة لحاهم محلوقة ووجوههم مسودّة وقد قتل رئيسهم وخلا من نقد مرادهم كيسهم ذهب حفاظهُ والتهب شواظهُ وطمت بحار كفرهِ وتلاطمت وتزعزعت أطوار شركهِ وتصادمت وبينا هو يرغي ويزبد ويقوم من غضبهِ ويقعد اذ

جاءهُ الخبر الثالث وهو شرّ الحوادث اذ فيهِ خبر مَن قُتل من الكفّار وانتقل من دار الخسار الى دار البوار جهنّم يصلونها وبئس القرار فاعمل في قلبهِ نصلهُ وكان اوّلًا قد زاد على قرحهِ قرح مثلهُ ثمّ كان خبر هذا القرح ملحًا مذرورًا على جرح فقامت قيامتهُ وتعوّجت بالحزن قامتهُ وودّ لو أحرق الكون بانفاسهِ وهدم اساس المكان بفاس باسهِ . ثمّ تروّى وافتكر وتهوّى من حرّ هذا الشرر ثمّ قصد مذهب الاعتزال وانزوى عن جماعتهِ في مكانٍ خالٍ ودخل الى مكانٍ خراب وعفر وجههُ في التراب وتضرّع الى الله الحليم وقال يا خالق يا قديم انا اردتُ ان اعمّر بلادك وانعش عبادك فظلمهم يا اله عبدك خوارزم شاه وتعدّى عليّ وكرّر الاساءة اليّ فانتصر لي منهم وانتقم فانّك جبر مَن كُسر وعون مَن ظُلم واستمرّ على هذه الحال ثلاثة ايّام وليال لا يأكل ولا يشرب ولا يفتر عن التضرّع والطلب يمرّغ رأسهُ ووجههُ في الثرى ويقصد فيما يرومهُ ربّ الورى وقد قيل

* شعـــر *

تضرّع جنكزخان لله ساعة * وأخلص فيما رامهُ وهو مشرك
فما خاب فيما رامهُ من فسادهِ * وما زال يعثو في الانام ويسفك
فما بال مَن لله طول حياتهِ * يوحّد بالاخلاص هل هو يهلك

ثمّ نهض نهضة انام فيها الانام وقام قومة اقام بها

ساعات القيام فتوجّه من مشركيّ التتار وعساكر الكفّار بالبحار الطامية والامطار الهامية وجبال النيران الحامية في شهور سنة خمس عشرة وستماية ومشوا على ممالك الاسلام وساروا على بسيط العالم سير الغمام وارادوا اطفاء نور الايمان من اشراكهم بظلام فوصلوا الى البلاد وهي جنّة المرتاد آمنة مطمئنّة ساكنة مستكنّة وليس لها مانع ولا ممانع ولا لهم عنها دافع ولا مدافع ولا بها حامٍ ولا محام ولا سامٍ ولا مسام فاخنوا على جند وقراها وولاياتها وما والاها رابع صفر عام ستة عشر واظهروا فيها علامات الحشر فادهشوا وهلها وسبكوا أهلها ودكّوا جبلها وملأوا بجبال القتلى سهلها فقتلوا الخاصّ والعامّ ومدّوا الى ذخائر النهب العامّ فأراح بها رجلهُ وخيله واحاط بها ثبورهُ وويله واستمرّوا في نهبها ستّ عشرة ليله. ثمّ تنقّلوا عن جند الى ولايات اندكان وفناكث وخجند فاخذوها وقتلوا وفعلوا كما كانوا فعلوا ثمّ الى بلدة مرغنيان وكانت دار ملك ايلك خان ثمّ الى اطراف تركستان ومنها سيرام وتاش كند وباقي البلدان ثمّ الى نسف وانزار وسفناق وما من امّهات البلاد في تلك الآفاق

* شعر *

فمشوا على سهل البلاد ووعرها * مشي الجراد على القصيل الاخضر
فكانّهم موسًى على شعرٍ مشت * او منجلٌ فوق الحصيد الاصفر
او شعلةٌ لسان الهواء فتعلّقت * فوق الصعيد على الهشيم الاغبر

فكلّ مَن أطاعهم وقصد اتّباعهم صار من جلدتهم ودخل في عدّتهم ومَن عصي او توقّف او خالف او تخلّف سقوهُ كاس الدمار واحلّوهُ قومهُ دار البوار واسروا حريمهُ واولادهُ ونهبوا طارفهُ وتلادهُ * ثمّ انّ تلك الدواهي المصيمة يوم الثلاثاء رابع شهر محرم سنة سبع عشرة وستّماية وصلوا الى بخارا بلدةٍ فضلها لا يجارى قبّة الإيمان وكرسيّ ملوك بني سامان مجمع العلماء والعبّاد والصلحاء والزهّاد ومنبع المحقّقين من الفقهاء الامجاد والمدقّقين من النبهاء الانجاد وفيها من الاكابر الاشراف واوساط الاماثل والاطراف الجمّ الغفير والطمّ الكثير. فلمّا رأى العساكر السلطانيّة والجيوش الخوارزم شاهيّة الذين كان ارصدهم السلطان لحفظ البلدة من طوارق الحدثان وهم عشرون الفا انّ البلاء زحف اليهم زحفا وانّ كسرتهم منهم لا تخفى وانّ سيل الويل حطم وموج بحر الدواهي التطم ومَن لم يدرك من الغرق نفسهُ ارتطم شمّروا الذيل وخرجوا تحت الليل وقصدوا جيحان والعبور الى خراسان ومقدّمهم من امراء السلطان كورخان وسونج خان وحميد النوري وكوجلي خان فبينا هم على نهر جيحون قاصدين العبور صادفتهم صلائع جنكزخان الكفور فوضعوا السلاح فيهم ومحوهم عن بكرة أبيهم فما ابقوا منهم عينًا ولا اثرا ولا سمع لهم احدٌ خبرا فوهى أمر البلد اذ لم يبقَ لهم مدد فطلبوا الامان وارسلوا لذلك القاضي بدر الدين ابن

قاضيخان فاجابهم الى ذلك واناب فاطمأنوا وفتحوا الابواب فدخلوا المدينة يرفلون وهم من كلّ حدبٍ ينسلّون فعصى بقيّة العساكر في القلعة وتصوّروا ان يكون لهم منهُ منعة ففي الحال أمر الرجال بطمّ الخندق بكلّ ما وجدوا جلّ او دقّ فاتوا بنفائس الاقمشة والذخائر المدهشة والكتب الربعات والمصاحف الشريفة والختمات وطرحوها في الخندق ومشى العسكر عليها وتسلّق ونقبوا النقوب وانفذوا الثقوب وكان قد نادى بالامان للقاصي والدان فعجزت القلعة وذهب ما بها من منعة وكان فيها فئة نحو من اربعماية فباشرت الحرب دوما نحو اثني عشر يوما فاخذوا عنوة بالانقاب وفُتح لهم من كلّ جهة باب فقتلوا مَن بها عن آخرهم واستولوا على باطنهم وظاهرهم ثمّ مدّوا ايديهم الى المخدّرات وفجروا ظاهرًا بالمستّرات وجعل الناس ينظرون ويبكون وهم يفتكرون وينكون لا يستطيعون دفعا ولا يملكون ضرًّا ولا نفعا فاجتمع من اعلام العلمآء المهتدين ومَن لم يرضَ بعمل المفسدين جماعةً غاروا وثاروا وفاروا وانضمّوا وقاتلوا حتى قُتلوا والى جوار الله انتقلوا ولحق اصاغرهم باكابرهم ودخل جنكزخان الى المدية وطاف بها على هيئة وسكينة حتى انتهى الى باب الجامع مكان نزه وموضع رابع ومحلّ شريف ومعبد واسع ولم يكن لذلك البلد الكبير والجمّ الغفير والجمع الكثير والمصر الواسع من الجوامع سوى جامع واحد يجمع الصادر

والوارد ويسع ما شآء الله من الامم وهذا على مذهب الامام الاعظم وهكذا كلّ امصار الحنفية في الممالك الشرقيّة والممالك الهنديّة وغالب البلاد التركيّة . فقال جنكزخان هذا بيت السلطان . فقالوا بل بيت الرحمن ومأوى عبادة العبّاد والعلمآء والزهّاد وذوي الطاعة والاجتهاد . فقال انّ اولى ما اقمنا افراحنا في بيت مَن خلق ارواحنا ورزق اشباحنا ثمّ أوى اليهِ واقبل عليهِ ونزل عن دابّتهِ ودخل الجامع مع جماعتهِ . ثمّ دعا بامرآئهِ وكبرآء جندهِ وزعمآئهِ واستدعى الخمور والطبول والزمور وهشّ الى الكفّار وعظّمهم وبشّ فرحًا واحترمهم فسجد لهُ منهم الملوك وضربوا لهُ الجوك وعرفوا حقّهُ ورعوا ورفعوا بالثنآء صوتهم ودعوا فاذن لهم بالجلوس وان تُدار عليهم الكؤوس فجلس كلٌّ في مكانهِ بين اضرابهِ واخوانهِ وقام بعضٌ في مقامهِ في موقف حلّهِ واحتشامه فتصدّر في مجالس العلم والاذكار ومحاريب الصلاة الكفرة الفجّار ورؤوس المشركين من المغل والتتار واستبدلت محافل العلم والتدريس بمحافل الشرك والتنجيس . ثمّ احضروا العلمآء والاشراف والكبرآء وسادات الانام ورؤسآء الخواصّ والعوامّ وانزلوا بهم الثبور والويل واحتفظوا بهم واستحفظوهم الخيل وصارت الناس حيارى سكارى وما هم بسكارى واخذتهم بهتة اذ اتاهم العذاب بغتة ولم يكن بين رحيل السلطان وبين هجوم هذا الطوفان غير خمسة اشهر وأيّام ساروا فيها سير الغمام

وهجموا على العالم هجوم الظلام وكأنّ الناس كانوا نيّاما ورأوا في منامهم احلاما فلم يوقظهم من هذا الرقاد سوى ابراق البلايا بالارعاد فانسدّ عليهم طريق الخلاص وخانهم المدد في شدّة الاقتناص وتنادوا ولات حين مناص اذ فارقهم العسكر وهم في حال المضطرّ. وكان من جملة اولئك الاعيان شخصٌ وليّ يدعى السيد الشريف جلال الدين عليّ بن حسن الزيديّ وهو المقدّم والمقتدى والمسلك الى طريق الهدى وأعلى سادات ما وراء النهر ولدوحة ساداتها بمنزلة الثمر والزهر قد قُبض عليه وربطوا الى عنقه يديه. ثمّ استنظروه مراكبهم وانشبوا فيه مخاليبهم وهو واقف بباب الجامع في هيئة الذليل الخاضع فرأى الامام الهمام البحر الطام علم العلماء الاعلام افضل علماء عصره وانبل فقهاء دهره الشيخ ركن الدين ابن الامام بوّأهما الله تعالى دار السلام وهو في مثل حاله متسربل بسربال نكاله. فقال ايّها الامام المفضال ما هذه الاحوال ثمّ انشد معنى هذا المقال

* شعر *

ارى حالةً بذت لساني فليس لي * طريق الى انّي افوهُ بلفظةٍ
اعضّ لها كفّي وامعك مقلتي * أفي النوم هذا ام أراهُ بيقظةٍ

فاجاب الامام ما هذا محلّ الكلام كن عبد الاراده واتبع ما اراده واستمرّوا يشربون الخمور على اصوات الزمور ويضربون الطبول ويتراقصون رقص التتار والمغول. ثمّ صعد المنبر ابن

جنكزخان الاكبر واسمهُ توشي‌خان وتكلّم بكفرٍ وكفران ثمّ غنّى ورقص ودعا لابيهِ ونكص. ثمّ صعد بعده ابوهُ وتكلّم بكلام سمعوهُ ودعا بالخمور وشرب ثمّ غنّى وطرب ثمّ قال ايّها الرجال انّ خيلنا هي رأس المال وقد رعيتم الوهد واليفاع وحلقتم شعور الكلأ من قمم البقاع وقد شبعتم فلا تنسوا الجياع الا فاشبعوا خيلكم ولا تحرموها نيلكم وحيث رعيتم الخضيم فابغوا لها القضيم وامتثلوا أمر سلطانكم تحظوا منهُ بامانكم فنهضوا قيّاما وامتثلوا مرسومهُ مراما وتهارجوا كالحمير وابتدروا طلب القمح والشعير. ثمّ طغى وتكبّر وبغى وتجبّر ونزل عن المنبر فلم يكن باسرع من اتيانهم بالحبوب والقضيم المطلوب وادخلوا الخيل الى الجامع وطلبوا لها مرابط ومواضع. ثمّ افرغوا خزائن المصاحف والختمات وظروف الكتب واوعية الربعات وصبّوا فيها الشعير واطعموا فيها الخيل والبغال والحمير فتبدّدت الكتب المنيفة والمصاحف الشريفة والربعات المعظّمة والختمات المكرّمة تحت السنابك والحوافر ومواطئ اقدام كلّ كافر وصارت ابحر القاذورات والخمور على تلك النفائس والذخائر تمور. ثمّ انّهُ خرج من البلد وأمر أن لا يُترك في البلد احد بل يخرجون الى المصلّى وولي حفظهم مَن كفر وتولّى ومَن تأخّر قتلوه وبتكوه وبتلوه فخرجوا كالجرّاد وانتشروا على الوهاد واجتمعوا في المصلّى ثمّ على المنبر تعلّى وخطب خطبة تركيّة كافريّة مشركيّة منها انكم ركبتم عظائم

واتيتم مآثم وجرائم فتقدّم ربكم اليكم ان سلّطني عليكم وهذه الاوزار انّما جناها منكم الكبار فلاجل هذا عمّ البلآء وذهب بجريمة الكبرآء الاصاغر والضعفآء . ثمّ ضبط اسمآء التجّار واستخلص ما عندهم من درهمٍ ودينار وقال : هذا ثمن مالي من نقدٍ واعيان الذي كان منحكمِهِ السلطان . فلمّا استخلص الاموال أمر بقتل الرجال واسر النسآء والاطفال والنهب العام لسائر الاغنام ومَن أخذ شيئًا فهو لهُ لا يقطع احدً سبلهُ ثمّ أمر بهدم البلد والاحراق واعدام عينها على الاطلاق فمهما قال فعلوه وكلّ ما رسم بهِ امتثلوه فساووا بالبلد الارض واستوفوا اعمار اهلها بالقرض والقرض فلم يبقَ منهم ديار ولم ينجُ من تلك النار العظيمة نافخ نار . وقيل انّهُ نجا من هذه الواقعة رجل باقعة فوصل الى خراسان فسألوهُ عن هذا الشان كيف كان فقال لهم بذلك اللسان ما صورتهُ * شعر *

آمدند وكندند وسوختند * وكشتند وبردند ورفتند

يعني هجموا وهدموا واحرقوا * وارهقوا ونهبوا وذهبوا

فقيل لم يوجد في الفارسي في هذا المعنى أحسن من هذه الالفاظ ولا ارصن ولا اوجز ولا امتن ثمّ امر الجند بالتوجّه الى سمرقند فتوجّهوا بالاثقال من الاموال والاسرى من النسآء والاطفال مشاةً حفاة اذلآء عراة فلم يتوقّف كلّ اعتميّ اعقف وكافر اغلف في ضرب رقبة مَن اعيا او توقّف فوصلوا اليها واخنوا

عليها وفيها من العساكر الاكفّا مائة الف وعشرون الفا سبعون من اهل البلد وخمسون من المرصدين للمدد فتجهّز عسكر البلد للقا وخرجوا من البلد للملتقى فكمن لهم التتار من اليمين واليسار في روابٍ وتلال تسمّى بالاحصار فناوشهم من عساكر الكفّار شرذمة ثمّ ولّت امامهم منهزمة فركب البلديّون اعقابهم وداسوا اذنابهم . الى ان ابعدوا عن البلد وانقطع عن البلديّين المدد فخرج الكمين من خلفهم لقطع رجل مددهم وكفّهم ورجع عليهم الفارّون واحاط بهم الغارّون وتلاحق بهم عساكر لا اوّل لهم ولا آخر فلم يفلت منهم واحد ولا صدر عن حياظ تلك الملحمة وارد . فلمّا شاهد العساكر الخوارزمشاهيّة ما نزل بالجنود البلديّة من داهيةٍ ورزيّة لم يسعهم الّا التراسي عليهم والانحياز اليهم فداروا وداروا اللبيب من دارا فوقوا بذلك انفسهم واهليهم نارا فلم يركنوا اليهم ولا اعتمدوا عليهم فراوا مصلحتهم في سلبهم اسلحتهم فطلبوا منهم عدّتهم ثمّ فرّقوا عدّتهم كما فعل تيمور الغدّار في بلاد الروم بالتتار عند كسر ذلك الخوّان في سنة خمس وثمانماية بايزيد بن عثمان فلم يبقَ لاهل البلد معين ولا مدد فاستسلموا للقضا وجروا طوعًا وكرهًا في ميادين الرضا فاحلّ بهم بوارا وانزل دمارا ففعل بسمرقند واهلها ما فعل ببخارا ودور اسوارها بدلالة آثارها من الفراسخ اثنى عشر لا يمتري في ذلك اثنان من البشر فقس ما في ذلك من الخلائق والامم

فالكلّ براهم سيف القلم كما يبري السيف القلم . ثمّ قوّى العزم
وسدّد الحزم وجهّز طائفة من العساكر الى خوارزم مع ولديهِ
احدهما المدعو بجغتاي والمسمّى الآخر باوكتاي وهي تخت
خوارزمشاه وفيها من الامم ما لا يعلمهُ الّا الله معدن الافاضل
ومقطن الاماثل محطّ رجال اهل التحقيق ومقصد رجال الفحول
ذوي التدقيق ولوفور ما بها من الرؤوس لم ينفرد برياستها
رئيس ولكثرة ما بها من الناس لم يتعيّن لسياستهم راس فاتّفقوا
أكابرها لضبط امور المسلمين على تقديم شخص يدعى حمارتكين
فبعد حروب يطول شرحها ويهول برحها ويجب قرحها ويستحبّ
طرحها اخذوها عنوة بعد ما قاسوا جفوة فاستصفوا ارباب الحرف
ومَن تحلّق من صنعةٍ بطرف فكانوا نحو من مايتة ألف بيت
او يزيدون ان عددتهم وعديت ثمّ ميّزوا النسآء والاطفال وكانوا
كعدد الحصا والرمال ففرّقوهم على ذلك العسكر الثقيل فكفى
الحقير منهم والجليل ثمّ فصلوا بالحسام المفصال مذارع ذوات
ما بقي من الرجال ثمّ ارادوا حصر مَن قتل واقامة عدد مَن
بتك وبتل فكان حصّة كلّ فتاكٍ قتّال على ان عددهم اكثر من
القطر والرمال اربعة وعشرين مقتولا ثمّ فعلوا بالبلد كعادتهم
الاولى فهدموا اسوارها ومحوا آثارها وأجروا من بحار الدمآء
انهارها فانمحى العلم والعلمآء واندحى الفضل والفضلآء
وناهيك بالقطب الولي الشيخ نجم الدين العبكري وتوجّه

جنكزخان من سمرقند قاصدًا السلطان ومرّ من اطوار عسكرهِ
بكلّ اخشب حتى اناخ على ترمذ وتخشب فامتنعتا عليهِ
ولمناعتهما لم تلتفتا اليهِ وكانتا كثيرتي العَدد والعِدد غزيرتي المدد
من مدد وهما من امّهات البلاد مملوأتان من آلات الجهاد
ومقاتلة الاجناد فاهلك ناسهما وسقاهما من خمر التشريب كاسهما
فلم يبقَ لهما فيئا ولم تغنِ العَدد والعِدد عنهما من الله شيئا . ومن
غريب ما وقع من البدع انّهُ أمر باهل ترمذ ان يُقتلوا عن آخرهم
مع اهلهم وعشائرهم ولا يبقى فيها على احد وارصد على ذلك
الرصد فاتفق انّ امراةً من المخدّرات تخجّل الشموس النيّرات
قبضوا عليها وتقدّموا باراقة دمها اليها فتشفّعت فما افاد
وتضرّعت فما زاد الّا العناد . فلمّا اسلمت وتلوها للجبين وعلمت
انّهُ جآءها الحقّ المبين قالت لاولئك الكفّار لا تقتلوني يا حضّار
وانا افتدي نفسي منكم بعقود من اللؤلؤ كبار فانهوا القضيّة اليهِ
وعرضوا ما قالتهُ عليهِ . فقال اتركوها ثمّ بما قالت طالبوها لننظر
أصدقت ام اختلقت فاطلقوها وبتقاضي اللؤلؤ اقلقوها فقالت
لم افه بزور ولا دلّيتكم بغرور وانّما اللؤلؤ كان عندي وحين
استخلصتم مالي كان في يدي فخفتُ منكم فابتلعتهُ وتبًّا لفعلٍ
صنعتهُ فامهلوني حتى اتبرّز ويخرج منّي ذلك المحرز فانهوا كلامها
اليهِ واعرضوا امرها عليهِ . فقال ابقروا بطنها وانظروا فطنها
فان وجدتم شيئًا فهو لكم وان كانت كاذبة فقد استحقّت فعلكم

فشقّوا بطنها البطين واستخرجوا منهُ الدرّ الثمين . فلمّا راوا صدقها وحقّقوا نطقها أمرهم بشقّ بطون جميع القتلى وتفتيش ما طرحوهُ من جبال الاشلاّ فلم تنجُ رؤوس الروس من المثلة بعد القتل ولا بطون الصدور من ظهور التنكيل أثر البتل . ثمّ أمر بهدم الحصون بعد ابتذال المال والعرض المصون فحُيّت الديار ولم يبقَ فيها ديّار . ثمّ عبر من جيحون الى خراسان وجعل نصب عينيهِ ممالك السلطان وتوجّه الى بلخ وهي احد معاقل الاسلام وفيها من امم الانام مالا يدرك ضبطهُ سابق الاقلام بل يخرج عن حصر الاوهام ولا يحصيهِ الاّ الملك العلاّم . وكان السلطان قد انشمر عنها كما ذكر الى نواحي طبرستان فوصل بتلك البحار الطامية في ثاني عشرة وستماية فخرج اليهِ الاعيان وطلبوا منهُ الامان فأجاب سؤالهم بما يصلح حالهم . ثمّ اختشى من السلطان جلال الدين ابن المرحوم قطب الدين فلم يركن اليهم ولا عوّل عليهم فامر باراقة الدمآء وهدم البنآء واحاطتهم بدائرة الفنآء فافنوهم عن آخرهم وساووا بالحضيض بقاع عمائرهم . ثمّ ارسل ولدهُ تولي خان الى محاصرة طالقان فعصت عليهِ ولم تسلّم قيادها اليهِ فاستمرّت في الحصار مدّة واذاقها لباس الباس والشدّة الى ان اخذوها وابادوا خلقها ودكّوها . ثمّ انّ جنكزخان الكافر الخوّان معدن الكفر والطغيان لمّا استوبل هوآء خراسان فالوى الى بلادهِ وترك تولي خان من اولادهِ وولاّهُ خراسان وهو محاصر

طالقان واقام في ممالك ايران من كفّار امرآئهِ اميران احدهما يدعى سنتاي وهو من قبيلة الجغتاي والاخر يدعى يما وهو من الكفّار اللؤما وترك معهما من الكفّار والاراذل والتتار والاسافل ثلاثين الف مقاتل فوصلا الى رواة ووضعا السيف في الائمّة الهداة وابتدآ في القتل والنهب والفتك والسلب والقهر والاسر والقسر والكسر ثمّ اخذا في الاتلاف طريق الائتلاف وذهب كلّ منهما للاختلاف في الفساد على مخلاف فصالا وجالا واوسعا في الدمار والبوار مجالا وخاضا في دمآء المسلمين واجتهدا في اهلاك الاسلام والدين وخلا لهما الجوّ فباضا وصفرا وكان السلطان قطب الدين قد اخلى الدنيا من الملوك والكبرا فلم يثبت لهما مقابل فضلاً عن مخاتلٍ او مقاتل فاهلكا الدين وابادا وتصرّفا في نصرة الشرك على الاسلام كيف ما أرادا فاستخلصا جوين وطوس واعدما ما بهما من نفائس ونفوس وحام وخبوشان واسفيرايين ومازندران وآمل وقومس وتلك البلدان فمحوا من كتب كتائبها اسطارها واطفأوا منارها واظهروا من صفة الجلال والقهر آثارها واجروا من الفتن كالدمآء بحارها واضرموا من الشرور نارها كلّ ذلك قتلاً ونهبا وسبيًا وسلبا وهدمًا واحراقا وصدمًا وازهاقا وردمًا واغراقا * ثمّ بلغهم ان حريم السلطان جلال الدين في قلاع آمل امنين فقصدوها وحاصروها ورصدوها

فقلّ ناصروها فاستولوا عليها ووصلوا كما ارادوا اليها فبقروا
وفتكوا وبروا وبتكوا وسبوا وسبكوا وسفوا وسفكوا وكووا وشووا
وغووا ولووا وعووا وما ارعووا ثم انّهم صادفوا لعكس الزمان
وانقلاب الدهر على السلطان وسوء التدبير وشؤم الحظّ المبير
وهم في بعض المسير من غير مخبرٍ ولا معلم في سدفة ليلٍ
مظلم حريم السلطان خوارزم شاه لاسورٍ سمح بوقوعها الله مع
والدته وجواريه وبناته وسراريه وكان لشدّة ما نابهم من
الزمان قد ضاق عليهم المكان وتغيّر بل تنكّر لهم الكون
وقلّ عنهم النصير وقلّ العون وخافوا الابتذال بعد الصون
فتركوا ما هم فيه من مكان وقصدوا البعد عن خراسان
فتوجّهوا الى اطراف اصفهان ومعهم من نفائس الاموال والجواهر
وأنواع المفاخر والذخائر ومصونات الخزائن ومكنونات المعادن
ما لا يعلمهُ الّا مانحهُ ومن الكنوز ما ينوء بالعصبة مفاتحهُ
وما لا يجتمع لسلطانٍ قطّ ولا ضبطها قلم ديوانٍ ولا خطّ
فتباغتوا مواجهة وتواجهوا مباغتة وتباهتوا مشافهة وتشافهوا
مباهتة فوقعن في شبكة الصيد واحاطت بهنّ دائرة الكيد
وتورّطنَ فيما فررن منهُ وتربّطنَ باوهاق ما نفرن عنهُ فلم
يشعرنَ الّا وقد وقعنَ من نيران الفتن في تنّور وتورّطنَ من بحار
المحن في دردور وتبسّمت الى بكائهنّ ثنايا البلايا وتكلّلت
على جباه مصابهنّ عقود الرزايا فظفرت حامية الكفر بذلك

المغنم البارد ولم يصدر من حلقة صيدٍ شارد ولا وارد فحازوا
تلك المستّرات ونزل الى حضيض قنصهم من سماء المناعة
الشموس النيّرات فهتكوا استارهنّ وخرّبوا ديارهنّ وضبطوا
شعارهنّ ودثارهنّ واحرزوا ما معهنّ من كنوز المعادن ونفائس
المكامن وذخائر الخزائن ثمّ اضافوهنّ الى زبانية غلاظ
واحتفظوا بهنّ اشدّ احتفاظ وساقوهنّ الى بلاد التتار مهتّكات
الاستار عاريات حافيات حاسرات ماشيات وامروهنّ ان
يجتمعنَ كلّ ليله عندما ينشر الظلام ذيله في كلّ منزلة
وصباح كلّ مرحلة ويقمنَ على انفسهنّ العزا وينحن بما
تقدّم ويبكين بما جرى ويعدّدن على خوارزم شاه ويذكرن
ما سمح به الله واجراه وينعينَ ما كنّ فيه من النعم وما
صرن اليه من الهوان والنقم وليدمن على هذه الطريقه حتى
يقطعنَ من سفرهنّ طريقه ويصلن بجنكزخان على ذلك
الامتهان والذلّ والهوان فيرى فيهنّ رايه من نكال ونكايه
ورحمة وعنايه فامتثلنَ ما أمروهنّ به فكنّ ينبّهنَ النيّام
ويبكينَ المنتبه واستمررنَ على هذه الحال في الخزي والاذلال
والمشقّة والابتذال بعد ذلك الصون والدلال يصدعنَ بنحيبهنّ
الجبال ويتفطّرن بالنظر اليهنّ اكباد الصخور والتلال . ثمّ انّ
تولي لمّا اخذ طالقان واهلك اهلها بسيف الطغيان ولم يدعْ
فيها مَن يتنفّس وهدم الى الارض بنيانها المؤسّس توجّه الى

جانب من بلاد العجم واهلك ما شآء الله من خلائق وامم فصار في أحدٍ الجوانب يعيث وكلّ من سنتاي الخبيث وبما الكافر العثيث في جانب يبيد المسلمين ولا مغيث فدكّوا قزوين وهمدان وصكوا ايران وبيلقان واغاروا على ممالك اذربيجان وبلغهم انّ السلطان جلال الدين لهُ في سجاس جماعةٌ مجتمعين مقدّمهم السلاحدار بكتكين وفيهم من الاعيان كوجبوغاخان فتوجّه اليهم بما فبدّد شمل اولئك الزعما وابادهم وفرّقهم وشتّتهم ومزّقهم . ثمّ اغاروا على غالب عراق العجم فاوسقوا النفار بالضرم واوسعوا البحار بامطار الدم وملأوا الوجود بالعدم . ثمّ قصدوا اردبيل وجعلوا اهلها ما بين اسير وقتيل وكانوا في اوّل المرور قد صالحوا اهل نيسابور وانتقلوا الى مرو منها وراودوا اهلها عنها فاغلقوا ابوابهم واقلقوا جوابهم فحطموا عليها ودخلوا اليها وحكّموا في اهلها السيوف وكان شهر الصيام ففطّروهم على كاسات الحتوف فضبطوا مَن امكن ضبطهُ من القتلى فكان الف الف نسمة وثلثماية الف وثلاثين الفًا مكرمة وكلّ هذه الفتنة والفترة في سنة ثمان عشرة عامت الدنيا في الدمآء عوما وكانت مدّة نحو تسعين يوما * ثمّ توجّهوا الى شروان وافاضوا من بحار الدمآء الطوفان ودخلوا من الباب الحديد واتّصلوا من الدست بذلك الشيطان المريد فتيقّظ الناس من الفكرة وافاقوا ممّا كانوا فيهِ من السكرة وتصوّروا انّها سحابة

صيف انقضت او نسمة ازمنة هبّت بارقة او مضت ولكن احتاطوا او استعدّوا وتحفّظوا او استمدّوا وحصّنوا الحصون والمعاقل وجمعوا الجنود والجحافل فلم يكن باسرع من ايابهم وتعاطي ما كانوا عليهِ من دأبهم والشروع في اعمال حرابهم بخرابهم واخذهم في ضروب ضربهم وضرابهم واستقرّ تولي في ممالك العجم وهو ابو هولاكو الكافر الاغتم فوصلوا الى شيراز وقد استعدّت للحصار واستمدّت للمناوشة والنقار فاخذوها عنوةً وزحفا وقتلوا منها ممّا امكن ضبطهُ سبعين الفًا * ثمّ توجّهوا الى طوس فازهقوا ما بها من نفوس . ثمّ الى سائر القلاع بالحضيض واليفاع فاستولوا على الكلّ قهرا واخذوهُ عنوةً وقسرا وسعوا في احلالِ البوس وازهاق النفوس . ثمّ الى موقان ولم يبقوا بها احدًا كائنا مَن كان وعمّ القتل المبير كلّ صغيرٍ وكبير * ثمّ حلّ اولئك البور بيلدة نيسابور فكافحت بعدما كانت صالحت وتحصّنت بعد ان اذعنت واعتمدت على عُدَدها واستندت الى عددها وبرجالها استعانت بعد أن كانت قد دانت ولانت واستكانت وكان فيها من آلات الحرب ورجال الطعن والضرب ما لا يُحصى ولا يبلغهُ الاستقصا . فكان فيها من المجانق المرسلات الصواعق على اسوار الحصار ثلثماية منجنيق اصغرها كالغضبان في المقدار خارجًا عن المكاحل والمدافع المهلكات بالصواعق الصواقع

ومن رماة القوس القصير من كبيرٍ وصغير ثلاثة آلاف بطل كلّ ارمى من بني ثعلٍ وامّا عدد الضارب والنابل والقاتل والمقاتل والرامح والناطح والصارع والقارع والحاذف والجارف والخاطف والقاطف والناهب والسالب ما الضابطون فيهِ تاهوا وما يعلم جنود ربّك الّا هو . فوجّه التتار الهمّة اليها واخنوا كالقضآء المبرم عليها وحمى الوطيس وخاطر بنفسهِ كلّ خسيس وبذل مهجتهُ من الغزاة كلّ نفيس فقتل من اهل العدوان طغاجارخان زوج ابنة جنكزخان وكان من عتاة الكفّار المعتبرين بين التتار فحنق العدوّ لذلك وسدّدوا المسالك وسمع بذلك تولي الكافر المغولي وكان في بعض الجوانب مشغولًا بالدواهي والمصائب ففار دم قلبهِ وتأجّجت نيران كربهِ وتأسّف لفقد ختنهِ وثار غبار احنهِ فتوجّهَ من فورهِ بحنقهِ وجورهِ ونزل على نيسابور وحلّ بالبوار على اولئك البور وزحف بالعساكر وتقدّم بالطعن والضرب كلّ كافر فلم تمضي غلوة حتّى اخذوها عنوة ودخلها مَن كفر من التتر يوم السبت خامس عشر صفر سنة تسع عشره وستّماية من الهجره واعطى تولي لاختهِ ذلك عوضًا عن زوجها الهالك وقال لها تسلّي عن ذلك المفقود بهذا الموجود وتحكّمي في اهل البلد بما ترتضيهِ من سرور ونكد وتصرّفي في الاموال والارواح فمهما تريهِ فهو لكِ مباح فأمرت

ان لا يبقى على ذي روح وان تجري السيول من الدم المسفوح فاطلقوا في ميادين الحتوف اعنة صوارم السيوف فجدّت جباه الجياد وجادت بجود الجدّ على اجياد الاجواد وصارت كألسن الشعرآء النقاد تهيم من النظم والنثر من كلّ واد فمحوا عن لوح الوجود بلسان شواظّ السيف ذات الوقود سطور ذوات ذلك السواد الاعظم وكتاب كتايب تلك الخلايق والامم وزادوا في الاشتطاط حتى قتلوا الكلاب والقطاط . ثمّ أمرت ان تجمع رؤوس اولئك الجمهور ويُميّز رؤوس الاناث من الذكور فميّزوا رؤوس الرجال عن قمم ربات الحجال وطرحوا كلّ كاشية في ناحية فصارت الرؤوس كرواسي الجبال وتلك الدور والقصور كالاعصر الخوال ولم يخلص من قطع الارؤس سوى اربعة أنفس كانوا من ذوي الحرف فجذبتهم المهارة من سفح بحر الفنآء الى الطرف . ثمّ ركبت تلك البسوس ووقفت على تلال الرؤوس فلم تنطفئ نارها ولا برد أوارها وزعمت انّها لم تستوفِ ثارها وانّ دود ترابها من علق تلك الامم ما تكفّت وغيظة غيضها بزوائر السيوف ما تشفّت واستغاثت بالرجال وصاحت بلسان الحال فأمرت بهدم البلد واحراق ما فيها من آلات وعدد فدكّوها دكّا واعدموها سبكًا وسفكا وتصرّفت ايدي النوائب فيها فتكًا وبتكا . ثمّ انّ تولي لوى العنان وقصد هراة من خراسان فاخذها بالامان ولم ينجُ من ذلك الطوفان سوى

تلك الكورة واستمرّت تحت أوامرهم مقهورة واتهات بلاد
خراسان ومقرّ سرير السلطان كانت اربعة امصار كلّ
ذات اعتبار جليلة المقدار نيسابور وقد صارت بور وبلخ
قد كُسيت من البوار ثوب بسلخ ومرو الرود وقد انمحت من الوجود
ولم يفز بالنجاة الّا بلدة هراة وسائر الامصار شملها البوار
ولبست من خلع الدثور الدثار وكلّ منها مصر جامع وبرّها
بحرٌ واسع وبحرها كصدر البرّ مداهُ شاسع . واما القرى
والقصبات والرساتيق والمزدرعات فاكثر من ان تُحصر او
تُضبط بحساب دفتر فابيد ذلك كلّهُ وابير فالحكم لله العليّ
الكبير كلّ ذلك في أدنى مدّة واوهى رقة وما ذكر ذرّةً من
طور وقطرةً من بحور فسبحانَ مَن لا يسأل عمّا يُفعل * ثمّ
انّ جنكزخان الهامة الهامية والفتنة الطامة الطامية لمّا علق
بهِ المرض وحصل لهُ في خراسان العرض رجع الى بلادهِ
واستمرّ مرضهُ في ازديادهِ ولم يزل على ذلك حتّى اورد سبيل
المهالك وتسلّم روحهُ الخبيثة مالك وحين ايس من الحياه
وقنط من رحمة الله جمع المعتمد عليهِ من اولادهِ المشاركين لهُ
في عتوّهِ وفسادهِ وهم جغتاي واوكتاي واوليغ نوين وجرجاي
وكاكان واورجان واوصاهم بوصايا وطرائق في سياسة الرعايا
حافظوا عليها وتناهضوا اليها فثبت لهم من ملكهم اساسًا
لم ينهدم واقام بنيانًا الى يومنا لم ينخرم وعروش قواعد اركانها

لم تنثلم مع كثرة عددهم ووفرة مددهم وشكاستهم وشراستهم
وشماستهم وتعاستهم وغلاظتهم وفظاظتهم واختلاف
اديانهم واتّساع بلدانهم وهلك الطاغية جنكزخان وانتقل الى
الدار الاسفل من النيران واستقرّ في لعنة الله وعقابهِ واليم رجزهِ
وعذابهِ في رابع شهر رمضان الشامل بالفضل والاحسان
والبركة النامية الهامية سنة اربع وعشرين وستماية في سرة
ملكهِ المشوم وأعظم امصارهِ ايميل وقوقان وقراقروم . واستمرّت بحار
الفتن منهم تؤثّر عنهم وموجها يمور الى أن نبغ الاعرج تيمور فاهلك
الحرث والنسل واختلط البياح بالبسل وحلّ بالعالم الباس
وفسدت أحوال الناس وانما ذلك كلّهُ بفساد الرأس . ومن جملة
فتنهم وطعنهم في ظعنهم جالوا في معركة وصالوا في دست بركة
فقتلوا في مثل حرب البسوس وقطعوا في ناحية من الروس جملةً
أرادوا ضبط عددها بعد أن أبانوها عن جسدها فلم يقدروا أن
يحصروها فرسم لتلك البغاة سلطانها ان يقطع من الروس آذانها
يقطعون من كلّ رأس اذنا ولتكن الآذان اليمنى فجدّعوا آذان
بعض الروس وشكّوها في خيوطٍ سلكوها ثمّ في قلابد ربطوها
وبعد ذلك ظبطوها فكانت نحو مايتي ألف أذن مجدودة وسبعين
ألف اذن معدودة * وانّما ذكرتُ يا ملك الطير امثال ما جرى
من الشرّ والخير وجلوتُ عن مرآة ضميرك المنير صورة ما مرّ
في الزمان المبير لتعلم ما في هذه السير من الحكم والعبر وانّ

الدنيا محلّ الغير ومحكّ العقول والفكر والحالّ بها هدفٌ لسهام النوائب وكثرة المصائب مبتلًى بكلّ خيرٍ وشرّ ونفعٍ وضرّ غافل عن مواقع الحذر آمنٌ وهو على شرف الخطر مقيمٌ وقد جدّ به السفر منافشٌ بما مضى من انفاسه ممّا حلا ومرّ ومحاسبٌ على ذرّات ما اكتسبه مطالبٌ بالفتيل والقطمير ممّا ارتكبه * فلمّا وصل المحجل في الكلام الى هذا المقام قبّل العقاب بين عينيه وزاد قربهُ لديهِ وأفاض خلع الانعام عليهِ وقال: نطق بالحقّ مَن قال: لا تنظر الى مَن قال وانظر الى ما قال. فاهل التحقيق ذوو النظر الدقيق راقبوا المعاني ولم ينظروا الى القوالب والمباني ولقد ينطق بالفوائد مَن هو كافرٌ وجاحد فيؤخذ من أقوالهِ ولا يُقتدى بافعالهِ. ثمّ أنّ العقاب ولّى المحجل ما تحت يدهِ من رقاب قدّمهُ على سائر الخدم وصنوف الطير وأجناسه من الامم وجعلهُ الدستور الاعظم والوزير المقدّم المكرّم *

وفي هذا المقام امسك الحكيم حسيب عن الكلام وختم ما افتتحهُ من الحكم والاحكام بالدعاء والثناء التامّ للخاصّ والعامّ * قال الشيخ أبو المحاسن المخجل بادبهِ امرأ القيس وابا فراس: فلمّا انتهى الحكيم في مقترحهِ وما قصدهُ من بيان محاسنه وملحهِ الى هذا المحلّ وفصل من فضلهِ ما أجمل من جمل نهض الوزير وقبّل قدميهِ واعترف لهُ بالفضل المنعم به عليهِ وانّهُ مالك ازمّة الانشاء وملك الكلام يصرفهُ كيف شاء

وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء وكما انّهُ شيخ المنقول واستاذ المعقول فمن أنوار الفاظهِ تنير العقول ومن كنوز عباراتهِ تُستخرج جواهر المعقول * وامّا اخوهُ الملك فطار بسروره بهِ عن سريرهِ واتّخذهُ في مهامّ أُمورهِ مقام أميرهِ. ثمّ أدّت آراءَ فكرتهِ أن يستعمل أخاهُ لكشف كُربتهِ ويمشي في السعي بينهُ وبين اخوتهِ لرتق ما انفتق وسدّ ما خرقهُ سيل الحسد فانبتق فامتثل أمرهُ العالي ونهض بامر الله المتعالي وانفق من جواهر افكارهِ في سوق المناصحة الرخيص والغالي ورصّع ما استخرجهُ من يواقيت تلك من عباراتهِ بما يستعبد عقود اللآلي وتعاطى اسباب الاصلاح وساعدهُ لحسن النيّة وخلوص الطويّة السعد والنجاح *

* شعر *

وهذّب في الفضل ما رتّبهُ * ورتّب بالفضل ما هذّبهُ
واعجب ذا اللبّ ما شادهُ * فاثنى عليهِ بما اعجبهُ
واغرب في السبق اشراقهُ * فللّه ذا السعد ما اغربهُ
فما شذّ بالصدق عن نصحهِ * ولا شذّ خلٌّ لما شذّبهُ

فاستمال الخواطر النافرة واطفأ بزلال الفاظهِ العذبة شواظّ تلك النائرة وسكّن بنسيم ملاطفاتهِ قتام الاخلاق الثائرة فاطمأنّت القلوب وطهرت من غشّ التشاحن الجيوب واتّصل بالمحبّ المحبوب وحصل الامن والامان ومساعدة الزمان ومعاضدة الاخوان ومصافاة الخلّان وطيب العيش والمكان ونسأل الله

تعالى اتمام نعمه واسبال ذيل احسانه وكرمه والمعاملة باحسانه الجزيل وحسبنا الله ونعم الوكيل *



تم الكتاب

بعون الملك الوهاب







فهرس الكتاب



تصليح الغلط

وجه	سطر	غلط	صواب	وجه	سطر	غلط	صواب
٢١	١٣	اعضآء	اعضاد	٣٣٣	١٥	جري	جرى
٥٣	١٨	مخلات	مخـــلاة	٣٣٦	٣	طفر	ظفر
٥٣	١٨	المخلات	المخلاة	٣٥٥	٣	والضرافة	والظرافة
٧٣	١٩		انّهُ	٣٦١	١	طرورة	ضرورة
١٤٥	٨	جَلِنا	حلِنا	٣٦٨	٨	ولا ولا	ولا
١٥٨	٣	عارصني	عارضني	٣٦٨	١٨	لتبطيعهِ	لتبضيعهِ
١٦٠	٦	بعلّ	يحلّ	٣٧٠	١١	وبينا	وبينما
١٦٨	١٨	المرسَل	المرسِل	٣٧٦	١٩	يالاحسان	بالاحسان
١٦٨	١٩	مؤاداها	مؤدّاها	٣٨٦	٥	للناضرين	للناظرين
١٧١	٢٠	الحقيقيقة	الحقيقة	٣٨٧	١٣	نضامهِ	نظامهِ
١٧٧	٢	حيقيقة	حقيقة	٣٨٨	١	غرير	غزير
١٨١	١	وحل	وحلّ	٣٩٠	١٢	عرص	عرض
١٨٤	١١	علين	علّيين	٣٩٣	١٧	وجاورنا	وحاورنا
١٨٤	١١	عليون	علّيون	٣٩٤	١٧		حيًّا
١٩٦	٢	قوة	قهوة	٣٩٦	٧	ما	ماذا
٢٠١	١٤	يرجثون	يرجون	٤٠٠	١	والحساب	والسحاب
٢١٥	٥	القظايا	القضايا	٤٠٠	١٦	فاذا	فا
٢٣٩	٣	يالهِ	بالهِ	٤٠٣	٧	وراي	ورای
٢٥٥	١٦	واقي	واتي	٤٠٤	٢	حرق	خرق
٢٦١	٢٠		يقوم	٤٠٧	١٣		اوضح
٢٧٣	١	ايّ	اي	٤٠٩	٦	فرافقهُ	فراقهُ
٣١٧	١٨	الكشير	الكثير	٤٠٩	٦	وشامهُ	وشاقـــهُ
٣١٨	١٩	شفقهِ	شغفهِ	٤٠٩	٧	السكن	السكنى
٣٢٤	١٣	ابتداوَهُ	ابتدآءهُ	٤٠٩	١٨	سبج	ويسبح



وجه	سطر	غلط	صواب
٤١١	١	الخبيث	بخبيث
٤١٣	٢١	حفتُ	خفتُ
٤١٨	٢	وتصفّق	تصفّق
٤١٨	٧	ومتخبّطٍ	ومتخبّطٍ
٤٢٦	١٨	المكان	كالامكان
٤٢٨	١٩	ويناجرها	ويناجزها
٤٢٩	٥		على
٤٣٠	٢	حنقا	خنقا
٤٣١	١٩		وذاتهِ
٤٣٣	١	تفعل	تغفل
٤٣٣	٣	من	عن
٤٣٦	١٠	وغلقهِ الثمري	وخلقهِ الخمري
٤٣٩	٩		لهُ
٤٤٥	٧	وعظُم	عظُم
٤٤٧	٥	السامع	المسامع
٤٥٣	٧		وينزع الملك ممن
٤٥٨	٥	وعيثُ	وعيثَ
٤٦٠	١٠	الغضب	الغضب

وجه	سطر	غلط	صواب
٤٦٠	١٣	جدا	جدًّا
٤٦٠	١٦	فسكن	فسكّن
٤٦٢	١	يستكنف	يستنكف
٤٦٦	١٨	المملوك	الملوك
٤٦٧	١٣	واطها	واظهار
٤٧١	٢	اوتارُه	اوتادُه
٤٧١	١٣	اتيا	واتيا
٤٧٤	١٠	اعزارهِ	اعزازهِ
٦٧٨	١٤	ومَن استخفها	ومن استخفها
٤٧٩	١٠		مثل
٤٨١	١٧	اعضاء مالها	اعضاءً لها
٤٨٣	١٦	وتجوّل	وتحوّل
٤٨٣	١٧	وتحسن	وتحسن
٤٨٨	٦	العزم	الغرم
٤٩٠	٦	بديك	يديك
٥٠٠	٩	فباشرت	فباشروا
٥٠٠	١٣	يفتكرون	يفتكون
٥٠٠	١٧	المدية	المدينة

